[illegible]

كتاب الأخبار السنية

في

الحروب الصليبية

لسيد علي الحريري

(الطبعة الاولى بالمطبعة العمومية بمصر سنه ١٣١٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . الذي جعل تاريخ الاوائل عبرة للآخرين . ومرآة لكل عاقل فطين . أحمده على ما اسبغ من الانعام والافضال . ومنّ به من الاحسان والنوال . واصلي على رسوله ونبيه . وخيرته من خلقه وصفيه . سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ . والفضل الشامخ . والعلم الراسخ . صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين . وعلى الانبياء والمرسلين . ما طلع كوكب وبزغ هلال . وعلى آله وصحبه وعترته أجمعين . صلاة وسلاماً دائمين متلازمين الى يوم الدين . أما بعد فانه لايخفى على كل انسان أهمية الحروب الصليبية التي جرت في الاجيال الغابرة . وتحريضات البابوات والاكليروس أهل أوروبا بمحاربة المسلمين وما جرى للصليبيين من اغتصاب بلاد الشام بحجة تخليص القدس من ايدي الاسلام وما أعقب ذلك من اتحاد المسلمين واستخلاص البلاد من الصليبيين وما جرى لاولئك الصليبيين من المصائب والهلاك والفشل والارتباك

وحيث ان ملوك أوروبا الآن حصل منهم تعصب على دولتنا العلية حرسها الله بما يشابه ما فعلوه اولئك الغابرون حتى قال سلطاننا الاعظم وخاقاننا الافخم المحفوظ بالسبع المثاني (عبد الحميد الثاني) ان أوروبا تحاربنا الآن حرباً صليبياً تحت شكل سياسي

وحيث انا معشر قراء اللغة العربية لم يوجد لدينا كتاب يحتوي على الحروب الصليبية لمعرفة حقيقتها بل انا نجد البعض منها موجوداً في كتب التواريخ خالياً عن معرفة أسبابها والمحرضين عليها وكيفية نتائجها ولذلك باشرت تأليف هذا الكتاب وسميته (الاخبار السنية في الحروب الصليبية) وقد عنيت في ضبط هذا الكتاب المشتمل على الثمانية حروب صليبية مبيناً كل حرب منها على حدته موضحاً أسبابها والمحرضين عليها وسفر عساكرها وما فعله الصليبيون من المحاربات مع الملوك المسلمين وقد أوضحت ايضاً تواريخ ملوك الاسلام المعاصرين لهذه الحروب الذين لهم شأن مع

الصليبيين من ابتداء سنة ٤٩٠ هجريه التي فيها دخل الصليبيون سوريا لغاية سنة ٦٩٠ هجريه التي انقرض فيها الصليبيون من سوريا باسلوب بسيط خالياً من التعقيد والتطويل الممل

غير اني وان كنت لست من رجال هذا الفن ولكن طمعي في فضل حضرات أساتذته هو الذي شجعني على تقديم كتابي هذا بين أيديهم ليكون مشمولاً بنظرهم السامي واقتبالهم تأليفي هذا بصدر رحب ونظرهم اليه بعين الرضا اذ العصمة للنبي وحده معترفاً امامهم باني جمعته من جملة كتب مطولة مثل تاريخ مصر الحديث وابن الاثير وابي الفدا والروضتين وتاريخ الحروب المقدسة الذي عربه مكسيموس مظلوم وتاريخ سوريا وغيره . ولكني أرغب الى من يعثر لي على خطاء ان ينبهني اليه فاشكر سعيه وأثني عليه . أو يعذرني فان أعقل الناس أعذرهم للناس ولا أقول ان كل خطاء سهو جرى به القلم بل اعترف ان ما أجهل أكثر مما أعلم وما تمام العلم الا لله وحده الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم

واني اتضرع الى الله فاطر السموات والارض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القوة الابدية والنصر السرمدي ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر في سؤدد ورفعة وأن يحفظ لنا حامي حماها جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازي (عبد الحميد الثاني) وان يحفظ لمصر في ظل جلالته عزيزها المحبوب وأميرها المعظم سمو الخديوي (عباس حلمي باشا الثاني) وولي عهده المكرم محمد عبد المنعم ان ربي سميع مجيب

تحريراً بمصر القاهرة في شهر ربيع الاول سنة ١٣١٧ وشهر يوليه سنة ١٨٩٩

كاتبه

سيد على الحريري



أسباب الحروب الصليبيه

كان رجل فقير يسمى بطرس من أهالي بيكارديه احدى مقاطعات مملكة فرانسا قد انقطع للتعبد ولبس ثوبا رهبانياً من الصوف الخشن وأقام بمغارة يتعبد فيها ثم تركها وتوجه مع جماعة بقصد زيارة بيت المقدس فلما وصلوا الى المدينة المقدسة ووجدوها في حكم المسلمين صار بطرس يبكي وينتحب ثم تقابل مع البطريرك سمعان وتحادثا ملياً فاخبره البطريرك عن كيفية استيلاء المسلمين على بيت المقدس الذي هو قبر المسيح وان الحكام منهم طالما ظلموا قومه ثم تعانقا وهما يبكيان ووعد بطرس السائح البطريرك بأنه سيعمل جهده في حمل أهل أوروبا لتخليص بيت المقدس من المسلمين

ثم غادر بيت المقدس راجعاً الى روميه وهناك طلب مقابلة البابا أوربانس الثاني ولما مثل بين يديه وأخبره بما قاله بطريرك القدس وعده بالمساعدة التامة آمراً اياه بالتوجه الى جميع بلاد أوروبا لاجل تحريض الاهالي على ذلك وخرج هذا الرجل من لدن البابا وأخذ يجول في بلاد فرانسا وبعض ممالك أوروبا راكباً على بغل قابضاً بيديه على الصليب مناديا بحرب الصليب في الطرقات والازقة والكنائس والاديره مناديا بان مسيحيي الشرق يقاسون العذاب الوانا تحت حكم المسلمين مزكياً أقواله بوصفه جبل صهيون ومكان الجلجلة وبستان الزيتون وقد كان أحياناً يستصحب بعض مسيحيي الشرق الذين كان يقابلهم ببلاد أوروبا

وكانت الناس تتقاطر اليه مزدحمين حوله مقبلين ارديته فارشين الإعشاب في الارض ليمر عليها متخاطفين أجزاء وشاح بغله بمنزلة ذخائر لهم ملقبيه بقديس ونبي باكين معه على شقاء أورشليم (بيت المقدس) متعهدين بصرف موجوداتهم وخيراتهم وحياتهم لاجل انقاذها من الاسر والهوان

وفي أثناء ذلك أرسل ملك القسطنطينية المدعو اليكسيوس كومنينوس وفداً الى البابا اوربانس الثاني يطلب منه الاغاثة لان الاتراك أغاروا على بلاده وكان قد ارسل وفوداً الى ملوك اوربا بخصوص ذلك أيضاً طالباً منهم المبادرة لحمايته مقرراً لهم في نظير ذلك جميع ما بخزائن مدينته

﴿ مؤتمر مدينة بلاصانس بايطاليا ﴾

ولما تحقق جناب البابا من استمرار دعوة بطرس السائح أمر بانعقاد مؤتمر بمدينة بلاصانس حيث اجتمع مئتا اسقف مع رؤساء أساقفة وأربعة آلاف اكليريكي وثلاثون الفاً من العلمانيين وهذا المؤتمر انعقدت جلساته في البريه في مكان سهل واسع بالقرب من المدينة وكانت أعين الشعوب متجهة الى وفد الملك اليكسيوس متعجبين للابسهم الفاخرة الشرقية وصاغين الى أصواتهم الملتمسه المعونة من ملوك المغرب بان يوجهوا قوة أسلحتهم لمعاضدة القسطنطينية ولانقاذ بيت المقدس وشرع البابا بتحريض الجميع باتحاد قواهم واتفاق عزائمهم نحو هذه القضية المقدسة فقبلوا جميعاً الاوامر واعدين بانهم بعد أيام قليله يجتمعون تحت بيارق الصليب لذهابهم الى بلاد فلسطين للحرب المقدسة باتفاق عام بينهم

ثم لم تمض أيام قليله على هذا المؤتمر حتى سكن ثائرهم لانه اعتراهم الخوف من ترك بلادهم وأوطانهم والذهاب الى بلاد وأقاليم مجهولة عندهم وهكذا لم تحصل ثمرة من المؤتمر لانه لم يتقرر فيه تحديد كيفية محاربة المسلمين ولإن البابا لم يبق في استطاعته تحريض وحث الشعوب التي حوله لانقسام أهالي بلاد النمسا وقام فريق منهم ضد الكرسي الرسولي . وأهالي الاقاليم الشمالية كانوا منشغلين باهتمام في صد البربر عنهم وكانوا قليلي الميل الى هذه الحروب ومملكة اسبانيا كانت تحت حكم المسلمين . وبلاد الانكليز كانت وقتئذ ضعيفة محتاجة لحماية بلادها التي فتحها ملكها غوليالموس بعساكره الموجودة في ولايته ولذلك لم يجد البابا أمامه غير بلاد فرانسا

﴿ مؤتمر مدينة كليرمون بفرانسا ﴾

فاجتاز البابا بلاد ايطاليا ودخل مملكة فرانسا وعقد مؤتمراً في مدينة كليرمون في شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ فتقاطرت اليه جميع الشعوب من أمراء ورؤساء كنائس ووفود ملوك وغيرهم حتى امتلأت المدن والقرى حول تلك المدينة بوفود الشعوب وكانت الخيام والمضارب منصوبة في الحقول لمأوى الكثيرين منهم وكان ذلك في فصل الشتاء

والبرد شديد الزمهرير وفي الجلسة العاشرة من هذا المؤتمر اجتمعوا في قصر المدينة وكان بطرس السايح جالساً بجانب البابا وهو الذي فتح الخطاب معدداً الشدائد التي يعانيها أهالي بيت المقدس قائلا انه شاهد هناك المسيحيين مقيدين بالسلاسل الحديدية وانه نظر قبر المسيح محتقراً مهاناً وان زواره يتكبدون الذل ثم قام البابا وخطب قائلا (أيها المسيحيون ان تلك الارض المقدسة بحضور شخص المخلص فيها وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا وذاك الجبل الذي عليه تألم ومات من أجلنا وذلك الضريح الذي تنازل لأن يدفن فيه ضحية للموت كلها أضحت ميراثاً لشعب غريب وغاب كل بهاءها الاصلي وهيا كلها قد خربت وأشعة نورها الساطعة تحولت الى ظلام حالك وهي تستحق الندب الشديد والبكاء . ولم يعد لله من معبد داخل المدينة المقدسة الخصوصية والمشرق الذي هو المهد والينبوع المقدس لايماننا لم يعد مشهداً الا لافتخارات أعمال المسلمين وجهات أسيا الاكثر ثروة وغناء قد التحقت بالظلام الى الكره والفقر المهين . وانطاكيه وافسس ونيقيه قد صارت مدن الاسماعيليين والاتراك قد مدوا ولايتهم الى حدود هاليبوتوس لابل الى أبواب القسطنطينية . ومن هناك ذراع هؤلاء الشعوب الشديد يتهدد بان يستولى على كل ممالك الغرب)

ثم ان البابا وجه خطابه الى الحاضرين من وفود الطوائف قائلا لهم هل ان مشهداً مثل هذا يترك قلوبهم بارده وغير حساسه . ثم وجه خطابه الى أهل فرانسا قائلا أيتها الطائفــة الفرنساوية العزيزة لدى الله . ان كنيسة المسيحيين قد وضعت رجاها مسنداً على شجاعتكم فانا الذي أعرف جيداً تقواكم وكفائتكم بالشجاعة والغيرة . وقد اجتزت الجبال الالبية وحضرت لكي انذر بكلام الله في وسط بلادكم . وهكذا أخذ يحثهم مذكراً اياهم بشجاعتهم القديمة وما أتم كلامه حتى وضع ضباط العساكر أيديهم على سيوفهم وأقسموا بان يبادروا الى انقاذ المسيحيين

فلما تأكد البابا من نجاح مرغوبه اردف خطابه بقوله . لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الاسلام تلك الاسلحة التي اتخذتموها حتى الآن ضد بعضكم لأخذ الثار لانفسكم من أبناء جنسكم عن بعض اهانات فالحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست هي لاخذ الثار عن الاهانات ضد البشر بل عن الاهانات الصادرة ضد الله . وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي أقاليم أسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لاتحصى فاتخذوا محجة القبر المقدس . وخلصوا الاراضي المقدسة من أيادي المختلسين وأنتم أملكوها لذواتكم فهذه الارض كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلا الخ . ثم قال

يا أيها الشجعان اذهبوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسيه واكتسبوا بها لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الابديه · فاذاً أنتم انتصرتم على أعدائكم فالملك الشرقي يكون لكم قسماً وميراثاً · وأما اذا قتلتم فلكم المجد لأنكم تموتون في المكان الذي فيه مات يسوع المسيح · وهكذا صار يخطب ويحث

ثم اخرج علامة الفدا المقدسة (صليب الخلاص) وقال احملوه على عواتقكم أو على صدوركم وليشرف فوق أسلحتكم وفي رؤوس سناجقكم (أي اعلامكم) ثم قام الكردينال غريغوريوس تالياً بصوت عال صورة اعتراف عام وعند نهايتها مد الباباً يديه ومنح الجميع البركة

ثم قام ادهمار دي مونتيل اسقف مدينة بوي وطلب الى البابا الاذن له بان يكون أول من يجاهد في سبيل الله ثم استلم من يد البابا سنجق الصليب فاتبعه عدد عظيم من رؤساء الكنائس ومن القواد المختلفي الرتب متحالفين على المحاربة وكذلك الامراء استلموا من البابا سنجق صليب آخر ثم ان جميع الذين كانوا حاضرين في هذا المجمع علقوا على صدورهم صلباناً حمراء واتخذوا لنفسهم اسم (صليبيين) كما انهم لقبوا الحرب التي شرعوا فيها (حرب الصليب المقدس) وأظهر البابا اغتمامه من عدم مسيره بشخصه أمامهم وقال انه اناب عنه اسقف بوي المتقدم ذكره

وقرر المجمع أيضاً عدة امتيازات للصليبيين كاعفائهم من دفع العوايد وغيره وقرر اشهار الحرب على بلاد فلسطين · ولما عاد الاساقفة الى ابرشياتهم اجتهدوا في صنع سناجق الصلبان وكانوا يقدمونها الى جماهير المسافرين الى هذه الحرب

واخذ البابا أوربانس ينتقل في بعض أقاليم فرانسا وعقد الجمعيات في مدن روان وطورس ونسياس باذلاً عنايته في نجاح هذه الحروب وامتدت هذه الدعوة الى البلاد الاوروباوية الاخرى فاخذ الناس يرسلون أولادهم مع العساكر من الانكليز والنمسا وايطاليا واسبانيا ·

ومما ساعد على ذلك أيضاً انه حصل قحط ببلاد أوروبا عدة سنوات مترادفه نتج عنه فيها مجاعة عظيمه وكثرت اللصوص وصارت مدنهم وقراهم لا تحتملهم فلذلك بادروا نحو أراضي المشرق المخصبه التي يشير اليها الكتاب المقدس بقوله تدر لبناً وعسلاً وخصوصاً لأنهم سمعوا عن كثرة غناء بلاد أسيا وخزائنها فاضحت بلادهم أمامهم كأنها منفى وصار المشرق أمامهم كأنه وطن وكان للرؤساء يومئذ غايات فدعوا الناس الى الغزو فبادروا اليه جاهلين ما وراء ذلك واجتمعوا ليسيروا نعاجاً الى الذبح في بلاد غريبه

﴿ الحروب الصليبية الاولى ﴾

كان المجمع المنعقد في مدينة كليرمون قد ضرب ميعاداً لسفر العساكر الصليبية الى الحرب عيد السيده في ١٥ اغسطس سنة ١٠٩٦ وعند حلول شهر مارس أخذوا باعداد العدد ونصب الخيام وتجهيز الخيول والبغال والاسلحة والسناجق فتألفوا كتائب وجيوشاً وساروا على غير ترتيب ولا نظام وكان فيهم من يحمل المزاريق ومنهم من يحمل الحراب وكثيرون عزل بلا سلاح وأكثرهم مشاة ومعهم عائلتهم من نساء وأولاد وكانوا بلا قائد يسير أمامهم لان الامراء والرؤساء الذين كانوا يلزمهم ان يقودوهم أعطوهم ميعاداً للمقابلة في القسطنطينية فسارت الجيوش وأمامها قائدها بطرس السائح راكباً بغلته ثم انه قسم جيشه الى قسمين أحدهما سار بقيادته والثاني عين عليه أحد ضباط فرنسا المسمى ولتر أو (غوتيار)

وسار قسم غوتيار مجتازاً بلاد فرنسا ثم بلاد المانيا ليأتي هنكاريا طريقاً للقسطنطينية عاصمة الروم فلما توسطوا بلغاريا قل زادهم فطفقوا يعيثون في البلاد ينهبون ويسلبون وهم في أمن مما يحذرون حتى بلغوا بلغراد العاصمة فهاجموها ولكن الاهلين نشطوا لمقاتلتهم وقتلوا منهم كثيرين وبددوهم وكان ما فعلوه في أهل بلغاريا شاهد عدل على ان مقصدهم بمحاربة الاسلام ليس الا النهب والسلب وان كان ظاهره لغايات دينية يأبى التقي أن يعترف بها ثم ان ولتر المذكور جمع باقي جيشه وخرج من بلغاريا الى القسطنطينية التي بلغوها بعد شهرين بعد ما قاسوا اتعاباً ومشقات وهناك الملك اليكسيوس أقامهم عنده لحين حضور الآخرين

وسار الجيش الذي بقيادة بطرس السائح ولما وصل الى حدود هنكاريا بلغه ما جرى للقائد غوتيار فحزن لذلك وعزم على الانتقام فهجم على مدينة ساملين وقتل أربعة آلاف من أهاليها . ولما بلغ خبر هذه المقتلة اهل هنكاريا استمدوا لقتاله بقيادة ملكهم لولومان . وعند وصول جيش بطرس اليهم هجموا على هذا الجيش الصليبي وبددوه وقتلوا أكثره ولجأ بطرس الى الفرار هو ومن نجا من القتل ودخلوا بلاد بلغاريا وهناك عند مدينة ينصا هجم عليهم البلغاريون وشتتوهم وهكذا ساروا هاربين الى مدينة القسطنطينية

ثم انه سار أيضاً جيش صليبي آخر من بلاد النمسا تحت قيادة غوشالك الكاهن بالاطنيات يتبع بطرس السائح وأخذوا يعتدون على الاهالي في مسيرهم فعوقبوا بمثل ما عوقب به الذين تقدموهم

ثم سار أيضاً جيش صليبي رابع من بلاد ريزوموسيل تحت رياسة الكونت اميلوك وهذا الجيش لم يبرح وطنه الا بعد ان قتل بجميع اليهود ظلماً وعمل أعمالا فاحشة لا تحتملها الانسانية التي يدعون بزحفهم لنجدتها ولما وصل الى هنكاريا هجم عليهم الهنكاريون وقتلوا معظمهم وهرب الباقي الى القسطنطينية.

﴿ دخول الصليبيين اسيا وهلاك هذه الجيوش في نيقيه ﴾

لما وصلت بقايا جميع الجيوش المذكورة الى مدينة القسطنطينية اجتمعت لدى الملك اليكسيوس كومنينوس وكان عددهم مائة الف محارب نقلهم بمراكبه من القسطنطينية الى وراء البوسفور وهناك تفرقت كلمتهم واختلفوا في أمرهم فلذلك تركهم بطرس ورجع الى القسطنطينية ثم بلغ أمرهم الى قليج ارسلان بن سليمان بن قطلمش صاحب قونيه وبلاد الروم فجمع عسكر الاسلام واحتاط بهم من كل جهة فاعمل المسلمون فيهم السيف حتى أفنوهم عن آخرهم وكان ذلك بالقرب من مدينة قونيه ولم ينج منهم بالهرب الا قليل وكذلك قتل القائد ولتر او (غوتيار) الفرنساوي مجروحاً سبعة جراح في فخذه وهكذا لم يبق من هذه الجيوش التي نقلت من اوروبا الى أسيا في سهل قونيه الا أجسام باليه من طوائف مختلفه وهذه كانت النهاية التعيسه لعساكر أخلاقها رديئة كما قاله المؤرخ (برنردوس الخازن الفرنساوي)

وأما بطرس السائح فانه لما رجع الى القسطنطينية أخذ يشكو بمرارة من الصليبيين لعدم اطاعتهم اوامره ولذلك صار يسميهم لصوصاً وقد أقسم بأنه لا يفتر عن عزمه حتى يشاهد حروباً صليبية أخرى .

﴿ الحملة الثانية من الحروب الصليبية الاولى ﴾

لما بلغ سكان أوروبا ما حلّ بالحملة الاولى شملهم الحزن والغم الشديد وافتكروا في الانتقام واعتمدوا على السفر الى البلاد الشرقية تحت رئاسة غودافرو دي بوليون دوك دي لورين السفلى المولود في برابنت وكان هذا الرئيس مبجلا معظماً عندهم شجاعاً ذا رأي ومعه عدد وافر من قواد فرنسا وبلاد النمسا كاؤسطاكيوس (من بلونيا) وبودوين واخوته وأولاد عمه بودوين روبورك وبودوين حاكم هانوت وعزنيل حاكم دي هاش وجرارد وبطرس دي طول وهوكر دي سانبول وابن انجلران دوك دي لوران وساروا جميعاً براً قاصدين القسطنطينية وكان مسيرهم من بلاد المانيا بغاية الادب والقناعة ولذلك لم يتعرض لهم أحد في طريقهم

وسار جيش آخر عن طريق ايطاليا تحت رئاسة هوكز حاكم فرمندواس أخي ملك فرانسا ومعه روبارتوس الملقب بكورتهوز حاكم ولاية نورمنديا . وروبارتوس أكذ والي مقاطعــه فلا ندره الملقب بحرية المسيحيين . واستفانس دالي بلواز وكارتز الذي كان معتمداً في ديوان شورى الحرب لفطنته وسار هذا الجيش متأخراً عن سابقه فاجتاز جبال الالب نحو بلاد ايطاليا ولما وصلوا مقاطعة لوكا قابلهم البابا اوربانس الثاني وباركهم ومن هناك ساروا الى بوليا يقصدون سفرهم بحراً

.ومرورهم بايطاليا الجاء الايطاليين الى السفر غـيرة ويتقدمهم بوهيمند أمـير تارانت فاشترك في المسير مع الجيش البحري وكان بقيادته اهالي بوليا وغيرهم من بلاد كلابريا وسيسيليا ومعه ريكاردوس أمير سالارنوس وأخوه رانولف وروبارتوس دي هوس وروبارتوس دي سوروفال وهر مفرو دي مونتيك

وسار جيش ثالث من اقليم فرانسا الجنوبي تحت رياسة ادهمـار دي مونتيـل (اسقف بوى) وبقيادة رايموند كونت دي سات ودي طولوز وكان ادهمار هذا قد اقامه البابا رئيسا كنائسيا على الجيوش الصليبيه وهو اول من استلم سنجق الصليب وكان هذا القسم من اهالي غازكونيا ولانكادوك وليموزين وافرنيا والبروفانس وبصحبتهم ايضا هرقل كنت دي بولنياك وغوليافوس دي ساريان وروجار كونت دي فواكس وغولياموس سيد مونت بلير ورايموند بآلات وريمون كونت دي اورانج وغيرهم كثيرون وأساقفة ابت ولورين واورانج مع رئيس اساقفة طوليد وكانوا حملة الصلبان وكان مسير هـذا الجيش من جبال الالب وبلاد لومبارديا والفربول متقدماً نحو حدود المملكة اليونانية بمشقات عظيمة من اقاليم دالماسيا

﴿ ماجرى للصليبيين في القسطنطينية ﴾

كان الملك اليكسيوس ملك القسطنطينية قـد ارسل وفوداً الى ملوك أوروبا يستغيث بهم لمساعدته ضد المسلمين ولما بلغه قرب حضور هذه الجيوش الكثيفة خاف منهم على بلاده وندم على ما فرط منه ثم ابتدا بتدبير الحيل لكيد الصليبيين وكان الجيش البحري برئاسـة هوكز حاكم فرمنـداوس اخي ملك فرانسا قد قرب ولكن هذا القائد غرق مركبه على شواطئ الابيروس فخرج سالماً فارسل اليه حاكم دوراتسيوس احد عماله لاجل ان يهنئه بالسلامة ولما قرب للقسطنطينية بالاكرام والاحتفال امر بسجن هذا القائد بصفته أسيراً ظاناً انه بحبس أخي ملك فرانسا عنده بصفة رهينة يأمن غائلة الجيوش القادمة

وكان غودافرو رئيس الجيش البري الاول قد بلغ مدينة فليبوبليس وسمع بأسر اخي سلطان فرانسا وحبسه فاغتاظ غيظاً شديداً وأخذ يعامل اهل البلاد بصفه اعداء محاربين ففر أكثرهم الى القسطنطينية للاحتماء بها ولما علم الملك بما جرى لبلاده خاف خوفاً شديداً وارسل يطلب من قائد الجيوش الصليبية الكف عن القتال متعهداً له بما يطلب وانه يفك اسر المسجون عنده ولذلك رضي قائد الجيوش وكف عن الحرب وسار قاصداً القسطنطينية بصفة سلميه

اما الملك الكسيوس فانه احضر هوكز لديه واخذ يعتذر اليه ويهاديه تملقاً حتى انه جذب قلبه وطلب منه القسم على الطاعة له وحفظ الامانة بالخضوع لاوامره وبعدم الانحراف ضده وبذلك اشترى عتقه من الاسر وانطلق الى الجيوش الصليبية فعند اجتماعه بهم أخبرهم بقسمه فلما علموا بانه يلزم الاطاعة بموجب هذه الشروط لملك غريب اغتاظوا غيظاً شديداً ورفضوا هذا الامر معتمدين على مقاومته

وهذا الرفض أغضب الملك اليكسيوس الذي عزم على ان يجعلهم يطيعونه غصباً بواسطة الجوع ولذلك أمر بقطع العلائق مع الجيوش الصليبية وأمر بمنع الاهالي من بيع المأكولات لهم غير ان هذا الرأي لم يأت بفائدة لان القائد غودافرو اتحد مع باقي رؤساء جيشه وقرروا الهجوم على جميع القرى وأخذ ما يوجد فيها من القوت وهكذا كانت الجيوش الصليبية تهجم بشراسة كلية على أهل القرى وتنهب موجوداتهم حتى امتلأت مضاربهم من كل نوع . وحيث انه كان قد قرب عيد الميلاد فاجلالا له كفوا عن القتال ودارت المخابرة بامر الصلح الذي تم على ان الملك يقدم لهم المؤونة

وكان بوهيموند أمير تارانتا قد سولت له نفسه محاربة القسطنطينية والاستيلاء عليها ولذلك زحف نحوها بعساكره ولما قرب من مدينة دوراتسيوس بعث رسولا الى غودافرو القائد العام بما عزم عليه وبعزمه على الاتحاد معه غير ان هذا القائد رفض هذا الرأي ووبخه عليه . ولما علم ملك الروم بما دبره بوهيموند اجتهد بان يكتسب صداقة غودافرو ومحبة الامراء الذين برفقته لينجو من الغائله ولمنع الريبة به قد أرسل ابنه يوحنا الى معسكر الصليبيين كرهن وحينئذ آمن غودافرو ودخل القسطنطينية ونزل في قصر الملك واعجب غودافرو وأمراؤه بالقسطنطينية وبناياتها الفاخرة وزيناتها كما أعجب الملك وأهل المدينة بحسن ملابس

الامراء الصليبين الفاخرة المزينة بالذهب والماس ثم ان الملك قابلهم ببشاشة تامه معانقا اياهم الواحد بعد الواحد وكانوا ينحنون أمام العرش الملوكي الشرقي ويسلمون جاثين على ركبهم باحترام ثم خاطبهم الملك قائلا أرغب منكم ياحماة المسيحيين ان تحموا بلادي من الاعداء فوعده هؤلاء الامراء بان يردوا له جميع البلاد التي كانت تحت حكمه وبان يعطوه كل ما يستولون عليه وفي نظير ذلك حلف الملك لهم بانه يسعف الصليبين بكل الوسائط الممكنة له ودليلا على ذلك أهداهم هدايا فاخرة وأصدر أوامره الى جميع رعاياه بان يقابلوا الصليبين بالمودة ويقدموا الى مضاربهم المؤن وبهذه التصرفات حصل السرور للطرفين ولكن الملك كان الخوف لم يزل في نفسه فلذلك أشار على غودافرو بان يكون مسير الجيش الى أسيا من وراء البوسفور وهكذا سافرت العساكر الصليبية من طرق وعرة أضاعت فيها زمانا طويلا ذهب بحماستهم .

﴿ الصليبيون في أسيا واستيلاؤهم على قونيه ﴾

لما انتقلت العساكر الصليبية الى أسيا ساروا في سهول الاراضي الشرقية التي كانت مخضرة يانعة بالاثمار في زمن الربيع فزحفت الى مدينة قونيه عاصمة بلاد الروم وكانت تحت حكم قليج ارسلان بن سليمان وكان شجاعاً عاقلا فلما بلغه خبر قدوم هؤلاء الصليبيين جمع عساكر كثيرة لرد هجماتهم وكان من جمعهم من العساكر يبلغ مائة الف وأما عدد الصليبيين فكان مائة الف من الخيالة وخمسمائة الف من المشاة وكانت قونيه محاطة بجبال عاليه ومحاطة من جهتيها القبلية والغربيه ببحيرة اسكانيوس فلما بلغتها الجيوش الصليبية حاصرتها من كل جهة ونصبوا مضاربهم حولها وكانت كل طائفة منهم على حدة تمييزاً لها ولها سنجق صليبي وبعد حصار المدينة عدة أيام خرج قليج ارسلان المذكور بعساكره من جهة الجبال مهاجماً الصليبيين وكانت هجماته المذكورة على جيش غودافرو القائد العام وعلى جيش رايموند دي طولوز حتى انه قهقرهم الى آخر مضاربهم وحينئذ هجمت عليهم باقي طوائف الصليبيين واشتد القتال الى آخر النهار وانهزمت العساكر الاسلامية الى الجبال وكان ذلك في سنة ٤٩٠ هجريه .

وفي صباح اليوم الثاني لهذه الواقعة هجم قليج ارسلان بعساكره على الصليبيين واستمروا في قتال عظيم وقد أظهرت العساكر الاسلامية من الشجاعة والحيل الحربية ما أدهش الصليبيين كما رواه مؤرخوهم ولكن الكثرة تغلبت على الشجاعة فانتصر الصليبيون على المسلمين في هذا اليوم وهربت عساكر الاسلام الى الحدود والاستعداد

للمهاجمة والمدافعة وكانت المدينة لم تزل محصورة بعساكر الافرنج الذين ركبوا عليها المتجنيقات وأخذوا يرشقونها تباعا بسرعة الى ان هدموا سورها وكانت العساكر الاسلامية من داخل المدينة ترميهم بنبال مسمومة وكانت ترمي أيضاً الصليبيين الذين كانوا يطلعون فوق السور بحبال مرشوقة بكلاليب حديد وبذلك قتلوا كثيرين من الصليبيين وكان يوجد رجل شركسي كل يوم يظهر فوق السور ويرمي الصليبيين بالنشاب الذي كان يصيبهم ويهلكهم حتى أزعجهم وفي يوم من الايام عند ظهور هذا الشجاع على السور جاءته نبلة من يد غودافرو فدخلت صدره فاماتته في الحال وكانت المدينة لم تزل في حصار لان جهتيها القبلية والغربية كانتا في مأمن من الصليبيين ثم رأوا البحيرة قد امتلأت بمراكب الصليبيين الواردة من القسطنطينية وحينئذ وقع الرعب في عساكر الاسلام وفرح الصليبيون وشددوا الحصار وكانت زوجة قليج ارسلان داخل البلد فخرجت هاربة مع ولديها في مركب صغير فشعر بهم الصليبيون ولحقوهم حتى قبضوا عليهم ولما بلغ هذا الخبر الى عساكر الاسلام خافوا وكان الملك اليكسيوس قد أرسل فرقة من جيشه صحبة الصليبيين لحصار قونيه ولكونه لم يزل خائفاً منهم أرسل فرقة أخرى سريه تحت رئاسة أحد قواده المسمى بوطوميت لاجل الاستيلاء على قونيه لتكون له فهذا القائد عمل كل جهده حتى دخل المدينة وهناك اجتمع مع الامراء المسلمين وعرفهم بان هؤلاء الصليبيين اذا امتلكوا المدينة يقتلونهم عن آخرهم واستحسن لهم ان يسلموها الى الملك اليكسيوس وفعلا تم هذا الاتفاق .

وأما الصليبيون فكانوا قد عزموا على الهجوم على المدينة بكل قوتهم لاجل استيلائهم عليها فما شعروا الا وسناجق الملك الكسيوس على أسوار المدينة فانبغتوا لذلك واشتدوا غيظاً من معاملة هذا الملك المخادع خصوصاً لكونه أمر بالافراج عن زوجة ملك المسلمين وولديها وأحسن معاملة الاسرى المحبوسين ولكن الصليبيين كتموا غيظهم وكان مدة حصار قونيه ما ينوف عن الخمسين يوم وأقاموا مدة يسيرة حول مدينة قونيه للاستراحة وبعدها قسموا الجيش قسمين سارا بين القسم الاول والثاني مسافة قليلة واجتازوا جبال أفريجيه الصغيرة تائهين في الوديان قاصدين سوريا ولعدم معرفتهم الاراضي حصل لهم مشقة عظيمة وخصوصاً لعدم المياه وحرارة الجو

وكان القسم الاول تحت رياسة بوهيموند وتانكريد ودوك نرمنديا انتهى الى وادي

مخصب عند نهر غورغوني وأقام مضاربه للاستراحة وفي صباح اليوم الثاني وجدوا غباراً قد علا وثار وانكشف عن عساكر الاسلام بقيادة ملكهم قليج أرسلان فاستعد هذا القسم للمدافعة فجمع الاولاد والنساء في القلب والعساكر المشاة محتاطة بهم وأما الخيالة فانقسموا ثلاث فرق فاحدهم كان برئاسة تنكريد والثاني برئاسة دوك دي نورمنديا والكونت دي شارتريز والثالث كان برئاسة بوهيموند أميرتارانتا رئيس هذا القسم . ولما تقاربت العساكر الاسلامية اصطفت صفوفاً وهجمت على الصليبيين هجمة شديدة ثم تكاثر عليهم الصليبيون وزحزحوهم عن مواقفهم ثم انهم ارتدوا عليهم وأخذوا يرمونهم بالنشاب حتى ان خيولهم كانت تتساقط من الجراح وهجموا بقوة على الصليبيين حتى بددوهم واستولوا على مراكزهم وأخذوا منهم نساءهم وصاروا يقتلون فيهم قتلا شديداً حتى أفنوا أكثرهم وقتل غويليوم أخو تنكريد وغيره من الامراء مع ما أظهروه من الشجاعة خصوصاً بوهيموند الذي كان هجم على ملك المسلمين يريد قتله ولكن الملك هجم عليهم وأثخنهم بالجراح والقتل ثم ان أحد قواد الصليبيين المدعو روبرتوس دوك دي نورمنديا استجمع بعض عساكره وهجم على المسلمين وتبعه تنكريد وريكاردأمير سلارنو واسطفانوس كونت دي بلواز وباقي القواد واستخلصوا منهم النساء وصارت الطائفتان في قتال ونزال وهجوم ودفاع الى ان كل الصليبيون وفروا هاربين و حل بهم عطش شديد من ارتفاع الحرارة وهكذا كانت الدائرة على الصليبيين

ثم علا الغبار وبان عن عساكر القسم الثاني للصليبيين الذي كان تحت رئاسة غودافرو دي لورين القائد العام ورايموند وغيره الذي بلغهم خبر القسم الاول فاسرعوا بالمسير حتى لحقوهم على آخر رمق من الحياة وحيئنذ اصطفت عساكرهم قلب وجناحين فكان على الميمنة غودافرو وكونت دي فلاندو وكونت دي نافار وعلى الميسرة بوهيموند وتنكريد وروبارتوس دي نورمنديا وكان على القلب رايموند وحملوا على عساكر المسلمين حملة شديدة انتهت بفرار العساكر الاسلامية الى الجبال واستولى الصليبيون على مضاربهم وأخذوا ذخائرهم وقد اشتهرت هذه الواقعة بواقعة رويله ونهر غورغوني

ثم سار جميع الصليبيين جيشا واحداً قاصدين سوريا مارين في الجبال والوديان المعطشة وكان قليج أرسلان قد سبقهم ببقايا جيشه يحرق المزروعات والكروم لئلا يجدوا شيئاً يأكلونه وهكذا حصل فان مأكولاتهم قد فرغت وصاروا يأكلون

البقول الناشفة التي يلتقطونها من الارض وعدموا المياه بالكلية حتى ان البهائم ماتت منهم في الطريق وكنت تجد الرجل منهم ماشياً على أقدامه حاملا أمتعته على ظهره وكذلك آلات الحرب فان العساكر حملتها على ظهورها وكاد العطش يهلكهم لانه كان يموت منهم في اليوم الواحد نحو الخمسمائة من العطش والجوع وكذلك قد عدم منهم ما كان معهم من كلاب وخنازير وطيور كاسرة وساروا كذلك الى ان وصلوا الى وديان بسيديا وأقاموا للاستراحة وهم في غاية الظمأ . وكان لاحدهم كلب فغاب عنه يبحث على ماء ثم رجع الكلب وجسده مبلول فعلموا بانه وجد ماء فاتبعوا الناحية التي رأوا الكلب عائداً منها وهناك وجدوا نهراً جارياً ولشدة عطشهم انكبوا على النهر يشربون بغير حساب حتى ان البعض منهم مات من ذلك والبعض مرض ثم ساروا في طريقهم مارين ببلاد الارمن

﴿ وصول الصليبيين الى طرسوس واختلافهم ﴾

ففي أثناء مسير الصليبيين حصلت لهم بعض مصائب منها ان غودافرو كان خرج من جيشه للنزهة وفيما هو سائر اذ سمع صوت رجل يستغيث من خلفه فالتفت اليه فوجده رجلا صليبياً حاملا متاعه على ظهره ويتبعه دب هائل فنزل هـذا القائد عن فرسـه لاجـل ان يقتل الدب فسل سـيفه وأراد الهجوم على الدب الذي بادأه واراد ان يفترسه ووقع القائد تحته ثم انتصب قائماً ورفع يده بالسيف يريد قتله فجرحه السيف جرحاً بليغاً ثم لحقه احد القواد وقتل الدب وحمل غودافرو الى المعسكر ولكن لكثرة الدم الذي سال منه حصل له مرض شديد كاد يهلكه

ومنها انه كان انفصل من الجيش الصليبي قائدان وهما تنكريد وبودوين أخو غودافرو لاجل ان يلحقوا عساكر المسلمين الهاربين وهكذا ساروا مفترقين حتى وصلوا مدينـة طرسوس وكان السابق تنكريد وكان أهل المدينـة أكثرهم من المسيحيين وحين سمعوا باخبار الصليبيين فرحوا بهم ولما وصل اليهم تنكريد فتحوا له ابواب المدينـة التي دخلها بدون حرب ووضع على أسوارها سناجقه ثم وصل بودوين الى المدينة ووجد اعلام تنكريد عليها فحصل له غيظ شديد وأمر برفع علم تنكريد ووضع علمه ولذلك حصلت بينهما مخاصمة وأخيراً قرروا ان يجعلا الرأي في ذلك لانتخاب أهل البلد ولكون تنكريد هو أول من وصل الى البلد ودخلها فلذلك انتخبوه ثم ان بودوين هددهم وخوفهـم بالعقاب ففتحوا له أبواب البلد فطرح علم تنكريد في الخنـدق ووضع علمه على السور فحصـل هرج عظيم بين

الجيشين اي الجيش الايطالي الذي تحت قيادة تنكريد والجيش الفرنساوي الذي بقيادة بودوين وكادوا ان يقتتلوا لولا ان تنكريد كتم غيظه وطلب من جيشه المسامحة والكف عن المخاصمة والمقاتلة ثم اخذ جيشه وسار الى ان وصل الى مدينة موبسواسطيه وكان بوهيموند قد أرسل شرذمة من عساكره تبلغ الثلثمائة نفر في أثر تنكريد فلما وصلت هذه الشرذمة الى طرسوس ووجدوا علم بودوين طلبوا المبيت داخل المدينة وفي الصباح يرحلون الى تنكريد فابى بودوين مبيتهم داخل البلد ولذلك نصبوا خيامهم خارج البلد وباتوا هناك وفي منتصف الليل هجمت عليهم جماعة من الاتراك فافنوهم عن آخرهم ولما بلغ هذا الخبر الى داخل المدينة اجتمع المسيحيون سكان البلد وانقضوا على المسلمين وذبحوهم بدون شفقة

وأما بودوين فانه خاف من هذا الحادث الفظيع خصوصاً لكونه هو السبب في ذلك فابقى بطرسوس جانباً من عساكره لاجل حمايتها وأخذ الباقي سائراً في أثر القائد تنكريد الى ان بلغ مدينة موبسواسطيه ولما اقتربت الجيوش من بعضها وكان خبر مقتلة الثلثمائة ايطالي بلغ جيش تنكريد طلبوا محاربة بودوين فمنعهم قائدهم فاوسعوه شتماً وسباً ونسبوا له الجبن وأخيراً التحم الجيشان واقتتلا وانجلت الواقعة عن انهزام تنكريد وجيشه لقلته وكثرة عدوه ودخلوا المدينة

ولما أصبح الصباح تناسوا ما جرى لهم بالامس وطلبوا الصلح الذي تم بينهم بمعانقة تنكريد وبودوين بعضهما امام جيوشهم وتحالفامعاً ثم ان تنكريد صار يضع يده على البلاد التي يمر عليها حتى بلغ حكم اسكندرونه ومنها رجع الى المعسكر العام ظافراً منصوراً غانماً أسلاباً كثيرة فاقتبله الجيش العام بالاكرام والاحترام وهنأوه وأما بودوين فانه لما وصل الى المعسكر العام قوبل بفتور ولاموه على أفعاله خصوصاً أخوه القائد العام فانه أنبه خصوصاً لقتل الشرزمة البادية الذكر وكان بودوين قد تصاحب مع أمير أرمني اسمه فانكراس الذي كان دائماً يصحبه مفضلا له عدم المسير مع الصليبيين والاستقلال بمملكة أسيوية مخبراً اياه بان البلاد الكائنة على شطوط نهر الفرات مخصبة جداً وأكثر سكانها مسيحيون والجميع مستعدون لتسليمها الى من يحضر من قواد الصليبيين ولذلك حزم في نفسه على انفصاله من الصليبيين والاستقلال بهذه البلاد وانتهز فرصة لومه من الجيش وترذيله وانفصل عنهم ومعه الف و٥٠٠ عسكري مشاة ومائتا فارس

﴿ اخبار بودوين على شطوط نهر الفرات ﴾

لما انفصل بودوين من الصليبيين وصحبه انكراس الارمني لم تدم صحبتهما لان انكراس الارمني لما وجد ان بودوين قد امتلك مدينة طورباسال ومدينة راافندال واختص بهما لنفسه يئس وانفصل عن بودوين الذي كان كلما يصل الى بلد من شطوط نهر الفرات كانوا يقابلونه ويعظمونه حتى انه امتلك أكثر البلاد بدون حرب وترك بعض عساكره حفظاً لسيادته الى ان وصل الى مدينة (الرها) التي هي كانت تحت حكم أمير يوناني اسمه ثاودورس من لدن ملك الروم وكان يدفع الجزية في كل سنة الى المسلمين . ولما بلغ سكان هذه المدينة قرب وصول الصليبيين اليهم فرحوا فرحاً شديداً وخرجوا لملاقاة بودوين ومن معه (لان الباقي معه من عساكره كان مائة خيال فقط) متوسلين اليه ومحلفينه بالدخول الى مدينتهم وحمايتها من المسلمين فهذا القائد قبل مطلوبهم وسار معهم الى ان دخل المدينة

وكان الامير ثاودورس حاكم المدينة لا يريد دخول هذا القائد الى مدينته ولكن خوفه من عصيان رعيته الجاه على الترحاب به والتزلف له . وأما بودوين فلما وجد أهل المدينة يطلبون حمايته ولم يقروا على امتلاكه لها قال انه لا يمكنه ان يحمي بلداً لم تكن له ولذلك سيتركها . فلما علم أهل البلد بذلك اجتمعوا لديه وطلبوا منه عدم ترك مدينتهم ولما نظر ذلك ثاودورس قال له اني رجل كبير مسن ولم يكن لي ولداً وارث فارجو ان تكون بصفة ابن لي وتكون وريثي الوحيد ولما سمع ذلك بودوين وعلم بانه سيكون بعد موت ثاودورس وريثاً لمدينة الرها بل لجميع شطوط الفرات فرح فرحاً شديداً ووعد بان يحمي تحت سيفه مقاطعة قد أضحت ميراثاً له بعد زمان قليل يمر ثم انه اتفق مع أهل البلد وقتلوا ثاودورس بعد محاصرته بالقلعة وطلبه الامان منهم فخانوه ورموه من فوق السور ثم قطعوه قطعاً

﴿ محاصرة الصليبيين انطاكية وامتلاكها ﴾

سارت الجيوش الصليبية قاصدة سوريا مارة بالمدن الآتية وهي . ليكاونيا وهيراكليا . وقيسارية كياروكيا . وتيانا . وفوزقون . ومرعش وكان أهالي هذه المدن اذا وصلت اليهم أخبار الصليبيين يخرجون من مدنهم ويقابلونهم بالاكرام

ويسلمون لهم مدنهم بدون حرب . وكانت شدة الحرارة وصعوبة الطريق قد أتعبتهم خصوصاً في جبال الشيطان التي هي فيما بين فوزقون ومرعش ثم بلغوا جبل طاوروس وجبل أمانوس الى ان وصلوا انطاكية في سنة ١٠٩٧ الموافقة سنة ٤٩١ هجريه وكان الحاكم على هذه المدينة باغيسيان أصغر أولاد الملك شاه السلجوقي فلما بلغه خبر الصليبيين أمر باقفال المدينة والاستعداد للحصار وكان الممر الوحيد الى سهل انطاكية على جسر فوق نهر العاصي وعلى جانبي ذلك الجسر برجان محصنان فيهما كثير من الرجال فحاربهما الافرنج أولا وأخذوهما ثم دنوا من انطاكية ونصبوا خيامهم فكان القائدان بوهيموند وتنكريد على العساكر الايطالية امام باب القديس بولص وعلى يمينهم العساكر الزماندية والبريطونية والفلامندية وأما الفرنساويون الذين بقيادة روبارتوس هوكنز دي فارمندياوروبارتوس كونت دي شارتيزه فكانوا بالجهة البحرية امام باب الكلب وأما غودافرو والكونت دي طولوز وادهماردي مونتيل فانهم كانوا على جسر نهر العاصي فعقدوا مجلساً حكموا فيه بوجوب محاصرة انطاكية وأخذوا الاهبة للقتال وأما عساكر الاسلام المحصورون داخل الاسوار فلم يبدوا حراكا ولم يظهر منهم مقاتل واحد فوق الاسوار والابراج ولذلك استخف بهم الافرنج وأخذوا ينبذون التحفظ وانعكفوا جميعاً على التلذذ بالملاهي وبنضارة ذلك المكان وطفقوا يرتكبون كل القبائح والرزائل بينما كان المحصورون في المدينة يتأهبون للدفاع عن ذمارهم ويستعدون كل الاستعداد حتى غنموا فرصة انشغال أعدائهم باللذات والمعاصي وخرجوا من المدينة وأولئك متفرقون في القرى فهجم المسلمون عليهم هجمة الاسود فانكسر الافرنج انكساراً كبيراً وبعد ذلك حدثت معارك كثيرة بين المحاربين كان النصر فيها حليفاً للمحصورين وفقدت مؤونة الافرنج فظهر عدم درايتهم للعيان بسوء الادارة التي أخذت تؤثر فيهم وشعروا حينئذ بنقص الاهبة الحربية فاقاموا أبراجاً لصدم الابراج التي على المدينة وصمموا على تدقيق الحصار وتشديده بحيث يقطعون المدد عن المدينة ولم يتمكنوا من تنفيذ مآربهم الى ان وقعوا في الارتباك ودهمهم فصل الشتاء وحل بهم مرض البرداء واشتد فيهم حتى مات كثيرون واشتد الحال جداً حتى كثيرين من الذين وسموا أنفسهم ظاهراً بسمة دينية مقدسة وباطناً بافكار النهب والسلب وارتكاب ما ظهر نموذجه فروا هاربين للتخلص من مشاق الحروب الشرقية ومن غريب الامور ان بطرس السائح المنادي بتلك الحرب كان اول الهاربين الا ان الامير تنكريد

أدركه وأعاده وأقسم بدوام مراقبة الذين قادهم للحرب أما المحصورون فقاموا بكل أنواع الحكمة واصول الدفاع وكان لهم جواسيس من السريان يعرفون بواسطتهم كل ما يحدث، في معسكر الاعداء ولذلك قرر بوهيموند ان يصير التدقيق بالبحث عن الجواسيس ومتى وجد واحداً منهم يذبح ويطبخ لحمه أو يشوي ويؤكل ولا شك ان هذا الامر في غاية البربرية وبذلك قد انقطعت الاخبار عن المسلمين وفي اثناء ذلك بعث المستعلي بالله العلوي من مصر وفداً الى الافرنج يعرض عليهم الصلح والمسالمة وانه يرجع اليهم الكنائس التي شيدها المسيحيون وان يحامي عنهم ويفتح أبواب بيت المقدس للزوار بشرط ان يدخلوها بلا سلاح ولا يقيم الواحد منهم فيها أكثر من شهر واذا رفضوا ذلك فالخليفة مستعد لان يعقد محالفة من المسلمين لصدهم فلم يحتفل الافرنج بعقد الصلح مع انه خولهم المقصد الذي ادعوا انهم يحاربون لاجله ولم يرغبوا حجب دماء العباد والرجوع الى أوطانهم سالمين بل أجابوا الوفد باستعدادهم للحرب غير مبالين بما يصادفونه من قوة الاسلام وكان صاحب حلب وغيره من أمراء البلاد قد بعثوا بالامداد من الجنود لنجدة انطاكيه وعلم الافرنج بذلك فساروا اليهم قبل ان يدركوا المدينة وحاربوهم فانكسر المدد وقتل الافرنج منهم عدداً غفيرا وبعثوا برؤوس كثيرين منهم الى الوفد المصري ورموا رؤوس أخرى الى المدينة وجرت مواقع كثيرة كان النصر فيها تارة للمسلمين وطوراً للصليبيين وأخيراً طلب أهل المدينة هدنة لجددوا فيها الذخائر والمهمات وتمادى الحال ولم ينل الافرنج أربا سيما لان الشقاق كان سائداً بينهم وكان بوهيموند يودان يتولى على انطاكيه لغيرته من بودوين والي الرها وبذل في ذلك عناية عظيمه حتى اسعفه شخص اسمه فيروز أصله أرمني واعتنق الديانة الاسلامية وكان يحبه باغيسيان ولذلك قلده أميراً على ثلاثة أبراج كبيرة وكان هذا الرجل من التقلب وحب الرفعة والمال على جانب عظيم ولذلك عقد مع بوهيموند شروط التسليم بالخيانة وكشف كل منهما مكنونات ضميره ثم جمع بوهيموند الامراء وقواد الجيش واعلمهم بانه يلزمهم أخذ المدينة بنوع الخيانة والرشوة بالمال فعارضه القواد خصوصاً الكونت دي طولوز وبعد ذلك ببضعة أيام شاعت الاخبار بقدوم كربوغا صاحب الموصل بالوف من الرجال لنجدة المدينة فخاف الافرنج وخطب فيهم بوهيموند بوجوب استعمال الخيانة لامتلاك المدينة فاذعنوا لذلك وفي تلك الليلة اجتمع بوهيموند بفيروز الخائن واتفقا على وقت تسليم المدينة وانفصلا وفي آخر اليوم الثاني جمع

الافرنج خيامهم وانسحبوا عن ساحتهم بالطبول والصريخ نحو بيت المقدس حتى تواروا عن العيون ثم قفلوا راجعين بهدو حتى بلغوا البرج الذي كان فيه فيروز فاقام ذلك الخائن بفظائعه حتى قتل بيده أخاه الذي لم يكن عالماً باتفاقه وخاف منه ان يشعر بالصليبيين فيصيح على الخفرا فبادر بقتله ثم ادلى سلم من جلد فتعلق به شخص اسمه بابيان من عساكر بوهيموند الى ان صعد البرج وأراه جثة أخيه المقتول ثم اتبعه بوهيموند وكونت دي فلاندرا وغيره وامتلكوا الثلاثة أبراج بعد ان امرهم فيروز بقتل أخيه الثالث الذي كان على برج آخر وامتلكوا سبعة غيرها بعد ان قتلوا حراسها وكسروا الابواب ودخلوا المدينة فملكوها وكان ذلك في ٣ يونيه سنة ١٠٩٨ بعد حصار تسعة شهور وفتك الصليبيون بالاهالي فتكا ذريعاً ليلا ونهارا حتى انهم كانوا يهجمون على البيوت ويقتلون من فيها ما عدا بيوت المسيحيين الذين كانوا يضعون عليها الصليب للتمييز ومن فرّ من عساكر الاسلام كانوا يلحقونهم في الحقول والاحراش ويقتلونهم (وهكذا تكون حماة الانسانية) وفرّ باغيسيان فقتله بعض الارمن وجاؤا برأسه الى انطاكيه أما القلعة فكانت لم تزل بيد المسلمين واقام بوهيموند رايته في أعلى برج في المدينة دلالة على استيلائه عليها ومن هذا الوقت قد استنصر فيروز الخائن وأحبه بوهيموند

﴿ محاصرة المسلمين انطاكيه وظهور الحربة المقدسة ﴾

أقام الصليبيون بانطاكيه ثلاثة أيام وعلى قول ابن خلدون ثلاثة عشر يوما وهم في فرح وسرور لاستيلاؤهم على المدينة فاولموا الولائم وصرفوا أوقاتهم بالملذات والملاهي وفي اليوم الرابع من حلولهم فيها جاء قوام الدين كربوغا صاحب الموصل الى مرج دابق بالشام واجتمعت عليه العساكر فكان معه دقاق بن تتش وطغر لتكين اتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجار وسقمان بن ارتق وغيرهم من الامراء المسلمين وجمعوا ما كان هناك من الترك والعرب وبادروا الى انطاكيه وحصروها واضطرب الافرنج وخافوا وأخذ الضيق منهم كل مأخذ فلم يعد عندهم زاد ولم يكن لهم يد لاستجلاب المدد لان القرى الواقعة بجوار انطاكيه كانت قد باتت مدمره من نتائج الحرب ولذلك تضايق المحصورون جداً وامسى حالهم تعيساً وبمدة وجيزة نفد كل القوت والذخيرة حتى التزم الافرنج ان يأكلوا البهائم واضطر كثير منهم الى الشحاذة فكنت ترى كثيرين من الامراء منهم كونت دي فلاندرا يطوف الازقة يطلب الصدقة وفرّ كثيرون من المحصورين طلباً للنجاة

من الموت جوعا وهكذا مضت مدة أيام على هذا المنوال فخارت قوى الجنود وضعفت وكان المسلمون يعلمون ذلك فلما رأى الامير بوهيموند أمير ترانتا وانطاكيه كسل أصحابه وتقاعدهم أحرق دورهم قصاصا لهم ولكن لسان اللهيب تجاوز حده فامتد الى جهات ساء الامير حرقها الا ان تلك النار لم تحرك حماسة قوم اقعدهم الجوع الشديد والضعف ولذلك صارت الكهنة والامراء وبعض الناس يقصون انهم رأوا أحلاما ونبوات تفيد ان الصليبيين سيغلبون أعداهم وذلك لتدب الحمية في قلوب أولئك الكسالى وتوصلا لما يريدون قال كاهن من أهل مرسيليا جنوبي فرانسا اسمه بطرس برتولوني ان القديس أندراوس الرسول ظهر له في الحلم ثلاث مرات وقال له : اذهب الى كنيسة أخي بطرس بانطاكيه وهناك بقرب الهيكل الملوكي تجد الحربه الحديد التي طعن بها جنب المسيح مدفونة في الارض وانه بمجرد حمل هذه الحربه أمام جيش الصليبيين يحصل له النصر :

ثم انتخب اثنى عشر شخصاً من الاعيان والكهنة ليكونوا شهوداً على اكتشافها ولم يسمح لاحد من الجند والاهالي بحضور الحفر الذي اشتغلوا به طول النهار وهم يدققون البحث فلم يجدوا شيئاً والابواب مغلقة عليهم وبعد الغروب نزل الكاهن بنفسه وأحضرها

أما الحربة ففيها أقوال لان المؤرخين الاكليريكيين يقولون انها معجزة الهيه وغيرهم يقولون ان الافرنج لما رأوا وهن عزائم جنودهم وانهم لاينشطون بلامحرك فعال دبروا هذه الحيلة فنجحت نجاحا عظيما على انه بعد حين يسيراً انكشف الغطاء عن أعين كثيرين وبات جمهور غفير من الناس لايركنون اليها ولا يصدقون بها (نقلنا هذا بدون ابداء رأينا فيه وهو مجمل ما كتبه حضرة الفاضل جورجي افندي يني في كتابه تاريخ سوريا وكذلك ما جاء بكتاب (الحروب المقدسة جزء أول)

وحينئذ فرح الصليبيون بهذه الحربة واجتمعوا في الكنائس واقسموا جميعاً بمداومتهم على الحروب وارسلوا بطرس السائح الى صاحب الموصل يطلبوا منه المقاتلة في الحرب فوعدهم بالحرب وفي ثاني يوم خرج الصليبيون جميعاً وهجموا على جيش الاسلام وكان كربوغا جالساً في خيمته ظانا بان المسيحيين قادمين الى طلب الصلح ثم التفت الى القلعة فوجد الراية التي عليها سوداء فعرف بان القوم جاؤا مهاجمين فاندهل واذا بكثيرين من جماعته يركضون مرتعشين وأخبروه بان الصليبيين خرجوا عليهم مرتبين جنودهم اثنى عشر فرقة تحت رئاسة قوادهم هوكز وغودافرو وروبارتوس دي نورمنديا وادهمار

دي مونتيل وتنكريد وبوهيموند وان رايموند دي اجيلاس يحمل الحربة أمامهم فامر الامير كربوغا بترتيب الجيش وأمر كل من صاحب حلب والشام ونيقيه بان يكمنوا وراء عساكر العدو ليمنعوهم عن انطاكيه وبعد قتال شديد وهجوم ودفاع كاد ينتصر فيه المسلمون ولما كان في الاسلام من النفره لصاحب الموصل تمت هزيمتهم وكان كربوغا في أوائلهم وذلك في ٢٩ يونيه سنة ١٠٩٨ وغنم الافرنج غنائم لاتحصي وجمعوا مالا غزيراً فعادوا الى انطاكيه بثروة عظيمه ثم ان من كان في القلعة لما علموا بهزيمة الجيوش الاسلاميه القوا سلاحهم وساموها فوقع بين بوهيموند أمير انطاكيه وبين الكونت دي طولوز نفور وخصام بشأن تملكها ثم انتشبت في الصليبيين الامراض الوبائية حتى مات منهم كثيرون ومات أيضاً القائد ادهار دي مونتيل أسقف بوي ودفن في كنيسة ماري بطرس محل وجود الحربة ثم ساروا الصليبيون الى معرة النعمان وحاصروها حتى كلوا ثم امتلكوها وانحشوا في استباحتها

﴿ مسير الصليبيين من انطاكية قاصدين بيت المقدس ﴾

بعد مضي نحو الستة شهور من استيلائهم على انطاكية ساروا الى جهة سوريا العليا واجتازوا مقاطعة قيسارية وحماه وحمص وكانت أهالي البلاد تقابلهم بالترحاب تلافياً لعدائهم وهكذا ساروا مسرعين الى ان وصلوا مدينة اركاس الكائنة عند سفح جبل لبنان فرفض أهاليها تسليمها ولذلك حاصرها قسم من الصليبيين تحت قيادة رايموند وتنكريد والدوك دي نورمنديا وعساكر الكونت دي طولوز

وقسم آخر من عساكر فلاندرا وهولاندا وانكلترا وبوهيموند سار الى ان وصل الى اللاذقية وهناك رجع بوهيموند الى انطاكية ولايته واعداً اياهم بان يتبعهم فيما بعد ويدركهم عند أسوار بيت المقدس

وقسم ثالث برئاسة غودافرو واسطاكيوس سار الى ان وصل الى جبله التي على شط البحر قريبة من اللاذقية وحاصرها بقوة

وقسم رابع برئاسة رايموند دي طوران حاصر طرطوز وامتلكها بعد هروب اهلها فالقسم الاول بعد محاصرته مدينة اركاس كما ذكر لم يتمكن من أخذها ففي آخر شهر مايو سنة ١٠٩٩ فقد صبرهم فساروا نحو فلسطين فقابلهم أمير مدينة طرابلس وبعد ان حاربوه وتغلبوا عليه صالحهم على مال وساروا قاصدين بيت المقدس ثم تقابل جميع الصليبيين وساروا معاً الى ان وصلوا الى عكا وحينئذ خرج واليها الذي كان تابعاً لخليفة مصر وأعلمهم بانه مستعد لتسليمهم المدينة

عندما يستولون على بيت المقدس ولذلك تركوه الى ان وصلوا عمواس القديمة وهناك قابلهم وفد من اهالي بيت لحم وطلبوا اغاثتهم فتوجه معهم الامير تنكريد ليلا ومعه ثلثمائة نفر الى ان دخلها ليلا ووضع رايته عليها ثم ارتجع ولحق بقومه وهكذا ساروا الى ان وصلوا الى مدينة اوروشليم

﴿ محاصرة الصليبين لبيت المقدس واستيلاؤهم عليه ﴾

كان بيت المقدس تابعاً لمملكة مصر السعيدة وكان الحاكم عليه افتخار الدولة من قبل الخليفة المستعلي بالله العلوي وكان قد أمر ببناء ما تهدم من السور وقت استيلاء الافضل بن بدر الدين قائد الجيوش المصرية من الامير سقمان بن ارتق واستعداداً بما يلزم للحصار ولما وصلت الصليبيون الى المدينة انعقد مجلس مشورتهم وقرر حصار بيت المقدس فكان كما يأتي في شمال المدينة دوك دي نورمنديا وكونت دي فلاندرا وتنكريد اي من باب هيردوس الى باب القديس اسطفانوس وكان غودافرو واسطاكيوس وبودوين دي بورغ حول جبل الجلجله من باب دمشق الى باب يافا وكان الكونت دي طولوز ورايمود دي أورانج وغليوم دي مونت بلير وغاسطون دي بيرا على يمين غدافرو على جبل صهيون قبلي المدينة الى الغرب وهكذا أقيم الحصار مدة من الايام ثم انهم هجموا هجمة قوية على سور المدينة القديم بقصد هدمه فاخذ فريق منهم يهدم السور وفريق يدافع الى ان هدموا معظمه ودخلوا منه وارادوا هدم السور الداخلي فما أمكنهم ثم افتكروا في كيفية استيلائهم على المدينة وأخيراً قرروا بان يتسلقوا السور بالسلالم الجلد والحبال التي معهم بكثرة وأخذوا يرمون السلالم على شرافات السور فتتعلق به وبهذه الواسطة صعد الى السور منهم كثيرون ولما نظروهم عساكر الاسلام هجموا عليهم بأعلى السور واقتتلا الفريقان ودارة الدائرة على الصليبين الذين فروا الى معسكرهم بواسطة السلالم أيضاً ومن هذا الوقت افتكروا بانه يلزمهم منجانيقات للقذف بها على السور والمدينة فاخذوا يبحثون على الاخشاب اللازمة لذلك حتى انهم هدموا منازل القرى المجاورة للمدينة وأخذوا أخشاب السقوف وكان ذلك في فصل الصيف وفي شدة الحر وعدم وجود مياه كافيه لسقياهم لان حاكم المدينة كان امر بهدم الصهاريج التي بالخارج فنابهم ظماء شديد لان نهر سلوان الذي كانوا يستقون منه كانت مياهه شحيحة ولم تكن تجري دائماً

وكانت قد وردت أخبار للصليبين تبشرهم بان قد جاءتهم المراكب تحمل ذخائر

وغيرها من جنوى فشملهم الفرح والسرور وسار منهم قسم لاجل استحضار ذلك ولما توجهوا الى ناحية جوبه وجدوا مراكب الاسلام قد داهمت مراكبهم وحرقتها وكان ذلك بعد اخراج الذخائر الى البر ثم انهم نقلوا هذه الذخائر مع آلات الحرب ومن حصر معهم من المهندسين وتوجهوا الى بيت المقدس وكان أيضاً احد اهالي سوريا قد دل الصليبين على حرش بعيد عن المدينة بمسافة ثلاثين ميلا في جبل بين وادي شخيم ووادي السامره فانطلق منهم قسم الى هناك وقطعوا اخشاب الحرش وحملوها على عربات تجرها البقر ولذلك صنعوا ثلاثة ابراج من الخشب كل برج ثلاث طبقات حتى صارت الابراج أعلى من سور البلد وعمل على الابراج جسر ولذلك فرح الصليبيون فرحا شديداً ثم عقدوا مجلس مشورتهم ليعينوا يوم الهجوم وكيفيته وهذا المجلس قرر تغيير مواضع الحصار فنقلوا الابراج الخشبية الى شرقي المدينة عند باب سيدار تحت رئاسة دوك دي لورين وأقاموا المنجانيقات والاكباش تحت رئاسة تنكريد وروبارتوس من باب دمشق والبرج المقرن الذي دعي فيما بعد ببرج تنكريد

وفي يوم الخميس ١٤ يوليه سنة ١٠٩٩ هجم الصليبيون هجمة شديدة على كل جهات المدينة خصوصاً الابراج الخشبية التي كانوا يجرونها بعجل الى أي جهة يريدونها وكانت مملوءة بالمحاربين تحت رئاسة غودافرو وأخيه اسطاكيوس وبودوين دي بورغ اللذين كانا بالبرج الاعلى وكانوا يصدرون أوامر الحرب من أعلا هذا البرج فيهجمون بالابراج على أسوار المدينة وكذلك رؤساء المنجنيقات كانوا يتابعون الرمي بها بسرعة وعساكر الاسلام تقابلهم كالاسود ولا يبالون من هذه الهجمات وكانوا يرمون الصليبيين بالمواد الملتهبة ومشتعلة بالزيت وكانت مركبة على الابراج آلات حربية كبيرة لصد هجمات الصليبيين وظل الفريقان في هجوم ودفاع طول اليوم المذكور بدون ان يظهر النصر لفريق منهم

وفي صباح اليوم الثاني بادر الفريقان للمحاربة واشتدت هجمات الصليبيين على المدينة ولكن حسن دفاع المسلمين منعهم من التقدم الى السور فكان المسلمون قد وجهوا قوتهم ضد من في البرج الاعلى الذي كان فيه غودافرو ومن معه حتى أنهم قتلوا اكثر عساكر دوك دي لورين وكان رايموند من ناحية المدينة القبلية مع جماعة يباشروا أعمالهم الحربية بصورة عديمة الوصف وكان تنكريد وروبارتوس من الجهة الشماليه وهكذا صار القتال منتشباً بينهم وكان الانتصار لجيش المسلمين الا ان

الصليبين رموا ناراً من الابراج الخشبية على آلات الحروب المركبة على السور فالتهبت وزادها الريح التهاباً وتطاير الشرار والدخان على عساكر الاسلام فاضطروا للتأخر عن الأسوار ولذلك نزل دوك دي لورين وغودافرو من الابراج ومعهم عساكرهم الى الاسوار وصاروا يقتلون من المسلمين من يجدوه ثم اتبعهم كثير من عساكر الصليبيين الذين كسروا باب القديس اسطفانوس بالفؤوس والمعاول ودخلت منه باقي العساكر الصليبية وكان ذلك في ١٥ يوليوسنة ١٠٩٩ لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ وكانت مدة حصار المدينة أربعين يوما. ثم ان العساكر الصليبية فتكوا بالمسلمين فتكا ذريعاً وصاروا يقتلون الرجال والنساء والكبار والصغار والبنين والبنات وقتلوا داخل المسجد ما ينوف عن سبعين الفاً من المجاورين فيهم العلماء والزهاد والعباد حتى كانت الجثث ملقاة في الازقة والأسواق وأخذوا من المسجد نيفاً واربعين قنديلا من الفضة زنة كل واحد ثلاثة آلاف وستمائة درهم و ١٥٠ قنديلا من الصغار وتنوراً من الفضة زنته أربعون رطلا شامياً وغير ذلك مما لايحصى واعتصم باقي الاسلام بمحراب داود عليه السلام حتى استأمنوا وخرجوا ليلا الى عسقلان وكان السبب في ذلك انه انعقد مجلس مشورة الصليبيين وقرر بان يقتل كل مسلم أو يهودي باق في المدينة فخرج المسلمون بعد الاستئمان والتجأ اليهود الى كنيسهم فحرقوا الصليبيون جميع الحي بما فيه الكنيس ومن فيها

وبعد ذلك انعقد مجلس مشورتهم لانتخاب أحدهم ليكون ملكا على بيت المقدس وبعد مجادلات ومعارضات تم انتخاب أربعة وهم غود افرو ورايموندو دوك نورماندیا وتنكريد وأخيراً عينوا لجنة من الكهنة وغيرهم عددها عشرة لاجل ان ينتخبوا واحداً من الاربعة المذكورين فانعقدت اللجنة وقررت انتخاب القائد غودافرو ولما أرادوا تتويجه ليكون ملكا على بيت المقدس أبى ان يلبس التاج قائلا لايمكنه ان يضع على رأسه تاجا من ذهب مرصعاً بحجارة كريمة في بلد توج فيها المسيح باكليل من شوك وأبى ان يلقب بملك القدس بل (بحامي قبر المسيح)

﴿ واقعة عسقلان وانتصار الصليبين فيها ﴾

بعد ان تملك الصليبيون بيت المقدس وصل صريخ الاسلام الى الخليفة المقتدي ببغداد مستغيثين به فارسل وفداً الى السلطان بركيارق مؤلف من أبي محمد الدامغاني وأبي بكر الشاشي وابي القاسم الزنجاني وأبي الوفاء بن عقيد وأبي سعد الحلواني وأبي الحسين بن السماك فساروا الى بركيارق يستصرخونه للمسلمين فانتهوا الى حلوان

(غير حلوان مصر) وبلغهم مقتل مجد الملك البارسلان وفتنة بركيارق مع أخيه محمد فرجعوا وكانت قد وصلت الاخبار الى مصر فاضطربت وأصبحت تخشى أن يصيبها مثل ذلك فسار أمير الجيوش الافضل الى سوريا لمحاربة الصليبيين وكانت أخباره وصلت الى بيت المقدس فخرج غودافرو ومعه تنكريد والكونت دي فلاندرا وروبارتوس دي نورمنديا ورايموند دي طولوز وبطريق أورشليم الجديد ارنول وساروا قاصدين الجيوش المصرية الذين قابلوهم بجوار مدينة عسقلان وهناك اقام كل من الفريقين خيامه واصطفت العساكر لكل فريق قلباً وجناحين واقتتل الجيشان قتالاً شديداً كان النصر فيه للصليبيين وانهزمت العساكر الاسلامية بعد ان قتل أكثرها ودخلت مدينة عسقلان ثم بعد انتهاء هذه المعركة رجعت الجيوش الصليبية الى أورشليم مسرورة لحصولهم على النصر وأمامهم الطبول تعزف

﴿انتهاء الحروب الصليبية الاولى وسفرهم الى أوطانهم﴾

بعد النصر الذي حصل للصليبيين في سهل عسقلان ورجوعهم الى بيت المقدس حصل شقاق بين أمراء الاسلام على انه كان الواجب في مثل هذه الاحوال ان يتحدوا يداً واحدة لمقاومة الاغراب لكنهم جاؤا بالعكس فانقسمت الآراء وتشتت القوات تحارب بعضها بعضا لاسباب واهية . وعلم الصليبيون بانه لم يوجد أحد من المسلمين يحاربهم طلبوا الرحيل الى أوطانهم تاركين مدينة أورشليم وفيها غودافرو والامير تنكريد الذين رغبوا ان تكون وطناً جديداً لهم يقضوا فيه باقي أيام حياتهم وهكذا انقضت الحروب الصليبية الاولى التي استمرت أربع سنوات استولوا فيها على بلاد الروم الشرقية اي بر الاناضول والارمن وانطاكيه وبيت المقدس واكثر بلاد سوريا وبلاد ما بين النهرين (أي حكومة بودوين المستقلة) ولما رجع باقي الجيوش الصليبية الى ممالكهم باوروبا ومقاطعاتهم جاءت أهاليها اليهم فرحين بمقابلتهم ولما علموا بان الصليبيين جميعهم (ما عدا البعض الذي سافر الى وطنه) قد قتلوا ودفنوا في أسيا أخذوا يندبون ويولولون حتى انه لم تخل عائلة من نواح وبكاء وكذلك سافر بطرس السائح الى ديره على نهر موزا واقام هناك الى ان مات

﴿الحروب الصليبية الجديدة﴾

بعد وصول الصليبيين الاول الى بلادهم اتقدت الغيرة بين رؤساء العساكر الذين كانوا اقاموا باوروبا ولم يسافروا معهم ولذلك عزموا على تجريد حملة ثانية والتوجه

الى البلاد الشرقية كي يتحصلوا على الانتصار والأمتلاك مثل من سبقوهم فلذلك حملوا الصلبان كعادتهم وتجمعوا من كل مملكة فكان من مملكة فرانسا أخو سلطانها واسطفانوس كونت دي بولوز تحت رئاسة غويليوم التاسع كونت دي بواتير ومن ايطاليا الكونت دي بلاندراس البرتوس وانسلموس رئيس اساقفة مدبولان بجيوشهم الكثيرة العدد ومن مملكة النمسا الكونت كوراد قائد جيوش الملك اريكوس وفولف الرابع دوك دي بافيريا والامير ايضا ومرغرادي اوستريا وغيرهم وسار الجميع بجيوشهم الكثيفة الى ان وصلوا الى القسطنطينية فملك القسطنطينية الكسيوس خاف من غوائل الصليبيين فاستدعى رايموند دي طولوز الذي كان وقتئذ واليا على اللاذقية من قبله ولما حضر رايموند المذكور منع الصليبيين من العيث ووعدهم بانه سيكون رائدهم في طريق أسيا الصغرى ثم انهم عبروا الى البر الثاني وهناك انقسموا ثلاثة أقسام

فالقسم الاول كان برئاسة رايموند دي سان حيلاس ودوك دي بورغونيا والكونت دي شارتراس ورئيس أساقفة مدبولان والكونت دي بلاندراس وكان رئيس أساقفة مدبولان حاملا الذخيرة المقدسة وهي ذراع القديس امبراتيوس التي جاء بها من أوروبا ورايموند كان أخذ معه الحربة المقدسة التي وجدوها بانطاكيه فهذا القسم الذي كان مؤلفاً من مائة الف عسكري بعد ان أخذ مدينة ايكوريه قام لمقاتلته سلطان نيقيه وبلاد الروم الامير قليج أرسلان وبصحبته صاحب الموصل الامير كربوغا فجمعوا جيوشهم وهجموا على هؤلاء الصليبيين هجمة صادقة واشتبكت المعركة بين الجهتين في أرض هاليس وبعد قتال شديد فازت العساكر الاسلامية بالنصر وشتتوا الصليبيين وبددوهم ففروا هاربين في القفار الى قرب مدينة سينوبيا حيث تقابل كل من الكونت دي بلواز وفرايموند دي سان حيلاس ودوك بورغونيا وجمعوا حولهم فضلات قليلة من باقي جيوشهم . وأما القسم الثاني فكان برئاسة الكونت دي نافار وسار متقدما في المسير الى مدينة اينكوريا قاصدين مدينة هيراكليا وهناك صادفهم عساكر الاتراك المذكورون قبله وحملوا عليهم الى ان بددوهم عن آخرهم

وأما القسم الثالث البالغ قدره مائة وخمسين الف مقاتل تحت رئاسة الكونت دي بواتير والدوك دي بافيريا وهوكزدي فرمندوس فبعد ان امتلكوا مدينتي فيلوميليوم وساماليا ساروا نحو مدينة سنتكون مجتهدين في اتحادهم بعسكر القسم الثاني واذا

بعساكر قليج ارسلان وعساكر الامير كربوغا الاسلامية قد حملوا عليهم واقتتل الفريقان وكانت معركة مخيفة لان عساكر الاسلام اعملوا في الصليبيين السيف حتى قتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم اكثر من الف شخص وفر الكونت دي فرمندوس من هذه المعركة مجروحا الى ترسوس حيث مات هناك واما دوك دي بافيرا وكونت دي بواتيه فتاها هاربين من مكان لآخر حتى دخلا انطاكيه التي كان قد سبقهم اليها كونت دي نافار هاربا وهناك اجتمع بقايا الصليبيين الذين نجوا من هذه الوقائع وكان عددهم عشرة آلاف قاصدين مدينة أورشليم أي القدس ثم حصلت لهم وقائع أخرى باراضي فلسطين بقرب مدينة الرمله انكسر فيها الصليبيون بأيدي عساكر الاسلام وفي هذه الواقعة قتل دوك بورغونيا والكونت دي بلواز ثم ساروا قاصدين أوطانهم مخذولين وسيأتي بيان هذه الواقعة سنة ٤٩٦ه وسنة ١١٠٢ أفرنكيه مع العساكر المصرية

﴿ محاصرة غودافرو مدينة ارسور ﴾

بعد ان تملك القدس غودافرو كما تقدم صار يرتب أحكامه كما يتراءى له وصدر أمره بان كل شخص يضع يده على منزل أو أرض يحرثها سنة كاملة ويوماً تكون له ملكا طلقاً شرعياً وكذلك كل من غاب عن عقاراته سنة ويوماً توخذ منه ولا يكون له حق فيها مطلقاً ثم انه رتب جزية على الامراء المسلمين الذين كانوا قد خضعوا له مثل أمراء قيساريه وغيرها وأيضاً صد قوة العرب شمالي نهر الاردن ثم سار الى مدينة ارسور وحاصرها حصاراً شديداً لانها لم تخضع له ولما كان الحصار صعباً جداً على المدينة وكان أهل المدينه أخذوا جيرارد دي افاسناس أسيراً ثم انهم أدلوه بحبل أمام غودافرو وصرخ طالباً من غودافرو ان يبقي حياته بواسطة رجوعه عن هذه المدينة وعدم حصارها فاجابه غوافرو على الفور بانه لو كان أخوه اسطاكيوس نفسه وطلب ذلك ما أمكنه قط وقال له الاحسن ان تسلم نفسك للموت بدل اخوانك الصليبيين ثم بعد ذلك قتلوه . ثم ان غودافرو شدد الحصار على المدينة ولكن هذا الحصار لم يكسبه شيئاً لان آلات حربه حرقت عن آخرها بواسطة النار التي قذفت عليهم من داخل المدينة وحينئذ غودافرو قطع الامل من الاستيلاء على هذه المدينة ورفع الحصار عنها ورجع الى القدس

﴿ اجتماع الامراء الصليبيين بالقدس وانتخاب قانون لحكومتها ﴾

بعد رجوع غودافرو الى القدس اتته الاخبار بان عدداً عظيما من أهل بيزا

وجنوى التابعين لايطاليا برفقة رئيس أساقفة بيزا دبيارتوس بصفته نائب بابوي والاسقف اريانوس قاصدين القدس للزيارة في عيد الميلاد ثم حضر أيضاً الى القدس كل من بوهيموند أمير انطاكية وبودوين أمير الرها ورايموند دي طولوز وكثيرون من القواد والرؤساء ثم ان غودافرو افتكر بان يعمل قانوناً لحكومته لترتيبها وتنسيقها فاغتنم فرصة وجود الامراء المذكورين فعقد جمعية في قصره الكائن في جبل صهيون بالقرب من كنيسة قبر المسيح وأعلمهم بما أصر عليه من ترتيب الحكومة بقانون يبين حقوق السلطان والموظفين والاشراف (القواد) والرعية كلا منهم بما يخصه ويلزمه فبينوا ثلاثة دواوين فالديوان الاول يعقد برياسة السلطان وتكون أعضاؤه القواد لاصدار الاحكام والترتيبات الشاملة جميع الرعية . والديوان الثاني يكون رئيسه قائمقام القدس وأعضاؤه أعيان المدن الكبار لكل مدينة عضو ويكون اختصاصه النظر في الايرادات والمصروفات وترتيب الحقوق والتدابير المدنية. والديوان الثالث للقضاء وهو يختص بالدعاوي التي ترفع على الشرقيين ويكون رئيسه أحد قضاة البلاد لاصدار أحكامه بما يطابق عوائدهم وهكذا انتهى هذا المجلس وقد حفظوا أصل القرار داخل كنيسة القيامة ثم تعين دبيارتوس رئيس أساقفة بيزا بطريركا على القدس خلفاً لارنولد بطريركها المتوفي

﴿ موت غودافرو سلطان القدس ﴾

بعد انتهاء مجلس الامراء المذكور سافر كل منهم الى محله ثم توجه غودافرو مع تنكريد بجيشهما الى طبرية وامتلكوها واقام تنكريد حاكما عليها ثم رجع غودافرو الى القدس وبعد أيام قليلة حصل له مرض شديد فجمع حوله القواد والكهنة وحرضهم على اتمام واجباتهم وأخذ عليهم الاقسام بدوام محاربتهم المسلمين ودوام محاماتهم عن البلاد التي امتلكوها لآخر حياتهم وبعد أيام قليلة فاضت روحه في ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ فبكاه الجميع لما كان موصوفاً به من العدل واحتفلوا بجنازته ودفنوه باكرام بحذاء جبل الجلجله بكنيسة القيامة بالقرب من قبر المسيح (كاعتقادهم) وقبره هناك يزوره الزوار العربيون الآن

﴿ انتخاب بودوين سلطاناً للقدس ﴾

بعد موت غودافروا طمع فى هذه الوظيفة دبيارتوس البطريرك وارسل الى بوهيموند بانطاكية لمساعدته على ذلك ثم جمع القواد والرؤساء وعقدوا مجلساً

لاجل انتخاب سلطان عليهم بدل المتوفي مقدماً نفسه لهذه الوظيفة السامية وحينئذ اهـل المجلس رفضوا تعيينه عليهم سلطاناً وكذلك بوهيموند ارسل اليه برفض المساعدة ثم ان هذا المجلس قرر باتحاد الاراء انتخاب بودوين ملك الرها وشقيق غودافرو ليكون سلطاناً عليهم ثم أعلموه بذلك فقبل هذا الانتخاب وعين بدله ابن عمه بودوين دي بورغ ملكا على مابين النهرين (الرها) وسارهو قاصداً القدس ومعه جيشه فتقابل مع دقاق أمـير دمشق وجناح الدولة أمير حمص بعيداً عن بيروت بمقدار تسعة أميال وتحاربوا وانتهت الحرب بهزيمة المسلمين وسار بودوين الى ان وصل الى القدس ودخلها باحتفال عظيم اقامه له أهل المدينة

ثم ان بودوين اراد ان يوسع مملكته فأخذ جيشه وسار قاصداً مدينة عسقلان ليمتلكها وبعد قتالها انهزم راجعاً الى القدس وشرع في تتويجه ببيت لحم ولبس التاج الملوكي وكان الأمير تنكريد والي طبريه لم يعترف بتملك بودوين على القدس لما بينهما من العداوة القديمة التي ظهرت بناحية طرسوس كما تقدم وكان بودوين يرغب مصالحة تنكريد ولكونه سلطاناً لم يسمح بالتنازل وطلب الصلح من تنكريد غـير ان المصالحة تمت بينهما عند مقابلتهما معاً بميناء حيفا فتصافحا وتعانقا ولكون بوهيموند امير انطاكيه قد وقع اسيراً في يد المسلمين كما يأتي في اخباره وظلت انطاكيه خالية من حاكم فحينئذ تعين تنكريد حاكما على انطاكيه

ثم انه جاءت مراكب من ناحية جنوى مشحونة بالعساكر الذين وعدهم بودوين بانه يحارب معهم وكل ما يمتلكه من الغنايم يعطيهم ثلثه وكل بلد يمتلكها يجعل لهم فيها طريقاً باسم اهالي جنوى ثم سار معهم وامتلك مدينة ارسور (لعلها ارسوف) سنة ١١٠١ التي لم يقدر اخوه غودافرو على امتلاكها ثم سار وانتصر على مدينتي اوباتريدا وقيساريه ثم سار قاصداً عسقلان وكانت مصر قـد ارسلت جيشاً بقيادة سعد الدولة فسار الجيش وما زالوا حتى التقوا بالجيوش الصليبيه عنـد اسوار عسقلان فحاربوها فارجعوها على اعقابها

﴿ خلافة الآمر باحكام الله وواقعة عسقلان ﴾

في يوم الثلاثاء ١٧ صـفر سنة ٤٠٥ هـ توفى الخليفة العـلوى المستعلى بالله بالقاهرة بعد ان حكم سبع سنوات وشهرين وله ولد اسمه المنصور لم يبلغ السادسة من عمره بوصاية شاهين شاه الذي كان وصياً على المستعلى أيضاً وكان قد عهد اليه ان يلقبه عنـد مبايعته بالآمر باحكام الله ففعل وكان ذلك موافق سنة ١١٠١

افرنكيه ثم بعث الافضل أمير الجيوش بمصر ابنه شرف المعالي بالعساكر الى عسقلان فتقابل مع بودوين ملك القدس بالرمله وكان معه بقايا الجيوش الصليبية الثانية الذي كان قد هلكهم قليج ارسلان وكربوغا كما تقدم برئاسة كل من فولف الرابع دوك دي بافيرا وغيلوم التاسع كونت دي بوالسير وجفرو دي باندوم وهوكز دي لوزينان وادواس دوك دي بورغونيا واستفانوس كونت دي بلواز واورين كونت دي باري واشتبك بينهم الحرب وقتل من الصليبيين في الحرب استفانوس كونت دي بلواز وادواس دوك دي بورغونيا واورين دي باري وقع أسيراً ثم مات واختفى بودوين في الشجر ونجا الى الرملة مع جماعة من زعماء الافرنج فحاصرهم شرف المعالي خمسة عشر يوماً حتى أخذهم فقتل منهم اربعمائة وبعث ثلثمائة الى مصر ونجا بودوين الى يافا ووصل في البحر جموع من الافرنج للزيارة فندبهم بودوين للغزو وسار بهم الى عسقلان وهناك حاربوا الرمله التي كانت استولت عليها عساكر الاسلام وامتلكوها ورجع بودوين الى القدس

﴿ بوهيموند أمير انطاكية وما جرى له ﴾

في سنة ١١٠١ وقع بوهيموند أسيراً بيد الاسلام وصارت انطاكية خالية من حاكم الى ان حصل الصلح بين بودوين وتنكريد كما تقدم وتعين تنكريد حاكما على انطاكيا ثم في سنة ١١٠٣ نجا بوهيموند من الاسر بعد ان أقام بالاسر سنتين ونصفاً وأتى الى انطاكيا وكان بوهيموند مستقلا بانطاكية لا يعترف بسيادة القدس على مدينته ولذلك تحارب مع الملك الكسيوس ملك الروم مرات كثيرة كان النصر بينهم سجالا تارة الى بوهيموند وتارة الى ملك الروم ثم ان بوهيموند اتحد مع بودوين دي بورغ ملك الرها وجوسلين دي كورتناي وتنكريد لكي يحاربوا مدينة حران الكائنة بين النهرين وساروا الى أن وصلوا حران وكادوا يملكونها فحينئذ وقع الخلاف بينهم لان كلا منهم كان يريد امتلاكها باسمه حتى كادوا ان يحارب بعضهم بعضاً وبينما كانوا في هذه المخاصمة واذا بعساكر اسلامية أتتهم من الموصل وماردين فضربوا عليهم حصاراً من كل الجهات وحملوا عليهم حملة صادقة كادت أن تبيدهم عن آخرهم فوقع بودوين دي بورغ أسيراً وكذلك جوسلين عند الامير سقمان وأما بوهيموند وتنكريد ففرا من الموت هاربين الى ان وصلا مع القليلين الذين نجوا من الذبح الى انطاكية . ثم ان بوهيموند وجد نفسه واقعاً بين قوتين لا قدرة له عليهما ولا يمكن ان يحمي نفسه منهما وهما الكسيوس ملك الروم من جهة

والعساكر الاسلامية من جهة أخرى فاضطر الى الهرب الى أوروبا كي يحرك أهل الغرب الى معونته ولكي يخفي عن أعدائه هذا التدبير الذي عزم عليه قد أشاع عن نفسه بأنه مات واختفى في مكان مجهول في سنة ١١٠٤ وبعد ذلك لبس ثوباً حزناً ونزل في مركب وسار من وسط مراكب ملك الروم بدون معلومية أحد به الى ان وصل مدينة كورفو وصعد من المركب الى البر وأرسل يقول الى القائد الرومي بان يخبر ملكه بان بوهيموند قد قام من الموت وعن قريب يشاهده في القتال ثم وصل الى ايطاليا وانطرح على اقدام البابا بسكوال الثاني وطلب منه المعونة والمساعدة فقبله البابا وسلمه سنجق (علم) القديس بطرس الرسول ووعده بالاسعاف ثم سار بوهيموند الى ان وصل الى مملكة فرنسا فصادف في البلاط الملوكي استقبالا عظيما وأكرمه ملك فرنسا فيليب الاول اكراماً زائداً وزوجه ابنته قسطانسا سنة ١١٠٦ ثم جهزه ملك فرنسا بجيوش كثيرة وقد استحصل أيضاً على جيوش اسبانية ثم سار الى ان وصل ايطاليا فتبعه جيش عظيم ثم انه نزل بالمراكب من مدينة باري باقليم نابولي التابع مملكة ايطاليا ثم انه طلع على بلاد الروم وحاصر مدينة دورالسيوس سنة ١١١١ وأما بودوين دي بورغ ونسيبه جوسلين فبعد أسرهما خمس سنوات رجعا الى ولايتهما وكان أخذهما جكرمس من سقمان الذي أسرهما ثم أخذهما جاولي ملك الموصل وأطلقهما بشروط منها أن يطلقا الأسرى المسلمين الذين ببلادهما وان يمدوه بنفسهما وبعساكرهما متى احتاج الى ذلك وعلى مال دفعاه قدره ثلاثون الف دينار

﴿ أستيلاء الافرنج على عكا ﴾

ان بودوين اراد اتساع مملكته خصوصاً ببلاد الساحل لتتصل بلاده ببلاد اوروبا فلذلك عزم على محاربة مدينة عكا وامتلاكها فجمع جيشه وجيش جنوى الذي كان قادماً للزيارة بمراكبه وطلب اليهم بودوين المساعدة في الحرب ولهم ثلث المكسب فسار بهم وبرجاله قاصداً مدينة عكا فلما وصل حاصرها براً بجيشه وحاصرها بحراً بمراكب الجنويين البالغ عددها سبعين مركباً وكان ذلك سنة ١١٠٤ الموافقة سنة ٤٩٧ هجريه وكانت عكا في ذلك الحين تابعة لمصر وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالجيوشي لانه كان من اتباع امير الجيوش وطال امد الحصار حتى مل الصليبيون الانتظار وبعد حصول معارك كثيرة اظهر فيها المسلمون شجاعة عجيبة وانتهى الامر بان طلب الامير زاهر الى بودوين الصلح على تسليم المدينة بشرط ان يخرج المسلمون

بامتعتهم فقبل بودوين ذلك منهم واعطاهم امانا ولذلك رموا له بمفاتيح المدينة من فوق السور واما الجنويون الذين كانو بالمراكب فانهم لما نظروا غنى اهل المدينه لم يعتبروا الامان الذي اعطاه بودوين وهجموا على اهل البلديسلبون ويقتلون واخذ بودوين يتوسل الى الجنويين ليمتنعوا عن الفتك باهل المدينه فما أمكنه وفر الامير زاهر الى مدينه دمشق ومنها الي مصر

﴿ محاصرة مدينة طرابلس ﴾

كان رايموند دي طولوز (مؤرخو العرب يقولون صنجيل) قد لازم حصار طرابلس وزحف اليه قليج ارسلان صاحب بلاد الروم فظفر به وعاد رايموند مهزوما وفي سنة ٤٩٥ هـ الموافقة سنة ١١٠١ م حاصر المدينة رايموند وشدد الحصار وأعانه أهل الجبل والمسيحيون من أهل سوادها ثم صالحه الامير فخر الدولة ابن عمار صاحبها على مال وخيل ورحل عنها رايموند الى طرسوس فحاصرها وملكها عنوة واستباحها ثم سار الى حصن الطومار وصاحبه ابن العريض فامتنع عليهم وقاتلهم رايموند فهزموا عسكره وأسروا زعيما من زعماء الافرنج افتداه رايموند بعشرة آلاف دينار والف أسير

وفي سنة ٤٩٧ الموافقه ١١٠٣ م سار رايموند وقد جاءته أمداد الافرنج بحراً الى طرابلس فحاصرها براً وبحراً فلم يجد فيها مطمعاً فعاد عنها الى جبيل وتسلمها بالامان من صاحبها ابن صايحه ثم سار رايموند المعروف عند العرب بصنجيل الى طرابلس فحاصرها وبنى بالقرب منها حصناً وبنى تحته ربضاً وهو المعروف بحصن صنجيل فخرج ابن عمار صاحب طرابلس فأحرق الربض ووقف رايموند على بعض سقوفه المحروقة فانخسف به فمرض وبقي عشرة أيام ومات فحمل الى القدس ودفن فيه ودامت الحرب بين أهل طرابلس والافرنج خمس سنين وظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظيم الى ان قلت الاقوات وافتقر الاغنياء

وفي سنة ٥٠١ الموافقة سنة ١١٠٧ م توجه فخر الدولة ابو علي بن عمار من طرابلس الى بغداد مستنفراً لما حل بطرابلس وبالشام من الافرنج واجتمع بالسلطان محمد ملك شاه وبالخليفة المقتدر فلم يتحصل منهما على فائدة فعاد الى دمشق وأقام عند طغتكين ثم احتمى أهل طرابلس بخليفة مصر الآمر بأحكام الله فحماهم وبعث الافضل الى طرابلس احد أوليائه وتملكها باسم خليفة مصر وأرسل اليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع عنها الصليبيين فتأخر وصولها لمعاكسة الريح لها الى ان أتي

بارترآند بن رايموند من أوروبا بعمارة بحرية قوية فحاصر المدينة ودخلها عنوة في ١١ ذي الحجه سنة ٥٠٣ الموافق ٢ يوليه ١١١٠ وقتل قسما من أهلها واستعبد القسم الآخر وصارت طرابلس ملكا لبارترآند بن رايموند دي طولوز

﴿ باقي ولاية بودوين الاول على القدس ﴾

استقر بودوين في مملكته بعد سفر أهل بيزا وجنوى بمراكبهم مستقلا ببلاده مدافعاً عنها صاداً هجمات المسلمين الذين كانوا قد استولوا على بلاده وكادت أن تنصب أعلامهم فوق جبل صهيون نفسه ولكن جاءت امداد الصليبيين الى بودوين فأسعفته وردت المسلمين عن بلاده ثم سار بودوين الى بيروت وحاصرها براً وبحراً شهرين في سنة ١١١٠ فملكها بالسيف وقتل منها نفراً كثيراً وطارت شهرة الانتصارات الصليبية الى أقصى بلاد اوروبا حتى جاء الى القدس ماينوف عن عشرة آلاف عسكري نرويجي بقيادة ملكهم سيفور بن ماينوس الثالث في عمارة مؤلفه من مئتي مركب وكانت قد خرجت هذه العمارة من مملكة نروج في شمالي أوروبا وسارت في البحر المحيط (لعله الاوقيانوس الاطلانطيكي) تائهة ثلاث سنوات الى ان وصلت الى مدينة يافا سنة ١١١٠ فلما علم بودوين بوصولهم ذهب لملاقاتهم واستحلفهم بان يجاهدوا معه فقبل سيفور طلبه هذا بدون مكافأة سوى قطعة من خشب صليب الصلبوت وساروا الى ان وصلوا الى القدس وبعد أيام قاموا قاصدين مدينة صيدا فحاصروها مدة ستة أسابيع أظهر أهلها في أثناءها الشجاعة والقوة وأخيراً امتلكها الصليبيون وغنموا منها غنائم عظيمة اقتسمها كل من بودوين ملك القدس وسيفور ملك النروج وأخذ الملك سيفور قطعة من صليب الصلبوت وسافر الى بلاده فرحاً مسروراً بهذه الذخيرة المقدسة التي وضعها في كنيسة دورتيم

ولما رجع بودوين الى عاصمة ملكه علم بان جيرفيز حاكم طبريه قد وقع أسيراً في أيدي المسلمين فشمله الحزن الشديد لانه كان يحبه محبة عظيمة وبعد ذلك وردت رسل من عسكر المسلمين الى بودوين يطلبون منه فدية حبيبه المذكور وان تكون الفدية ان يرد اليهم عكا ويافا وغيرها فرد بودوين الجواب اليهم قائلا انني بطيب خاطر أفديه منكم بمال عظيم أدفعه لكم وأما البلاد فلا أعطيها لكم ولو كانت فدية عن أخي نفسه أو عن جميع الامراء الصليبيين ولما رجعت الرسل الى دمشق بهذا الجواب قتلوا جيرفيز ومن معه

وفي سنة ١١١٢ مات تنكريد قائمقام انطاكية فحزن عليه بودوين وباقي

الامراء الصليبيين ثم حصل تغير في الجو ونزل ضباب لهبي أحرق المزروعات وبسبب ذلك حصل قحط ومجاعة ثم حصلت زلازل شديدة هدمت جملة مدن من أقليم كليكيا وكذلك الابراج التي حول سور مدينة الرها وقلعة مدينة حلب قد اندكت وهدمت باندفاع مخيف وقد هدمت كنائس وعمارات شاهقة في مدينة انطاكية من أساسها وكذلك الباب البحري وأبراجه وفي أواخر سنة ٥١١ خرج بودوين ملك القدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها وذبح أهلها وأحرق جوامعها وهم الى مصر فداهمه مرض حمله على العود واجتمعت حوله جميع الامراء والقواد فاخذ يشجعهم ثم حلفهم بان لا يدفنوه في أرض غريبة وطلب منهم نقل جثته ودفنها بالقدس بجوار أخيه ثم أمر خدامه بكيفية دفنه وسألوه عمن يكون عليهم سلطاناً بعده فاجابهم بانه قد ترك هذا التخت لشقيقه اسطاكيوس اذا كان يرغب في الاقامة بفلسطين والا يكون لابن عمه بودوين دي بورغ أمير الرها ومات في سنة ١١١٨ وهو راجع الى القدس قبل ادراك العريش فنزعوا أحشاءه ودفنوها في مكان لا يبعد كثيراً من العريش في وسط أرض رملية وأقاموا على قبره حجراً كبيراً ولا يزال ذلك المكان معروفاً الى ايامناهذه باسم رمال بردويل (وهو محرف لفظ بودوين والبعض يقول بغدوين) أما جثته فحملوها الى بيت المقدس ودفنوها هناك بجوار أخيه غودافرو

﴿ جمعيات الرهبان الصليبيين ﴾

كانت قبل استيلاء الصليبيين على القدس جمعية هناك باسم (ضياف الغربا) وهذه الجمعية تمتلك نزلا أو فندقاً لاجل اقامة الغرباء من زوار القدس وكانت هذه الجمعية تقدم للزوار المآكل ولما استولى الصليبيون على المدينة أوسعوا نطاق هذه الجمعية واكتتبوا لها بمبالغ مالية وأضافوا على عملها معالجة الجرحى وتنازل كثير من الشبان عن ميراثهم لهذه الجمعية مثل رايموند دي بوي ودودون دي كومباس من أهالي دوفينه وغسطون من مدينة بردواس وكونون دي مونته من مدينة أوفرينا ثم تشكلت بالمدينة جمعية باسم الهيكليين كما سيأتي بيانه

ثم أنشئت كنيسة عظيمة باسم القديس يوحنا المعمدان تابعة لجمعية ضياف الغربا وأنشئت أيضاً فنادق لاجل اقامة المرضى والجرحى ومنازل لاجل سكن أعضاء الجمعية الذين من وظيفتهم معالجة المرضى والمجروحين الذين تلقبوا باسم رهبان القديس يوحنا المعمدان وكانوا يقبلون فقراء الزوار بهذه الفنادق ويقدمون لهم ما

يلزمهم من أكل ولبس وغيره من أنواع الخدم بغاية الشرف والممنونيـة ببشاشة تامة وفي سنة ١١٠٤ حينما كانت هذه الجمعية تحت رئاسة رايموند دي بوي أضيف على شروطها بانه يجب على الاعضاء الخدمة العسـكرية فكانت هذه الجمعيـة من أكبر الجمعيات وساعدت حكومة الصليبيين المساعـدة التامة لان أعضاءها كانوا يحاربون في وسط صـفوف الصليبيين براية خصوصية شـقتين بيضاء وسوداء ثم يتوجهون الى الفنادق لاجل عيادة المرضى وخدمة الزوار الفقراء وبهذه الصـفة انتشرت هذه الجمعيـة في ممـالك اوروبا وعين من أعضائها من يتجول في اوروبا لاجل جمع الصدقات والتبرعات وآخرين لاجل تحصيل ايراداتها الخصوصية وذلك جميعه للانفاق على الجمعيه ومستلزماتها. أما الجمعية الثانية المسماة بجمعية الهيكليين فانها تأسست سنة ١١١٨ من تسـعة أشخاص فرنساويين وكانت شروط هذه الجمعيه هي ان تحمي جميع الزوار الواردين من اوروبا الى القـدس ومحاربة المسلمين ثم تبعهم عدد وافر وتأيدت هذه الجمعيـة من الامراء والملوك وتخصص لها انعامات سامية من الاحبار الرومانيين وصارت جمعية رهبانية عسكرية وكان السبب في تسميتهم هيكليين هو ان بودوين الثاني الذي سيأتي ذكره شيد لها منزلاً كبيراً كدير فوق دثار هيكل سليمان وكان علم هذه الجمعية مكتوبة عليـه هـذه الالفاظ الداووديه (.. لا لنا يارب .. لا لنا .. لكن لاسمك أعط المجد) وكان لهذه الجمعيـة شأن كبير في محاربة الاسلام

﴿في ولاية بودوين الثاني﴾

بعد دفن جثـة بودوين الاول اجتمع جميع قواد العساكر ورؤساء الكنائس وقرروا تعيين بودوين دي بورغ أمير الرها سلطاناً عليهم حسب وصـية بودوين الاول وأعلنوا بودوين المذكور في الرها فقبل هذا التعيـين وتنازل عن أمارة الرها الى جوسلين دي كورتناي وترك أمرها وسافر الى القـدس فقابلوه باحترام عظيم وأجلسوه على تخت ملكه وتسمى باسم بودوين الثاني

﴿وفاة الامام المستظهر بالله العباسي وخلافة ولده المسترشد بالله﴾

في سادس عشر ربيع الآخر سـنة ٥١٢ هـ توفي الامام المستظهر بالله أمـير المؤمنين أبو العباس احمد بن المقتدي بامر الله وكان عمره ٤١ سـنة و ٦ اشهر و ٦ أيام وخلافته اربع وعشرون سنه وثلاثة أشهر واحدى عشر يوماً وحكم في

أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم ببغداد من السلجوقيين وهم أخو ملكشاه تاج الدولة تتش وركن الدولة تكياروق بن ملكشاه وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان المستظهر كريم الاخلاق لين الجانب مشكور المساعي يحب العلم والعلماء وكان يسارع الى اعمال البر حسن الخط جيد التوقيع ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله وبعد دفنه بويع لولده المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن أبي العباس احمد بن المستظهر وكان ولي عهده قد خطب له ثلاث وعشرين سنة فبايعه أخواه وهما ابو عبد الله محمد وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدي بامر الله وغيرهم من العلماء والامراء والقضاة والاعيان وكان المتولي لاخذ البيعة القاضي أبو الحسن الدامغاني وكان نائباً عن الوزارة فاقره المسترشد بالله عليها ثم عزله عن نيابة الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيب أبي منصور وزير السلطان محمود

﴿واقعة ايلغازي مع الصليبيين بحدود انطاكية﴾

في سنة ٥١٣ سار الافرنج الى نواحي حلب ونازلوها واخربوها ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً وخافهم أهلها ولو مكنوا من القتال لم يبق بها احد لكنهم منعوا من ذلك وصانعوا الافرنج أهل حلب على ان يقاسموهم املاكهم التي بباب حلب وكان الامير ايلغازي صاحب حلب ببلد ماردين يجمع العساكر والمتطوعة للغزاة فاجتمع عليه نحو عشرين الفاً وكان معه اسامة بن المبارك ابن شبل الكلابي والامير طغان ارسلان بن المكر صاحب بدليس وارزن فسار بهم الى الشام عازماً على قتال الافرنج بناحية انطاكيه فلما علم بذلك روجار دي سيسليا الوصي على ابن بوهيموند صاحب انطاكيه ارسل الي بودوين الثاني ملك القدس يطلب مساعدته ولكن قبل ورود ملك القدس اليه سار بجيشه البالغ ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل فنزلوا قريباً من الاثارب بموضع يقال له تل عفرين بين جبال ليس لها طريق الا من ثلاث جهات وقد ظن الافرنج بانه لا يمكن للمسلمين السلوك اليهم لضيق الطريق فاخلدوا الى المطاولة وارسلوا الى ايلغازي يقولون له لا تتعب نفسك بالمسير الينا فنحن واصلون اليك فاعلم اصحابه بما قالوه واستشارهم فيما يفعل فاشاروا بالركوب من وقته ففعل ذلك وسار اليهم ودخل الناس من الطرق الثلاثة فلم يشعر الافرنج الا واوائل المسلمين قد غشيتهم فحمل الافرنج حملة منكرة وجرى بينهم حرب شديدة وأحاطوا الافرنج من جميع جهاتهم وأخذهم السيف من سائر نواحيهم فلم يفلت منهم غير نفر

يسير وقتل الجميع واسروا وكان في جملة الاسرى ماينيف عن سبعين فارساً من مقدميهم حملوا الى حلب فبذلوا في نفوسهم ثلثماية الف دينار فلم يقبل منهم وقتل روجار وحمل رأسه وكان ذلك في منتصف شهر ربيع اول سنة ٥١٣ هـ موافقة سنة ١١٢٠ م

ثم جاءت الجيوش الصليبيـة التي كان طلب روجار مساعدتها كما ذكر تحت رئاسة بودوين الثاني ملك القدس ومعه أميرا الرها وطرابلس فهجموا على العساكر الاسلامية هجمه شديدة خصوصاً رجال جمعية يوحنا المعمدان انتهت بهزيمة العساكر الاسلامية وبعد ذلك رجع بودوين الى القدس وكذلك جوسلين سار الى جهة طبرية فكبس طائفة من طيّ يعرفون ببني خالد فاخذهم واخـذ غنائمهم وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعه فاخبروه أنهم من وراء الحزن بوادي السلالة بين دمشق وطبريه فقدم جوسلين مائة وخمسون فارساً من أصحابه وسار هو في خمسين فارس على طريق آخر ووعدهم الصبح ليكبسوا بني ربيعة فوصلهم الخبر بذلك فارادوا الرحيـل فمنعهم أميرهم وكانوا في مائة وخمسين فارساً فوصلهم المائة وخمسون من الافرنج معتقدين ان جوسلين قد سبقهم او سيدركهم فاضلْ الطريق وتساوت القوتان فاقتتلوا وطعنت العرب خيولهم فجعلوا اكثرهم رجاله فقتل من الافرنج سبعون واسر أثنا عشر من مقدميهم يبذل كل واحد في فـداء نفسه مالاً جزيلا وعـدة من الاسرى واما جوسلين فبلغه خبر الواقعة وهوضال الطريق فسار الى طرابلس فجمع بها جمعاً وسار الى عسقلان فاغار على بلدها فهزمه المسلمون هناك فعاد مغلولا

﴿ قتل الافضل بن بدر الجمالي وزير مصر ﴾

في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥١٥ قتل أمير الجيوش الافضل بن بدر الجمالي وهو وزير الحاكم بأمر الله خليفة مصر وكان قد ركب الى خزانة السلاح ليفرقه على الجنود على جاري العادة في الاعياد فسار معه عالم كثير من الرجالة والخيالة فتأذى بالغبار فامر بالبعد عنه وسار منفرداً ومعه رجلان فصادف رجلين بسوق الصياقله فضرباه بالسكاكين فجرحاه وجاء ثالث من ورائه فضربه بسكين في خاصرته فسقط عن دابته ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة وحملوه الى داره فدخل عليه الخليفه وتوجع له وسأله عن الاموال فادله عليها فلما توفى الافضل بقي الخليفة في داره نحو اربعين يوماً والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلا ونهاراً

ووجد له من الاعلاق النفيسة والاشياء القليلة الوجود مالا يوجد مثله لغيره واعتقل اولاده وكان عمره ٥٧ سنه وكانت وزارته ثمانيا وعشرين سنة منها آخر أيام المستضيء وجميع أيام الآمر باحكام الله ثم ولى بعده أبو عبد الله بن البطائحي ولقب المأمون وتحكم في الدولة

﴿ محاربة بلك ابن بهرام مع جوسلين أمير الرها واسره ﴾

في سنة ٥١٥ الموافقة سنة ١١٢١ م سار بلك بن بهرام ولد اخي ايلغازي الى مدينة الرها فحصرها وبها الافرنج وبقي على حصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها فجاءه رجل تركماني واعلمه ان جوسلين صاحب الرها وسروج قد جمع الافرنج وهو عازم على كبسه وكان قد تفرق عن بلك اصحابه وبقي في اربعمائة فارس فوقف مستعداً لقتالهم واقبل الافرنج ولكن من لطف الله ان الافرنج وصلوا الى أرض قد نضب عنها الماء فصارت وحلا فغاصت خيولهم فيها فلم تتمكن من الاسراع مع ثقل السلاح والفرسان فرماهم اصحاب بلك بالنشاب فلم يفلت منهم احد وأسر جوسلين وصهره غاليران وكبلوهم بالحديد وطلب من جوسلين أن يسلم الرها فلم يفعل وبذل في فداء نفسه اموالا جزيلة واسرى كثيرة فلم يجبه الى ذلك وحملوهما الى قلعة خرتبرت وسجنوهما بها وأسر ايضاً جماعة من فرسانهم المشهورين فسجنوا معهم

﴿ محاربة بلك مع بغدوين ملك القدس وأسره ﴾

في سنة ٥١٧ الموافقه سنة ١١٢٣ م جمع بغدوين رجاله وسار قاصداً مدينة خرتبرت بديار بكر للاستيلاء عليها وتخليص جوسلين من الاسر وكان بلك محاصراً قلعة كركر فبلغه مجيء بغدوين فرحل اليه والتقيا واقتتلا فانهزم الافرنج واسر ملكهم بغدوين ومعه جماعة من اعيان فرسانهم وسجنوا بقلعة خرتبرت مع جوسلين ومن معه

ثم اجتمع نحو خمسين ارمنياً وتحالفوا على تخليص ملك القدس من الاسر فغيروا ملابسهم واخفوا سلاحهم تحتها ودخلوا قلعة خرتبرت منفردين الى أن ساروا من الداخل وهناك اظهروا اسلحتهم وأخذوا يقتلون العساكر حراس السجن وكسروا قيود المسجونين وأراد وخلاصهم ونصبوا علم الصليبيين على القلعة فباغتهم العساكر الاسلامية وحاصروا القلعة بما فيها ولم يتمكن أحد من الهرب الا جوسلين أمير

الرها وظل بودوين ومن معه في السجن وأما المحسون ارمنياً فذبحوا عن آخرهم وكان بلك صاحب القلعه قد توجه الى حران ولما بلغه ماجرى بالقلعه عاد في عساكره اليها وحصرها كما ذكر وأما جوسلين فانه اقسم بان لايحلق ولا يشرب الخمر حتى يتوجه لزيارة القدس ويسعى في تخليص الاسرى

﴿ ورود أهل البندقيه للاشتراك مع الصليبيين ﴾

لم يشترك أهل البندقية في المحاربات الماضية مع الصليبيين لكونهم يشتغلون بالتجارة ولما رأوا ان اهل بيزا وجنوى قد توجهوا الى بلاد فلسطين وانتصروا وربحوا غنائم كثيرة تفوق على ارباح التجارة أخذتهم الغيرة واستعدوا وتجمعوا تحت رياسة الدوك مخايل مقدم مشيخة البندقيه بعمارة بحرية مركبة من واحد وعشرين مركباً وساروا الى أن وصلوا الى عكا وهناك طلعوا وساروا في البر قاصدين القدس فاحتفل بهم ثم عقد مجلس المشورة وقرر محاربة العساكر الاسلامية فحاصروا مدينة صور وذلك بعد مداولات كثيرة لعدم اتفاقهم على المحاصرة هل تكون على صور أو على مدينة عسقلان فاخيرا اقروا على محاصرة صور كما تقدم

﴿ استيلاء الصليبيين على مدينة صور ﴾

كانت مدينة صور للخلفاء العلويين بمصر الى سنة ٥٠٦ فلما عزم ملك الافرنج علي محاصرتها خافه اهلها فارسلوا الى اتابك طغتكين صاحب دمشق يطلبون منه ان يرسل اليهم اميراً من عنده يتولى امرهم ويحميهم وتكون البلد له فسير اليهم عسكراً وجعل عليهم والياً اسمه مسعود وكان شهماً شجاعا عارفاً بالحرب ومكايدها وسير اليهم ميرة ومالا فرقه عليهم فطابت نفوس أهل البلد ولم تزل الخطبه للخليفة الآمر وكتب الى الأفضل بمصر يعلمه بما كان ويقول انه متى وصل اليها من مصر من يتولاها ويذب عنها سلمتها اليه ويطلب ان الاسطول لاينقطع عنها بالرجال والقوة فشكره الافضل على ذلك واثنى عليه وصوب رأيه وجهز اسطولا وسيره الى صور فاستقامت احوال اهلها الى سنة ٥١٦ بعد قتل الافضل فسير اليها اسطولا وأمر المقدم على الاسطول أن يقبض على الامير مسعود والي صور ويتسلم البلد منه وكان السبب في ذلك ان اهل صور اكثروا من الشكوى منه الى الآمر باحكام الله فسار الاسطول الى ان رسا عند صور فخرج مسعود اليه للسلام فلما صعد الى مركب المقدم قبض عليه واعتقله ونزل الى المدينة وتسلمها وعاد الاسطول الى مصر وفيه

الامير مسعود فاكرم واحسن اليه واعيد الى دمشق واما الوالي المصري فانه راسل طغتكين يخدمه بالدعاء والاعتضاد وان سبب ما فعله هو شكوى اهل صور فاحسن طغتكين الجواب وبذل له نفس المساعدة وفي ربيع أول سنة ٥١٨ قدم الصليبيون تحت رياسة غوبليوم وكيل سلطنة القدس وبطريرك القدس وبونس صاحب طرابلس والدوك مخاييل المقدم على أهالي مشيخة البندقيه وحاصروا مدينة صور براً وجاءت مراكب البندقية وحاصرتها بحراً ولم يكن لاهالي صور من الحمية والنشاط ما كان لسلفائهم او لمسلمي المدن الاخرى لان الغنى الذي حازته صور من تجارتها قاد أهلها الى التنعمات والرخاء فكانوا يصرفون أيامهم بالسرور والملاهي دون الاعتناء بالتمرن على الحرب والقتال ولولا بسالة الجنود الشامية والمصرية لما بقيت المدينة أمام الافرنج يوماً واحداً وكتب اهل المدينة الى خليفة مصر يطلبون منه المدد وكذلك طغتكين صاحب دمشق فلم يأتهم أحد فثابروا على الدفاع وكانت الافرنج محيطه بها من كل جانب ونصبوا عليها ابراجاً من خشب ومنجانيقات وأخذوا يضربونها ليلا ونهاراً وأهل المدينة يقاتلون ويدافعون عن انفسهم وأرسلوا ثانية يطلبون النجدة من خليفة مصر وملك دمشق فلم ينجداهم لان الافرنج أرسلوا أمير البندقية للمحافظة من جهة البحر لمنع خليفة مصر عن ارسال النجدة وأرسلوا صاحب طرابلس يترصد طريق البر فجاء طغتكين بالجيوش الشامية فصد عن عبور النهر ولازم من بالمدينة القتال ففنيت الاقوات وكان الجوع قد بلغ من المحصورين مبلغاً عظيما فراسل حينئذ طغتكين أمراء الصليبيين في الصلح وقرر الامر على ان يسلم المدينة اليهم ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج بما يقدرون عليه من أموالهم ورحالهم وفتحت ابواب المدينة وملكها الافرنج بعد حصار خمسة شهور وفارقها أهلها ونصبت اعلام الافرنج على المدينة وزينوها باغصان الزيتون والاقمشة وكان ذلك في سنة ١١٢٤ م

﴿ محاصرة الصليبيين لمدينة حلب واستيلاء البرسقي عليها ﴾

بعد استيلاء الصليبيين على مدينة صور كما تقدم طمعوا وقويت نفوسهم ورأوا الاستيلاء على بلاد الشام وأكثروا من حشد الجيوش ثم وصل اليهم دبيس بن صدقه صاحب الحلة فأطمعهم في حلب وقال لهم ان أهلها شيعة وهم يميلون الي من أجل المذهب فمتى رأوني سلموا لي البلد وقال لهم اني أكون نائباً عنكم ومطيعاً لكم فساروا معه اليها وحصروها وقاتلوا قتالا شديداً وبنوا لهم بيوتاً تقيهم

من الحر والبرد فلما رأى اهلها ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك وظهر لهم من صاحبها تمرتاش الوهن والعجز وقلت المؤن عندهم فرأوا ان يكاتبوا البرسقي صاحب الموصل لاجل ان يحميهم لما وجدوا فيه من القوة فأرسلوا اليه يستنجدونه ويسألونه المجيء اليهم ليسلموا البلد اليه فجمع عساكره وقصدهم وأرسل الى من بالبلد وهو في الطريق يقول انني لا أقدر على الوصول اليكم والافرنج يقاتلونكم الا اذا سلمتم القلعة الى نوابي وصار أصحابي فيها لانني لا أدري ما يقدره الله تعالى اذا انا لقيت الافرنج فان انهزمنا منهم وليست حلب بيد أصحابي حتى أحتمي انا وعسكري بها لم يبق منا احد وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها فاجابوه الى ذلك وسلموا القلعة الى نوابه فلما استقروا فيها واستولوا عليها سار بعساكره فلما اشرف عليها ونظره الافرنج رحلوا عن البلد بدون حرب فاراد من في مقدمة عسكره ان يحمل عليهم فنعهم وهكذا صارت حلب تبعاً للبرسقي صاحب الموصل من عمال السلطان محمود وكان ذلك في شهر ذي الحجه سنة ٥١٨

﴿ في خلوص بودوين الثاني ملك القدس من الاسر ﴾

وفي هذه السنة أيضاً تم الاتفاق على فك أسر بودوين الثاني ملك القدس بمال عظيم دفعه وتوجه الى مملكته وأقام بها وكان هو أحسن الافرنج حظاً بهذه المملكة لكثرة توافد أهل اوروبا لمساعدته ضد المسلمين من سكان المانيا والنمسا وبلاد البندقيه وأهل بيزا وجنوى وخصوصاً اهل فرنسا ولما قامت به جمعيات الرهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان التي كان رجالها يلبسون الثياب الحمراء وجمعية الهيكليين التي كان رجالها يلبسون الثياب البيضاء

﴿ استيلاء البرسقي على كفرطاب ﴾

في سنة ٥١٩ جمع البرسقي عساكره وسار الى الشام وقصد كفرطاب وحصرها فلكها من الافرنج وسار الى قلعة عزاز وهي من أعمال حلب من جهة الشمال وصاحبها جوسلين فحصرها فكاتب جوسلين الافرنج فاجتمعوا عن آخرهم من فارس وراجل فلقيهم البرسقي واقتتلوا قتالا شديداً انهزم فيه المسلمون وقتل منهم ما ينوف عن الف وأسر كثير وعاد البرسقي الى حلب فخلف بها ابنه مسعود وعبر الفرات الى الموصل ليجمع العساكر ويعود الى القتال

﴿ قتل المأمون بن البطائحي وزير خليفة مصر الآمر ﴾

في رمضان سنة ٥١٩ اتفق المأمون بن البطائحي وزير الخليفة بمصر مع الامير جعفر أخي الخليفة الآمر بأحكام الله ليقتل أخاه الآمر ويجعله هو خليفة وتقررت القاعدة بينهما على ذلك فسمع بذلك أبوالحسن بن أبي اسامة وكان خصيصاً بالامر مقرباً منه وقد ناله من الوزير أذى واطراح فحضر عند الآمر وأعلمه الحال فقبض على وزيره أبا عبدالله البطائحي الملقب بالمأمون وصلبه واخوته وهذا جزاء من قابل الاحسان بالاساءة وكان هذا الوزير كريماً واسع الصدر قتالا سفاكا للدماء وكان شديد التحرز كثير التطلع الى أحوال الناس من العامة والخاصة من سائر بلاد مصر والشام والعراق وفي أيامه كثر الغمازون

﴿ اخبار الاسماعيليين وامتلاكهم قلعة بانياس ﴾

في أثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين لانهم كانوا يكثرون من تدخين الحشيش ويدعوهم البعض بالاسماعيليين نسبة الى اسماعيل رئيسهم وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع . وكان اسماعيل يترصد فرصة للغزو والنهب فلما رأى الدول القوية منشغلة بالحرب في انحاء المشرق وضع يده على بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين فيحاربهم تارة ويصالحهم أخرى الى ان انتهى به الامر فاقام حكومته بين ظهرانيهم وابتنى حصوناً منيعة أرهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع جزية معلومة وقاية من فتكه بحياتهم لانه كان متفنناً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجاله الدهاة وفي سنة ٥١٩ كان الرئيس عليهم بهرام ابن أخت الاسد ابادي بعد قتل خاله المذكور وكان طغتكين صاحب دمشق قد أخذه عنده لاجل المعاضدة به وباتباعه فحينئذ أعلن عداوته فكثر أتباعه من كل من يريد الشر والفساد وأعانه الوزير ابو طاهر بن سعد المرغيناني قصداً للاعتقاد به على ما يريد فعظم شره واستفحل أمره وصار أتباعه اضعافاً مما كانوا ثم ان بهرام رأى من أهل دمشق فظاظة وغلظة عليه فخاف عاديتهم فطلب من طغتكين حصناً يأوى اليه هو ومن اتبعه فاشار الوزير بتسليم قلعة بانياس اليه فسلمت له فلما صار اليها اجتمع اليه أصحابه من كل ناحية فعظم حينئذ خطبه وحلت المحنة بظهوره

﴿ محاربة طغتكين اتابك مع بودوين الثاني ﴾

في سنة ٥٢٠ اجتمع بودوين الثاني ملك القدس بجميع عسكره وعساكر الجمعيات الرهبانية المار ذكرهم وساروا الى نواحي دمشق فنزلوا بمرج الصفر عند قرية يقال لها شقحب بالقرب من دمشق فعظم الامر على المسلمين واشتد خوفهم وكاتب طغتكين اتابك أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها وجمعهم وكان هو قد سار عن دمشق الى جهة الافرنج واستخلف بها ابنه تاج الملوك بوري فكان بها وكلما جاءت طائفة أحسن ضيافتها وسيرها الى ابيه فلما اجتمعوا سار بهم طغتكين الى الافرنج فالتقوا أواخر ذي الحجه واقتتلوا واشتد القتال فسقط طغتكين عن فرسه فظن أصحابه انه قتل فانهزموا وركب طغتكين فرسه ولحقهم وتبعهم الافرنج وبقي التركمان فلم يقدروا ان يلحقوا المسلمين في الهزيمة فتخلفوا فلما رأوا فرسان الافرنج قد تبعوا المنهزمين وان معسكرهم وراجلهم ليس له مانع ولا حام حملوا على الرجالة فقتلوهم ولم يسلم منهم الا الشريد ونهبوا معسكر الافرنج وخيامهم وأموالهم وجميع مامعهم وعادوا الى دمشق سالمين لم يفقد منهم أحد ولما رجع فرسان الافرنج من أثر المهزومين ورأوا رجالتهم قتلى وأموالهم منهوبة ساروا منهزمين لايلوي الاخ على أخيه وكان هذا من أغرب الحروب اذ ان طائفتين تنهزمان كل واحدة من صاحبتها

﴿ في الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله العباسي والسلطان محمود ﴾

في هذه السنة حصل نفور بين يرنقش الزكوي شحنكية بغداد (محافظ المدينة) وبين نواب الخليفة وتهدده الخليفة فيها فخاف الزكوي على نفسه فسار عن بغداد الى السلطان محمود في رجب وشكا اليه وحذره من الخليفة واعلمه بانه قد قاد العساكر ورأى الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله زاد قوة وجمعاً وحينئذ يتعذر عليك ما هو سهل الآن فتوجه السلطان نحو العراق فارسل اليه الخليفة يخبره بضعف البلاد وأهلها بسبب دبيس وافساد عسكره فيها وان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والاقوات ويطلب منه ان يتأخر في هذه المرة الى ان تنصلح حال البلاد ثم يعود اليها ويبذل له على ذلك مالاً كثيراً فلما سمع السلطان هذه الرسالة قوي عنده ما قرره الزكوي وأبى ان يتأخر وسار اليها مجداً فلما بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء الى الجانب الغربي في ذي القعده مظهر الغضب والانتزاح

عن بغداد ان قصدها السلطان فلما خرج من داره بكى الناس جميعهم بكاء عظيما لم يشاهد مثله فلما علم السلطان ذلك اشتد عليه فارسل يستعطف الخليفة ويسأله العود الى داره فاعاد الجواب انه لابد من عودك هذه الدفعة فان الناس هلكوا بشدة الغلاء وخراب البلاد وانه لايرى في دينه ان يزداد ما بهم وهو يشاهدهم فان عاد السلطان والا رحل هوى عن العراق فغضب السلطان لقوله ورحل نحو بغداد واقام الخليفة بالجانب الغربي فلما حضر عيد الاضحي خطب الناس وصلى بهم فبكى الناس لخطبته وارسل عفيفا خادمه وهو من خواصه في عسكر الى واسط ليمنع عنها نواب السلطان فارسل اليه عماد الدين زنكي بن اقسنقر فاقتتلوا وانهزم عسكر عفيف وقتل منهم مقتلة عظيمه واسر مثلهم وتغافل عماد الدين زنكي عن عفيف حتى نجا لمودة كانت بينهما ثم ان الخليفة جمع السفن وسد بها أبواب دار الخلافة سوى باب النوبي وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام فيه لحفظ الدار ووصل السلطان بغداد في عشرين الحجه ونزل بباب الشماسيه ودخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا في دور الناس فشكا الناس الى السلطان فامر بخروجهم وصارت المخابرة بين السلطان والخليفة بشأن الصلح والعسكران أمام بعضهم ولم يحصل منهم خلاف مناوشات صغيرة ثم ان جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا التاج وحجر الخليفة أول المحرم سنة ٥٢١ وضج أهل بغداد من ذلك فاجتمعوا ونادوا الغزاة فاقبلوا من كل ناحية ولما رآهم الخليفة خرج من السرادق والشمسية فوق رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب الكوسات والبوقات ونادى باعلا صوته (يالهاشم) وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة وكان له في الدار الف رجل مختفين في السراديب فظهروا وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب فاسر منهم جماعة من الامراء ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الامراء ودار عزيز الدين المستوفي وقتل منهم خلق كثير في الدروب (الحواري والازقة) ثم عبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون الف مقاتل من أهل بغداد وأمر بحفر الخنادق فحفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الامر عليهم وكان القتال كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطئ الدجله وعزم عسكر الخليفة على ان يكبسوا عسكر السلطان فغدر بهم الامير ابو الهيجاء الكردي صاحب اربل وخرج كانه يريد القتال فالتحق هو وعسكره بالسلطان وكان السلطان قد أرسل الى عماد الدين بواسط بالحضور اليه ومعه جميع العساكر في السفن وعلى الدواب في

البر فلما قارب بغداد أمر كل من معه في السفن وفي البر بلبس السلاح واظهار ما عندهم من الجلد فانتشرت العساكر وملؤا الارض براً وبحراً فقابلهم السلطان وفرح بعماد الدين وعزم على قتال بغداد والجد في ذلك في البر والبحر فلما رأى الخليفة المسترشد بالله ذلك وخروج أبي الهيجاء من عسكره أجاب الى الصلح وترددت الرسل بينهما فاصطلحا واعتذر السلطان مما جرى وكان حليما يسمع سبه باذنه فلا يعاقب عليه وعفا عن أهل بغداد جميعهم وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال ان الدنيا لاتساوي فعل مثل هذا ولما عزم السلطان على المسير من بغداد نظر فيمن يصلح ان يتولى شحنكية العراق يأمن معه من الخليفة فاختبر أمرائه واعيان دولته فلم ير فيهم من يقوم بهذا الامر الا عماد الدين زنكي فاستشارهم في ذلك فصدقوا عليه وقالوا (لايصلح لذلك واعادة ناموس العراق ولا تقوى نفس احد على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين) فاسند اليه الولاية مضافة الى ماله من الاقطاع وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٥٢١ هجرية

﴿ وفاة عز الدين البرسقي وولاية عماد الدين زنكي الموصل ﴾
(ومحاصرة الصليبين حلب)

في سنة ٥٢١ توفي الامير عز الدين مسعود بن البرسقي وهو صاحب الموصل وكان موته بعد محاصرة مدينة الرحبة واستيلاءه عليها بساعة واحدة وقام بعده أخ له صغير واستولى على البلاد مملوك للبرسقي يعرف بالجاولي ودبر أمر الصبي وأرسل للسلطان يطلب ان يقرر البلاد على ابن البرسقي وبذل الاموال الكثيرة في ذلك وكان الرسول القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد أمير حاجب البرسقي وكانا يخافان جاولي ولا يرضيان بطاعته وتصرفه ولما وصلا الى السلطان اجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر النائب عن عماد الدين وكان بينهما مصاهرة وذكر له صلاح الدين ما ورد بخصوصه وأفشى سره فخوفه نصير الدين من جاولي وقبح له فعاله وتحدث معه في ولاية عماد الدين ثم توجهوا الى السلطان وأبلغوه ان ديار الجزيره والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم بها فاستولوا على أكثرها وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين الى عريش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين وكان البرسقي مع شجاعته يرد تعديهم على البلاد الاسلامية ومذ قتل ازداد طمعهم وان ولده صغير ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ولذلك قد انهينا الحال لمنع اللوم

عنا خوفاً من حصول خلل فاستشارهما السلطان فيمن يصلح للولاية فذكرا عماد الدين فاجاب السلطان الى توليته لما يعلمه من كفايته فاحضره وولاه البلاد كلها وكتب له منشوراً بذلك وسار وامتلك البلاد وفي اثناء ذلك كانت قد ضعفت ولاية حلب بعد البرسقي فسمع الافرنج بذلك فسار اليها جوسلين صاحب الرها بعساكره وحاصر حلب فصونع بمال فعاد عنها ثم وصل بعده صاحب انطاكية في جمع من الافرنج فخندق الحلبيون حول القلعة فمنع الداخل والخارج اليها من ظاهر البلد وأشرف الناس على الخطر العظيم الى منتصف ذي الحجه سنة ٥٢١ وكان عماد الدين قد ملك الموصل والجزيرة فسير الى حلب الامير سنقردراز والامير حسن قراقوش وأقام الامير حسن قراقوش والياً عليها ولاية مستعاره الى ان وصلها عماد الدين زنكي فخرج الى أهل حلب فالتقوه واستبشروا بقدومه ودخل المدينة واستولى عليها ورتب أمورها وكان ذلك في شهر محرم سنة ٥٢٢ وجعل عماد الدين في رئاسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق ولولا ان الله تعالى من على المسلمين بتملك أتابك عماد الدين زنكي ببلاد الشام لملكها الافرنج لانهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية واذا علم ظهر الدين طغتكين بذلك جمع عساكره وقصد بلادهم وحصرها وأغار عليها فيضطر الافرنج الى الرحيل للدفاع عن بلادهم فقدر الله تعالى انه توفى هذه السنة في ٨ صفر سنة ٥٢٢ فخلا لهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين

﴿ قتل الاسماعيلية بدمشق واتحادهم بالافرنج ﴾

في هذه الاثناء قد زاد أمر الاسماعيليين أو الباطنيين وملك رئيسهم بهرام عدة حصون منها القدموس وغيره وكان بوادي التيم من أعمال بعلبك أصحاب مذاهب أخر مختلفة من النصيرية والدرزية والمجوس وأميرهم اسمه الضحاك فسار اليهم بهرام سنة ٥٢٢ وحصرهم وقاتلهم فخرج اليه الضحاك في الف رجل وكبس عسكر بهرام ووضع السيف فيهم وقتل منهم عدداً عظيما وقتل بهرام وانهزم الباقون وعادوا الى بانياس على أقبح صورة وكان بهرام قد استخلف في بانياس رجلا اسمه اسماعيل فقام بعده وجمع شمل من عاد اليه وعاضده المزدقاني ثم انه أقام بدمشق انساناً اسمه ابو الوفا بدل بهرام فقوي أمره وعلا شانه حتى صار نفوذه أكثر من نفوذ صاحبها تاج الملوك ثم ان المزدقاني راسل الافرنج ليسلم اليهم مدينة دمشق

ويسلموا اليه مدينة صور واستقر الامر بينهم على ذلك وتقرر بينهم ميعاد لتنفيذ ذلك وهو يوم جمعه ذكروه وقرر المزدقاني مع الاسماعيلية ان يحتاطوا ذلك اليوم بابواب الجامع فلا يمكنون أحداً ان يخرج منه ليجيء الافرنج ويملكوا البلد فبلغ الخبر تاج الملوك فاستدعى المزدقاني اليه فحضر وخلا معه فقتله تاج الملوك وعلق رأسه على باب القلعة ونادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف نفس وكان ذلك في منتصف رمضان سنة ٥٢٣ وكفى الله المسلمين شرهم ولما تمت هذه الحادثة بدمشق على الاسماعيلية خاف اسماعيل والي بانياس ان يثور به وبمن معه الناس فيهلكوا فراسل الفرنج وبذل لهم تسليم بانياس اليهم والانتقال الى بلادهم فاجابوه فسلم القلعة اليهم وانتقل هو ومن معه الى بلادهم ولقوا ذلاً وهواناً وتوفى اسماعيل في أوائل سنة ٥٢٤ وكفى الله المسلمين شرهم

﴿ محاصرة الصليبيين دمشق وانهزامهم ﴾

لما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والاسماعليه بدمشق عظم عليهم ذلك وتأسفوا لعدم تملكهم دمشق وعمتهم المصيبة فاجتمع بودوين الثاني ملك القدس وصاحب طرابلس وصاحب انطاكيه وغيرهم ومن وصل اليهم في البحر من التجار والزوار ورهبان الجمعيات وزحفوا بجيش عظيم على دمشق ليحصروها ولما سمع تاج الملوك صاحبها جمع العرب والتركمان ووصل الافرنج الى المدينة ونازلوها وأرسلوا الى اعمال دمشق لجمع الميره والاغارة على البلاد فلما سمع تاج الملوك ان جمعاً كثيراً سار الى حوران لنهبه سير أميرا من أمرائه اسمه شمس الخواص في جمع من المسلمين اليهم وكان خروجهم في ليلة شاتية كثيرة المطر ولقوا الافرنج في الصباح فواقعوهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض فظفر بهم المسلمون وقتلوهم فلم يفلت منهم غير مقدمهم واربعون رجلا وأخذوا ما معهم وهي عشرة آلاف دابة موقره وثلثمائة أسير وعادوا الى دمشق ولم يمسهم جرح فلما علم بذلك بودوين ومن معه القى الله في قلوبهم الرعب فرحلوا عنها شبه المنهزمين واحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وميره وغير ذلك وتبعهم المسلمون والمطر شديد والبرد عظيم يقتلون كل من تخلف منهم فكثرت قتلاهم وكان نزولهم ورحيلهم في شهر ذي الحجه سنة ٥٢٣

﴿ فتح عماد الدين زنكي حصن الاثارب ومحاصرة قلعة حارم ﴾

في سنة ٥٢٤ سار عماد الدين زنكي بعسكره قاصداً حصن الاثارب ومحاصرته

لشدة ضرره على المسلمين وهذا الحصن بينه وبين حلب ثلاثة فراسخ وكان من به من الافرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية وكان أهل حلب معهم في ضر وضيق شديدين فقد كانوا يغيرون عليهم وينهبون أموالهم فلما رأى عماد الدين ذلك صمم على حصر هذا الحصن فسار اليه لينازله فلما علم الافرنج جمعوا فارسهم وراجلهم لما يعرفوه من قوة عماد الدين وشدة بأسه ولم يتركوا مما بطاقتهم شيئاً الا استنفذوه فلما فرغوا من أمرهم ساروا نحو عماد الدين فاستشار أصحابه فيما يفعل فاشاروا كلهم بالعود عن الحصن لان لقاء الافرنج في بلادهم خطر فقال لهم عماد الدين ان الافرنج متى رأونا قد عدنا من وجههم طمعوا وساروا في أثرنا وخربوا بلادنا ولا بد من لقائهم على كل حال ثم ترك الحصن وتقدم اليهم فالتقوا واصطفوا للقتال وصبر كل فريق لخصمه واشتد الامر بينهم الى ان انهزم الافرنج شر هزيمة ووقع كثير من فرسانهم في الاسر وقتل منهم خلق كثير وظفر المسلمون وتقدم عماد الدين الى عسكره بالانجاز وقال هذا أول مصاف عملناه معهم فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم ففعلوا ما أمرهم ولما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا الى الحصن فتسلموه عنوة وقتلوا وأسروا كل من فيه وأخربه عماد الدين ثم سار منه الى قلعة حارم وهي بالقرب من انطاكية وكانت للافرنج فحصرها فبذل له أهلها نصف دخل بلد حارم وهادنوه فاجابهم الى ذلك وعاد عنهم وقد فرح المسلمون بتلك الاعمال وضعفت قوى الافرنج وعلموا ان البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب وصار منتهى قصدهم حفظ ما بايديهم بعد ان كانوا قد طمعوا بتملك جميع البلاد

﴿ وفاة الآمر باحكام الله وخلافة الحافظ لدين الله بمصر ﴾

في ثاني ذي القعده سنة ٥٢٤ خرج خليفة مصر العلوي الآمر باحكام الله أبو علي بن المستعلي الى منتزه له فلما عاد وثب عليه الباطنية فقتلوه وكانت مدة ولايته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان عمره نيفاً وأربعاً وثلاثين سنة وهو العاشر من الخلفاء العلويين أو المهديين ونسبتهم بذلك لانهم أولاد المهدي عبيد الله الذي ظهر بسلجماسه وبنى المهدية بافريقيا ولما قتل لم يكن له أولاد ذكور فكان الحق بالخلافة لابن عمه عبد المجيد بن القاسم بن محمد وعما ان أرملة الخليفة المتوفي كانت حاملا لقب عبد المجيد بنائب الملك الى ان يروا ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبويع بالخلافة عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله وكان مولد الحافظ بعسقلان

فاستوزر أبا علي أحمد بن الافضل بن بدر الجمالي فاستبد بالامر وتغلب على الحافظ وقام بالوزارة حق القيام

﴿ وفاة جوسلين صاحب الرها ﴾

كان جوسلين من الافرنج الذي حاربهم عماد الدين زنكي بحصن الاثارب حتى امتلكه منهم عنوة فاصابه حجر من أحد ابراج الحصن فجرحه ولما عاد الى الرها بلغه ان الامير مسعود أتى بعساكره وحاصر أحد حصونه التابعة له فامر بجمع عساكره وسار بهم محمولا على عربية وقبل ان ينزل على الحصن المحصور بلغه ان الامير مسعود قد رفع الحصار وعاد الى بلاده وبعد هنيهة مات جوسلين وهو بالعربية فارجعوه الى الرها ودفنوه هناك وكان ذلك في سنة ٥٢٥ الموافقة سنة ١١٣١ م فحزنوا عليه حزناً شديداً

﴿ وفاة بودوين الثاني ملك القدس ﴾

وفي تلك السنة أيضاً مرض بودوين الثاني ملك القدس فامر بان ينقل الى جوار قبر المسيح وهناك مات بين ذراعي ابنته ميليسيندا وزوجها فولك الذي أوصى له بالملك بعده فحزن عليه الصليبيون جميعهم لما كان له من المنزلة العظيمة عندهم وكانوا يحبونه كثيراً لعدله بينهم ولكونه كان آخر الامراء الصليبيين الذين جاءوا فلسطين مع غودافرو من مملكة فرانسا وكان هذا الملك قد حكم الرها مدة ثماني عشرة سنة وحكم القدس بعد ذلك اثنتي عشرة سنة وكان شجاعاً ووقع في الاسر مرتين

﴿ في تملك فولك دي الينو على القدس ﴾

بعد وفاة بودوين الثاني ملك القدس كما تقدم احتفلوا بتتويج فولك دي الينو ملكا على ولاية القدس حسب وصية حميه المذكور وكان فولك قد قدم من بلاد فرنسا على عهد بودوين بعد الزيارة وهو ابن فولك ريشين بارتراد دي مونت فورت ففي أثناء اقامته في القدس انفق على مائة محارب من ماله وكان يترأسهم في أثناء محاربة المسلمين فيظهر في القتال شجاعة عظيمة فلذلك أحبه بودوين الثاني وازوجه ابنته ميليسيندا ولم يكن لبودوين ولد ذكر يرث الملك فوعده بانه بعد مماته يكون هو الوريث الوحيد لمملكة القدس فحصل لهذا الشاب سرور عظيم لزواجه ولوراثته هذا الملك الذي تم له في سنة ١١٣١ م و سنة ٥٢٥ هـ

﴿ وفاة السلطان محمود ﴾

في هذه السنة أيضاً توفي السلطان محمود بن محمد بهمذان وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة وكانت ولايته أربعة عشرة سنة تقريباً وكان حليما كريماً عاقلا عادلا كثير الاحتمال وطلب السلطنة بعده ولده داود بن محمود وأخواه مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد وعمهما سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان محمد فجرت بينهم حروب واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان واصفهان والري وسائر بلاد الجبل

﴿ استيلاء شمس الملوك على بانياس ﴾

في سنة ٥٢٧ طمع الافرنج في شمس الملوك صاحب دمشق ابن تاج الملوك وعزموا على نقض الهدنة التي بينهم فتعرضوا لاموال جماعة من تجار دمشق في مدينة بيروت وأخذوها فشكا التجار الى شمس الملوك فراسلهم في اعادة ما أخذوه وكرر القول فيه فلم يردوا شيئاً فحملته الانفة من هذه الحالة والغيظ فجمع عسكره وتأهب ولا يعلم أحد مراده ثم سار وسبق خبره أواخر المحرم ونزل على بانياس أول صفر وقاتله لساعته وزحف اليه زحفاً متتابعاً وكانوا غيرمتأهبين وليس فيه من المقاتلة من يقوم به وقرب من سور المدينة وترجل بنفسه وتبعه الناس من الفارس والراجل ووصلوا الىالسور فنقبوه ودخلوا البلد عنوة والتجأ من كان من جند الافرنج الى الحصن وتحصنوا به فقتل في البلد كثيراً من الافرنج وأسر كثيراً ونهبت الاموال وقاتلالقلعة قتالا شديداً ليلا ونهاراً فملكها رابع صفر بالأمان وعاد الى دمشق فوصلها في سادسه ولما علم فولك ملكالقدس بحصار بانياس أمر بجمع جيشه ليسير لنجدتها فأتاه خبر فتحها فالغى أمره السالف

﴿ محاربة فولك ملك القدس نائب حلب ﴾

في صفر سنة ٥٢٧ سار فولك ملك القدس بجيوشه الى أطراف حلب فتوجه اليه الامير اسوار نائب حلب فيمن عنده من العسكر وانضاف اليه كثير من التركمان فاقتتلوا عند قنسرين فقتل من الطائفتين جماعات كثيرة وانهزم المسلمون الى حلب وتردد ملكهم في أعمال حلب فعاد اسوار وخرج اليه فيمن معه من العسكر فوقع على طائفة منهم فاوقع بهم وأكثر فيهم القتل والاسر فعاد من سلم منهزماً الى بلاده وانجبر ذلك المصاب بهذا الظفر ودخل اسوارحلب ومعه الاسرى ورؤوس

القتلى وكان يوماً مشهوداً ثم خرج بعد ذلك طائفة من الافرنج من الرها وقصدوا أعمال حلب للاغارة عليها فسمع بهم اسوار نخرج اليهم ومعه الامير حسان البعلبكي فاوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم وأسروا من لم يقتل ورجعوا الى حلب سالمين

﴿ استيلاء شمس الملوك على حصن شقيف تيرون ونهبه بلاد الافرنج ﴾

في شهر محرم سنة ٥٢٨ سار شمس الملوك اسماعيل صاحب دمشق الى حصن شقيف تيرون وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به والضحاك المذكور هو رئيس النصيريه والادرعيه والمجوسيه وكان يلاعب المسلمين والافرنج ويحتمى بكل طائفة على الاخرى فسار شمس الملوك اليه وأخذه منه عنوة فعظم أخذه على الافرنج لان الضحاك لايتعرض لشيء من بلادهم المجاورة له نخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم فلما اجتمعت ساروا الى حوران وأخذوا يخربون وينهبون القرى وكان شمس الملوك لما بلغه تجمع الافرنج قد جمع الجموع وحشد الجيوش والتف عليه جمع كثير من التركمان ونزل بازاء الافرنج وجرت مناوشات ثم ان شمس الملوك نهض ببعض عسكره وجعل الباقي قبالة الافرنج وهم لايشعرون وقصد بلاد طبريه والناصره وعكا وما جاورها التابعة للافرنج فنهب وخرب واحرق وامتلأت ايدي من معه من الغنائم واتصل الخبر بالفرنج فانزعجوا ورحلوا في الحال بغتة وطلبوا بلادهم وأما شمس الملوك فانه عاد الى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الافرنج فوصل سالماً وأما الافرنج فلما رأوا بلادهم خراباً أرسلوا الى شمس الملوك بتجديد المدنة فهادنهم

﴿ قتل الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله ﴾

في شهر محرم سنة ٥٢٩ توفى السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه فخرج السلطان مسعود بجيشه وخرج الخليفة المسترشد بالله بجيشه والتقيا عاشر رمضان وتحاربا فانهزم جيش الخليفه وأخذ هو اسيراً ومعه جماعة كثيرة منهم وزيره وقاضي القضاه والامراء وسير السلطان الامير بك ايه المحمودي شحنة الى بغداد فوصلها في آخر رمضان واستولى على جميع املاك الخليفه فهاجت عامة بغداد وحاربوهم ثم ترددت الرسل بين الخليفه والسلطان مسعود على تقرير قواعد الصلح فتصالحا على مال يؤديه الخليفه وان لايعود الى جمع العساكر وأن لا يخرج من داره ثم وصل

خبر بقدوم الامير قزان خوان رسولا من السلطان سنجر فتأخر مسير الخليفه وخرج الناس مع السلطان مسعود الى لقاء الامير وفارق الخليفه بعض من كان موكلا به فقصده اربعة وعشرون رجلا من الباطنه ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه وطعنوه نحواً من عشرين طعنة ومثلوا به فجدعوا انفه واذنيه وقتل معه نفر من اصحابه كان ذلك في يوم الاحد ١٧ من شهر القعده من السنة المذكورة وكان عمره ثلاثاً واربعين سنه وثلاثة اشهر وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنه وستة اشهر وعشرين يوماً وكان شهماً شجاعاً فصيحاً حسن الخط جيد الفكر وبعد وفاته بويع بالخلافه ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور وكان ابوه قد بايع له بولاية العهد في حياته وجددت له البيعه بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر القعده المذكور وكتب السلطان مسعود الى شحنة بغداد ان يبايع له بالخلافه وحضر الناس البيعه وكان حاضراً بيعته واحد وعشرون رجلا من أولاد الخلفاء وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبالغ في الموعظه

﴿ غزو العساكر الاتابكيه بلاد الافرنج ﴾

في شعبان سنة ٥٣٠ اجتمعت عساكر اتابك زنكي تحت قيادة الامير اسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الافرنج على حين غفلة منهم فقاجاؤا اللاذقيه ولم يتمكن اهلها من الانتقال عنها والاحتراز فنهبوا منها مالا يحيط به الوصف وقتلوا وأسروا وكان الاسرى سبعة آلاف اسير مابين رجل وامرأة ومائة الف رأس من الدواب وما بين فرس وبغل وغيره وأما ماسوى ذلك من الاقمشه والحلي فيخرج عن الحد وأحرقوا بلد اللاذقيه وما جاورها ولم يسلم منها الا القليل وخرجوا الى شيزر بجامعهم من الغنايم سالمين وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً ولم يقدر الافرنج على شيء يأخذون به الثار

﴿ خلع الخليفة الراشد بالله وخلافة المقتفي لامر الله ﴾

في سنة ٥٣٠ اجتمع على الخليفه الراشد جماعة وحسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود فاجابهم الى ذلك وظهر منه تنقل في الاحوال وتلون في الاراء وقبض على جماعة من اعيان اصحابه وخافه الباقون ثم تقدم السلطان مسعود وحصر بغداد واستظهر عليها فخرج الخليفه الراشد ملتجئاً الى زنكي في البر الغربي فسار به الى الموصل ودخل السلطان مسعود بغداد واستقر بها وأمر

فجمع القضاه والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التي حلفها الراشد بالله للسلطان مسعود وفيها بخط يده (اني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من اصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الامر) فافتوا بخروجه من الخلافه فعملوا محضراً وذكروا فيه ما ارتكبه من أخذ الاموال واشياء تقدح في الامامه وكتبوا الفتوى بخلعه واحضروا القاضي أبا طاهر الكرخي فشهدوا امامه بذلك فحكم بفسقه وخلعه ثم ان شرف الدين الوزير ذكر للسلطان ابي عبد الله محمد بن المستظهر فامر باحضاره من المكان الذي يسكنه ولما حضر جلس في الميمنة واتفق معه السلطان والوزير ثم حضر الامراء وارباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه بالخلافه وكان ذلك في ثامن عشر ذي الحجه ولقب (المقتفي لامر الله) وسبب هذا اللقب انه كان رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يولى الخلافه بستة أيام وهو يقول له ان هذا الامر يصير اليك فاقتف بي فلقب بذلك

﴿ استيلاء المسلمين على حصن وادي ابن الاحمر ﴾

في رجب سنة ٥٣١ سار الامير بزاوش مقدم عسكر دمشق الى طرابلس الشام فاجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة والتركمان فلما سمع بهم القومص بونس صاحب طرابلس سار اليهم في جموعه وحشوده فقاتلهم فانهزم وعاد الفرنج الى طرابلس في حالة سيئة لان فرسانهم وشجعانهم قتلوا فلما عادوا نهب المسلمون من بلادهم أكثرها وحصروا حصن وادي ابن الاحمر وضيقوا عليه فملكوه عنوة ونهبوا ما فيه وقتلوا المقاتلة وأسروا الرجال فافتدوا أنفسهم بمال جزيل وعاد المسلمون الى دمشق

﴿ استيلاء زنكي على قلعة بعرين ﴾

في شوال سنة ٥٣١ سار اتابك زنكي من حمص وحصر قلعة بعرين وهي للافرنج تقارب مدينة حماه وهي من أمنع الحصون وأعزها فلما نزل عليها قاتلها فجمع الافرنج فارسهم وراجلهم وساروا بقضهم وقضيضهم وملوكهم الى اتابك زنكي ليرحلوه عن بعرين فلم يرحل وصبر لهم الى ان وصلوا اليه فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان وانجلت الواقعة عن هزيمة الافرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب واحتمى ملوكهم بحصن بعرين لقربه منهم فحصرهم المسلمون ومنع اتابك زنكي كل شيء حتى الاخبار فكانوا من داخله لا يعلمون شيئاً من

أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده ثم ان القسيسين والرهبان ساروا الى بلاد الروم وجميع بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين وأعلموهم ان زنكي اذا أخذ بعرين ومن فيها من الافرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت وان المسلمين ليس لهم منه الا قصد البيت المقدس فخرج ملك الروم (بالقسطنطينيه) ومعه كثير من عساكره ومن النصرانية وساروا على الصعب وقصدوا الشام لتخليص حصن بعرين وأما زنكي فانه صبر في قتال الافرنج فصبروا وقلت عليهم الميرة والذخيرة لانهم كانوا غير مستعدين ولم يكونوا معتقدين ان أحداً يقدر عليهم بل كانوا يتوقعون ملك باقي البلاد الشامية فلما قلت الذخيرة طلبوا الامان والتسليم ولما سمع زنكي بقرب ملك الروم واجتماعه بمن بقي من الافرنج أعطى لمن في الحصن الامان وقرر عليهم تسليم الحصن ودفع ٥٠ الف دينار يحملونها اليه فاجابوه الى ذلك فخرجوا وسلموا اليه فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم وكان زنكي في مدة حصاره فتح المعرة وكفرطاب من الافرنج

﴿ في مسير ملك الروم يوحنا كومنينوس الى بلاد الشام ﴾

في سنة ٥٣١ خرج الملك يوحنا كومنينوس ملك الروم بالقسطنطينية قاصداً بلاد الشام لنجدة الافرنج كما تقدم فسار من البحر الى ان وصل بلاد الارمن التابعة لابن ليون الارمني فاستولى على بعضها ثم صار الى انطاكيه فوصلها في شهر القعده سنة ٥٣١ فحصرها وضيق عليها وبها صاحبها الامير رايموند ثم ترددت الرسل بينها فتصالحا ورحل عنها ولما دخلت سنة ٥٣٢ سار الملك يوحنا المذكور الى بلاد الشام وقصد بزاعه فحصرها وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب فمضى جماعة من اعيان حلب الى اتابك زنكي وهو محاصر حمص فاستغاثوا به واستنصروه فسير معهم قسما من عساكره فدخلوا حلب ليمنعوها من الروم ان حاصروها ثم ان ملك الروم قاتل بزاعه ونصب عليها المنجانيقات وامتلكها بالامان في الخامس والعشرين من رجب ثم غدر باهلها فقتل منهم وأسر وسبى وكان عدد من جرح فيها من اهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها عددهم نحو اربعماية نفس وأقام ملك الروم عشرة أيام يطلب من اختفى فقيل له ان جمعاً كثيراً من الاهالي قد اختبأ بالمغائر فاشعل على فوهاتها النار وأهلكهم ضيقاً بالدخان ثم رحلوا الى حلب بخيلهم ورجالهم فخرج اليهم احداث حلب فتقاتلوا

قتالاً شديداً فقتل من الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر عندهم وعادوا خاسرين فرحلوا الى قلعة الأثارب فخاف من فيها من المسلمين في التاسع من شعبان فهربوا عنها فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعه والأسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا فلما سمع الامير اسوار نائب حلب بذلك رحل فيمن عنده من العساكر الى الاثارب فاوقع بمن فيها من الروم فقتلهم وخلص الاسرى والسبي وعاد الى حلب وأما الملك يوحنا فانه قصد قلعة شيزر لانها من امنع الحصون وحصرها لعلمه بانها لم تكن لزنكي فلا يكون له في حفظها اهتمام لانها كانت للامير أبي العساكر سلطان بن علي منقذ الكناني فنصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً فارسل صاحبها الى زنكي يستنجده فسار اليه فنزل على نهر العاصي بينها وبين حماة فكان يركب كل يوم في عساكره ويسير الى شيزر بحيث يراه ملك الروم ويرسل السرايا تخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ثم يعود آخر النهار وكان الروم والافرنج قد نزلوا شرقي شيزر فارسل اليهم زنكي يقول لهم انكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها الى الصحراء حتى نلتقي فان ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها وان ظفرت بكم ارحت المسلمين من شركم وكان لم يكن له بهم مطمع لكثرتهم وانما كان يفعل هذا ترهيباً لهم فاشار الافرنج على الملك يوحنا بلقائه وقتاله وهونوا أمره فقال لهم الملك أتظنون ان معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة وانما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له (أي تخرجوا له في الصحراء) فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم وكان اتابك زنكي مع هذا يراسل افرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم انه ان ملك بالشام حصناً واحداً اخذ البلاد التي بايديهم منهم وكان يراسل ملك الروم يتهدده ويوهمه ان الافرنج معه فاستشعر كل واحد من الافرنج والروم بالخوف من صاحبه فرحل ملك الروم عنها في رمضان سنة ٥٣٢ وكان مقامه عليها اربعة وعشرين يوماً وترك المنجنيقات وآلات الحصار بحالها فسار زنكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه الى قلعة حلب وكفى الله المؤمنين القتال وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم وعلموا ان الروم ان ملكوا حصن شيزر لايبقى لمسلم معهم مقام لاسيما مدينة حماه لقربها ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء اتابك زنكي فاكثروا منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموي بقصيدة منها

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر ان كلب الروم لما تبين انك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلا كأن الجحفل الليل البهيم
وقد ترك الزمان على رضاه فكان لخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك في خميس تيقن ان ذلك لايدوم

ولما عاد ملك الروم الى بلاده نزل اتابك الى حصن عرقه وهو من أعمال طرابلس فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه وأسر حاميتــه من الافرنج وخربه وعاد سالماً غانماً

﴿ محاصرة زنكي دمشق واستيلاء الافرنج على بانياس ﴾

في سنة ٥٣٤ سار عماد الدين اتابك زنكي في ربيع الاول الى دمشق فنزل بالبقاع وأرسل الى جمال الدين محمد صاحبها يطلب منه تسليم دمشق واختيار أي بلد بدلها فلم يجبه الى ذلك فرحل وقصــد دمشق فنزل على داريا في ثالث عشر ربيع الأول فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لعسكر زنكي وعاد الدمشــقيون منهزمين وقتل كثير منهــم ثم تقدم زنكي الى الموصل فنزل هناك ولقيه جمع كثير من جند دمشق فقاتلوه فانهزم الدمشقيون وأخذهم الســيف فقتل منهم وأكثر وأسر كذلك ومن سلم عاد جريحاً وهدد البلد ذلك اليوم بالاخذ وان يملك لكن زنكي أمسك عنه عشرة أيام وتابع الرسل الى صاحب دمشق وبذل له بعلبــك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلاد فمال الى التسليم فنعــه أصحابه وخوفوه عاقبة فعله فلما لم يسلموا عاد القتال والزحف ثم ان جمال الدين مرض وتوفي ثامن شعبان فطمع زنكي حينئذ في البلد وزحف عليه زحفاً شديداً ظاناً وقوع الخلاف بين المقدمين فيبلغ غرضه وكان ما آمله بعيداً وتولى بعد جمال الدين مجير الدين آبق ولده وتولى ترتيب دولته معين الدين انز فاحسن التدبير ولما رأى انز ان زنكي لا يفارقهم راسل فولك ملك القدس واستدعاه الى نصرته لدفع زنكي عن دمشق واعداً اياه بانه يحصر بانياس ويسلمها للافرنج وخوفه من زنكي اذا ملك دمشق فأيقن بصحة قوله وعلموا ان ملكها لا يبقي لهم معه بالشام مقام فلما سمع بذلك زنكي سار الى حوران خامس رمضان عازماً على قتال الافرنج قبل وصولهم دمشق ولما سمعت الافرنج خبره لم يفارقوا بلادهم ولما رآهم كذلك عاد الى حصر دمشق ونزل بعــذرا شماليها سادس شوال وأحرق عدة قرى من المرج والنوطه

ورحل عائداً الى بلاده ثم وصلت الافرنج الى دمشق واجتمعوا بصاحبها فسار معين الدين آنز بعسكره الى قلعة بانياس وهي في طاعة زنكي ليحصرها ويسلمها للافرنج وكان واليها قد سار قبل ذلك منها باسبوع الى مدينة صور للاغارة عليها فنازلها معين الدين وقاتلها وضيق على من بها ومعه طائفة من الافرنج فاستولى عليها وسلمها الى الافرنج فلما سمع بذلك زنكي فرق عساكره للاغارة على حوران وأعمال دمشق وسار هو فنازل دمشق سحراً ولم يعلم به احد من أهلها فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتجت البلد واجتمع العسكر والعامة على السور وفتحت الابواب وخرج الجند فقاتلوه فلم يتمكن زنكي من الاقدام في القتال لقلة جنوده لان عساكره كانت متفرقة ولما اجتمعت عاد بها الى بلاده

﴿ وفاة فولك ملك القدس وتولية ولده بودوين الثالث ﴾

في سنة ٥٣٧ الموافقة سنة ١١٤٢ توفي فولك دي اينو ملك القدس وكانت وفاته في سهل مدينة عكا حيث كان راكباً جواده فسقط عن ظهره عند جماحه فمات وله ولدان أكبرهما اسمه بودوين وعمره ثلاث عشرة سنة والثاني اسمه اموري فاستحق ولده الاكبر الولاية وتسمي بودوين الثالث تحت وصاية والدته ميليسيندا الى ان بلغ الرابعة عشرة سن رشده حسب عادتهم وأصبح بعدئذ بودوين ملكا حراً

﴿ فتح زنكي مدينة الرها والبلاد الجزريه ﴾

كان صاحب مدينة الرها جوسلين الاول قد توفي فجلس على تختها ولده جوسلين الثاني وكان شجاعاً ماكراً يغير على البلاد الجزرية ويمتلكها فاراد اتابك زنكي محاصرة مدينة الرها ولعلمه بانه متى قصد حصرها اجتمع فيها الافرنج فيمنعوه ويتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة فاشتغل بمحاربة ديار بكر ليوهم الافرنج انه غير متفرغ لقصد بلادهم فلما رآه جوسلين الثاني مشغولا بمحاربة ملوك ديار بكر اطمأن على بلاده وفارق مدينة الرها وعبر الفرات الى البلاد الغربيه فجاءت عيون اتابك اليه وأخبروه بما كان فنادى في معسكره بالرحيل وان لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه وسار بالعساكر الى ان وصل الى مدينة الرها فحاصرها ونازلها وقاتلها ثمانية عشر يوماً بآلات الحصار التي كان قد أحضرها من حلب وكان معه أبراج خشبية تعلو عن سور المدينة وقدم النقابين فنقبوا سور البلد ولح في القتال

خوفاً من اجتماع الافرنج والمسير اليه واستنقاذ البلد منه فسقطت الدنه التي نقبها النقابون وأخذ البلد عنوة وقهراً وحصر قلعتها فملكها أيضاً ونهب الناس الاموال وقتلوا الرجال فلما رأى اتابك البلد أعجبتــه ورأى انه لا يجوز تخريب بلد مثلها فأمر بالمناداة في العساكر برد ما أخذوه من الاسرى من رجال ونساء الى بيوتهم واعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم فردوا جميع ذلك عن آخره ولم يفقد منه شيء فعادت البلد على حالها الاول وجعل فيها عسكراً يحفظها ثم سار اتابك زنكي فتسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الافرنج شرقي الفرات ما عدا البيره فانها حصينة منيعة وعلى شاطئ النهر فسار اليها وحصرها وكانوا قدأ كثروا ميرتها ورجالها فبقي على حصارها الى ان وصله خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فرحل عنها وأرسل نائباً الى الموصل وأقام ينتظر الخبر فخاف من بالبيره من الفرنج ان يعود اليهم وكانوا يخافونه خوفاً شديداً فأرسلوا الى نجم الدين صاحب ماردين وسلموها اليه فملكها المسلمون

﴿ قتل اتابك عماد الدين زنكي وتولية اولاده ﴾

في سـنة ٥٤١ حاصر اتابك زنكي حصن جعبر وهو مطل على الفرات وكان بيد سالم مالك العقيلي ففي اليوم الخامس من شهر ربيع آخر قتل الشهيد اتابك عماد الدين زنكي بن اقسـنقر صاحب الموصل وبلاد الشام ومدينة الرها وبلاد الفرات الشرقية قتله جماعة من مماليكه ليلا غيلة وهربوا الى قلعة جعبر فصاحوا على من بهـا من أهلهـا من العسـكر يعلمونهم بقتـله وأظهروا الفرح فدخل أصحابه اليه فأدركوه وبه رمق وفاضت نفســه رحمه الله وكان حسن الصورة أسمر اللون مليح العينين قد وخطه الشيب وكان عمره يزيد عن السـتين ودفن بالرقه وكان شديد الهيبـة على عسكره ورعيته عظيم السـياسة وكان يمنع القوى من ظلم الضعيف محباً لعمار البلاد وكان أشجع خلق الله ورثاه الحكيم ابي الحكم المغربي بقصيدة منها

عين لا تدخري المدامع وابكي … واستهلي دمعاً على فقد زنكي
لم يهب شخصه الردى بعد ان كا … نت له هيبـة على كل تركي
خير ملك ذي هيبة وبهاء … وعظيم بين الانام بزوك
يهب المـال والجياد لمن يمـدحه مادحاً بغـير تلكي
أي فتك جرى له في الاعادي … بعد ما استفتح الرها أي فتك

يعد ما كاد ان تدين له الروم ويحوي البلاد من غير شك

وخلف من الاولاد سيف الدين غازي ونور الدين محمود الملك العادل وقطب الدين مودود وهو ابو الملوك ونصرة الدين أمير أميران وبنتاً وبعد وفاته أخذ خاتمه من يده نور الدين محمود الملك العادل وكان حاضراً معه وسار الى حلب فملكها وكان ذلك باشارة أسد الدين شيركوه وكان حينئذ يتولى ديوان زنكي ويحكم في دولته جمال الدين محمد بن علي وهو المنفرد بالحكم ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني فاتفقا على حفظ الدولة وكان مع الشهيد اتابك الملك الب ارسلان ابن السلطان مسعود فسيره الى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه وقال لهم ان وصل أخي سيف الدين غازي الى الموصل فهي له وأنتم في خدمته وان تأخر فانا أقرر أمور الشام وأتوجه اليكم وكان سيف الدين غازي بناحية شهرزور وهي اقطاعه من أبيه وساعده على ذلك جمال الدين واستقر أمر سيف الدين غازي بالموصل وجعل جمال الدين وزيره وأرسلوا الى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع وكان سيف الدين هذا قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام ابيه وكان السلطان يحبه ولذلك لم يتوقف في تقرير اليمين له

﴿ عصيان أهل الرها واستيلاء نور الدين عليها ﴾

لما قتل اتابك زنكي كان جوسلين الثاني صاحب الرها بناحية تل باشر وما يجاورها من ولايته فراسل أهلها وعامتهم وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد اليه فاجابوه الى ذلك وواعدهم على يوم يصل اليهم فيه وسار في عساكره الى الرها وملك البلد وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم وأرسل الى جميع الصليبيين بالشام يستنجدهم على المسلمين فبلغ الخبر الى نور الدين محمود بن زنكي وهو بحلب فسار مجداً اليها في عسكره فلما قاربها خاف منه جوسلين خصوصاً لعدم ورود احد من الافرنج لنجدته فخرج هارباً عائداً الى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها ففي هذه الدفعة نهبت وخلت من أهلها ولم يبق بها منهم الا القليل وكان ذلك في سنة ٥٤١ وكان قد بلغ خبر عصيانها الى سيف الدين غازي بن الشهيد اتابك زنكي فسير اليها العساكر وفي أثناء مسيرهم اليها بلغهم خبر استيلاء الملك العادل نور الدين عليها فعادوا

﴿ ابتداء الحروب الصليبية الثانية ﴾

(طلب الصليبيين النجدة من البابا ومن ملوك اوروبا)

في سنة ٥٤٢ فتح الملك العادل نور الدين (ارتاج) بالسيف (وحصن باراه ويصرفوت وكفر لاثا ٠) وأخذها من الافرنج الذين كانوا قد طمعوا فظنوا انهم بعد قتل الشهيد يستردون ما أخذ منهم فلما رأوا قوة وبطش نور الدين علموا ان ما أملوه بعيـد وخافوا منه أن يأخذ جميع بلادهم فلذلك اجتمعت رؤساءهم في مدينة القـدس وقرروا طلب الاعانة والنجدة من البابا ومن ملوك أوروبا جميعاً ثم أرسلوا وفداً الى البابا أوجانيوس الثالث الذي كان مقيما في مدينـة فيتاريو ولما وصل اليه الوفد وقابله فأعلمه بما جرى على المسيحيين بالشام وان نور الدين اذا دام على قتالهم أفناهم خصوصاً استيلاء المسلمين على مدينة الرها تلك المدينة عظيمة القدر عندهم فبكى البابا وتذكر مافعله سلفه البابا اوربانوس الثاني وبمـا فاز به من ثمرة أعماله فشرع في تحرير الرسائل الى ملوك أوروبا مملوأة بالتحريض والاستحلاف بان ينهضوا لاجل نجدة اخوتهم المسيحيين الذين في المشرق ويخص بالتحريض ملك فرنسا لويس السابع وكذلك أرسل الى القديس برندوس معلمه رئيس دير كلارفوكس كامبروسيوس وأعلمهم بان مدينة القدس في خطر من سيوف المسلمين فلما وردت رسالة البابا على الملك لويس السابع ملك فرنسا عقد جمعية في مدينة بورغاس من الرؤساء الكنائسيين ومن أشراف المملكة وأبلغهم اعتماده على الحرب المقدسة ثم انه عمل بمشورة القديس برندوس فأرسل وفداً الى روميه لمقابلة البابا الذي قابله بمسرة ودعا للملك لويس بالنصر وأرسل منشوراً رسولياً الى المسيحيين جميعهم يحرضهم فيه ويمنحهم الانعامات والاختصاصات جميعها الممنوحة من سلفه أوربانوس الثاني للصليبيين الاولين وقد أناب عنه معلمه القديم القديس برندوس فأقامه رئيساً رسولياً للجيوش الصليبية وفوض اليـه دعوة جميع المسيحيين الى هذه الحرب المقدسة

﴿ جمعية فينزالاي بفرنسا ﴾

أمر الملك لويس بعقد جمعية اخرى في مدينة (فينزالاي) الصغيره من اقليم بورغونيا تحت رياسته ورئاسة القديس برندوس وحضر هذه الجمعية عـدد عظيم من الاكليروس والاشراف والرجال من كل سن ورتبة وكان اجتماع هذه الجمعيه

في يوم حد الشعانين في سنة ١١٤٦ ميلاديه موافقة سنة ٥٤١ هجريه امام باب المدينةالمذكوره وهناك ظهرالملك بالزينة الملكيه وبرنردوس بثوبه الرهباني وجلسا فوق تحت نصب هـذه الغاية ثم انه وقف برنردوس وقرأ بصوت عال المنشور البابوي وأخبر الشعوب بسقوط امارة الرها بيد المسلمين فشمل الحاضرين الكدر وسلوا سيوفهم واعتمدوا على الحرب ولاجل أن يوطدهم على هـذه العزم ويحميهم بالغيرة الدينية خطب فيهم الخطبة الآتيه بحروفها قائلا (أيها السامعون أقوالي لاتلتمسوا بعد الآن بالتنهد والدموع صلاح الله التماساً باطلا ولا تلبسوا المسوح بل تدرعوا بالاسلحه التي تغلب فقعقعه آلات الحرب واغامات السفر والمشقات والاضرار الزمنيه ومعركات الحرب انما هي اعمال التوبة التي يرسمها الله عليكم فاذهبوا افدوا خطاياكم بالانتصار واستخلاصكم الاماكن المقدسة من الاخطار الملمه بها هو ثمن ندامتكم وتوبتكم عن زلاتكم فلواتاكم مخبر قائلا لكم ان الاعداء قد استولوا على مدينتكم أو حصونكم او اراضيكم واختطفوا نسائكم وبناتكم للسبي ودنسوا معابدكم فمن منكم عند هذا السماع لايركض متناولا اسلحته للمحاربه فهذه المصائب كلها احاقت باخوتكم وشرور اعظم منها مزمعة أن تحل على الآخرين أيضاً من اخوتكم عليه يسوع المسيح التي هي عيلتكم فاي شئ اذاً انتم تنتظرون لكي تصلحوا هذا المقدار العظيم من الشرور ولكي تنتقموا عن اهانات مثل هـذه كلية الانواع فحينما الرب يستدعيكم الى حماية ميراثه افهل تظنون ان ذراعه الالهي اضحى الآن اقل قوة من ذي قبل واضعف اقتداراً مما سلف أو انه تعالى لايستطيع أن يرسل اثنى عشرطغمة من الملائكة او يقول كلمة واحدة بها يكردس اعداءه الى التراب وانتم ايها النبلاء الشرفاء المحامون عن الصليب المقدس تذكروا نموذجات ابائكم الذين استنقذوا اورشليم من العبوديه واسماهم مكتوبة في السماء فاهملوا نظيرهم الخيرات البايده لكي تأخذوا رايات الغلبة العديمة الفساد وتكتسبوا ملكاً عديم النهاية) . اه

فصرخوا جميعاً قائلين . الله يريد هذا . الله يريد هذا . وقد اثرت فيهم هذه الخطبة كما اثرت خطبة البابا أوربانوس الثاني في مؤتمر كلارمون . ثم انطرح الملك لويس على اقدام هذا القديس ملتمساً منه صليب الحرب وقد حرض جميع رعاياه الفرنساويين على اتباع اثره فيها وكذلك زوجته (اليونوره) فانها استلمت صليب حرب فاتبعهما كونت دي سان جيلاس وطولوز . وانريكوس بن طيبو كونت

دي شامبانيا وتيلدي كونت دي فلاندره وغليوم دي نافاروواتود كونت دي طوتار وانياس كونت دي سواسون وارشامبود دي بوربون وهوكوز دي لويزنيان ثم الكونت دي دروكس أخو السلطان والكونت دي بوريان عمه واساقفة نويون ولانكراس • وأراس وليزيو وآخرون كثيرون من الرؤساء الكنائسيين على محاربة المسلمين وفرح القديس برنردوس من تتويج اعماله بالنجاح وصار ينتقل في مملكة فرنسا من مدينة الى اخرى محرضاً على الحروب الصليبية ففي مدينة شارتراس تجمعت العساكر والاشراف وطلبوا منه أن يكون قائدهم في الحرب ولما تفكر هذا القديس ماجرى لبطرس السائح رفض طلبهم هذا ولخوفه ان يلزموه بذلك حرر رسالة الى البابا أوجانيوس يناشده بان يعفيه من ذلك فأتاه الجواب حسب مرغوبه

﴿ تحريض الملك كونراد ملك المانيا باتحاده مع الصليبيين ﴾

ثم ان القديس برنردوس المذكور سافر من مملكة فرنسا قاصداً مملكة النمسا يتجول في كل اقليم منادياً بالحروب الصليبية ثم سار الى سيبريا الالمانية وكان منعقداً هناك مجلس عام للمملكة بامر الملك كونراد الثالث فدخل القديس الكنيسه التي بها الملك وعظماء دولته وشرع بتقديم الذبيحه الالهيه ثم ابتدأ في القداس وصور المسيح حاضراً والصليب في يده خاطب الملك كونراد بتوبيخ صارم على فتوره فخجل الملك وأقسم بان يلبس ثوب الصليبيين منادياً بالحرب المقدسة وكذلك اشراف المملكة ثم اجتمعت جمعية من الرؤساء الكنائسيين في مدينة (راتيسبون) فقرروا قبول الرسائل المحررة لهم من القديس برنردوس بالتحريض على الحروب الصليبية المقدسة وكان من هؤلاء اساقفة پاصاف وراتيسبون وفريزنجان ومن العظماء لاديسلاس دوك دي بوهوميا واوداكر أمير ستريا وراناد كونت دي كارينتينا وفريدوريكوس نسيب الملك كونراد اما القديس برنردوس فانه عاد من المانيا الى بلاد فرنسا

﴿ جمعية مدينة اتامبيس بفرنسا والاستعداد لسفر الصليبيين ﴾

لما عقد ملك فرنسا النية على السفر أمر باجتماع جمعية المملكة العامة في اتامبيس في شهر فبراير سنة ١١٤٧ لانتخاب نائباً عنه يدبر امور المملكة في غيابه فانتخبوا الانبا سوجار رئيس كنيسة القديس ديونيسيوس فرفض سوجار قبول هذه الوظيفة ولكن طاعته للاوامر البابوية والملوكية الزمته بقبولها ثم انه حضر هذه الجمعية

وسل من الملك ووجار ملك بوليا وسيسيليا واعدين بان يرسلوا الى الصليبين مراكب بحرية مع الذخيرة والمؤن وان ابن الملك يذهب معهم في المراكب الى الاراضي المقدسة وبناء على هذه المواعيد قرروا بعد تردد السفر براً

﴿ سفر الصليبيين واجتماعهم بالقسطنطينيه ﴾

ثم ارسل القديس برنردوس الاوامر فكانت تعلق في المدن على الجدران وتتلى فوق المنابر بالكنائس بخصوص السفر فاجتمع امير مونت فارّات والكونت دي موريانا خال لويس السابع وجمعا العساكر الصليبية واجتازا بهم الجبال الالبية وحدود رونا ولومبارديا ونيومونت وكذلك الصليبيون الانكليز فانهم نزلوا في المراكب من مينا مابيكا وساروا قاصدين الشرق واما العساكر الفرنساوية فكان موعد اجتماعهم بمدينة ما طنس والعساكر الالمانيــة والنمساوية بمدينة راتيسبون وقد نزل الملك كونراد بعساكره في المراكب النهرية مجتازاً نهر الدانوب ذاهباً الى مدينة راتيسبون لاجل تتويج ابنه بتسمية سلطان الرومانيين وترك تدبير المملكة في غيابه الى الانبا كوربي وسار قسم من عساكره في البر لابساً الخوذات مزينة بريش النعام والزرد بالحديد اللامع ومدججون بالاسلحة الذهبية

وأما الملك لويس السابع فانه قبل سفره توجه الى كنيسة القديس ديونيسيوس ليستلم السنجق الشايع الصيت الذي كان ملوك فرانسا يسيرونه مرفوعاً امامهم في ذهابهم الى الحروب وكان البابا أوجانيوس الثالث قد حضر الى فرانسا وحضر الاحتفال وبيده سلم الملك لويس السنجق القديم مع دبوس وغداره علامة لسفره في الحرب المقدسة ثم ودع سوجار وأوصاه بالمملكة وسار هو وزوجته وفريق من بلاطه من باريس متوجهاً نحو مدينة ماطنس حيث أجتمع بعساكره ثم سار منها الى بلاد المانيا ومنها قاصداً القسطنطينية المحل المعين لاجتماع جميع الصليبيين تحت سناجق الحرب المقدسة لينطلقوا منها الى مقابلة الاخطار العظيمة وطلب الانتصار

﴿ اخبار الصليبيين في القسطنطينية ﴾

كان جالساً في ذلك الزمان على تخت مملكة الروم التي عاصمتها القسطنطينية الملك عمانويل الشاب ابن الملك اليكسيوس الاول وأخو الملك يوحنا السابق ذكره فجاءته أخبار ورود العساكر الصليبية الثانيــة نخاف منهم على مملكته وليس له قوة على ممانعتهم ثم وصل الملك كونراد ملك المانيا والنمسا بعساكره وجميع من تبعه من الصليبيين

فاتخذ عمانويل كل الطرق والحيل لمنع حصول بينهما خصام افضى الى الحرب فكانت المحاربة بين مدينة نيكوبولي ومدينة ادريانوبولي ثم دارت المحابرة بينهما بواسطة معتمدين من الجهتين ولكن خوف الملك عمانويل من الصليبيين وكدر كونراد من خيانة الروم جعلت المخابرة بدون فائدة الى ان عقد الصلح فاخذ ملك الروم يتدبر حيلة يهلك بها عساكر الصليبيين فامر بخلط الدقيق المطحون وغشه بالكلس الابيض ليباع الى الصليبيين ثم ضرب نقوداً مغشوشة تشبه الذهب والفضة وأمر ان يشترى بها من عساكر كونراد جميع ما يرغبون بيعه اما الملك كونراد وعساكره فانهم كانوا ناصبين خيامهم في سهول (ساليفريا) بالقرب من القسطنطينية فهبت عواصف شديدة واعقبتها امطار غزيرة فجرت المياه من الجبال على المعسكر حتى غرقت خيامهم وامتعتهم ورحلوا قاصدين اراضي اسيا

ثم وردت الاخبار الى الملك عمانويل بقدوم الملك لويس السابع ملك فرنسا فخرج لملاقاته وفد من عند ملك الروم وقدموا له الاحترام اللائق بمقامه فتوجه معهم الى قصر الملك بالقسطنطينية ثم تبعه قواده وكان ملك الروم يقدم كل يوم للصليبيين عهوداً ومواثيق في الظاهر ويرسل الى ملك ايقونيه بلاد الاسلام يحرضه عليهم مبيناً له نوايا الصليبيين وانهم قادمون لاخذ باقي البلاد من المسلمين فشعروا بذلك فقرر مجلس شوراهم ان البلاد التي يملكونها وتكون من مملكة الروم لا يسلموها الى ذلك الملك ولكثرة خوف الملك عمانويل من الصليبيين ومن اقامتهم ببلاده أشاع في مدينته بان الصليبيين الذين بصحبة الملك كونراد قد انتصروا على المسلمين فاتباعاً لهذه الاشاعة الكاذبة فرح الصليبيون وأمروا جيشهم بالمسير حالا لمشاركة اخوانهم ثم ساروا الى ان وصلوا الى بحيرة اسكانوس بقرب مدينة نيقيه وأثناء اقامتهم هناك انكسفت الشمس فتشاءموا وخافوا واتفق ان خوفهم هذا صادف محله لانه وردت لهم الاخبار بان الملك كونراد وعساكره كسرهم المسلمون شر كسرة

﴿ مسير العساكر النمساويه والالمانية ﴾

وكان الملك كونراد ومن معه من الصليبيين قد استصحب من الروم من يدله على الطريق في بلاد أسيا فسار الروم أمامهم وأرادوا توصيلهم من نيقيه الى ايقونيا فساروا بهم في الجبال بغير الطريق الحقيقي حتى فرغ ما معهم من الزاد وحينئذ علمت الافرنج بان الروم قد خانوهم ومكروا بهم وأضلوهم بطريق وعرة

المسالك بدون زاد ولا ماء ففر الروم وتركوهم عند جبل طاوروس فسار الافرنج بعد ذلك ثلاثة ايام بحال يرثى لها من التعب والمشقات وعدم الاكل والشرب فطلعت عليهم العساكر الاسلامية وكانوا كامنين لهم بالجبل وانقضوا عليهم كالصواعق من كل ناحية فاحتارت العساكر الصليبية وهي لا تقدر لا على الرجوع ولا على التقدم وبعد قتل أكثرهم هرب الملك كونراد وتبعه باقي عساكره ومن سلم من الصليبيين الاخر الى مدينة نيقيه فتبعهم المسلمون وقتلوا معظمهم وهم منهزمون ولما وصلوا الى مدينة نيقيه قابلهم الملك لويس ملك فرنسا بجيشه ثم جددا التحالف بمحاربة المسلمين ولكون الملك كونراد لم يكن له قوة بالمسير صحبة ملك فرنسا فرجع الى القسطنطينية وطلب من ملك الروم مساعدته بمراكبه الى القدس كما يأتي

﴿ سفر العساكر الفرنساويه ﴾

سار الملك لويس بعسكره حتى بلغ أراضي برغاما وازمير حيث وردت اليه رسل ملك الروم فلم يلتفت اليهم وسار بعسكره نحو المشرق وضرب خيامه في واد بالقرب من كابسترا (وهو الآن وادي الغزلان) واحتفلوا هناك بعيد ميلاد المسيح ثم ساروا بطريق اللاذقية الى ان بلغوا فم نهر ليكوس وهناك أرادت العساكر الاسلامية منعهم من عبور النهر ولكن الملك لويس شجع عساكره ورتبهم وسار بهم بدون مبالاة الى ان وجدوا سهلا فيه اجتياز النهر فدفعوا نفسهم برئاسة الكونت اوريكوس وتادوريكوس فعبروا النهر وكذلك اجتاز النهر الملك لويس وهجموا على العساكر الاسلامية فانهزموا من امامهم وسمع بذلك اهل اللاذقية القريبة من محل الواقعة فخافوا وأخلوا المدينة ثم سار الملك لويس وعسكره الى ان وصل الى مدينة ساطاليا مجتازين في طرقات جبل كادموس مع جبال أخر مخيفه (التي سموها جبال اللعنه) وهناك وجدوا العساكر الاسلامية واقفة لهم بالمرصاد فخاف الملك لويس وارسل قسما من عسكره تحت رئاسة عمه كونت ذي موريانا مع جوفرو دي رنكوت فاغتنمت العساكر الاسلامية فرصة انقسام الصليبيين وانقضوا على الباقين في الجبل بصرخات مهيلة ورموهم بالنبال فالتجأوا الى قمة جبل تحتها واد عميق فضايقتهم العساكر الاسلامية وأخذوا يقتلونهم ويكردسونهم في هذا الوادي

أما الملك لويس وباقي عسكره فانه هجم على الاسلام وسير جيشه أمامه

فهجمت عليه العساكر الاسلاميه وفرقت بين جيشه وبين فرسانه وأوقعوا بهم ففر الملك لويس من هذه الموقعة ولحق بمن نجا من جيشه وساروا الى ان وصلوا الى سور مدينة ساطاليا عند فم نهر جاسنيوس وعند مشاهدتهم هذه المدينة ظنوا بانهم سيحتموا فيها لعلمهم بانها تابعة لملك الروم ولكن املهم خاب فوالي المدينة الرومي أمر بقفلها في وجوههم مع انهم كانوا في غاية الشدة والجوع ووجدوا نفسهم ملتزمين بالاستمرار على المسير في البراري وأخيراً طلبوا منه ان يرسل لهم مراكب ليسيروا بها الى انطاكية فامر لهم بالمراكب ولما وجدوها غير كافية لحملهم انقسموا قسمين قسم ركب البحر ومعه الملك لويس وقسم سار في البر تحت رياسة كونت دي فلاندرا وارشامبود دي بوربون ودفع الملك لويس الى والي ساطاليا خمسين وزنة من الفضة ليوصل العساكر المسافرة براً الى طرسوس ولكن هذا الوالي اهملهم ولم يرسل أحداً يدلهم على الطريق السهل وسار الملك لويس بحراً الى ان وصل انطاكيه فخرج رايموند دي بوانيارس صاحبها وقابل الملك بالاحتفال والاكرام وقد فرح به وطلب الاشتراك معه في الحرب وقال له الافضل أن نحارب مدينتي حلب وقيساريه لان امتلاكهما يوطد الامان لجميع الصليبين ويضعف قوة نور الدين ولكن ملك فرنسا وقواده رفضوا هذا الطلب وقالوا لا نحارب الا بعد زيارة القدس ثم بعد اقامته بانطاكية أياماً قليلة عزم على المسير الى القدس فسارهو وقواده الى ان وصلوها فخرج بودوين الثالث ملكها مع الاكليروس والامراء والشعوب حاملين أغصان الزيتون فدخل المدينة بين هتاف وتهليل وذلك سنة ١١٤٧ الموافق سنة ٥٤٢ هـ وأقام بها الى ان وصل الملك كونراد ملك النمسا والمانيا فتوجها الى كنيسة القيامة فشكرا الله على نجاتهما

﴿ المشورة بالحروب الصليبية الثانية ﴾

بعد اقامة الملوك الصليبيين بالقدس عقد بودوين الثالث ملك القدس مجلساً للمشورة على محاربة الاسلام حضره الملكان المذكوران واعضاء مملكة القدس والرؤساء الكنائسيون وكان ذلك المجلس بمدينة عكا فقرروا محاصرة مدينة دمشق الشام ظانين بانهم اذا فازوا بهذه المدينة وامتلكوها واياالتها المحصة لم يبق عليهم خوف من حروب جديده تضايقهم فيها المسلمون وتصير مدينة القدس محمية بدمشق وفي شهر مايو سنة ١١٤٨ سار كل من الملك كونراد ملك النمسا والمانيا والملك لويس

السابع ملك فرنسا والملك بودوين الثالث ملك القدس بجميع عساكرهم وكذلك رهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان ورهبان جمعية الهيكليين مقدمين أمامهم البطريرك حاملا الصليب الخلاصي الحقيقي وساروا الى أن وصلوا الى سهل مدينة دمشق

﴿ محاصرة الصليبيين مدينة دمشق ﴾

في سنة ٥٤٣ هجريه حاصر الصليبيون مدينة دمشق وفيها صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين وليس له من الامر شيء وانما كان الامر الى مملوك جده طغتكين وهو معين الدين انز فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر وكان عاقلا دينا خيراً حسن السيرة فجمع العسكر وحفظ البلد وحصرهم الصليبيون فزحفوا اليهم سادس ربيع أول فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم وكان في من خرج الشيخ حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربي القندلاوي شيخ السادة المالكيه بدمشق وكان شيخاً كبيراً زاهداً عابداً خرج راجلا فرآه معين الدين فقصده وسلم عليه وقال له ياشيخ انت معذور ونحن نكفيك وليس بك قوة على القتال فقال قد بعت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله يعني قول الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنه) الآيه وتقدم وخرج معه أيضاً الشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول فقاتلا حتى قتلا رحمهما الله وقوى أمر الصليبيين وتقدموا وضعف أهل البلد عن ردهم وتقدم الملك كونراد فنزل بالميدان الاخضر فايقن الناس بانه يملك البلد وكان معين الدين قد أرسل الى سيف الدين غازي يستغيث به ويستنجده فجمع عساكره وسار الى الشام واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب فنزلوا بمدينة حمص وأرسل الى معين الدين يقول له قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح من بلادي فاريدان يكون نوابي بمدينة دمشق لاحضر والقى الافرنج فان انهزمت دخلت انا وعسكري البلد واحتمينا به وان ظفرنا فالبلد لكم لا انازعكم فيه فارسل معين الدين الى الصليبيين يهددهم ان لم يرحلوا عن البلد وكان قد حصل بينهم انقسام لانهم ظنوا امتلاك المدينة فتشاحنوا على من يكون ملكها فلما سمعوا بمجيء سيف الدين ضعف قلبهم وأرسل اليهم معين الدين يهددهم ويقول لهم ان ملك المشرق قد حضر فان رحلتم والا سلمت البلد اليه وحينئذ تندمون وارسل أيضاً الى افرنج الشام يقول لهم باي عقل تساعدون هؤلاء الصليبيين الغرباء علينا وانتم تعلمون أنهم ان ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحليه وأما انا فان رأيت

الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لايبقى لكم معه مقام في الشام فاجابوه الى التخلي عن الصليبيين وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم فاجتمع الملك بودوين وأرباب مملكته بالملك كونراد والملك لويس وخوفوهم من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد اليه وانه ربما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته فبا كرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم وزال عنهم روعهم وتبينوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام وفي الغد أحاطوا بهم في مخيمهم وقد تحصنوا باشجار البساتين فاحجم الافرنج عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد وظن المسلمون أنهم يدبرون مكيدة أو حيلة ولم يظهر منهم الا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفا من المهاجمة الى ان يجدوا لحملتهم مجالا وليس يدنوا منهم أحد الا صرع برشقة أو طعنة وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الاحداث وجعلوا يقصدونهم فى المسالك فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤسهم لطلب الجوائز عليها فرحلوا في سحر يوم الاربعاء عشره ربيع الاول فبعد رحيلهم عن دمشق أشار بعض القدمين بحصار مدينة عسقلان ولكن جميع الصليبيين ضعفت قلوبهم وذهبت شجاعتهم ولذلك رفضوا هذه الشورة وعاد كل منهم الى بلاده

﴿ استيلاء نور الدين على حصن العزيمه ﴾

بعد رحيل الصليبيين عن دمشق سار معين الدين انزالي ببعلبك وأرسل الى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله ان يحضر اليه فاجتمعا فوصلهما كتاب القمص يونص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العزيمه واخذه ممن فيه من الافرنج وكان سبب ذلك ان ابن الملك روجار صاحب صقليه خرج مع الملك كونراد ملك المانيا الى الشام وتغلب على الحصن المذكور واخذه من القمص وأظهر له انه يريد أخذ طرابلس أيضاً وكان روجار صاحب صقليه قد غزا افريقيه وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما استولى ابنه على حصن العزيمه كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده فسارا اليه مجدين فصبحاه وكتبا الى سيف الدين يستنجدانه ويطلبان منه المدد فامدهما فحصروا الحصن ونقبوا السور فاذعن الافرنج واستسلموا والقوا بايديهم فملك المسلمون الحصن وأخذوا كل من فيه من رجل وصبي وامرأة وفيهم ابن روجار واخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين وعاد نور الدين الى حلب ومعه ابن روجار وأمه ومن أسر معهم وعاد معين الدين الى دمشق

﴿ انهزام الافرنج بيغرى ﴾

في سنة ٥٤٣ أيضاً هزم نور الدين محمود بن زنكي الافرنج بمكان اسمه يغرى من أرض الشام وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها بقيادة رايموند صاحب انطاكيه فعلم نور الدين فسار اليهم في عسكره فالتقوا بيغرى واقتتلوا قتالا شديداً فانهزم الافرنج وقتل كثير منهم وأسر جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع الا القليل وأرسل من الغنيمة والاسرى الى أخيه سيف الدين والى الخليفة ببغداد والى السلطان مسعود وفي هذه الواقعة يقول ابن القيسراني بقصيدته التي أولها

يا ليت ان الصد مصدود　　أولا فليت النوم مردود

ومنها في ذكر نور الدين

وكيف لا يثنى على عيشنا الـمحمود والسلطان محمود
وصارم الاسلام لا ينثني　　الا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة　　الا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها　　عند ملوك الكفر مشهود

﴿ قتل رايمون صاحب انطاكية ﴾

في صفر سنة ٥٤٤ سار نورالدين بعساكره الى حصن حارم وهو للافرنج فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل عنه الى حصن آنب فحصره فاجتمعت الافرنج مع رايموند صاحب انطاكيه وساروا اليه ليرحلوه عن آنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس وانجلت الحرب عن هزيمة الافرنج وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً وقتل أيضاً رايموند صاحب أنطاكيه ثم تخلف بعده على انطاكيه ولده الصغير المدعو بوهيموند فتزوجت أمه قسطانسا رانود دي شاتيلون احد الافرنج ليدبر شؤون البلد الى ان يبلغ ولدها ويستلم الحكم

ثم سار نورالدين الى حصن فاميه وهو للافرنج أيضاً وقريب من مدينة حماه وهو حصن منيع على تل مرتفع من أحصن القلاع وأمنعها وكان من فيه من الافرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبونها فكان اهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار فسار نور الدين اليه وحصره وضيق عليه ومنع من فيه عن

القرار ليلاً ونهاراً وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة فاجتمعت الافرنج من سائر بلادهم وساروا نحوه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا اليه الا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال وجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جده في لقاهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم وصالحوه على ما أخذه .

﴿ وفاة الحافظ لدين الله خليفة مصر وولاية الظافر بامر الله ﴾

في اليوم الخامس من شهر جمادي الآخر سنة ٥٤٤ توفي الحافظ لدين الله عبد المجيد بن الامير أبي القاسم العلوي بمصر بعلة القولنج وكان كثير الاصابة بها فعمل له موسى النصراني طبل القولنج وهو عبارة عن طبل مركب من سبعة معادن عليه الكواكب السبعة وكان من خاصته ان الانسان اذا ضربه يخرج الريح من مخرجه ولهذه الخاصة كان ينفع في القولنج وكان سن الحافظ عند وفاته ثمانين سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و ٧ أشهر ولم يكن من التدبير والحكمة على شيء فكان يعهد ادارة الاحكام لوزرائه مكتفياً بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة ولم يكن لديه من السلطة السياسية الا الامضاء على الاوامر في تثبيت الامراء على أماراتهم شأن الدول عند قرب انحلال ملكها الا ان تغيير الوزراء جعل فيه بعض الاهتمام في الاحكام واستخلف ابنه اسماعيل أبا المنصور فبويع له ولقب بالظافر بامر الله ولكن هذا الاسم لم ينطبق على المسمى وكان سنه ١٧ سنة وهو أصغر أولاد أبيه سناً وكان كثير اللهو والتفرد بالجواري واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في قصره الآيلة الى خراب مملكته بعين المتردد المتهامل وبمثل ذلك كان ينظر الى تهدد جنود الملك روجار صاحب سيسليا بعد استيلاءه على أكثر بلاد المغرب ولولا لطف الله ووقوع الخلاف بين ملك سيسليا المذكور والملك عمانويل ملك الروم وحصول الحرب بينهما وموت جورجي وزير روجار بعد اصابته بمرض البواسير والحصا لكان حاصر مصر

﴿ اسر جوسلين ﴾

في سنة ٥٤٥ سار نور الدين الى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمال حلب منها تل باشر . وعين تاب . وعزاز . وغيرها من الحصون فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم وبقي نور الدين فكان بينهما حرب شديدة انجلت عن انهزام

المسلمين وظفر الفرنج وأخذ جوسلين سلاح دار نور الدين أسيراً وأخذ ما معه من السلاح فارسله الى السلطان مسعود بن قليج ارسلان صاحب قونيه وكان نور الدين قد تزوج ابنته وارسل مع السلاح اليه يقول قد انفذت لك بسلاح صهرك وسيأتيك بعد هذا غيره فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين وعلم ان هو جمع العساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الافرنج وحذر وامتنع فاحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغايب من الاقطاع والاموال ان هم ظفروا بجوسلين اما قتلا واما اسراً فاتفق ان جوسلين خرج من عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبي فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله التركمان فركب فرسه ليقاتلهم فاخذوه أسيراً فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه وأجابوه الى ذلك وأخفوا امره عن نور الدين فارسل جوسلين في احضار المال فاتى بعض التركمان الى نائب نور الدين بحلب فاعلمه بما كان فسير معه عسكراً اخذوا جوسلين من التركمان قهراً وكان نور الدين حينئذ بحمص وفرح المسلمون لاسره وعظمت المصيبة على الافرنج وخلت بلادهم من حاميها وسهل أمرهم على المسلمين بعده وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهد وطالما صالحه نور الدين وهادنه فاذا آمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر فلقيه غدره وحاق به مكره وبعد اسره فتح كثيراً من بلادهم وقلاعهم فمنها عين تاب . وعزاز . وقورس . والراوندون وحصن البارة وتل خالد وكفر لاثا وكفر سوب وحصن نسرفوب بجبل بني عليم ودلوك ومرعش ونهر الجوز وبرج الرصاص وكان نور الدين اذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفا من نصرة تتجدد للافرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة الى شيء

﴿ قتل ابن السلار وزير الخليفة الظافر ووزارة عباس ﴾

في شهر محرم سنة ٥٤٨ قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله الخليفة العلوي بمصر قتله ربيبه عباس بن أبي الفتوح بن يحيى الصنهاجي أشار اليه بذلك الامير اسامه بن منقذ ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فامر ولده نصراً فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وولي الوزارة بعده ربيبه عباس وكان عباس قد قدم من المغرب الى مصر فتزوج بن السلار بامه واحبه وأحسن تربيته فجازاه

بان قتله وولي بعده وكانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين

﴿ امتلاك الصليبيين مدينة عسقلان ﴾

كانت مدينة عسقلان تابعة للديار المصرية وكان الوزراء في كل سنة يرسلون اليها من الذخائر والاسلحة والاموال والرجال من يقوم بحفظها وكانت حصينة منيعة وطالما حاربها الافرنج وارتدوا عنها خائبين وفي سنة ٥٤٨ لما علم بودوين الثالث ملك القدس ما حصل بمصر من اختلاف الوزراء انتهز الفرصة وراسل جميع الافرنج المقيمين بالشام بمساعدته وسار من القدس وصحبته افرنج الشام ورهبان جمعية الهيكليين ورهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان الى ان وصل الى اسوار مدينة عسقلان من البر وحصرها وكان سير اليها خمسة عشر مركباً في البحر برئاسة جيرار صاحب صيدا وحاصرها بحراً ثم تصادف ورود جموع من الصليبيين لمساعدة الافرنج وكذلك ورود مراكب اوروباويه فانضافوا الى العمارة البحرية تحت رئاسة جيراز المذكور وكان مع بودوين برج كبير من الخشب اعلى من اسوار المدينة مركب على دواليب سهل النقل وركبوا منجانيقات وكبوشاً ونازلوا المدينة واخذوا يقاتلونها ويرمونها بالمنجنيقات وكذلك اهل عسقلان يرمونهم بالنبال والمنجانيقات حتى اشرفوا على الهلاك من داخل المدينة ثم وردت عمارة مصرية لنجدة المدينة فاستبشر أهلها وقويت نفوسهم واشتدوا في القتال فرموا على الاخشاب الحربية التي مع الصليبيين ناراً من أعلى السور فاتقدت بسرعة عظيمة ولكن الريح عكست النار فارمتها على سور المدينة فظلت مشتعله لربعا وعشرين ساعة حتى وقع من السور جزء فانفتح مجال للصليبيين يدخلون منه المدينة وكان بالقرب من هذه الجهة رهبان جمعية الهيكليين الذين طلبوا الدخول الى المدينه وحدهم وامتلاكها ولما دخلوا من هذا الجزء المهدوم وجدهم المسلمون قليلين فانقضوا عليهم وقتلوهم فهرب باقيهم الى خارج السور فانكسرت قلوب الافرنج ثم ان المسلمين اخذوا يقاتلون بشدة ولما وجدوا عجزهم عن المقاومة ارسلوا الى بودوين بتسليم المدينة بشرط ان يخرجو سالمين بعائلاتهم وامتعتهم فاجابهم الى ذلك واعطاهم ميعاداً ثلاثة ايام وبعدها سلموا المدينة اليهم وخرجوا منها سالمين وكانت مدة الحصار خمسة اشهر

استيلاء نور الدين على مدينة دمشق

بينما كان الافرنج محاصرين عسقلان كما تقدم كان نور الدين يتلهف ولا يقدر على الوصول الى عسقلان لنجدة اهلها وكان السبب في ذلك ان عسقلان واقعه بين بلاد مصر وبلاد الافرنج ومدينة دمشق وكان بدمشق مجير الدين فلما علم الافرنج ضعفه صاروا يغيرون عليه وينهبون الاهالي حتى جعلوا على المدينة أتاوة سنوية يأخذونها فلذلك لم يتمكن نور الدين من العبور منها فعزم ان يستولى عليها وقال انا احق بحمايتها فارسل الامير أسد الدين شيركوه في العشر الثاني من محرم سنة ٥٤٩ فوصل الى ظاهر دمشق وخيم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الالف فانكر ذلك مجير الدين وخاف منه فلم يخرج لتلقيه والاختلاط اليه وتراسلا فلم تسفر المراسلات عن سداد ولا نيل مراد وغلا سعر الاقوات لانقطاع الواصلين بالغلات ووصل نور الدين في عسكره الى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفاسريا عند دومه ورحل في الغد ونزل بيت الابار من الغوطه وزحف الى البلد من شرقيه وزحف اليه من عسكر البلد واحداثه الخلق الكثير ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين الى مكانه ثم زحف يوماً بعد يوم وتأكد الزحف يوم الاحد عاشر صفر وظهر اليه العسكر الدمشقي فاندفع بين ايديهم الى سور قبلي البلد وتولى القتال اسد الدين شيركوه وابلى الجهد فكسر عساكر دمشق الى الاسوار من قبلي البلد ولم يكن احد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لان نور الدين كان من شرقها وجل العسكر مقابله ورأى من كان مع نور الدين من الجانداريه والحلبيين خلو السور من المقاتلة فأسرعوا الى السور وتعلقوا به وطلعوا في الحال الى أعلاه ويقال ان امرأة كانت على السور فدلت حبلا فصعدوا عليه ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين وامتنع الاجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وكسروا الباب ودخلت منه العساكر وفتح باب توما أيضاً وكان مجير الدين لما احس بالغلبة قد انهزم من ضواحيه الى القلعة فانفذ اليه نور الدين امنه على ما له ونفسه وخرج الى نور الدين فطيب خاطره وكان مجير الدين قد راسل الافرنج وطلب منهم المساعدة على نور الدين فلما حضروا وجدوا نور الدين قد استلم البلد فخافوا منه ورجعوا الى بلادهم

﴿ قتل الخليفة الظافر وولاية ابنه الفائز ﴾

لما ورد خبر امتلاك الافرنج مدينة عسقلان جاء خبر آخر أشد وطأة وهو ان العمارة السيسيلية نزلت على سواحل مصر وأحرقت مدينة تانس في منتصف بحيرة المنزله ونهبت الفرما الا انها لم تتقدم فاخذت ما أمكنها حمله من الغنائم وعادت من حيث أتت

كان ذلك والخليفة الظافر غارق في الشهوات الوحشية مشتغلا عن مهام الدولة فشق ذلك على وزيره العباس فاوعز الى ابنه نصر ان يقتله وينجي البلاد من شره ويتخاص مما كان يقوله الناس في عرضهما من معاشرته فاستدعاه الى دار ابيه سراً بحيث لم يعلم به أحد وتلك الدار هي المدرسة الحنيفيه التي تعرف بالسيوفيه فقتله بها وأخفى قتله في منتصف محرم سنة ٥٤٩ فأتى نصر الى أبيه العباس وأعامه بذلك من ليلته . ولما كان الصباح اقبل عباس الى القصر على جاري عادته في الخدمة وأظهر عدم الاطلاع على قضيته وطلب الاجتماع به ولم يكن أهل القصر قدعلموا بقتله لانه خرج من عندهم خفية وما علم أحد بخروجه فدخل الخدم لموضعه ليستأذنوا للعباس فلم يجدوه فدخلوا الى قاعة الحرم فقيل انه لم يبت هنا فتطلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يقفوا له على خبر فتحققوا قتله فاخرج عباس اخوى الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما انتما قتلتما امامنا ومانعرف حاله الا منكما فاصرا على الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلهما في الوقت لينفي عن نفسه وابنه التهمة - فاستدعى العباس الفائز بن الظافر وكان عمره خمس سنوات وقيل سنتين فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وامر ان تدخل الامراء فدخلوا فقال لهم هذا ولد مولاكم وقتل عماه أباه وقد قتلتهما به كما ترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل فقالوا باجمعهم سمعنا وأطعنا وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس وسموه الفائز وسيروه الى أمه وقد اختل من تلك الصيحة فصار يصرع في كل وقت ويختلج فاخذ عباس من ذلك الحين يدبر الامور وانفرد بالتصرف ولم يبق على يده يد وأما أهل القصر فانهم اطلعوا على باطن الامر وأخذوا في اعمال الحيله في قتل عباس وابنه فكاتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الارمني وهو أبو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام علي بن أبي طالب بارض النجف من العراق في جماعة من الفقراء وكان من الشيعة الاماميه فتنبأ له الامام

انه سيتولى مصر بناء على رؤية رآها في منامه فسار من ساعته الى مصر وصار يترقى في الخدم حتى ولي منية ابن خصيب

فلما صار أهل القصر الى ما صاروا اليه كتبوا الى طلائع وسألوه الانتصار لهم ولمولاهم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليه اطلع من حوله من الاجناد عليه وتحدث معهم في المعنى فاجابوا الى الخروج واستمال جمعاً من العرب وساروا قاصدين القاهره وقد لبسوا السواد فلما قاربوها خرج اليهم جميع من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباساً وحده فخرج عباس من ساعته من القاهره وخرج معه ولده نصر ومعهما شيء من المال وجماعة يسيره من اتباعهم وقصدوا طريق الشام على أيله وذلك في ١٤ ربيع أول سنة ٥٤٩ أما الصالح بن رزيك فانه دخل القاهره بدون قتال وما قدم شيئاً على النزول بدار عباس المتقدم ذكره · واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله وسأله عن الموضع الذي دفن فيه فعرفه به وقلع البلاطه التي كانت عليه وأخرج الظافر ومن معه من المقتولين فحملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد ومشى الصالح والخلق قدام الجنازه وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودبر أحواله · وأما عباس فأخت الظافر كاتبت افرنج عسقلان بشأنه واشترطت لهم مالا جزيلا اذا امسكوه فخرجوا عليه وصادفوه فتواقعوا وقتلوا عباساً وأخذوا ماله وولده وانهزم بعض أصحابه وسيرت الافرنج نصر بن عباس الى القاهره تحت الحفظ في قفص من حديد فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطته لهم من المال فاخذوا نصراً وضربوه بالسياط ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويله ثم انزلوه وأحرقوه

﴿ محاصرة نور الدين حصن حارم ﴾

في سنة ٥٥١ حاصر نور الدين قلعة حارم وهي حصن غربي حلب بالقرب من انطاكيه وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون واحصنها في نحور المسلمين فاجتمعت الافرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه لمنعه وكان بالحصن مقدم كبير منهم فارسل اليهم يعرفهم قوتهم وانهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء وقال لهم ان لقيتموهم هزموكم وأخذوا حارم وغيرها وان حفظتم انفسكم منه اطقنا الامتناع عليه ففعلوا

ما أشار به عليهم وراسلوا نور الدين في الصلح على ان يعطوه حصة من حارم فابى ان يجيبهم الا على مناصفة الولايه فاجابوه الى ذلك فصالحهم وعاد

﴿ انتصار العساكر النوريه على الافرنج ﴾

في أوائل سنة ٥٥٢ حصلت زلازل كثيرة باراضي الشام وهدمت كثيرا من الحصون والقلع والبيوت وجميع المباني وفي شهر ربيع اول كان نور الدين بناحية بعلبك فاتـــه الاخبار من ناحية حمص وحماه باغارة الافرنج على تلك الاعمال وفي ١٥ منه ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بان ناصر الدين أميراميران لما انتهى اليه خبر الافرنج وانهم قد أنهضوا سرية وافرة العـدد الى ناحيــة بانياس لتقويتها أسرع اليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبـل الوصول الى بانياس وقد خرج اليهم من كان فيها من حماتها فاوقع بهم وكان قد كمن لهم في مواضع كمناً من شجعان الاتراك واندفع المسلمون بين أيديهم في اول المجال وظهر عليهم الكمناء فانزل الله نصره على المسلمين وقتلت الافرنج وأسر باقيهم وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهـم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ومحقت السـيوف عامة رجالتهم ووصلت الاسرى والغنائم الى دمشق ثم وردت بشرى ثانية من اسد الدين شيركوه باجتماع عدد كثير اليه من شجعان التركمان وانه قد ظفر بسرية وافرة من الافرنج ظهرت في معاقلهم من الشمال فانهزمت وتخطفوا من ظفروا به ووصل أسد الدين الى بعلبك ومن معه من الشـجعان واجتمعوا بنور الدين وقرروا قصد بلاد الافرنج لتدويخها والابتداء بالنزول على بانياس وقدم نور الدين دمشق في الاستعداد وتجهيز العساكر فخرج وتبعه كثير من الاحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية في آخر شهر ربيع اول ونزل على حصن بانياس وضايقه بالمنجانيقات وفي أثناء ذلك الحصار ورد خبر انتصار أسد الدين شيركوه بناحية هونين على سرية من الافرنج ثم ان نور الدين قوى الحصار والحرب ففتح الحصن المذكور بالسيف قهراً بعد مضي اربع ساعات بعد انتهاء النقب وسقوط البرج فأخذوا الحصن وهرب بعضهم الى القلعــة فحاصرها أيضاً فطلبوا الامان ثم بلغه خبر جمع ملك الافرنج عسكره بين طبريه وبانياس بقصد استخلاصها فسار اليه فلما شارفهم وهم غارون ورأوا راياته قد أظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب وافترقوا أربع فرق وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين

فترجلت معه الابطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الاقدام ودهمهم البوار والحمام وانتصر المسلمون وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسراً واستأصلت السيوف الرجاله وهم العدد الكثير فلم يفلت منهم غير عشرة انفار

﴿ محاربة المصريين غزه وعسقلان ﴾

في أوائل سنة ٥٥٣ أرسل الملك الصالح بن رزيك وزير الخليفة الفائز بنصر الله تجريدة عسكرية في البر ومثلها في البحر باسطول كبير يقصد محاربة أهل غزة وعسقلان فسارت العساكر المصرية بقيادة الامير ضرغام وأغارت على أعمال غزة وعسقلان وخرج الافرنج الذين بعسقلان تحت رياسة صاحبها اموري واقتتلوا معاً فظفر المسلمون بهم قتلا وأسراً فلم يفلت منهم الا اليسير وغنموا غنائم كثيرة وعادوا سالمين وكان مقدم العساكر البحرية قد ظفر بعدة مراكب مشحونة بالافرنج فقتل وأسر منهم العدد الكثير وحاز من اموالهم وعددهم وأثاثهم مالا يكاد يحصي وعاد ظافراً غانماً . وقد أرسل مؤيد الدولة اسامة بن منقذ قصيدة يشرح فيها حال هذه الغزوه ويحرض فيها نور الدين على قتال الافرنج ويذكره بما من الله عليه من العافية والسلامة من المرض الذي كان قد ألم به في رمضان في السنة الماضية ومن القصيدة ما يأتي

ألا هكذا في الله تمضي العزائم ... وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الاعدا من طول عزهم ... وليس سوى سمر الرماح سلالم
ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم ... وان بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما انـ ... ـثنى نصفه حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر الى الشام قاطعاً ... مفاوز وجد العيش فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى ... عزيمته جهد الظما والسمائم
يباري خيولا ما تزال كانها ... اذا ما انقضت فهي النسور القشاعم
يسير بها ضرغام في كل مارق ... وما يصحب الضرغام الا الضراغم
ورفقته عين الزمان وحاتم ... ويحي وان لاقى المنية حاتم
وواجههم جمع الفرنج بحملة ... يهون على الشجعان فيها الهزائم
فاقوهم زرق الاسنة وانطووا ... عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم
ومازالت الحرب العوان أشدها ... اذا ما تلاقى العسكر المتضاجم

وعادوا الى حز السيوف فقطعت ... رؤوس وحزت للفرنج غلاصم
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر ... ولا قبل هذا اليوم واحد سالم
نقتلهم بالرأي طوراً وتارة ... تدوسهم منا المذاكي انصلادم
فقولوا لنور الدين لافل جده ... ولا حكمت فيه الليالي الغواشم
تجهز الى أرض العدو ولا تهن ... وتظهر فتوراً ان مضت منك حازم
فعندك من ألطاف ربك مابه ... علمنا يقيناً انه بك راحم
أعادك حياً بعد ان زعم الورى ... بانك قد لاقيت ما الله حاتم
بوقت أصاب الارض ماقد أصابها ... رحلت بها تلك الدواهي العظائم
وخيم جيش الكفر في أرض شيزر ... فسيقت سبايا واستحلت محارم
وقد كان تاريخ الشآم وهلكه ... ومن يحتويه انه لك عادم
فقم واشكر الله الكريم بنهضة ... اليهم فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ماقد عهدت نروعهم ... ونحلف جهداً اننا لا نسالم
وغاراتنا ليست تفتر عنهم ... وليس ينجي القوم منا الهزائم
فاسطولنا اضعاف ما كان سائراً ... اليهم فلا حصن لهم منه عاصم
ونرجو بان يحتاج باقيهم به ... ونحوي الاسارى منهم والغنائم

﴿ وفاة الخليفة الفائز بنصر الله وولاية العاضد لدين الله العلوي ﴾

في سنة ٥٥٥ توفى الخليفة الفائز بنصر الله العلوي صاحب مصر ولم يحكم الامدة ستة سنوات وكانت مصر قد انحطت في ايامه الى مهاوي الضعف وبعد وفاة الخليفة الفائز أخذ الملك الصالح يهتم في اقامة من يخلفه فقدم السراي فقدموا له شيخين من العائلة الفاطمية لم يكن ثم أحق منه للخلافة فهم الى مبايعته فجاء أحد اصدقائه وهمس في أذنه قائلا (ان سلفك في الوزارة كان احسن تدبيراً منك لانه لم يسلم نفسه لخليفة سنه اكثر من خمس سنوات) فوقعت هذه العبارة في اذن الوزير فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وعمد الى عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ولم يكن بالغاً رشده فبايعه ولقبه بالعاضد لدين الله وهو الخليفة الرابع عشر للدولة القاطمية العلويه ثم زوجه ابنته ومعها ثروة عظيمة

﴿ وفاة الخليفة المقتفي لامر الله العباسي وخلافة المستنجد بالله ﴾

وفي هذه السنه ايضاً توفى أمير المؤمنين المقتفي لامر الله ابو عبد الله احمد بن المستظهر

بالله أبي العباس احمد بن المقتدي بامر الله وكانت خلافته اربعاً وعشرين سنة وثلاثة اشهر وستة عشر يوماً ومات في ٢ ربيع الاول وكان حليماً كريماً عادلا حسن السيرة وهو اول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه ثم بويع للمستنجد بالله أمير المؤمنين واسمه يوسف بعد موت والده وكان للمقتفي حظية وهي أم ولده علي فلما اشتد مرض المقتفي ويئست منه أرسلت الى جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدوها على ان يكون ولدها خليفة فقالوا كيف الحيلة مع ولي العهد فقالت اذا دخل على والده قبضت عليه وكان كل يوم يدخل على أبيه فلما استقرت القاعدة بينهم استحضرت أم علي بعض جوار وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي العهد المستنجد بالله وكان له خصي صغير يرسله كل وقت يتعرف اخبار والده فرأى الجواري بايديهن السكاكين ورأى بيد علي ووالدته سيفين فعاد الى المستنجد وأخبره وأرسلت هي الى المستنجد تقول له ان والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده فاستدعى أستاذ دارعضد الدولة وأخذه معه وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجواري فضرب واحدة منهن فجرحها وكذلك اخرى وصاح ودخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهربت الجواري وأخذ أخاه أبا علي وأمه فسجنهما وأخذ الجواري فقتل منهن وغرق منهن ودفع الله عنه. ولما توفى المقتفي جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه ابو طالب ثم اخوه ابو جعفر وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير ابن هبيرة والقاضي وأرباب الدولة والعلماء

﴿ تاريخ جامع سيدنا الحسين رضي الله عنه ﴾

كان أمير الجيوش أثناء حروبه في سوريا قد ظفر بمدفن رأس الامام الحسين في عسقلان فابتنى عليه مشهداً عظيما فمن أعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر انه لما علم بوجود مشهد سيدنا الحسين رضي الله عنه بتلك الجهة خاف عليه من هجمات الافرنج فعزم على نقله الى مصر فابتنى له جامعاً مخصوصاً خارج باب زويله دعاه جامع الصالح نسبة اليه (ولم يزل موجوداً الآن باول قصبة رضوان) بنية ان يجعل فيه الرأس الشريفة فلما فرغ من بنائه لم يمكنه الخليفة من ذلك بدعوى انه

لايليق ان يكون ذلك الأثر الشريف خارج سور المدينه فكانت حجته حقاً وأبي الا ان يجعله في بعض أجزاء قصره المدعو قصر الزمرد فاقام له مشهداً هناك . ثم في سنة ٧٤٠ هجريه احترق المشهد في ولاية السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثة فاعيد بناءه وقد اعتنى به السلاطين والامراء في كل عصر بعمارته وزخرفته وتحليته واعلاء شأنه وأخيراً أقيم في جواره جامع حتى اذا كانت أيام الامير عبد الرحمن كتخدا أحد أمراء المماليك أعيد بناء المشهد الحسيني في سنة ١١٧٥ وبعد ذلك أعيد بناءه برمته في أيام الخديوي الاسبق اسماعيل باشا سنة ١٢٨٢ وكان الناظر على الاوقاف المصريه الاميرراتب باشا وتمت عمارته في ٢٨ محرم سنة ١٢٩٠ الا المآذنه فتمت في سنة ١٢٩٥ وادخل في الجامع عدة بيوت ولم يبق من البناء القديم الا القبه المغطيه لمقام الامام التي حري تصليحها في سنة ١٣١٦ بامر افندينا الحالي عباس باشا الثاني فاصبح على ما نشاهده الآن وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين بالسكة الجديده بالقاهره تجاه خان الخليلي

﴿ قتل الصالح بن رزيك وزير مصر ﴾

كانت ادارة الاحكام بمصر منوطة بالوزير ولذلك كان النفوذ الاكبر للملك الصالح طلائع بن رزيك ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله أقل استعباداً من سلفه ولقب الصالح بلقب ملك ثم لقب بالسلطان ففتحت أعين الاعداء عليه وفي جملتهم عمة الخليفة فعزمت على قتله فارسلت أولاد الداعي فكمنوا له في دهليز القصر وضربوه حتى سقط على الارض على وجهه وحمل جريحاً لايعي الى داره وفيه حياة فارسل الى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع أثره في خلافته فاقسم العاضد انه لايعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت بريئاً فسلم عمتك الي حتى انتقم منها فامر باخذها فارسل اليها فاخذها قهراً وأحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه محيي الدين رزيك ولقبه بالملك العادل وكنيته أبو شجاع ومات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنه ٥٥٦ وكان شجاعا كريماً فاضلا محباً لاهل الادب جيد الشعر وفيه عقل وسياسة وتدبير وكان مهابا في شكله عظيما في سطوته وغناه وكان محافظاً على الصلوات فرائضها ونوافلها شديد المغالات في التشيع صنف كتابا سماه الاعتماد في الرد على أهل العناد جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علي بن أبي طالب والكلام على الاحاديث الواردة في ذلك وله شعر كثير يشتمل على مجلدين

﴿ وفاة بودوين الثالث وولاية اخيه اموري ﴾

كان الملك بودوين الثالث ملك القدس مقيما بمدينة انطاكيه فاعترته الحمى فامر بنقله الى مدينة طرابلس ومنها الى مدينة بيروت وهناك فاجأته الوفاة وكان ذلك سنة ١١٦٢ أفرنكية الموافقه لسنة ٥٥٨ هجريه فنقل جسمه الى القدس لكي يدفن تحت جبل الجلجله فحزنت عليه الافرنج لما كان معروفا به بينهم من العدل وكرم الاخلاق والشجاعة ولم يكن له ولد يرث ملكه بعده والذي يستحق الملك هو أخوه أموري صاحب عسقلان ويافا ولما كانت صفات وأخلاق أموري المذكور بعكس أخيه عارض رؤساء المملكة بتوليته وأخيراً توجوه ملكا عليهم وكان متصفاً بالكبر والبخل والطمع

﴿ وزارة شاور ووزارة ضرغام بعده ﴾

كان شاور في ابتداء أمره يخدم الصالح بن رزيك ثم ولاه الصالح حكم الصعيد وهو أكبر وظيفة بعد الوزارة فظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فادام استعماله خوفا من الخروج عن طاعته فلما جرح الصالح أوصى ابنه ان لا يتعرض لشاور قائلا له انني انا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكنني عزله فلما توفي الصالح وولي ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستخدام بعض مكانه فارسل اليه بالعزل فجمع جموعا كثيره وسار الى القاهره بهم فهرب منه العادل بن الصالح فاخذ وقتل وصار شاور وزيراً للخليفة العاضد لدين الله وكان ذلك في صفر سنة ٥٥٨ وتلقب بامير الجيوش وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم وذخائرهم · وكان الملك الصالح قد رتب في عهد وزارته الامراء البرقية وجعل في مقدمتهم ضرغام أبا الاشبال فترقى هذا الرجل حتى صار صاحب الباب فلما تولى شاور الوزارة طمع ضرغام في سلبها منه فجمع رفقته فخاف شاور وجمع اليه رجاله فاصبح الجيش فرقتين فرقة مع ضرغام واخرى مع شاور وفي شهر رمضان من السنة المذكورة ثار ضرغام على شاور فاخرجه من القاهرة وقتل ولده الاكبر المسمى بطي وبقي شجاع المنعوت بالكامل وخرج شاور من القاهرة يريد الشام واستقر ضرغام في وزارة العاضد لدين الله وتلقب بالملك المنصور فشكر الناس سيرته وكان فارس عصره كاتباً جميل الصورة عاقلا كريماً

﴿ في دخول أسد الدين شيركوه مصر أول مرة ﴾

لما خرج شاور من مصر سار الى نور الدين بدمشق الشام يستنجده ليعيده الى الوزارة فاحسن وفادته وأكرم مثواه فطلب منه ارسال العساكر الى مصر ليعيده اليها ويكون له فيها ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر وانه يتصرف طبق أمره ونهيه فاخذ نور الدين يقدم في ذلك رجلا ويأخر أخرى تارة تحمله رعاية شاور وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الافرنج وتارة يمنعه خطر الطريق ووجود الافرنج فيه الى ان قرر العمل واستخار الله تعالى وأمر أسد الدين شيركوه أحد رجاله بالتأهب للمسير معه قضاء لحق الوافد المستصرخ وحباً بالبلاد والوقوف على أحوالها وكان ذلك موافقاً لهوى أسد الدين اذ كان في صدره من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالي معه بمخافة فتجهز وسار مع شاور في جماد الاولى سنة ٥٥٩ وساروا جميعاً وسار معهم نور الدين الى أطراف بلاد المسلمين مهدداً الافرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لاسد الدين فكان قصارى همّ الافرنج حفظ بلادهم من نور الدين وفي أثناء ذلك قصد الملك أموري ملك القدس بلاد مصر لاخذ مال الهدنة المقرر على مصر دفعه للافرنج من يوم أخذوا عسقلان وهو ثلاث وثلاثون الف دينار فلما وصلت الافرنج الى حصن بلبيس وملكوا بعض السور خرج اليهم همام أخو ضرغام وحاربهم فغلبوه ثم عادوا الى بلادهم وعاد همام عوداً رديئاً فما هو الا ان قدم رسل الافرنج على ضرغام في طلب مال الهدنة المقررة ثم وصل أسد الدين شيركوه الى مصر سالماً ومعه شاور ولما علم ضرغام بذلك اضطرب وأصبح الناس خائفين على أنفسهم وأموالهم فجمعوا الاقوات والماء وتحولوا من مساكنهم وخرج همام بالعسكر في أول جماد الآخر سنة ٥٥٩ فسار الى بلبيس فقابل أسد الدين وشاور وحصلت بينهم وقعة انهزم فيها همام وامتلك أسد الدين وشاور جميع ما كان مع عساكره وأسروا عدة ونزلوا الى التاج (قليوب) ظاهر القاهرة يوم الخميس ٦ جماد الآخر فجمع ضرغام الناس وضم اليه الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية بداخل القاهرة وأسد الدين وشاور مقيمان في التاج مدة أيام ثم ساروا ونزلوا في المقس (الازبكية) فخرج اليهم عسكر ضرغام فقاتلوه فانهزم ضرغام هزيمة قبيحة وساروا الى بركة الحبش ونزلوا بالشرف الذي عرف بعد ذلك بالرصد وملك أسد الدين مدينة مصر القديمة وأقام فيها أيام فاخذ

ضرغام مال اليتامى المودع عند الحاكم فكرهه الناس واستعجزوه ومالوا الى شاور فتنكر منهم ضرغام وتحدث بايقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم له ونزل أسد الدين وشاور في أرض اللوق خارج باب زويله وطارد أسدالدين رجال ضرغام وزحف الى باب سعاده وباب القنطرة واضرم النار في اللؤلؤة وما حولها من الدور وعظمت الحروب بينهم وفني كثير من الطائفة الريحانية فبعثوا الى شاور ووعدوه بان يكونوا اعواناً له فانحل أمر ضرغام فارسل العاضد الى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمي فخرج الرجال الى شاور وصاروا من جملته وفترت همة أهل القاهرة وأخذ كل منهم يعمل الحيلة في الخروج الى شاور فامر ضرغام بضرب الابواق والطبول من فوق الاسوار فلم يخرج اليه أحد وانفك عنه الناس وسار الى باب الذهب من أبواب القصر ومعه ٥٠٠ فارس فوقف وطلب من الخليفة ان يشرف عليه من الطاق وتضرع اليه وأقسم عليه بابائه فلم يجبه أحد واستمر واقفاً الى العصر والناس تنحل عنه حتى بقي في نحو ٣٠ فارساً فوردت عليه رقعة مكتوب فيها (خذ نفسك وانج بها) واذا بالابواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر أسدالدين وشاور ففر ضرغام الى باب زويله فصاح الناس عليه وامنوه وتخطفوا من معه وأدركه القوم فرموه عن فرسه قريباً من الجسر الاعظم من القاهره ومصر القديمه قرب جامع السيده نفيسه وجزوا رأسه في غاية جمادي الآخر وفر منهم أخوه الى الجهة المطريه فادركه الطلب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهره وقتل أخوه الآخر عند بركة الفيل وبقي ضرغام ملقي على الارض يومين ثم حمل الى القرافة ودفن بها واعيدت وزارة مصر الى شاور فاستلم زمامها وصار يدفع الى اتابك نور الدين ثلث الدخل مقابلة لما بذله في اعادته اليها وأقام أسد الدين بظهر القاهرة حسب الاتفاق الذي عمل مع نور الدين بان يكون أسد الدين موجوداً بمصر فاستاء من ذلك شاور وأراد ان يغدر به . وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضاً وارسل اليه يأمره بالعود الى الشام فانف أسد الدين من هذا الحال وأعاد الجواب بطلب ما كان استقر فلم يجبه شاور اليه فلما رأى ذلك أرسل أسد الدين نوابه فاستولوا على بلبيس وباقي الحوف الشرقي فارسل شاور الى الملك أموري* ملك القدس يستمده ويخوفه من نور الدين ان ملك مصر وكان الافرنج قد أيقنوا بالهلاك ان ملكها نور الدين فلما أرسل شاور اليهم يستجدهم ويطلب منهم ان يساعدوه على اخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحسبوه

واسرعوا ملبين دعوته وبادروا الى نصرته وطمعوا في ملك ديار مصر وكان قد بذل لهم مالاً على المسير اليه فتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير سار بعسكره في اطراف بلاده مما يلي بلاد الافرنج ليمتنعوا من المسير فلم يمتنعوا لعلمهم ان الخطر في مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار الملك اموري في باقي عسكره وكان قد وصل الى ساحل الشام جمع كثير من الافرنج في البحر لزيارة بيت المقدس فاستعان بهم الملك اموري فاعانوه وساروا معه فلما دنا الافرنج من مصر فارقها اسد الدين وقصد مدينة بلبيس وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصن به فاجتمعت العساكر المصريه والافرنجية ونازلت اسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة اشهر فامتنع بها وسورها من طين قصير جداً وليس له خندق ولا جبل يحميها وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا منه مأرباً فبينما هم كذلك اذ اتاهم الخبر بهزيمة الافرنج بحارم واستيلاء نور الدين على الحصن ومسيره الى بانياس فحينئذ ارادوا العود الى بلادهم ليحفظوها ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها فلم يدركوها الا وقد ملكها على ما سيأتي وراسلوا اسد الدين في الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده فيها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم بما فعله نور الدين بالافرنج في الساحل فاخرج اسد الدين أصحابه بين يديه من بلبيس وبقي في آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقتهم والمصريون والافرنج ينظرون فأتاه افرنجي فقال له اما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المصريون والافرنج وقد احاطوا بك وباصحابك فلا يبقى لك معهم بقية فقال شيركوه ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله كنت والله أضع فيهم السيف فلا اقتل حتى اقتل رجالا وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني أبطالهم فيملك بلادهم ويفني من بقي منهم ووالله لو اطاعني هؤلاء يعني اصحابه لخرجت اليكم أول يوم لكنهم امتنعوا فصلب الافرنجي على وجهه وقال كنا نستعجب من افرنج الشام ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم ثم رجع عنه وسار شيركوه الى الشام وعاد سالماً وفي قلبه من شر شاور الاحن وكيف تمت بغدره تلك المحن

﴿ فتح حارم ﴾

في سنة ٥٥٩ اغتنم نور الدين خلو الشام من الافرنج فراسل أخيه قطب الدين

بالموصل ونخر الدين قرا ارسلان بالحصن ونجم الدين الي بماردين وطلب منهم مساعدته بالجيوش في حرب الافرنج فوردت اليه الامداد من كل جهة وسار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر الى من بقي من الافرنج بالساحل فحشدوا جيوشهم وجاؤا وفي مقدمتهم رايمند صاحب طربلس وبوهيموند الثالث امير انطاكية ودوك الروم ومقدمتها وجموامعهم من الجيوش مالا يقع عليه احصاء وقد ملؤوا الارض فحرض نور الدين اصحابه وفرق نفائس الاموال على شجعان الرجال فلما قاربه الافرنج رحل عن حارم الى ارتاح طمعاً ان يتبعوه ويتمكن منهم اذا لاقوه فساروا حتى نزلوا وتيقنوا انه لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله فعادوا الى حارم وتبعهم نور الدين فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الافرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبه عسكر حلب فبددوا نظامهم وزلزلوا اقدامهم وولو الادبار وتبعهم الافرنج وكان ذلك باتفاق ورأي دبروه ومكر مكروه وهو ان يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف فاذا عادت فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون اليه ويعود المنهزمون في اثارهم وتأخذهم سيوف المسلمين من بين ايديهم ومن خلفهم فكان الامر كذلك . لان الافرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم فافناهم قتلا واسراً وعادت فرسانهم فلم تجد غير جثث القتلى ورأوا انهم قد ضلوا وارتد عليهم عسكر حلب المنهزمون فاخذ الافرنج في الوسط وقد احاط بهم المسلمون من كل جانب فحينئذ حمي الوطيس وباشر الحرب المرؤوس والرئيس وقاتل الافرنج قتال من يرجو النجاة وحاربوا حرب من آيس من الحياة وانقضت العساكر الاسلامية عليهم ففرقوهم وقد اوقعوا فيهم القتل والاسر بكثرة فاسروا البرنس بوهيموند الثالث صاحب انطاكية ورايمند صاحب طرابلس ودوك الروم وغيرهم من قوادهم وسار نور الدين بعد ذلك الى حارم فملكها في ٢١ رمضان من تلك السنة وبث سراياه في تلك الاعمال والولايات فنهبوا وسبوا وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويدا وعادوا سالمين ثم ان نور الدين اطلق بوهيموند صاحب انطاكية بمال جزيل اخذه منه واسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم

﴿ فتح بانياس ﴾

لما فتح حارم نور الدين كما تقدم أمر عساكر الموصل وديار بكر بالعود الى

بلادهم وأظهر انه يريد محاربة طبريه فجعل من بقي من الافرنج همهم في حفظها وتقويتها فسار نور الدين الى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المدافعين عنها ونازلها وضيق عليها وقاتلها وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين اميراميران فاصابه سهم فاذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف الله لك عن الاجر الذي أعدلك لتمنيت ذهاب الاخرى ثم جد في حصارها فسمع الافرنج فجمعوا رجالهم ولم تتكامل عدتهم حتى فتحها على ان الافرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بواقعة حارم وأسرهم ثم ملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا وشاطر الافرنج في أعمال طبريه وقرروا له على الاعمال التي لم يشاطرهم عليها مالا في كل سنة ثم عاد نور الدين منها الى دمشق وكان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر يسمى الجبل لكبره وحسنه وفي أثناء مسيره سقط من يده في جهة كثيرة الاشجار ملتفة الاغصان ولما بعد عن هذا المحل تذكره فأرجع بعض رجاله للبحث عنه ودلهم على الموقع الذي كان آخر عهده به فوجدوه

﴿ في دخول إسد الدين شيركوه مصر المرة الثانية ﴾

بعد خروج أسد الدين من بلبيس التقى بنور الدين فحارب معه الصليبيين وانتصرا الا ان انتصارهما لم يقلل شيئاً من رغبة أسد الدين في افتتاح مصر فكان من وقت الى آخر يحث نور الدين على ذلك . وكان مما يهيجه على العود الى مصر زيادة حقده على شاور فاذن له نور الدين بالمسير ومعه جماعة من الامراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب فلما علم شاور وزير مصر وتأكد انه اذا لم يسارع الى ملافاة الخطب لا تلبث مصر حتى تصير في يد نور الدين على ان الصليبيين من الجهة الاخرى لا ينفكون ليلهم ونهارهم ساعين الى افتتاح مصر وقد قطعوا السبيل على جيوش أسد الدين في سيرها الى مصر فساروا بجيش عظيم تحت قيادة الملك اموري حتى لم يبق صليبي الا سار في ذلك الجيش أما أسد الدين فقطع سوريا حتى بلغ حدود مصر ودخلها في ربيع اول سنة ٥٦٢ وكان الصليبيون قد ساروا بقيادة ملكهم في الصحراء فلم يظفروا باحد ثم عادوا الى غزة فالعريش ثم الى بلبيس . أما جيش أسد الدين فكان قد تجاوز بلبيس حتى بلغ عطاس فعسكر قرب القاهرة وتهددها

فخاف شاور من قدوم الجيشين المذكورين وكل منهما يحاول الفوز لنفسه ففضل

ان يسلم القاهرة للصليبيين ويحملهم على قتال أسد الدين الذي كان على بعـد ١٢ ميلا من تلك العاصمة فرأى أسد الدين شيركوه ان جيشه بعد ان قاسى الاهوال في عبور الصحراء لا يسهل عليه الهجوم على هذه المدينة فاجتاز النيـل الى البر الغربي بقرب اطفيح ونزل بالجيزه تجاه مصر وبنى له استحكامات تقيه من العدو

فدخل الصليبيون القاهرة ولكنهم لم يوافقوا شاور على ما أراد الا بعد ان تعهد لهم بزيادة الجزية السنوية عما كان يدفعه للملك اموري قائد تلك الحملة فعين معتمدين من قبله لعقد المعاهدة بذلك فأنهوها على ما أراده الصليبيون فقبضوا منه مبلغ مائتي الف دينار نقداً على وعد ان يقبضوا مثله بعد مدة يسيرة

ثم اراد الملك اموري مهاجمة أسد الدين شيركوه على جسر يصنعه من القوارب فجعل شيركوه كلما ابتدأوا في بناء الجسر يشغلهم عن اتمامه فبقي الجيشان في مثل ذلك نحو ٥٠ يوماً أو أكثر تمكن اثناءها شيركوه من تملك الضفة الغربية للنيل

﴿ محاربة اسد الدين شيركوه المصريين والصليبيين ﴾

فبعد تملك اسد الدين البلاد الغربية للنيل سار الى الصعيد حتى بلغ مكانا يعرف بالبابين أما الصليبيون فانهم اجتازوا الى البر الغربي عند رأس الدلتـا ومعهم العساكر المصرية فأدركوهم هناك في ٢٥ جماد اول سنة ٥٦٢ وكان قد أرسل اليهم جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرتهم وجدهم في طلبـه فعزم على قتالهم ولقائهم وان يحكم السيوف بينه وبينهم الا انه خاف ان تضعف نفوس أصحابه عن الثبات في هذا المقام الخطير الذي عطبهم فيـه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعـدهم عن بلادهم فاستشارهم فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقي والعود الى الشام وقالوا له ان نحن انهزمنا وهو الذي لا شك فيه فالى أين نلتجيء وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ويودون لو شربوا من دمائنا (وحق لعسكر عدده الفا فارس قد بعـدوا عن ديارهم وقل ناصرهم ان يرتاعوا من لقاء عشرات الالوف مع ان كل فرد من أهل البلاد عدو لهم) فلما قالوا ذلك قام رجل من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش وكان مشهوراً بالشجاعة وقال من يخاف القتـل والجراح والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته والله لئن عدتم الى الملك العادل نور الدين من غير غلبة وبلاء تعذرون

فيه ليأخذن اقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه الى يومنا هـذا ويقول لكم أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسامون مثل هـذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار فقال اسد الدين هذا رأيي وبه أعمل ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم كثر الموافقون لهم على القتال فاجتمعت الكلمـة على اللقاء فاقام بمكانه حتى أدركه المصريون والصليبيون وهو على تعبئة وقد جعـل الاثقال في القلب يتكثر بها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد ثم انه جعـل صـلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معـه ان الصليبيين والمصريين يظنون انني في القلب فهـم يجعلون كل قوتهم بازائه وحملتهم عليـه فاذا حملوا عليكم فلا تصـدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم واختار من شجعان اصحابه جمعاً يثق اليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ووقف بهم في الميمنة فلما تقابل الطائفتان فعل الصليبيون ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظانين انه فيه فقاتلهم من به قتالا يسـيراً ثم انهزموا من أمامهم فتبعوهم فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الصليبيين الذين حملوا على القلب فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والاسر وانهزم الباقون فلما عاد الصليبيون من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس فيه منهم مقاتل فانهزموا أيضاً وكان هذا من أعجب ما يؤرخ (ان الفي فارس تهزم عساكر مصر والصليبيين)

﴿استيلاء اسد الدين على الاسكندرية ومحاربة المصريين والصليبيين﴾

بعد الواقعة المذكورة سار أسد الدين الى ثغر الاسكندرية وجبي الاموال من القرى التي في طريقها فلما وصل سلمت من غير قتال فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيـه وعاد الى الصـعيد وتملكه وجبي أمواله وأقام فيـه حتى صام رمضان أما المصريون والصليبيون فانهم عادوا الى القاهرة وجمعوا اصحابهم فاستعاضوا عمن قتل منهم واستكثروا وحشدوا وساروا الى الاسكندرية وبها صـلاح الدين في عسكر يمنعها منهم وقد أعانه أهلها خوفاً من الصليبيين الذين حاصروها وضـيقوا عليها فصبر اهل الاسكندرية وصدقوا مع صلاح الدين في الجهاد وقل الطعام بالبلد فصبر أهله على ذلك ثم ان اسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان قد استمال شـاور بعض من معـه من التركمان بالمـال ووصله رسول المصريين والصليبيين يطلبون

الصلح وبذلوا له خمسين الف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجابهم الى ذلك

﴿ في رجوع اسد الدين والصليبيين من مصر ﴾

لما عرض الصليبيون والمصريون على اسد الدين كما تقدم أجابهم بشرط ان ينسحب الصليبيون وأسد الدين من الديار المصرية بسلام وترجع الاسكندرية الى شاور وان الصليبيين لا يملكون من مصر ولا قرية فقبل الفريقان هذه الشروط وسلم مدينة الاسكندرية الى شاور في منتصف شهر شوال سنة ٥٦٢ وعاد أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الى دمشق في ١٨ القعده وعادوا الى الخدمة النورية فامتدحه الشعراء والافاضل ومنهم العماد امتدحه بقصيدة طويلة منها

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر ونلت ما عجزت عن نيله القدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت له ومن له مثل ما أثرته اثر
أسرت أم يسرالك الارض قد طويت فأنت اسكندر في السير أم خضر
تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها الاحديثك ما بين الورى سمر
فانت من زانت الايام سيرته وزاد فوق الذي جاءت به السير
لو في زمان رسول الله كنت أتت في هذه السيرة المحمودة السور
اصبحت بالعدل والاقدام منفرداً فقل لنا أعلي انت أم عمر
اسكندر ذكروا اخبار حكمته ونحن فيك رأينا كل ماذكروا
ورستم خبرونا عن شجاعته وصار فيك عياناً ذلك الخبر
انخر فان ملوك الارض أذهلهم ما قد فعلت فكل فيك مفتكر
سهرت اذ رقدوا بل هجت اذ سكنوا وصلت اذ جبنوا بل طلت اذ قصروا

وأما الصليبيون فلم يريدوا مبارحة القاهرة حتى استقر بينهم وبين شاور ان يكون لهم بالقاهرة حامية ويكون أبوابها بيد فرسانهم ليمنع الملك العادل نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون للصليبيين من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار وجرى هذا كله بين الصليبيين وشاور بدون علم خليفة مصر العاضد لان شاور حكم عليه وحجبه وعاد الصليبيون الى بلادهم بعد ما تركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة

﴿ في محاربة نور الدين بلاد الافرنج ﴾

في هذه السنة جمع نور الدين العساكر فسار اليه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا على حمص فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الافرنج فاجتازوا على حصن الاكراد فاغاروا ونهبوا وقصدوا عرقه فنازلوها وحصروها وحصروا حلبة وأخذوها وخربوها وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يميناً وشمالا تغير وتخرب البلاد وفتحوا العريمه وصافيثا وعادوا الى حمص فصاموا بها رمضان ثم ساروا الى بانياس وقصدوا حصن هونين وهو للافرنج ومن أمنع حصونهم ومعاقلهم فانهزم الافرنج عنه وأحرقوه فوصل نور الدين في الغد فهدم سوره جميعه وأراد الدخول في بيروت فتجدد في العسكر خلف أوجب التفرق فعاد قطب الدين الى الموصل وأعطاه نور الدين مدينة الرقه على الفرات فاخذها في طريقه وهو عائد

﴿ في تجهيز الملك أموري عسكره للاستيلاء على الديار المصريه ﴾

لما رجع الملك اموري الى القدس تزوج بابنة أخي الملك عمانويل ملك الروم بالقسطنطينية وقد زاد طمعه وأخذ رجاله المقيمون بمصر والقاهره يكاتبونه ويطلبون منه القدوم الى مصر لاستلامها قائلين له انها خالية من حام يحميها أو يدافع عنها ومتى حضرت تستلمها بدون حرب وقتال فجمع مجلس شوراه بمدينة القدس وأعلمهم بالمكاتبات الواردة اليه من مصر وعزمه على المسير اليها واستيلائه عليها فعارضوه خصوصاً رئيس جمعية الرهبان الهيكليين وجمعية ضيوف الغربا (ماري يوحنا المعدان) قائلين انه لا يصح نقض المعاهدة المحررة بينه وبين شاور وزير مصر وانا الاقصدها فانها طعمة لنا وأموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين وربما اذا قصدناها لنملكها لا يسلمها صاحبها وعساكره وأهلها الينا ويقاتلونا دونها ويسلمونها الى نور الدين فلم يصغ الى قولهم وظل مصمماً على الدخول اليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها وظهر له من ضعف من بقي فيها . وكان يوجد في مصر بعض الامراء الذين يكرهون شاور فارسلوا اليه وطلبوا قدومه ليسلموه مصر مكيدة في شاور فلما سار الملك أموري ووصل الى الداروم كتب الى شاور يقول له اني قد قصدت الخدمة على ما قررته لي من العطا في كل عام فاجابه شاور ان الذي قررته لك انما جعلته متى احتجت اليك أو اذا قدم عليّ عدو فاما مع خلو بالي من الاعداء فلا

حاجة لي بك وليس لك عندي مقرر - فاجابه أموري ان لابد من حضوري وأخذي المقرر فعلم شاور انه غدر بالعهد ونقض الايمان وانه قد طمع في البلاد

﴿ استيلاء الصليبيين على بلبيس ﴾

لما علم شاور بغدر الصليبيين كما تقدم أخذ في تجنيد الرجال وحشد العساكر الى القاهرة وانفذ الى بلبيس فرقة من الجيش بقيادة طي ولده اما الملك اموري فانه سار يجد الى ان وصل الى بلبيس في أول صفر سنة ٥٦٤ فخيم عليها وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النحاس وابن الخياط يحيي وابن قرجله وهم الذين كانوا قد كاتبوه وطلبوا قدومه فارسل الى طي بن شاور وقال له اين تنزل فقال على أسنة الرماح وقال له أتحسب ان بلبيس جبنة تأكلها فارسل اليه أموري يقول نعم هي جبنة والقاهرة زبدة ثم قاتل بلبيس ليلا ونهاراً حتى افتتحها بالسيف قهراً وقتل من أهلها خلقاً عظيما وخرب اكثرها وأحرق حلل أدرها ثم اخرج الاسرى الى ظاهر البلد وحشرهم في مكان واحد وحمل في وسطهم برمحه ففرقهم فرقتين فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره وقال لفرقته قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر فاني قد ملكتها بلاشك ووقف الى ان عدى أكثرهم النيل الى جهة منية حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الاسرى فاقتسموهم وبقي أهل بلبيس الذين اسروا اكثر من أربعين سنة في أسر الصليبيين وهلك أكثرهم في أيديهم وافلت منهم اليسير لان الملك الناصر لما ملك ديار مصر وقف مغل بلبيس على كثرته على فكاك الاسرى منهم وسامح أهل بلبيس بخراجهم الى آخر ايامه

﴿ محاربة الصليبيين مدينة القاهرة ﴾

لما اتصل بشاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والاسر وان الصليبيين شحنوها بالرجال والعدد وجعلوها لهم ظهراً اشفق من ذلك وطلب الاذن بالدخول على الخليفة العاضد فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال اعلم ان البلاد قد ملكت ولم يبق الاان تكتب الى نور الدين وتشرح له ما جرى وتطلب نصرته ومعونته فكتب جميع ذلك وسود أعاليها بالمداد وقيل ان الذي أشار بكتابة ذلك هو شمس الخلافة محمد بن مختار لانه لما رجع من مقابلة الملك أموري اجتمع بالكامل بن شاور وقال له عندي أمر لايمكنني أن اخبرك به الا بعد أن تحلف لي بانك لاتطلع اباك عليه فلما

حلف له قال له ان أباك قد وطن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلاد الى الصليبيين ولا يكاتب نور الدين وهـذا عين الفساد فاصعد أنت الى الخليفه والزمه بان يكتب الى نور الدين فليس لهـذا الامر غيره . وأما الصليبيون فانهم ساروا الى مصر ولما قربوا من المدينـة أمر شاور باحراقها وانذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم وتشتتوا في جميع الانحاء وترك الناس أكثر أموالهـم فنهبت وأحرقت مصر في تاسع صفر سنة ٥٦٤ وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً (ومدينة مصر المذكورة هي مصر القديمه الآن التي على ساحل النيل) ثم نزل الصليبيون في بركة الحبش وانبثت أخبارهم في الاطراف وتخطفوا من ظفروا به فانفـذ شاور الى أموري شمس الخلافه فلما دخل عليه سـأله أن يخرج معه الى باب الخيمه ففعل فاراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له اترى دخاناً في السماء قال نعم قال هـذا دخان مصر فاني ما أتيت الا وقد احرقت بعشرين الف قارورة نفط وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل وما بقي فيها مايؤمل بقاءه ونفعه فخل الآن عنك مدافعتي وكن كلما قلت لك انزل في مكان تقدمت الى غيره وما بقي لك الا ان تنزل القاهرة فقال هو كما تقول ولا بد من نزول القـاهرة ومعي افرنج من وراء البحر قـد طمعوا في أخذها ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولا قارب به البلد حتى صارت سهام البرج تقع في خيمته فقاتلوا البلد اياماً ولما تيقن شاور الضعف عدل الى طريق المخادعة والمخاتلة والمغاورة والمدافعة الى ان تصل عساكر الشام فانفذ شمس الخلافة الى اموري برسالة طويلة وفي ضمنها (ان هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه الا بعد ان يقتل من الفريقين عالم عظيم وما تعلم انت ولا انا لمن الدائرة والرأي ان تحقن دماء اصحابك ودماء اصحابي وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً) فاستقرت المصانعة على اربعمائة الف دينار وقيل مليوناً يعجل له منهاماية الف دينار فاجاب اموري الى ذلك وانعقدت الهدنة وحلف أموري ورحـل الى بركة الحبش وحمل شاور اليـه ماية الف دينار في عدة دفعات سوف فيها الاوقات ثم أخذ يماطله بالباقي انتظاراً لقدوم العساكر ويوهم انه يجمع لهم الاموال

﴿ دخول اسد الدين شيركوه مصر ثالث مره ﴾

لما وصل كتاب الخليفة العاضد الى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيما وأنفـذ

أسد الدين وكان ذلك غاية مناه وأرسل معه الفقيه عيسى الهكاري الى مصر برسالة ظاهرة الى شاور يعلمه بقدوم العساكر ورسالة سرية الى الخليفة العاضد وأمره ان يستحلفه على اشياء عينهاوان يكتم ذلك عن شاور فلما وصل اسدالدين شيركوه الى القاهرة نزل بارض اللوق وأخرج اليه شاور الاقامات الحسنة والخدم الكثيرة ثم ارسل شمس الخلافة الى الملك أموري يستطاق منه بعض المال فصار اليه واجتمع به وقال قد قل علينا المال فقال اموري اطاب منه شيئاً قال اشتهي ان تهب لي النصف قال قد فعلت فقال شمس الخلافة ما بلغني ان ملكا مثلك وهب مثل هذه الهبه فقال اموري انا أعلم انك رجلا عاقلا وان شاور ملك وانكما ما سألتماني هذا المال الا لامر حدث فقال له صدقت هذا اسد الدين قد وصل نصرة لنا وما بق لك مقام وشاور يقول لك ان ترحل ونحن باقون على الهدنة فانه أوفق لك ولنا ونحن نراضي هذا الرجل بشيء من هذا المال ونحمل الباقي اليك متى قدرنا وان راضيناه باكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار فقال اموري انا راض بذلك وان بقي علي شيء حملته اليكم وعول على الرحيل فقال له بعد ان تطلق طي بن شاور ومن بقي من اسرى بلبيس معكم ولا تأخذ من بلبيس بعد انصرافك شيئاً فاجابه الى جميع ذلك ورحل الصليبيون عن مصر ولما نزل اسد الدين بارض اللوق كما تقدم ارسل له العاضد هدية عظيمة وخلعاً كثيرة واخرج الى خدمته اكابر اصحابه ثم انه خرج اليه في الليل سراً متنكراً واجتمع به في خيمته وافضى اليه بامور كثيرة منها قتل شاور ثم عاد الى قصره وكان شاور قد رأى ليلة نزل اسد الدين على القاهرة كانه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلا وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها باقلامه فسأل عنه فقيل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما اقام اسد الدين بالديار المصرية ورحل عنها الافرنج أمنت البلاد وتراجع الناس الى بيوتهم واخذوا في اصلاح ما شعثه الصليبيون وأفسدوه وتقاطر الناس الى خدمة اسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة واحسن اليهم وكذلك شاور فانه اخذ في التودد الى الاسد والتقرب اليه بجميع ما وجد السبيل اليه وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة حتى استحوذ على قلبه وقوي تبقيته في ملكه وصفا له قلبه

﴿ قتل شاور ووزارة أسد الدين شيركوه ﴾

لما أقامت عسكر الشام بمصر تحت رياسة أسد الدين شيركوه ورأوا طيب

بلادها وكثرة خيرها وسعة أموالها تاقت أنفسهم الى الاقامة بها واختاروا سكناها ورغبوا فيها رغبة عظيمة وقوي طمع أسـد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها ثم علم انه لا يتم له ذلك وشاور باق فيها فاخذ في أعمـال الحيلة عليه فجمع أصحـابه وشاورهم في أمر شاور وقال لهم قد علمتم رغبتي في هذه البلاد ومحبتي لها وحرصي عليها لا سيا وقد تحققت أن عنـد الصليبيين ما عندي وعلمت أنهم كشفوا عورتها وعلموا مسالكها وتيقنت اني متى خرجت منها عادوا اليها وملكوها وهي معظم دار الاسـلام وحلوبة بيت مالهم وقد قوي عنـدي ان أثب عليها قبل وثوبهم وأملكها قبل ان يملكوها وأتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم ويضرب بنا وبهم وقد ضيع صنيع أموال هـذه البلاد في غير وجهها وقوى بها الصليبيين علينا وما كل وقت ندرك الصليبيين ونسبقهم الى هذه البلاد التي قلت رجالها وهلكت أبطالها فقالوا جميعاً لا يتم أمر الا بعد قتل شاور وتفرقوا على ايقاع القبض عليه . وكان شاور يركب في الابهة العظيمة والعدة الحسنة على عادة الوزراء لانه كان الوزير اذا ركب سار في موكبه الطبل والبوق وكان شاور قليل الركوب فاخـذ الامراء يترصدونه الى ان ركب يوماً في ابهته وجلالته فلما عاينه الأمراء هابوه وأحجموا عنه وكان يوماً عظيم الضباب وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على أسد الدين فتقدم صـلاح الدين فسلم عليه ودخل في وسط موكبه ثم سايره ثم مد يده الى تلابيبه وصاح عليه فرجله ولمـا رأى ذلك عسكر الشام قويت عزائمهم واوقعوا في عسكر شاور فنهبوا ما كان مـع رجاله وقتلوا منهم جمـاعة وحمل الملك الناصر شاوراً راجلا الى خيمة لطيفة وأراد قتله فلم يقدر من غـير مشاورة اسد الدين وفي الحال ورد عـلى أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور فانفذ التوقيع الى صـلاح لدين فقتله في الحال وأنفذ رأسه الى القصر فخلع الخليفة العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة بدل شاور وذلك في ١٧ ربيع أول سنة ٥٦٤ فسار اسد الدين ودخل القصر وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش وقصد دار الوزارة فنزلها وهي التي كان بها شاور وساقاؤه وكتب له منشوراً بالوزارة من القصر كتب العاضـد في طرته بخطه (هذا عهد لا عهد لوزير بمثله وتقلد امانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله والحجة عليك عنـد الله بمـا أوضحه لك من مراشـد سبله فخذ كتاب امير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بان اعتزت خدمتك الى نبوة النبوة واتخذه للفوز سبيلا ولا تنقض الايمـان بعد توكيدها وقد

جعلت الله عليكم وكيلا) وجاء في المنشور ما يأتي (من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين الى السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي الائمة مجير الامة أسد الدين كافي قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارس شيركوه العاضدي عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين . وادام قدرته واعلى كلمته سلام عليك فانه يحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ويسأله ان يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والائمة المهديين وسلم تسليما الخ) فامر بقراءته على رؤوس الاشهاد وفرح به غاية الفرح وأعيدت قراءته عليه عدة مرات استحساناً لمعانيه . ثم ان الخليفة العاضد ارسل الى أسد الدين طبقاً من الفضة فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس اولاد اخوته وكان الكامل لما سمع بقتل ابيه قد التجأ الى القصر فقتله الخليفة

﴿ حكم الملك المنصور اسد الدين شيركوه ووفاته ﴾

لما استقر أسد الدين بالوزارة ولم يبق له منازع ولى الاعمال من يثق اليه واستبد بالولاية فاقطع البلاد للعساكر التي قدمت معه وصلاح الدين مباشراً الامور مقرر لها وزمام الامر والنهي مفوض اليه لكفايته ودرايته وحسن تأنيه وسياسته وطلب أسد الدين من القصر كاتب انشاء للوزارة فارسل اليه عبد الرحيم البيساني ومدحه الشعراء ومنهم العماد بقصيدة طويلة منها

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كم راحة جنيت من دوحة التعب
ياشيركوه بن شاذي الملك دعوة من ... نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم ... من المدى في العلا ما حزت بالخبب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت ... عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصرا وأرجو أن تصير بها ... ميسرا فتح بيت القدس عن كثب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من ... فتح البلاد فبادر نحوها وثب
أنت الذي هو فرد من بسالته ... والدين من عزمه في جحفل لجب

وفي حكمه شدد على النصارى وأمرهم بشد الزنانير على أوساطهم ومنعهم من ارخاء الذوأبه التي تسمى بالعزبه فكتب المهذب ابن أبي المليح زكريا وكان مسيحياً الى أسد الدين بقوله

ياأسد الدين ومن عدله ... يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شد أوساطنا ... فما الذي أوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبه ولا مكنه من ارخاء الذؤابة وعندما أيس من ذلك أسلم وكان شيركوه يعتبر نفسه نائباً لنور الدين في مصر وانه قائم بمنصب الوزارة باسمه ولكن لم تطل مدته لانه كان مواظباً على تناول اللحوم السمينه وكانت تتواتر عليه التخم والخوانيق فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياته في ٢٢ جمادي الثانيه سنة ٥٦٤ ولم يمكث في منصبه الا شهرين وخمسة أيام ودفن في القاهرة ثم نقل الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان شجاعا بارعا قويا ذا صولة عفيفاً ديناً كثير الخير وكان يحب أهل الدين والعلم كثير الايثار حدبا على أهله وأقاربه وخلف مالا كثيراً وترك كثيراً من الخيل والدواب وخمسمائة مملوك وهم الاسديه وهو مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت على اقطاع مبلغه تسعمائة دينار وتنقل في خدمة الملك العادل محمود نور الدين الى ان ملك الديار المصرية وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة أيام

﴿ وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف ﴾

لما توفى أسد الدين كما تقدم أصبح كل من الامراء النوريه الذين كانوا قد صحبوا أسد الدين يطالب التقدم على العساكر وولاية الوزارة منهم الاميرعين الدولة الياروقي وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبو الهيجاء وسيف الدين علي بن أحمد الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين ومالت الاسدية الى صلاح الدين فانفذ الخليفة العاضد يسأل عمن يصلح للوزارة فارشد من جماعة من الامراء على شهاب الدين الحارمي فانفذ اليه وأحضره وخاطبه في تولي الوزارة فامتنع من ذلك وأشار بولاية صلاح الدين وكان الحارمي أولا قد رغب في الوزارة وتحدث فيها فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها خاف ان يشتغل بطلبها فتفوته وربما تفوت صلاح الدين فاشار عليه لانها اذا كانت لابن أخته كانت في بيته وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته واقدامه على شاور في موكبه وقتله حين جاءه أمره مع صغر سنه فسارع الى تقليده الوزارة وما خرج شهاب الدين من حضرة العاضد الا وخلعة الوزارة قد أرسلت الى صلاح الدين وتلقب بالملك الناصر وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسي بطرز ذهب وثوب دبيقي بطرازى ذهب وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب وطيلسان دبيقي بطراز دقيق ذهب وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار وسيف محلي بجوهر قيمته خمسة آلاف

دينار وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها وطوق وتخت وسرفسار ذهب مجوهر وفي رقبة الحجر مشدة بيضاء وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر وقصبة ذهب في رأسها طالعة مجوهرة وفي رأسها مشدة بيضاء باعلام ذهب ومع الخلعة عدة بقج وعدة من الخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادي الآخرة سنة ٥٦٤ وقرئ المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والنورية وكان يوماً عظيما وخلع الملك الناصر على جميع الامراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد وعم الناس جميعهم بالهبات مع انه قبل هذا المنصب كرهاً وكان جاء الى مصر صحبة عمه أسد الدين كرهاً أيضاً « ان الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل » وأما الامراء فانهم لم يلتفتوا اليه ولا خدموه وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه فسعى عند سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله اليه قائلا له أن هذا الامر لايصل اليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل فمال الى صلاح الدين ثم قصد أيضاً الى قطب الدين وقال له ان صلاح الدين قد أطاعه باقي الامراء ولم يبق سواك فالاحسن ان تطيعه وهكذا حتى أماله وسار الى عين الدولة الياروقي وفعل معه كما فعل مع سلفائه فلم يقبل منه ذلك وسار بعسكره الى نور الدين بالشام

وأما صلاح الدين فانه كان بصفته نائب عن الملك العادل محمود نور الدين وقائمقامه بالديار المصرية وكانت الخطبة في جميع البلاد باسم الملك العادل بعد ذكر الخليفة العاضد وكان الملك العادل نور الدين يكاتب الملك الناصر صلاح الدين بالامير الاسفهسلار وصار يحكم في الرعية بالعدل المملوء حلماً حتى أحبته الرعية واستمال قلوبهم وبذل لهم المال فقويت نفسه على ذلك وضعف أمر الخليفة العاضد وطلب صلاح الدين من نور الدين ارسال اخوته فلم يجبه الى ذلك وقال أخاف أن يخالف احد منهم أوامرك فتفسد البلاد . وبعد مدة سير نور الدين الى مصر اخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أكبر من صلاح الدين وقال له ان كنت تسير الى مصر وتنظر الى أخيك يوسف الذي كان يخدمك فلا تسر فانك تفسد البلاد فأعاقبك وان كنت تنظر اليه انه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر اليه واشدد ازره وساعده على ما هو بصدده فقال أفعل

معه من الخدمة والطاعة ما يصل اليك فكان كما قال. وكان نور الدين قد أثر عنده تنصيب صلاح الدين على الديار المصرية حتى قال ما أخطأت الا في نفاذي أسد الدين الى مصر بعد علمي برغبته فيها وكان يبلغ الملك الناصر صلاح الدين من أقوال نور الدين وبعض أصحابه اشياء تؤلمه غير انه يلقاها بصدر رحب وخلق عذب . وأمر صلاح الدين بابطال المكوس والمظالم ما يقدر من ذلك بديوان صناعة مصر مائة الف دينار ومايستخرج بالاعمال البحرية والقبلية بمائة الف دينار فساح بجميع ذلك وأصدر بهم منشوراً يقرأ على المنابر وساح أيضاً في كثير غير ذلك وامتدحه الشعراء وقال احدهم شعر

فالشام يغبط مصراً مذ حللت بها ... كما الفرات عليكم يحسد النيلا
نلتم من الملك عفواً ما الملوك به ... عنوا قديماً وراموه فما نيلا

وقال بعضهم

لك الحسب الباقي على عقب الدهر ... بل الشرف الراقي الى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك اذا سمت ... بها الهمم العليا الى شرف الذكر
نهضتم باعباء الوزارة نهضة ... أقلتم بها الاقدام من زلة العثر
كشفتم عن الاقليم غمته كما ... كسفتم بأنوار الغنى ظلمة الفقر
حميتم من الافرنج سرب خلافة ... جريتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم ... ودائرة الانصار اضيق من شبر
جلبتم اليه النصر أوساً وخزرجاً ... وما اشتقت الانصار الا من النصر
كتائب في جيرون منها أواخر ... وأولها بالنيل من شاطيء مصر
طلعتم فاطلعتم كواكب نصرة ... أضاءت وكان الدين ليلا بلا فجر
وأبت اليكم يا ابن أيوب دولة ... تراسلكم في كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزمة أسدية ... فككتم بها الاسلام من ربقة الاسر

﴿ قتل جوهر مؤتمن الخلافة وواقعة العبيد ﴾

لما استقام صلاح الدين بالوزارة وعظم نفوذه وكثرت نصراؤه داخل الحسد مؤتمن الخلافة جوهر الخصي وحدثته نفسه بخلع صلاح الدين وواقعه كثير من الامراء المصريون والجند واتفق رأيهم ان يبعثوا الي الصليبيين ببلاد الساحل يستدعونهم الي القاهرة حتى اذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكره ثاروا وهم في القاهرة واجتمعوا مع

الصليبيين على اخراجه من مصر . فسيروا رجلا الى الصليبيين وجعلوا كتبهم معه في نعل
فسار الرجل الى ان وصل الى البير البيضا قريباً من بلبيس فاذا ببعض أصحاب صلاح
الدين قابل الرجل هناك فانكر أمره لانه حمل نعله في يده وليس فيهما أثر مشي
والرجل رث الهيئة فارتاب فيه وأخذ النعلين وشقهما فوجد الكتب بداخلهما
فحمل الرجل والكتب الى صلاح الدين فتتبع خطوط الكتب حتى عرفت فاذا
الذي كتبها من اليهود الكتاب فلما احضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه نطق
بالشهاده قبل كلامه ودخل في عصمة اسلامه ثم اعترف بما جناه وان الذي امره هو
مؤتمن الخلافة جوهر فبلغ ذلك الى جوهر فخاف على نفسه ولزم القصر وامتنع
من الخروج فاعرض صلاح الدين عن ذلك جملة وطال الامد فظن الخصي انه قد
أهمل أمره وشرع يخرج من القصر وكانت له منظرة بناها بناحية الخرقانيه بقرب
قليوب في بستان فخرج اليها في جماعة وبلغ ذلك صلاح الدين فانهض اليه عدة هجموا
عليه وقتلوه في يوم الاربعاء ٢٥ ذي القعده سنة ٥٦٤ واحتزوا رأسه وأتوا به الى
صلاح الدين فاشتهر ذلك في القاهرة وأشيع فغضب العسكر المصري وساروا باجمعهم
وقد انضم اليهم عالم عظيم من الامراء والعامة حتى أصبح عددهم نيفاً و ٥٠ الفاً
وساروا الى دار الوزارة وفيها صلاح الدين وقد استعدوا بالاسلحة فبادر شمس الدولة
فخر الدين توارنشاه أخو صلاح الدين ونادى بالعساكر الغز (الشاميه) ورتبهم
ووقفت الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية والطائفة القرنجية وغيرهم من الطوائف
السودانية ومن انضم اليهم في محلة بين القصرين فثارت الحرب بينهم وبين صلاح
الدين واشتد الامر وعظم الخطب حتى لم يبق الا هزيمة صلاح الدين واصحابه وعند
ذلك امر تورانشاه بالحملة على السودانيين فقتل منهم احد مقدميهم فانكسرت شوكتهم
قليلا وعظمت حملة الغز عليهم فانكسروا الى باب الذهب ثم الى باب الذهومة وقتل
حينئذ عدة من أمراء المصريين وكثير من سواهم . وكان العاضد في هذه الواقعة
يشرف من المنظرة فلما رأى أهل القصر كسرة السودانيين وعساكر مصر رموا
الغز من اعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى انكوا فيهم وكفوهم عن القتال وكاد
هؤلاء ينهزمون فامر حينئذ صلاح الدين باحراق المنظرة فاحضر شمس الدولة
النفاطين وأخذوا في اعداد قارورة النفط وصوبوها الى المنظرة حيث يقيم العاضد
فخاف على نفسه وفتح زعيم الخلافة باب المنظرة وقال بصوت عال (أمير المؤمنين
يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم) فلما

سمع السودانيون ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم أقفيتهم الى ان وصلوا الى سوق السيوفيين فقتل منهم كثير وأسر منهم كثير وامتنعوا هناك على الغز بمكان فاحرق بهم وكان في دار الارمن قريباً من بين القصرين كثير من هذه الطائفة وكلهم رماة ولهم جراية في الدولة تجري عليهم فمنعوا ما قرب منهم الغز وهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن ان يسيروا الى العبيد فاحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقا وقتلا ومروا الى العبيد فصاروا كلما دخلوا مكاناً أحرق عليهم وقتلوا فيه الى ان وصلوا الى باب زويله وكان مغلوق فحصروا هناك واستمر فيهم القتل مدة يومين وكان صلاح الدين قد احرق المنصوره وهي حارة لهم بجهة باب زويله وأعظم حاراتهم وأخذت عليهم أفواه السكك فايقنوا انهم قد أخذوا لامحالة وطلبوا الامان فامنوا وذلك يوم السبت ٢٨ ذي القعده وفتح لهم باب زويله فخرجوا الى الجيزه فعدى عليهم شمس الدولة في العسكر وقد قووا باموال المهزومين وأسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد وتلاشى بعد هذه الواقعة أمر العاضد ودعيت بواقعة العبيد . ومن غرائب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبنى القاهرة يدعى جوهراً والذي كان سبباً في زوال هذه الدولة وخراب القاهرة يدعى أيضاً جوهر الملقب بمؤتمن الخلافة . فلما انتهت هذه الواقعة واستئصلت جرثومة الفساد عاد صلاح الدين الى السكون فولي أخاه تورانشاه قوص واصوان وعيذاب مكافأة لما أظهره من البسالة في هذه الواقعة وجعل البلاد المذكوره له اقطاعا فكان دخلها في تلك السنة (٢٦٦٠٠٠) دينار

﴿ محاصرة الصليبيين ثغر دمياط ﴾

لما علم الملك أموري ملك القدس خبر تملك اسد الدين شيركوه مصر خاف على بلاده لانه صار بين عدوين نور الدين من الشام وأسد الدين من مصر فجمع مجلس شوراه وقر رأيهم على ارسال فريدريك بطريرك صور ومعه يوحنا اسقف عكا للالتجاء بملوك فرانسا وانكلترا وسيسيليا وغيرهم من ملوك أوروبا فلم تنجح مسعاهم ثم ارسل الى عم زوجته ملك الروم بالقسطنطينية فارسل اليه عماره بحرية مؤلفة من مائة وخمسين مركباً ملآنة بالزخائر والمؤن والعدة والرجال فاتحدت بباقي الصليبيين الموجودين بالشام وساروا براً وبحراً الى مصر حتى اذا بلغوا الفرما ساروا الى دمياط فعسكروا بينها وبين البحر في أول صفر سنة ٥٦٥

وكانت هذه الحملة بقيادة الملك اموري أيضاً فظن انه يقدر على أخذ دمياط بالهجوم ويملكونها ليجعلونها ظهراً لهم يملكون به ديار مصر الا انه رأى منها مقاومة ودفاعاً اضطره لاقامة الحصار فاقامه . فارسل اليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشر فيها كل من عنده وامدهم بالمال والسلاح والذخائر وارسل الى نور الدين يشكوا ما هو فيه من المخاوف ويقول انه اذا تخلف عن دمياط ملكها الصليبيون وان سار اليها وأخلى القاهرة خاف من غدر المصريين به وطلب منه المدد فجهز نور الدين اليه العساكر ارسالا كلما تجهزت طائفة ارسلها ثم سار نور الدين الى بلاد الصليبيين بالشام فنهبها واغار عليها واستباحها ووصلت غاراته الى ما لم تبلغه لخلو البلاد من ممانع وكذلك الخليفة العاضد فانه أمد صلاح الدين بمليون دينار مصري سوى الثياب وغيرها وارسل صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين وخاله شهاب الدين الحارمي الى دمياط وطال امد الحصار حتى نفذت مؤونة الصليبيين فارادوا العبور في النيل ليأتوا بالزاد فاوقفهم حاجز أقامه المسلمون في عرض النهر وهو عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد ممكن بمتاريس دمياط والطرف الآخر ببرج هائل منيع الجانب وكانت ترد الامداد الى حامية دمياط من القاهرة بكل سهولة . أما الصليبيون فكان انتظارهم للمدد من سوريا عبثاً فانتشر الجوع في معسكرهم فحدث الشقاق بين الفرنساويين وهم الذين كانوا في سوريا واليونانيين الذين أتوا بالمدد من القسطنطينية وأشتد حتى افضى الى الانفصال التام بعد ان بلغ منهم الجوع مبلغاً عظيما فكانوا يتخاصمون على كسرة خبز ويمضغون افنان النخيل ومما زاد تعاستهم تكاثر الامطار والزوابع على معسكرهم بدون انقطاع حتى اصبحوا كأنهم في طوفان عظيم وحصل من هياج الاعصار نوء في النيل اسرع جريه فتزاحمت مراكب الصليبيين وتلاطمت فلم يعد استخدامها ممكناً لوقوعها بين قوتين متضادتين الريح ومجرى النيل فتكسر معظمها . وكان نور الدين قد ارسل حملة بقيادة الامير قطب الدين خسرو الهمذاني فنزل دمياط في ١٥ ربيع أول سنة ٥٦٥ واحرقت العساكر الاسلامية باقي مراكب الصليبيين ومنجانيقاتهم وآلات حربهم وقتلوا منهم كثيراً . فلما حل بالصليبيين ذلك لم يروا بداً من العود على اعقابهم الى سوريا صفر الايدي بعد ان تعاهدوا مع المسلمين ان لا يعارضهم معارض في سيرهم فرجعوا خاسئين في ٢١ ربيع أول وصدق فيهم المثل (ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا اذنين) وكان صلاح الدين قد اعد في القاهرة

جيوشاً ليسير بها مدداً الى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الجيوش الصليبية مراكزها فشق عليه ذلك ووبخ الامراء الذين سمحوا لهم بالانسحاب ثم عاد الى القاهرة وامتدحه عمارة اليمني بقصيدة منها

من شاكر والله أعظم شاكر ماكان من نعمي بني أيوب
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا حسبي فانتم غاية المطلوب
جلبوا الى دمياط عندحصارها عز القوي وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربة لو لم يجلوها اتت بكروب
فالناس من أعمال مصر كلها عتقاءهم من نازح وقريب
ان لم تظن الناس قشراً فارغا وهم اللباب فانت غير لبيب

﴿ مسير نجم الدين ايوب وباقي عائلته الى مصر ﴾

ثم أرسل صلاح الدين الى نور الدين يطلب قدوم والده وباقي عائلته وكان الخليفة المستنجد بالله العباسي ببغداد قد أرسل الى نور الدين يعاتبه من تأخير اقامة الدعوة له بمصر فاغتنم هذه الفرصة وأحضر الامير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج الى ولده بمصر وسلمه رسالة منها (وهذا أمر تجب المبادرة اليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليله والمنقبة النبيله قبل هجوم الموت وحضور الفوت لاسيما وامام الوقت متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من اهم أمنيته) ثم ان الامير نجم الدين جهز حاله للمسير الى مصر وسار معه نور الدين مشيعا الى رأس الماء وعاد نور الدين بعد توديعه وسار نجم الدين الى ان وصل بالسلامة الى مصر في ٢٧ رجب سنة ٥٦٥ فخرج الخليفة العاضد من قصره لاستقباله وكذلك جميع الامراء والاعيان وباقي أرباب الدولة المصرية الى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الاهليلج ولم يجر بذلك عادة لهم وكان من أعجب يوم شهده الناس وخلع الخليفة العاضد عليه ولقبه الملك الافضل وحمل اليه من القصر الالطاف والتحف والهدايا وأظهر صلاح الدين من بره وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والاجر وأفرد له داراً بجانب داره وأقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيره ومدح صلاح الدين عمارة اليمني بقصيدة منها

صحت به مصر وكانت قبله تشكو سقاماً لم يعن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت في عصره والدهر ولاد لكل عجيب
رد الاله به قضية يوسف نسقاً على ضرب من التقريب

جاءته اخوته ووالده الى   مصر على التدريج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم وبدولة   قد ساعدتك رياحها بهبوب

ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه   وكل ابنائه شهب فلا أفلوا
جاءوا كيعقوب والاسباط اذ وردوا   على العزيز من أرض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء اخوته   ولم يكن بينهم نزع ولا زلل
وملكوا ارض مصر في شباحته   ومثلها لرجال مثلهم نزل

﴿ محاربة نور الدين حصن الكرك والزلزلة الكبرى ﴾

بعد ما ودع نور الدين الامير نجم الدين سار بعسكره الى بلاد الكرك في مستهل شعبان سنة ٥٦٥ ونزل أياماً بالبلقاء على عمان وأقام على الكرك اربعة ايام فحاصرها ونصب عليها منجانيقين فورد اليه الخبر بان الصليبيين قد تجمعوا ووصلوا الى ماء عين فرحل اليهم نور الدين فلما سمعوا بارتداده عليهم ولوا مدبرين وعاد نور الدين الى حوران فخيم بعشترا وأقام ينتظر حركتهم ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه وقصد نور الدين بلادهم حتى توسطها فنهب ما كان على طريقه وفي هذه السنة أيضاً في ١٢ شوال حصلت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق الا ان أشدها وأعظمها كان بالشام فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وغيرها وتهدمت أسوارها وقلاعها وسقطت الدور على أهلها وهلك من الناس كثير فسار نور الدين الى بعلبك لتعمير سورها فرتب من يحميها ويعمرها وسار الى حمص ففعل مثل ذلك وسار منها الى غيرها ماراً بجميع البلاد لخوفه من هجوم الصليبيين الى ان وصل الى حلب فوجد أكثرها متهدماً فاقام بنفسه على عمارتها وأما بلاد الصليبيين فان الزلزلة أضرت بها اكثر من سواها وهدمت أسوار مدنها فاجتهدوا في تعميرها خوفاً من نور الدين وهكذا فان كلا من الفريقين انشغل عن الآخر وكانت هذه الزلزلة قد حصلت في يوم عيدهم وهم في الكنائس فوقعت عروشها عليهم

﴿ محاربة صلاح الدين بلاد الصليبيين ﴾

في السنة التالية للزلازل سار صلاح الدين في جيش عظيم الى سوريا لمحاربة

الذين ضافوه في السنة الماضية فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ فعلم الملك أموري وهو في عسقلان ان صلاح الدين قد حاصر قلعة دارون وهو دير قديم للنصارى وموقعه على قمة جبل وعر على أربعة أميال من غزه اتخذه الصليبيون حصناً فاسرع لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان وكان قد علم صلاح الدين بقدومه فسار لملاقاته فلاقاه في منتصف الطريق وحاربه وغلبه ونزل على غزه فاستولى عليها واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ولكنهم اكتفوا بها أخذاً بالثار فتركوا في غزه حامية كافيه وعادوا الى مصر . ثم بلغ صلاح الدين بان الصليبيين قد احتلوا آيله وتحصنوا فيها وهي قلعه على البحر الاحمر فسار اليها ومعه عصبة من رجاله الاقوياء وحمل معه مراكب مفككة نقلها على الجمال ولما وصل الى البحر عند آيله ركب تلك المراكب وانزلها الى البحر وهاجم آيله في ربيع أول سنة ٥٦٦ براً وبحراً وظل عليها حتى فتحها رجاله وقتلوا من كان فيها من الصليبيين وجعل فيها صلاح الدين جماعة من ثقاته وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره وعاد الى مصر

﴿ وفاة الخليفة المستنجد بالله وخلافة المستضيء بامر الله ﴾

في يوم السبت تاسع ربيع آخر سنة ٥٦٦ توفى الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي بالله وكانت خلافته احدى عشر سنة و٦ أيام وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس وهذا العدد له بحساب الجمل اللام والباء وفيه يقول بعض الادباء

أصبحت لب بني العباس كلهم ان عددوا بحساب الجمل الخلفاء

وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا فيهم كثير الرفق بهم ثم بويع بالخلافة ابنه المستضيء بامر الله أبو محمد الحسن

﴿ وفاة الخليفة العاضد لدين الله بمصر والخطبة فيها لبني العباس ﴾

كان نور الدين قد أرسل الى صلاح الدين يطلب منه الخطبة للعباسيين بمصر كما تقدم فاعتذر اليه صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين فلم يصغ نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاماً لافسحة فيه واتفق ان الخليفة العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الامراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من اقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من خاف ذلك الا أنه لم يمكنه الا امتثال أمر نور الدين

وكان قد دخل مصر انسان أعجمي اسمه أمير عالم فلمارأى ماهم فيه من الاحجام قال أنا أبتدي بها . فلما كان أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ صعد المنبر في أكبر جامع وخطب بالناس ودعا للخليفة المستضيء بامر الله فلم ينكر ذلك احد عليهوكان موجوداً بالمسجد الاميرنجم الدين وجماعة من الامراء خوفا من حصول حادثلكي يعتذر صلاح الدينعن نفسه وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين جميعخطباءالقاهرة ومصر بقطع خطبة العاضد وان يخطب للمستضيء العباسي ففعلوا ولم يعارضهم أحد وكتب بذلك الىسائر الديارالمصريةوكانالعاضدقد اشتد مرضه فلم يعلمهأهله وأصحابه بذلك وقالوا ان سلم فهو يعلم وان توفى فلا ينبغي ان ننغص عليه هذه الايام الباقيةمن عمره فتوفى يوم عاشورا ولم يعلم بشيء من ذلك وبعد وفاته جلس صلاح الدين للعزاءواستولى على قصره وعلى جميع ما فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصيه لحفظه وجعله كاستاذ دار العاضد بعد قتل جوهر مؤتمن الخلافة وكان لايدخل القصر شيء أو يخرج منه الا بامر صلاح الدين فحفظ مافيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد الى مكان منفرد ووكل لحفظهم وجعل أولاده وعمومته وابناءهم في القصر الكبير الكائن بحارة برجوان وكان عيشهم فيها طيباً ثم نقلوا بعد الدوله الايوبية منها وجعل عندهم من يحفظهم وأبعد عنهم النساء وأخرج من كان بالقصر من العبيد والجوارى فاعتق البعض ووهب البعض وباع البعض وأخلى القصر من أهله وسكانه ودخلت مصر في حماية الخلافة العباسية الدينية في بغداد بعد خروجها منها مدة مائتين وثمان وستين سنه ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظنها مكيدة فلم يمض اليه فلما توفى علم صدقه وندم صلاح الدين على استعجاله بقطعخطبتهوهو مريض وقال لو علمت انهيموت من هذا المرض ما قطعتها الى ان يموت. وفتح الخزائن التي بالقصر وأخذ كل ماصلح له ولاهله ولامرائه ولخواص مماليكهمن الذخائر وزواهر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدرة اليتيمه والياقوته العالية غالية القيمه والمصوغاتالتبريه والمصنوعات العنبريه والاواني الفضيةوالصواني الصينيهوالمنسوجات المغربيةوالكرائم والبنائم والعقود والتمائموالنقود والمنظوموالمنضود والدر والياقوت والبسط والفرش وما لايعد احصاءه ولا يحد استقصاءه واسرف في العطاء وأطلق البيع في كل حديث وعتيق ولبيس وسحيق ورخيص وغال واستمر البيع فيه عشر سنين ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر ونيف قطعة واحدة

وكان حجمه مقدار الابهام ووجد فيه طبل للقولنج فانه دفع الى بعض الاكراد فلم يدرما هو فكسره لانه ضرب عليه فخبق ووجد ابريقاً عظيما من الحجر المائع . وان القضيب الزمرد فان صلاح الدين أحضر صانع ليقطعه فابى الصانع قطعه فرماه بنفسه فانقطع ثلاث قطع ففرقه على نسائه وأما الابريق فانفذه الى الخليفة ببغداد ومن جملة ما باعه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا لانه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة داخل القصر ويقال انها كانت تحتوي على مليوني كتاب واقتسم الناس بعد ذلك القصر وامتدحه الناس وقال العرقله

أصبح الملك بعد آل علي | مشرقاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو | م ومصر تزهو على بغداذ
ما حووها الا بحزم وعزم | وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن كا | ن بها كالخصيب والاستاذ

ثم أرسل صلاح الدين البشائر الى نور الدين بالخطبة للعباسيين بمصر وعمل نور الدين قصيدة لتتلى أمام الخليفة ببغداد وأرسل شهاب الدين ابو المعالي المطهر بهذه البشارة فمنها

قد خطبنا للمستضيء بمصر | نائب المصطفى امام العصر
وخذلنا لنصرة العضد العا | ضد والقاصر الذي بالقصر
وأشعنا بها شعار بني العبا | س فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعي يدعوا ثبوراً | وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين للخطـ | ـبة للهاشمي في أرض مصر
واستنارت عزائم الملك العا | دل نور الدين الكريم الاغر

فلما وصل شهاب الدين الى بغداد خرجوا بموكب لمقابلته وكذلك خرج أهل بغداد وكان يوماً مشهوداً وأنعم الخليفة على الملك العادل محمود نور الدين بتشريف عظيم القدر ومعه سيفان اشارة الى تملكه مصر والشام وعلى صلاح الدين بتشريف آخر ولما وصل التشريفان الى الملك العادل أخذ تشريفه وأرسل الى صلاح الدين تشريفه بمصر مع جملة خلع عظيمة من عنده ليفرقها على أرباب الدولة المصرية وكذلك جملة أعلام ورايات سود للخطباء بمصر وانتهت مدة الدولة الفاطمية أو العلوية التي حكمت البلاد من سنة ٢٩٩ الى سنة ٥٦٧ وكانوا أربعة عشر خليفة ثلاثة منهم بافريقيه بالمغرب وهم الملقبون بالمهدي والقائم والمنصور وأحد عشر بمصر وهم

الملقبون بالمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد وكان يدعون الشرف والنسبة الى الامام علي والحقيقة انهم ينسبون الى مجوسي أو يهودي كما ذكر ذلك بكتب العلماء الاعلام وكانوا يسبون الصحابة ويقتلوا من يحبهم

﴿ محاربة نور الدين الصليبيين بناحية حصن عرقه وغيره ﴾

في سنة ٥٦٧ أيضاً خرجت مراكب تجاريه من مصر قاصدة الشام فاخذ افرنج اللاذقية مركبين منها مملوأتين بالامتعة والتجار وغدروا بالمسلمين وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا فلما سمع بعملهم استعظمه وراسل الصليبيين في ذلك وأمرهم باعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بامور منها ان المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء ولكنهم كانوا كاذبين فلم يقبل مغالطتهم وهو لا يهمل أمراً من أمور رعيته فلما لم يردوا شيئاً جمع العساكر من الشام والموصل وبث السرايا في بلادهم بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقه وأخرب ربضه وأرسل طائفة من العسكر الى حصني صافيثا وعريمه فأخذهما عنوة وكذلك غيرهما ونهب وخرب وغنم المسلمون كثيراً وعادوا اليه وهو في عرقه فسار في العساكر جميعها الى قريب من طرابلس يخرب ويحرق وينهب وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس فراسله الصليبيون وطلبوا منه الهدنة واعادة ما أخذوه من المركبين فاجابهم الى ذلك وصح فيهم المثل (اليهودي لا يعطي الجزية حتى يلطم) وكذلك الصليبيون فانهم لم يعيدوا أموال التجار بالتي هي أحسن حتى نهبت بلادهم وخربت

﴿ بريد الحمام ﴾

لما اتسعت بلاد نور الدين وطالت مملكته حتى أصبحت من حدود النوبة الى همذان لا يتخللها سوى بلاد الصليبيين الذين ربما نازلوا بعض الثغور فلا يبلغه الخبر ليسير اليهم الا بعد ان يبلغوا الغرض فلذلك أمر في سنة ٥٦٧ باتخاذ الحمام الهوادي وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة الى اوكارها فاتخذت في سائر بلاده ورتب لها جرايات ورجال لتربيتها فوجد بها راحة كبيرة وكانت الاخبار تأتيه في حينها لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم

فاذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه بورقة علقوها بالطائر وأطلقوه الى المدينة التي هو منها فيصلها في ساعته فتنقل الرقعة منه الى طائر المدينة الثانية وهكذا الى المدينة المقيم فيها الملك العادل فانحفظت الثغور بذلك حتى ان طائفة من الصليبيين نازلوا ثغراً له فاتاه الخبر في أول يوم فكتب نور الدين الى العساكر المجاورة الى ذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو وأرسله على طائر الحمام ففعلوا ذلك فظفروا فما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد

﴿ النفور بين صلاح الدين ونور الدين ﴾

كان صلاح الدين مع تظاهره في تأييد سلطة الخلفاء العباسيين لا يفتر ساعياً الى اتمام مقاصده التي كانت لا تزال تحت طي الخفاء وهي استقلاله بمصر فاخذ في تربية الاحزاب واعداد القوات الى ما يمكنه من الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضه بذلك فاحس بذلك نور الدين فبعث اليه يستقدمه ومعه فرقة من رجاله مظهراً استنجاده في حربه مع الصليبيين عند الكرك وانما كان قصده الحقيقي ان يخرج من مصر ويبقيه عنده تحت ملاحظته فأمن من غائلته . فادرك صلاح الدين مقصده هذا لكنه لم يستصوب مخالفة أوامره لئلا تتنافر القلوب فتتعرقل مساعيه فكتب اليه انه اذعاناً لامره قد برح القاهرة بفرقة من الجند في ٢٠ محرم سنة ٥٦٨ لملاقاة جيوش نور الدين في الكرك . فلما وصل نور الدين اليها لم يجد فيها أحداً فانتظر فلم يقدموا ثم ورد اليه كتاب ثان من صلاح الدين يخبره انه برح القاهره بجنده الى الكرك فعرض له في الطريق ما ألجاه الى العود حالا الى مصر وكان رجوعه في منتصف ربيع أول فعلم نور الدين أنها مماطلة مقصودة فاقر على المسير بنفسه الى مصر والاشتغال بصلاح الدين عن الصليبيين ولكنه قبل ذهابه بعث الى صلاح الدين يتهدده بالعزل اذا لم يبادر الى ما أمر به فاستدعى صلاح الدين رجال عائلته وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء فلما تكامل الجمع اعلمهم بما كان بينه وبين نور الدين وما بلغه من عزمه على المجيء اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة فنهض تقي الدين عمرو بن شاهنشاه أخو صلاح الدين فقال (الرأي اذا جاءنا نور الدين قاتلناه ومنعناه عن البلاد) ووافقه غيره من أهلهم . فشتمهم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين واستعظم أقوالهم وشتم تقي الدين وأقعده وقال لصلاح الدين (ها أنا أبوك وهذا

شهاب الدين خالك وهل تظن بين هـذا الجمع من يحبك ويخلص لك أكثر منا) قال لا فقال (اعلم يا يوسف أننا والله لو رأينا نور الدين لم نمكث الا ان نقبل ركابه ونقتل بين يديه ولو أمرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا . وكل الدين تراهم عنـدك من الامراء لو رأوا نور الدين وحـده لم يتجاسروا عـلى الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فان أراد سمعنا وأطعنا والرأي ان تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه بلغني انك تريد الحركة الى هذه البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلا ويأخذني اليك وما هنا من يمتنع) ثم قام الامراء وغـيرهم وتفرقوا على هـذا وأكثرهم أرسل الى نور الدين بما تم . ثم خلا نجم الدين أيوب بولده صلاح الدين فقال له (أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الامور اليه ويقصدك فلم تر معك من هذا العسكر أحداً وكانوا أسلموك اليه أما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون اليه ويعرفونه قولي وما أظهرنا من الطاعة له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل) ففعل صـلاح الدين ما أشار به أبوه . فلما وصل كتاب صلاح الدين الى نور الدين كما قصه أبوه سكن روعه وتوقف عن المسير الى مصر ثم أرسل صلاح الدين الى نور الدين ستين الف دينار ومعها جملة من الهدايا فقال نور الدين ما كانت بنا حاجة الى هـذا المـال ولا نسد به خلة الاقلال فهو يعلم انا ما انفقنا الذهب في ملك مصر وبنا الى الذهب فقر وتمثل بقول أبي تمـام

لم ينفق الذهب المربي بكثرته ... على الحصاوبه فقر الى الذهب

وقال انه يعلم ان ثغور الشام مفتقرة الى السـداد ووفور الاعداد من الاجناد ويجب عليه المعونة بالامداد وأرسل الموفق القيسراني وزيره الى مصر وأمره بعمل حساب البلاد وايرادها ومصروفها لاجـل تقرير شيء على صلاح الدين يدفعه في كل سنة

﴿ محاربة نور الدين وصلاح الدين الصليبيين ﴾

في سنة ٥٦٨ سار كل من نور الدين بجيشه وصلاح الدين بجيشه لمحاربة الافرنج فسار نور الدين الى مرعش فحاصرها وفتحها في شهر القعدة ثم سـار الى بهسني

فنازلها وأخذها في شهر الحجه واتفق خروج الملك اموري للاغارة على رواد من ناحية حوران وهو في جمع كثير من عساكره فنزلوا في قرية تعرف بسمسكين فركب نور الدين اليهم وأقبل بعساكره عليهم فلما عرفوا وصوله رحلوا الى القوار ثم الى السواد ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين في عشترا فارسل سرية الى أعمال طبرية واغتنم خلوها فتوجهت اليها السرية وأغارت عليها ونهبتها فلما عادت لحقها الصليبيون عند المخاضه فوقفت الشجعان حتى عبرت السرية بما معها من الغنائم ولم يلحق بها ضرر أما صلاح الدين فانه سار قاصداً بلاد الكرك والشوبك لانها أقرب اليه وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ولا يمكن ان تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فاراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة فخرج الى الكرك وحاصرها وجرى بينه وبين الصليبيين وقعات كثيرة فبرح بهم وفرق عنهم عربها وخرب عماراتها وفرق على أعمالها سراياه بغاراته فامتنعت عنها العرب بعد ما كانت تتحد مع الافرنج دائماً

﴿ فتح بلاد النوبه ﴾

اجتمع السودانيون ببلاد النوبة وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر وصاروا الى أعمال أصوان وكان بها الامير كنز الدولة فانفذ يعلم الملك الناصر صلاح الدين وطلب منه نجدة فانفذ فرقة من جيشه مع الشجاع البعلبكي فلما وصل الى أصوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد ان أخربوا أرضها فاتبعهم الشجاع والكنز فجرت بينهم حرب عظيمة قتل فيها كثير من الفريقين ورجع الشجاع الى القاهرة واخبر فعال العبيد وتمكنهم من بلاد اصوان فانفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة فسار قاصداً بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميره وأمرها بالحاقه الى بلاد النوبة فلما وصل نزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها من المال والميرة وخلص جماعة من الاسرى وأسر من وجده فيها وهرب صاحبها . ثم رجع شمس الدولة الى اصوان ثم الى قوص وكان في صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم فاقطعه اياها وانفذ معه جماعة من الاكراد البطالين فلما وصلوها تفرقوا فرقاً وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة حتى برحوا بها واكتسبوا أموالا كثيرة فنمت أرزاقهم وكثرت مواشيهم واتفق انهم عدوا الى

جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة ذيدان فغرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه ورجع من بقي منهم الى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها واخلوها فعاد السودانيون اليها وملكوها وانفذ ملك النوبة رسولاً الى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هديه جارية وعبد فكتب اليه الجواب وأعطاه زوجي نشاب وقال ما لك عندي جواب الا هذا وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبي وأوصاه ان يكشف له خبر البلاد ليدخلها فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقله وهي مدينة الملك فوجدها بلاداً ضيقة ليس بها ذرع الا الادره وعندهم نخل صغار وليس بالمدينة عمارة الا دار الملك فقط وباقيها أخصاص ولما مثل امام الملك أمر ان تكوى يده فكوى عليها هيئة صليب وأمر له بخمسين رطل من الدقيق وصرفه

﴿ وفاة نجم الدين ايوب وبعض سيرته ﴾

في أثناء محاصرة صلاح الدين الكرك والشوبك توفى والده نجم الدين أيوب بمصر وكان راكباً فرسه بالقاهرة فشب به عند باب النصر يوم الأثنين ١٨ ذي الحجه سنة ٥٦٨ وحمل الى منزله وعاش ثمانية أيام وتوفى الى رحمة ربه في ٢٧ منه فدفن بالقاهرة الى جانب اخيه أسد الدين بالدار السلطانيه الى أن نقلا الى المدينة المنورة وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً وبابه مزدحم الوفود وهو متلف الموجود ببذل الجود وكان شديد الركض ولعاً بلعب الكرة فلما وصل خبره الى ولده صلاح الدين اشتد روعه وحزن عليه حزناً شديداً وتجلد بالصبر وقال

وتخطفته يد الردى في غيبتي ... هبني حضرت فكنت ماذا أصنع

وهو الامير نجم الدين أيوب بن شاذي ولا يعرف في نسبه أكثر من والده شاذي وكان مولده ببلد شبختان وقيل بجبل جور وربي في بلد الموصل ونشاء شجاعاً باذلا وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه امانة وعقلا وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكريت فقام في ولايتها أحسن قيام وضبطها اعظم ضبط وأجلى عن ارضها المفسدين وقطاع الطريق حتى عمرت وحسن حال أهلها فلما ولي السلطان مسعود الملك اقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز خادم شحنة بغداد ومتولي العراق فاقر الامير نجم الدين في ولاية تكريت وأضاف اليه النظر في جميع الولاية المتاخمه له وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله وجعل جميع ذلك منوطاً

بالامير نجم الدين وكان السلطان مسعود وأتابك زنكي قد طمعا ببغداد فسارا الى أن وصلا تكريت فتقابلا مع قراجه الساقي وهو أتابك بن السلطان محمود فجرد الف فارس عليهم ثم اردفهم بعسكر كثير فانهزم زنكي وقتل جماعة من اصحابه وجملة ممن كان في عسكره ولجأ الى سور تكريت وبه عدة جراحات وعلم به الامير نجم الدين وأخوه شيركوه فاصعداه القلعة بحبال وداويا جراحاته وخدماه أحسن خدمة فاقام عندهم بتكريت خمسة عشر يوماً ثم سار الى الموصل وأعوزه الدهر فاعطياه جميع ما كان عندهما من الدواب حتى انهما اعطياه جملة من البقر حمل عليها ماسلم معه من امتعته فكان زنكي يرى لايوب هذه اليد ويعرف له هذه الصنيعة ويواصله بالهدايا والالطاف مدة اقامته في تكريت وفي ذات يوم نزل أسد الدين من القلعة لبعض أشغاله ثم عاد اليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة وهو نصراني ضغائن فاتفق في ذلك اليوم ان النصراني صادف أسد الدين صاعداً الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني وصعد الى القلعه وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته وأخذ النصراني برجله والقاه من القلعه فبلغ بهروز صاحب القلعة ماجرى وحضر عنده من خوفه جراءة اسد الدين لانه ذو عشيرة كبيرة ولان أخاه نجم الدين استحوذ على قلوب الرعايا وربما كان منهما امر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه فكتب الى نجم الدين يذكر عليه ماجرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة الى نائب سيره صحبة الكتاب فاجاب نجم الدين الي ذلك بالسمع والطاعه وانزل من القلعة جميع ما كان له فيها من أهل ومال واجتمع هو وأخيه اسد الدين وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل وعظم على أهل تكريت خروج نجم الدين من القلعة وخرجوا جميعاً لتوديعه وبكوا واسفوا على مفارقته ولما اتصل بعماد الدين زنكي خبر قدومهما فرح لذلك وأمر الموكب بلقائهما واكرمهما اكراماً عظيماً واقطعهما في بلد شهر زور اقطاعاً سنياً وقيل انه اقطع أسد الدين بالموزروجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمه وساعد أسد الدين وأخاه نجم الدين حتى قربهما من قلب اتابك وجعلهما عنده في منزلة عالية وخرجا معه الي الشام وشهدا معه حروب الصليبيين وكان لاسد الدين في تلك المواقع اليد البيضاء واقاما في خدمة ولده الملك العادل محمود نور الدين الى أن أرسل أسد الدين لفتح مصر كما تقدم وأرسل نجم الدين الي ولده صلاح الدين بشان قطع خطبة الفاطميين والخطبة للعباسيين ومما يحكي عن نجم الدين انه بينما

كان جالساً مع ولده صلاح الدين في دار الوزارة وحولهما أرباب الدولة اذ تقدم كاتب نصراني كان في خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين والتفت الي نجم الدين وقال له يامولاي هذا تأويل مقالتي لك حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال صدقت والله ثم حمد الله وشكره والتفت الي الحاضرين الذين حوله من قضاة وأمراء وقال لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة وذلك انني ليلة رزقت هذا الولد يعني السلطان الملك الناصر أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من اخي أسد الدين وقتله النصراني وكنت قد الفت القلعة وصارت لى كالوطن فثقل عليّ الخروج منها والتحول عنها واغتممت لذلك وفي ذلك الوقت جاني البشير بولادته فتشأمت به وتطيرت لما جرى عليّ ولم افرح به ولم استبشر وخرجنا من القلعة وانا على طيرتي به لاأكاد اذكره ولا أسميه وكان هذا النصراني معي كاتباً فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاءم به طلب مني أن أذن له في الكلام فاذنت له فقال يامولاي قد رأيت ماحدث عندك من الطيرة بهذا الصبي وأي شئ له من الذنب وبما استحق ذلك وهو لاينفع ولا يضر ولايغني شيئاً وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله ثم مايدريك ان هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت جليل القدر فعطفني كلامه عليه وها هو قد اوقفني على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق

﴿ استيلاء بهاء الدين قراقوش على طرابلس الغرب وغيرها ﴾

في سنة ٥٦٨ هجرية أيضاً سار طائفة من الترك بقيادة بهاء الدين قراقوش من الديار المصرية الى جبال نفوسه واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من أعيان الامراء هناك وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن صاحب الغرب فاتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها وفتحاها بالقوة فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيراً من بلاد الغرب ما خلا المهديه وسفاقس وقفصه وتونس وما والاها من القرى والمواضع وصار مع قراقوش عسكر كثير فحكم على تلك البلاد باسم الديار المصرية وجمع منها أموالا عظيمة خزنها في مدينة قابس وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع بلاد المغرب

﴿ استيلاء شمس الدولة تور انشاه على بلاد اليمن ﴾

جرت في مصر مؤامرة سرية بالانتقام من الدولة الايوبيه لم ينفذها اصحابها لخوفهم من عقباها عليهم وخصوصاً من قوة تورانشاه فلذلك أخذ احد المتآمرين المدعو عمارة اليمني الشاعر يصف في بلاد اليمن لتورانشاه ويعظمها في عينه ويطلب منه الخروج اليها للاستيلاء عليها ففي شهر رجب سنة ٥٦٩ امر صلاح الدين أخاه شمس الدولة تورانشاه بالمسير فسار بعد ان جند الاجناد وتجهز بآلات الحرب قاصداً اليمن فوصل الى مكة المكرمة وسار منها الى زبيد فلما قرب منها خرج اليه صاحبها عبد النبي ومعه رجاله وتقاتلوا فانهزم اهل زبيد فتبعهم شمس الدولة بعسكره الى ان وصل الى سور المدينة فلم يجدوا من يمنعهم فنصبوا السلالم وصعدوا على السور وملكوا المدينة عنوة ونهبوها وأخذ عبد النبي وزوجته أسيرين وولي على المدينة سيف الدين مبارك بن منقذ ثم سار الى عدن وهي محصنة من جهة البر تحصيناً عظيما وصاحبها اسمه ياسر فخرج بعسكره الى شمس الدولة لمحاربته فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدوله فدخلوا البلد قبل اهله فملكوه وأخذوا صاحبه ياسر أسيراً وأرادوا نهب البلد فمنعهم شمس الدولة وقال ما جئنا لنخرب البلاد وانما جئنا لنملكها ونعمرها فاستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي ثم فتح حصن تعز وغيره واستولى على مدينة الجند وصنعاء التي حرقت قبل دخوله ثم عاد الى زبيد فوجد ابن منقذاً قتل عبد النبي بعد ان وقف منه على معرفة جميع كنوزه المدفونة وأرسل الى شمس الدولة صاحب طمار وباقي الملوك وصالحوه على أداء المال فكتب شمس الدولة تور انشاه الى اخيه صلاح الدين بمصر يعلمه بما من الله عليه من الفتح وانه أبطل الخطبة المهدية (التي كانت لعبد النبي لانه كان يدعي الامامة) وخطب للعباسيين

﴿ ظهور المؤآمرة وصلب اعضائها ﴾

بعد مسير شمس الدولة الى البلاد اليمنية اجتمع جماعة منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العوريس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين والسودانيين وحاشية القصر ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الافرنج من ساحل الشام وجزيرة صقليه الى مصر ليملكوها ويعيدوا الدولة الفاطمية العلوية على شيء بذلوه من المال والبلاد ووعدوهم

بانهم متى حضروا الى مصر وخرج صلاح الدين لمحاربتهم ثاروا هم في القاهرة وأعادوا الدولة العلوية وان بقي صلاح الدين بمصر فيكون عساكره بعيدة عنه فيثبوا عليه ويقبضوه باليد واشترك معهم زين الدين علي بن نجا الواعظ فعينوا الخليفة والوزير فكل من بني رزيك وبني شاور طالبها لنفسه ورتبوا القضاه وداعي الدعاة والحاجب ثم توجه زين الدين الى صلاح الدين وأعلمه بواقعة الحال فامره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون وان ينقل اليه أخبارهم يوما فيوماً ففعل وأطلعه على كل ما يجري ثم وصل رسول من ملك الافرنج أموري بهدية ورسالة وهو في الظاهر لصلاح الدين وفي الباطن للجماعة المؤامرين وكان يرسل اليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فأتى الخبر الى صلاح الدين من بلاد الافرنج بجلية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق اليه من النصارى وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على جميع المؤامرين وصلبهم في ثاني يوم رمضان سنة ٥٦٩ وفي مقدمتهم عمارة اليمني وفي هذه القضية قال العلامة تاج الدين الكندي

عمارة في الاسلام أبدى جناية ... وبايع فيها بيعة وصليبا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمد ... فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى ان عجمته ... تجد منه عوداً في النفاق صليبا
سيلقى غداً ما كان يسعى لاجله ... ويسقى صديداً في لظى وصليبا

وصليبا في البيت الاول بمعنى النصارى وفي الثاني بمعنى مصلوب وفي الثالث بمعنى الصلابة وفي الرابع ودك العظام وقيل انه الصديد أيضاً أي يسقى ما يسيل من أهل النار وكان عمارة هذا عربياً فقيهاً أديباً

﴿ وفاة الملك العادل محمود اتابك نور الدين ﴾

ظل الملك العادل نور الدين حانقاً على صلاح الدين لانه رأى منه فتوراً في محاربة الصليبيين فارسل الى الموصل وديار بكر وديار الجزيره يطلب العساكر للمسير الى مصر لاخراج صلاح الدين منها ووافق ذلك عيد الفطر ففي ثاني يوم خرج نور الدين ومعه امراءه الى ان نزل الميدان وكان معهم همام الدين مودود وهو من أكابر دولته فقال لنور الدين هل نكون هنا في مثل هذا اليوم من العام القابل فقال نور الدين قل هل نكون بعد شهر فان السنة بعيدة ثم ان نور الدين مرض

بعلة الخوانيق وطلب بعض الاطباء فلم ينفع فيه الدواء وعظم الداء فمات يوم الاربعاء الحادي عشر من شوال سنة ٥٦٩ وكان شجاعا باسلا وفاضلا باراً وكان محبوباً معتبراً عند المسلمين والصليبيين أعدائه وكانت مملكته شاملة جميع سوريا الشرقية وقسم من سوريا الغربية والموصل وديار بكر وديار الجزيرة ومصر وبعض بلاد المغرب وبلاد اليمن وكانت وفاته بدمشق ودفن فيها وقال فيه العماد

يا ملكا أيامه لم تزل لفضله فاضلة فاخرة
غاصت بحار الجود مذ غيبت انملك الفائضة الزاخرة
ملكت دنياك وخلفتها وسرت حتى تملك الآخرة

وقال أيضاً

لفقد الملك العادل يبكي الملك والعدل وقد أظلمت الافاق لا شمس ولا ظل
ولما غاب نور الدين عنا أظلم الحفل وزال الخصب والخير وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجود وعاش اليأس والبخل وعن النقص لما هان أهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو العلم اذا ما نفق الجهل وما كان لنور الدين لولا نجله مثل

وملك بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل ولم يبلغ الحلم وحلف له الامراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن المقدم ثم كتب الملك الصالح الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كتابا يخبره فيه بوفاة والده طالباً منه المساعدة والمعاونة على قتال الصليبيين فخطب الملك الناصر له بمصر وضرب السكة باسمه وأرسل اليه صلاح الدين كتابا بتعزيته ونصحه مع رجال دولته ومما فيه (الله الله ان تختلف القلوب والايدي فتبلغ الاعداء مرادها وتعدم الآراء رشادها وتنتقل النعم التي تعبت الايام فيها الى ان اعطت قيادها فكونوا يداً واحدة واعضاداً متساعدة وقلوبا يجمعها ود وسيوفا يضمها غمد ولا تختلفوا فتنكلوا ولا تنازعوا فتفشلوا وقوموا على أمشاط الارجل ولا تأخذوا الامر باطراف الانمل فالعداوة محدقة بكم من كل مكان والكفر مجتمع على الايمان ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه وقد كانت وصيته الينا سبقت ورسالته عندنا تحققت بان ولده القائم بالامر وسعد الدين كمشتكين الاتابك بين يديه فان كانت الوصية ظهرت وقبلت والطاعة في الغيبة والحضور أديت وفعلت والا فنحن لهذا الولد يد على من ناواه وسيف على من عاداه وان اسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب

والنذر الذي يحل على الايدي والقلوب)

﴿ حصار الصليبيين حصن بانياس وعودهم عنه ﴾

لما مات نور الدين اجتمع الصليبيون لطمعهم في بلاده وساروا الى قلعة بانياس من أعمال دمشق فحصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم العساكر بدمشق وراسل الافرنج ولاطفهم ثم أغلظ لهم في القول وقال لهم ان انتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فنحن على ما كنا عليه والا فنرسل الى سيف الدين صاحب الموصل و نعلمه ونصالحه و نستنجده ونرسل الى صلاح الدين بمصر فنستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها وانتم تعلمون طمع صلاح الدين في بلادكم واذا طلبناه لذلك فلا يمتنع فعلموا صدقه فصالحوه على شيء من المال أخذوه وأسرى كانوا عند المسلمين أطلقوهم وتقررت الهدنة فلما سمع صلاح الدين بذلك انكره ولم يعجبه وكتب الى جماعة الاعيان كتباً دالة على التوبيخ والملام ومن جملتها كتاب الى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون يخبره فيه انه لما بلغه قدوم الصليبيين خرج وسار أربعة مراحل ثم جاءه خبر الهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة واطلاق الاسارى وان ذلك لا يصح وكان يجب الانتظار لحين حضوره

﴿ وفاة الملك أموري وتولية ابنه الملك الابرص ﴾

في سنة ٥٧٠ توفى الملك أموري ملك القدس وقد كان طماعا عديم الفطنة حتى انه انفق جميع خزائنه في طلب امتلاكه الديار المصرية ولم يحصل له ثمرة مطلقا خلاف الخسائر التي عادت عليه وعلى قومه لانه قبل حروبه مصر كانت مراكبهم تأتي اليها بالتجارة وتأخذ منها المحصولات ولما علموا غدره منعوا من دخول البلاد المصرية وكان كثيراً ما تخرج المراكب المصرية في البحر تبحث على مراكب الصليبيين وتنهبها وتأخذها وبعد وفاته تولى ابنه بودوين الرابع وكان عمره ثلاث عشرة سنه وذلك في سنة ١١٧٤ افرنكيه ولهذا الملك صفات جليله ولكن لسوء حظه ابتلى بمرض البرص ولذلك لقبوه بالملك الابرص ولمرضه وعجزه عن تدبير المملكة اقيم له وكيل ملوكي (نائب الملك) وهو رايموند صاحب طرابلس وهو رابع أولاد رايموند دي سان غيلاس

﴿ ورود اسطول جزيرة صقلية ومحاصرة الاسكندريه ﴾

تقدم ان جماعة من المصريين كاتبوا الصليبيين في سوريا وجزيرة صقليه ولما احس بهم صلاح الدين صلبهم ورسول الصليبيين في مصر فاعلم أصحابه في سوريا بما كان أما ملك صقليه فلم يعلم ما تم فارسل أسطولا عظيما في أواخر شهر الحجه سنة ٥٦٩ الى ثغر الاسكندريه في يوم الاحد ٢٦ منه وقت الظهر وصل أول الاسطول وظل يتتابع الى وقت العصر وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر (الناضورجيه) فملأ البحر لوفور عدته وكثرة مراكبه لانه كان يحتوي على ٣٦ طريدة تحمل الخيل و ٢٠٠ شيني (مركب حربيه) في كل شيني ١٥٠ راجلا وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار وغيرها ست سفن وأربعين مركباً تحمل الازواد وصناع المراكب فكان عدد المقاتلين ثلاثين الفاً ما عدا صناع المراكب وأبراج الزحف والدبابات والمتجنيقات فيبلغ عدد جميعهم ٥٠ الف رجل ولما تكاملوا نزلوا على البر وحملوا على المسلمين حملة أوصلوهم الى السور وفقد من أهل الثغر سبعة انفس وقتل محمود بن البصار وزحفت مراكب الافرنج داخلة الى المينا وكان بها مراكب حربية ومراكب تجاريه فنصب الافرنج المنجنيقات والدبابات وقاتلوا أشد قتال وصبرلهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر الا القليل ورأى الافرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم أما أهلها فانهم أرسلوا الى صلاح الدين وكان مقيما بفاقوس بواسطة الحمام يعلمونه بالخبر ويطلبون منه المساعدة لدفع العدو عنهم ودام القتال اول يوم وعاود الافرنج القتال في اليوم التالي ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قرب السور ووصل في ذلك اليوم من العساكر الاسلامية كل من كان في اقطاعه قريباً من الاسكندريه فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الافرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال حتى ظهرت لهم أمارات النصر ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل أهل البلد وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من ظفرهم وفشل الافرنج وفتور حربهم وكثرة القتل والجراح في العدو وأما صلاح الدين فلما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكا له ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها الى الاسكندريه مبشراً بوصوله وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها فسار ذلك

المملوك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعسكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا الى القتال وقد زال ما بهم من التعب وألم الجراح وكل منهم يظن ان صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين وعساكره فكلت أيديهم وازدادوا تعباً وفتوراً فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموها بما فيها من الاسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة وكثر القتل في رجالة الافرنج فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانيهم الى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب البعض وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الافرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلثمائة من فرسانهم على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى بكرة ودام القتال الى ان أضحى النهار فغلبهم اهل البلد وقهروهم فساروا بين قتيل وأسير ونهب المسلمون مالا يحصى وأقلعت باقي مراكب الاسطول في يوم الخميس اول محرم سنة ٥٧٠

﴿ واقعة الكنز وقتله ﴾

الكنز هو رجل مصري كان مقدماً على فرقة من الجيش وفي أول محرم سنة ٥٧٠ قام المذكور في الصعيد وجمع من كان في البلاد من العربان والعبيد وغيرهم خلق كثير وكان هناك أمير من الامراء الصلاحية أخ لحسام الدين أبو الهيجاء السمين ففتك به وبمن معه هناك فعظم قتله على أخيه وهو من اكبر الامراء وأشجعهم وطلب أخذ الثار وساعده سيف الدين (أخو صلاح الدين) وعز الدين موسك ابن خاله وعدة من أمرائه ورجاله وجاؤا الى مدينة طود فاحتمت عليهم فقاتلوا من فيها فظفروا بهم وقتلوا منهم كثيراً وذلوا بعد العز ثم قصدوا الكنز ورجاله وحاربوهم وقتلوا الكنز ومن معه من الاعراب والعبيد واطمأنت بعد قتله البلاد ولم يبق للدولة الصلاحية بعد كنزها كنز يفسد عليها بلادها وكان ذلك في شهر صفر سنة ٥٧٠

﴿ عزم صلاح الدين على المسير الى بلاد سوريا ﴾

بعد انقضاء واقعة الكنز وخلو الديار المصرية من الفتن بلغ صلاح الدين ان سيف الدين غازي بن قطب الدين سار وملك بلاد الجزيرة ولم يرسل من مع الملك

الصالح بن نور الدين من الامراء الى صلاح الدين ولا أعلموه بما كان فكتب الى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويمنعه وكتب الى الامراء يقول (ان الملك العادل لو علم ان فيكم من يقوم مقامي أو يثق اليه مثل ثقته بي لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لاقامني وصياً على ابنه وأرى انكم تحاولون اخراج يدي ولكني سأذهب الى دمشق بنفسي وأقدم عبوديتي الى هذا السلطان الجديد معترفاً بالافضال العظيمة التي حمانيها أبوه أما أنتم فسأعاملكم بمقتضي تصرف كل واحد منكم فاني أعتبركم قوماً تلقون القلاقل والفتن في البلاد) ثم ان صلاح الدين أقام خصيه بهاء الدين قراقوش حاكما على مصر في غيابه وتجهز للسفر الى البلاد السورية

﴿ حكم قراقوش وبناء القلعة والسور وغيرهم ﴾

لما عزم صلاح الدين على السفر الى سوريا وأقام بهاء الدين الاسدي قراقوش حاكما بمصر مدة غيابه وعهد اليه تدبير الاحكام وأمره ان يقيم البنايات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها ومنفعتها فأنفذ بهاء الدين ما عهد اليه بغيرة ونشاط وكانت جسور النيل قد أهمل شأنها منذ تولي الخلفاء الفاطميين فكان اذا فاض طفت مياهه على الاراضي وخربت الطرق وأفسدت الزرع فمهد الطرق واحتفر الترع وأقام الجسور والسدود واستخدم لذلك حجارة بعض الاهرام الصغيرة التي كانت تحيط باهرام الجيزه وغيرها من أبنية المصريين القدماء وأنشأ طريقاً تمتد طولا على ضفة النيل فتقيها من صدمات المياه وتسهل صلات العاصمة مع مصر العليا والسفلى وشاد فوق الترعة التي كانت تجري بين الجيزه واهرامها جسراً عظيما مؤلفاً من أربعين قنطرة لا يزال بعضها باقياً الآن

ولم يكن لصلاح الدين اذ ذاك مسكن الا القصران اللذان كانا مسكناً للخليفة والوزير السابقين ولم يكونا منيعين حق المنعة فجعلهما منزلا لضباط الحكومة وقواد الجيوش وشاد عند الطرف الشمالي من جبل المقطم على سفحه قلعة منيعة لارهاب الاهالي اذا حاولوا العصيان وجعل فيها قصراً لبلاطه وكان في ذلك المكان بناء قديم من عهد الدولة الطولونيه يعرف بقصر الهوى فهدمه وأقام القلعة على انقاضه وأتى بحجارتها من خرائب منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف على كل المدينة وليس في القاهرة بناء آخر أعز موقعاً منها وهي التي لا تزال باقية

الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل او قلعة القاهرة · وجعل قراقوش في القلعة بئراً نقراً في الصخر عميقاً جداً يسع كلما تحتاج اليه الحامية من الماء ولا يزال البئر والقصر الى هذه الساعة يعرفان باسمه فالبئر (يدعى ببئر يوسف) ويظن بعض العامة انه سمي هكذا نسبة الى يوسف الصديق ابن يعقوب والصحيح نسبته الى يوسف صلاح الدين الذي أمر باحتفاره والمظنون ان هـذه البئر كانت محفورة من أيام قدماء المصريين ثم طمرت بالرمال فاعاد صلاح الدين حفرها وتسمى أيضاً بالحلزون وما بقي من القصر يعرف بديوان يوسف أو ديوان صلاح الدين · وابتنى قراقوش أيضاً حواصل كبيرة في الفسطاط (مصر القديمة) لخزن الحاصلات التي ترد من الاقاليم سنوياً ولا تزال تدعى الى يومنا هذا بمخازن يوسف وقد ظن بعض المتفرجين والعامة انها من بناء فرعون في أيام يوسف الصديق · وبعد ان فرغ قراقوش من اصلاح الترع والخلجان والطرق وبناء القلعة أخذ يهتم باتمام سور القاهرة وكان صلاح الدين ابتدأ بعمارته سنة ٥٦٦ وهو يومئذ على وزارة العاضد فعمل له قراقوش رسما عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاط وقصر الشمع وما بينها من الارض الا انه استعظم بناءه بهذا الاتساع فجعله محيطاً بالقاهرة والقلعة فقط واضطر لقيام مشروعه هذا ان يهدم جوامع وبيوتاً وقبوراً كثيرة كانت قائمة في مكان السور ولم يكن الاهالي معتادين على الاذعان لاوامر صلاح الدين كسلطان وكان بعضهم لا يزال متشيعاً للدولة الفاطمية فاتهموه بالاستبداد ولقبوا بهاء الدين بقراقوش أي الطير الاسود وهو العقاب ولا يزال بعض عامة الشرقيين يصفون هذا الاسم بالاستبداد والعسف وينسبون اليه أحكاماً عجيبة في ولايته حتى ان الاسعد بن مماتي له كتاب لطيف سماه الفاشوش في أحكام قراقوش وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه والظاهر انها موضوعة لان صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ولولا وثوقه بمعرفته وكفاءته ما فوضها اليه وكان قراقوش رجلا سعيداً وصاحب همة عالية ·

وهذه هي المرة الثالثة لبناء سور القاهرة ففي المرة الاولى بناه جوهر وفي الثانية بناه أمير الجيوش وفي الثالثة قراقوش بامر صلاح الدين فزاد فيه قطعة من باب القنطرة الى باب الشعريه ومن باب الشعرية الى باب البحر وبنى قلعة المقس وهي برج كبير جعله على النيل بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع أولاد عنان وهو خارج باب البحر على يسار الذاهب من الشارع الجديد الى محطة السكة الحديد

وانقطع السور من هناك . وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة الى البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة وجاء طول هذا السور المحيط بالقاهرة ٢٩٣٠٢ بالذراع الهاشمي . وقلعة المقس المذكورة كانت برجاً مطلا على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عند ما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٧ هجريه وجعل في مكان البرج المذكور جنينة . وحفر بهاء الدين خارج السور خندقاً جعله من باب الفتوح الى المقس ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر الى باب البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بأبراج مبنية بالحجارة الا ان هذا السور الثاني هدم جميعه والخندق ردم الا في بعض الاماكن

﴿ مسير الملك الناصر صلاح الدين الى سوريا واستيلاءه على دمشق وغيرها ﴾

بعد تولية قراقوش حكم مصر سار صلاح الدين قاصداً سوريا فخرج الى البركة في مستهل صفر سنة ٥٧٠ وأقام حتى اجتمع العسكر ثم رحل الى بلبيس في ١٣ ربيع اول وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى وشمس الدين بن المقدم عنده تستورى في الحث والبعث زنده وتستقدمه وجنده وسار مجداً حتى أناخ على بصرى فاستقبله صاحبها وشد ازره وسار صلاح الدين في آخر شهر ربيع الاول الى ان وصل الى دمشق ودخلها وكان يظن عكس ذلك ودخل الى دار العقيقي مسكن أبيه وبقي في قلعة دمشق جمال الدين ريحان الخادم بدون تسليم فراسله حتى استماله بالمال وتملك المدينة والقلعة ونزل بالقلعة سيف الاسلام اخو صلاح الدين وأظهر انه جاء لتربية الملك الصالح وحفظ ماله وبلاده وتدبير ملكه فهو أحق بصيانة حقه واجتمع به أعيانها وفرق فيهم المال وخطب للملك الصالح ومدحه وحيش الاسدي بقصيدة اولها

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا ... فكن لاضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد ... أدنى فريسته الايام ان وثبا
رأيت جلق ثغراً لا نظير له ... فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها ... وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد ... أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا

ويوم دمياط والاسكندرية قد أصارهم مثلا في الارض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست آثاره وعفت آياته حقبا

ولما اتصل بمن في حلب دخول الملك الناصر دمشق وميل الناس اليه خافوا منه وأجمعوا على مراسلته وارسلوا اليه قطب الدين ينال بن حسان برسالة ارعدوا فيها وقالوا له (هذه السيوف التي ملكتك مصر بايدينا والرماح التي حويت بها قصور المصريين على اكتافنا والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك وأنت فقد تعديت طورك وتجاوزت حدك وأنت أحد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده) ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان تلقاه بموكبه وبنفسه وبالغ في اكرامه ثم أحضره بعد ثلاثة أيام لسماع الرسالة منه فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة وقعقع بتلك التمويهات العاطلة لم يعره صلاح الدين طرفاً ولا سمعاً وضرب عنه صفحاً وتغاضيا وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له (يا هذا اعلم انى وصلت الى الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الامور وحياطة الجمهور وسد الثغور وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين) فقال له ابن حسان انك انما حضرت لاخذ الملك لنفسك ونحن لا نطاوعك على ذلك ودون ما ترومه خرط القتاد وايتام الاولاد فلم يلتفت لمقاله واوحى الى رجاله باقامته من بين يديه ونادي في عساكره الاستعداد بقصد الشام الاسفل ورحل متوجهاً الى حمص فتسلمها وقاتل قلعتها ولم ير تضييع الزمان عليها فوكل بها من يحصرها ورحل الى جهة حماه فلما وصل الى الرستن خرج صاحبها عز الدين جرديك وأمر من فيها من العساكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع اوامره وسار جرديك حتى لقي صلاح الدين واجتمع به بالرستن وأقام عنده يوماً وليلة وظهر من نتيجة اجتماعه به انه سلم اليه مدينة حماه وسأله ان يكون السفير بينه وبين من بحلب فاجابه الى ذلك فلما وصل حلب اجتمع بالامراء والملك الصالح واشار عليهم بمصالحة الملك الناصر فاتهمه الامراء بالمخامرة وردوا مشورته واشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح واحج سعد الدين كمشتكين في القبض عليه فغل بالحديد وحمل الى الجب الذي فيه اولاد الداية ولما دلوه الى الجب وأحس به أولاد الداية قام اليه منهم حسن وشتمه أقبح شتم وحلف بالله ان انزل اليهم ليقتلنه فامتنعوا من تدليته وأعلموا سعد الدين كمشتكين فحضر الى الجب وصاح على حسن وشتمه وتوعده فسكن حسن وانزل جرديك الجب . ولم يزل صلاح الدين مقيما على الرستن ثم طال عليه الامر

فسار الى جباب التركمان فلقيه أحد غلمان جرديك وأخبره بما جري لسيده من الاعتقال والقهر فرحل صلاح الدين من ساعته عائداً الى حماه وطلب من أخي جرديك تسليم حماه اليه وأخبره بما جرى على أخيه ففعل وولاها لاحد امرائه مبارز الدين علي بن أبي الفوارس وذلك مستهل جمادي الآخرة وسار صلاح الدين الى حلب ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة في ثالث الشهر وامتدت عساكره الى الحناقية والى السعدى فلما رأى من بحلب عساكر صلاح الدين خافوا من الحلبيين ان يسلموا البلد كما فعل اهـل دمشق فاشاروا على الملك الصالح ان يجمعهم في الميـدان ويخاطبهم بنفسه فامر ان ينادي باجتماع الناس الى ميـدان باب العراق فاجتمعوا فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم يا أهل حلب انا وبيكم ونزيلكم واللاجئ اليكم كبيركم عندي بمنزلة الاب وشابكم بمنزلة الاخ وصغيركم عندي يحل محل الولد وخنقته العبرة وسبقته الدمعة فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء والعويل وقالوا نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك ونبذل اموالنا وانفسنا لك ٠ وأرسل صلاح الدين الى حلب رسولا يطلب الصلح فامتنع كمشكين فاشتد صلاح الدين في قتال البلد ٠ واجتمع الامراء بالملك الصالح ليدبروا الحيل في قتل صلاح الدين فاجمعوا اراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية ومقدمهم ليرسل من يفتك بصلاح لدين وضمنوا له على ذلك اموالا جمة وعدة من القرى فارسل سنان جماعة من اصحابه الفتاكين فجاؤا الى جبل جوشن واختلطوا بالعساكر فعرفهم الامير ناصح الدين خمارتكين صاحب بوقبيس لانه كان مشاعراً لهم فقال لهم ياويلكم كيف تجاسرتم على الوصول فقتلوه خوفاً من غائلته وجاء قوم للدفاع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض ووثب احد الاسماعيليه وبيده سكينة مشهورة ليقتل السلطان في خيمته فلما صار الى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله وطلب الباقين فقتلوا بعدان قتلوا جماعة ولما يئس من بحلب من هذه الحيلة راسلوا رايموند صاحب طرابلس ونائب الملك بودوين الرابع وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل صلاح الدين عن حلب فارسل رايموند الى صلاح الدين في أمر الحلبيين وأخبره ان الصليبيين تعاضدوا وصاروا يداً واحدة فقال صلاح الدين لست ممن يرهب تألب الصليبيين وها أنا سائر اليهم ثم أنهض قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكية فغنموا غنيمة حسنة وعادوا فقصد رايموند جهة حمص فرحل صلاح الدين من حلب اليها فسمع رايموند فنكص

راجعاً الى بلاده وحصل الغرض من رحيل صلاح الدين عن حلب ووصل الى حمص فتسلم القلعة ورتب فيها والياً من قبله وقال العماد في فتح حمص من قصيدة طويلة

اياب بن أيوب نحو الشآ م على كل ما يرتجيه ظهور
بيوسف مصر وأيامه تقر العيون وتشفي الصدور
وأنت منك حمص لها كافيا فوافاك منها القوي العسير

ثم سار صلاح الدين الى ان وصل الى بعلبك وكان فيها والي يقال له يمن فلما شاهد كثرة عساكر صلاح الدين اضطرب في أمره وراسل من بحلب على جناح طائر فلم يرجع اليه منهم خبر فطلب الامان وسلم بعلبك الى صلاح الدين في رابع رمضان وعاد الى حمص

﴿ في استقلال صلاح الدين بالملك وسلطنته ﴾

كان امراء حلب قد راسلوا سيف الدين صاحب الموصل يطلبون منه نجدة ابن عمه الملك الصالح فارسل لهم جيشاً كبيراً بقيادة أخيه عز الدين مسعود فوصل الى حلب بعد رحيل صلاح الدين عنها فخرجت معه عساكر حلب جميعها وساروا الى ان وصلوا حماه وحاصروها فلما علم صلاح الدين سار بفرقة من جيشه فتأخرت عساكر الموصل وحلب الى قرون حماه وراسلوا صلاح الدين في الصلح فاجابهم فطلبوا منه تسليم جميع القلع والحصون وانه يقتنع بدمشق وحدها نائباً فيها عن الملك الصالح فاجاب فلما رأوه قد أجابهم طمعوا فيه وقالوا لابد من المصاف ظناً منهم انه لكثرتهم وقلته يغلبونه وساروا يناوشونه القتال الى ان وصلت العساكر المصرية بقيادة تقي الدين عمر وقام المصاف بين العسكرين فانكسرت العساكر الحلبية والموصلية وانهزموا وتبعتهم عساكر صلاح الدين واستباحوا أموالهم وخيامهم وأسروا منهم جماعة وأمر صلاح الدين عساكره ان لا يوغلوا في طلبهم ولا يقتلوا من رأوه منهزماً ثم رحل حتى نزل بمرج قرأ حصار ولم يزل هناك حتى عيد الفطر فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وان يقر الملك الصالح على ما في يده وما هو جار تحت حكمه من الشام الاسفل الى بلد حماه فلم يرض بذلك فجعلوا له مع حماه المعرة وكفر طاب فرضي بذلك وحلف لهم على ذلك وعاد ثم رأى صلاح الدين قوآته وانه لا يمكن أحد يعارضه في شئ مما طالما تمناه من استقلاله بالملك فصرح بسلطانه على مصر والشام ولما وصل الى حماه وصلت اليه رسل

الخليفة المستضيء العباسي ومعهم التشريفات الجليلة والاعلام السود وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام وفي ذلك يقول ابن سعدان الحلبي

يا أيها الملك العزيز فضله　　لقد غدوت بالعلى مليا
كفى أمير المؤمنين شرفاً　　أنك أصبحت له وليا
طارحك الود على شحط النوى　　فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من لباسه زخرفة　　لم يولها قبلك أدميا
ناسبت الروض سنا وبهجة　　حتى حكته رونقاً وريا

ثم سار السلطان صلاح الدين الى حصن بعرين وحاصره حتى تسلمه

﴿ حرب السلطان مع المواصلة وهدنة الصليبيين ﴾

لما دخلت سنة ٥٧١ والسلطان نازل بمرج الصفر من أعمال دمشق جاءه رسول الصليبيين بطلب الهدنة فاجابه السلطان على ذلك بعد ان اشترط عليهم أموراً التزموها وأصاب الشام في ذلك العام جدب فاذن السلطان للعساكر المصرية بالرحيل الى بلادهم ولما علم سيف الدين صاحب الموصل بما جرى بين السلطان والحلبيين عتب عليهم ووبخهم ونسبهم الى العجلة وأنفذ من أخذ على الحلبيين المواثيق بنقض العهد ثم توجه ذلك الرسول الى دمشق ليأخذ من السلطان العهد القديم فلما خلا به طالبه السلطان بنسخة العهد (أي الذي تعاهدوا عليه) في السنة الماضية فغلط الرسول وأخرج نسخة يمين الحلبيين لهم فتأملها وأطلع على ما اتفقوا عليه من نقض العهد فردها اليه وقال لعلها قد تبدلت فعرف الرسول انه قد غلط وقال السلطان كيف حلف الحلبيون للموصليين ومن شرط ايمانهم انهم لا يعتمدون الا بمراجعتهم ايانا واستئذاننا ثم شاع خبر خروج الموصليين في الربيع فارسل الى أخيه العادل بمصر يعلمه بذلك ويأمره ان يأمر العساكر بالاستعداد والخروج في شعبان وكتب الى الخليفة ببغداد يعلمه بما جرى من الموصليين والحلبيين ونقضهم العهد وانه الآن بين عدوين عدو متظاهر بالاسلام وهم المذكورون وعدو آخر وهم الصليبيون وطلب منه ان يأمر ملوك الاطراف بمساعدته على الصليبيين أما سيف الدين فانه قصد حلب واجتمع بالملك الصالح ثم سار الى ان وصل الى تل السلطان ومعه جمع كثير وأهل ديار بكر وكانت العساكر المصرية قد وصلت فسار بها السلطان حتى أتى قرون حماه فبلغهم انه قد قارب عسكرهم فاخرجوا اليزك وتعبوا تعبية القتال

وأصبح القوم على مصاف وذلك يوم الخميس عشرة شوال فالتقى العسكران وتصادما وجرى قتال عظيم وحمل السلطان بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الامراء منهم الامير فخر الدين عبد المسيح فمنّ عليهم وأطلقهم وعاد سيف الدين الى حلب ووكل السلطان ابن أخيه عز الدين فرخشاه بسرادق سيف الدين ثم أمر السلطان بالكف عن باقي العساكر وتسلم مافي السرادق من الاموال وما يتبعه من الاصطبلات وفرق جميع ذلك على عسكره ورأى في السرادق طيوراً من القماري والبلابل والهزار والببغاء في الاقفاص فاستدعى مظفر الاقرع أحد الندماء وقال خذ هذه الاقفاص واذهب بها الى سيف الدين وقل له عد الى اللعب بهذه الطيور فهي سليمة لاتوقعك في مثل هذا المحذور وانها ألذ من مقاساة الحروب . ثم نزل السلطان على حصن بزاغه وتسلمه في ٢٢ شوال وفتح منبج في ٢٩ منه وكان فيها الامير قطب الدين ينال ابن حسان فاخرجه منها وتسلم جميع مابها من الخزائن والذخائر ومن جملة أموالها ٣٠٠ الف دينار ومن الفضة والآنية الذهبية والاسلحة والذخائر ما يناهز الفي الف دينار وحانت من السلطان التفاتة فرأى مكتوباً على الاكياس والآنيه اسم يوسف فسأل عن هذا الاسم فقيل له كان ولد يحبه اسمه يوسف ويدخر هذه الاموال له فقال السلطان انا يوسف وقد أخذت ماخبئ لي فتعجب الناس من ذلك ثم نزل على عزاز نصب عليها عدة منجانيقات وجد في القتال فتسلمها حادي عشر ذي الحجه بعد حصارها ٣٨ يوماً وقال العماد قصيدة منها

أعطاه رب العالمين دولة عزت أهل الدين في إعزازها
حاز العلى ببأسه وجوده وهو أحق الخلق باحتيازها
بجده أفنى كنوزاً فنى الـ ـملوك في الجد على اكتنازها
مهلك أهل الشرك طراً رومها أو منها افرنجها ابخازها
تفاخر الاسلام من سلطانه تفاخر الفرس باراوازها

﴿ ماجرى للسلطان مع الحشيشين ﴾

في حادي عشر ذي القعده بينما كان السلطان محاصراً اعزاز وجالساً في خيمة الامير جاولي الاسدي قريباً من المنجنيقات اذ وثب عليه احد الحشيشية أو الاسماعيلية فضرب رأسه بسكين فمنعته الزرديه لانه كان دائماً متخوفاً من هؤلاء الملاعين فلم

تؤثر ضربة الحشيشي شيئاً وأحس بصفائح الحديد على رأس السلطان فمد يده بالسكينة الى خده فخدشه فثبت جأش السلطان وقبض على رأس الحشيشي وجذبه ووقع عليه وادركه سيف الدين بازكوج وقتل الحشيشي وجاء حشيشي آخر فاعترضه الامير داود بن منكلان فمنعه وجرحه الحشيشي في جنبه ومات بعدأيام وجاء آخر فعانقه الامير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت ابطيه وبقيت يد الحشيشي من ورائه لايتمكن من الضرب فصاح الامير علي اقتلوني انا واياه فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الحشيشي بسيفه ومازال يخضخض فيه حتى مات ونجا علي بن أبي الفوارس وخرج حشيشى آخر منهزماً فقابله شهاب الدين الحارمي خال السلطان فتزحزح الحشيشي عن طريقه فقصده اصحابه وقطعوه بالسيوف أما السلطان فسار الى خيمته فهاج العسكر وماج فاضطر السلطان للركوب والخروج ايراه جميع العسكر فسكن هياجهم وكان سبب ذلك ان أهل حلب خافوا من السلطان فارسلوا الى سنان رئيس الاسماعيليين مرة ثانية وطلبوا منه قتل السلطان ووعدوه كما فعلوا أولا فارسل اربعة من اعاظم رجاله فتزيوا بزي عساكر السلطان واندسوا بينهم وهو محاصر عزاز وحاربوا مع عساكره واظهروا بسالة عظيمة ثم حصل منهم ماتقدم وقتلوا

﴿استيلاء تورانشاه على حضرموت واستيلاء قراقوش على بعض بلاد المغرب﴾

في سنة ٥٧١ سار شمس الدولة تورانشاه الى بلاد حضرموت ففتحها واستناب عنه بها رجلا كردياً يسمي هارون ثم ولى ثغر تعز مملوكه ياقوت وجعل اليه امر الجند وولى قلعة بعكر مملوكه قايماز ثم سار قاصداً سوريا فوصلها ولحق باخيه وهو يحارب سيف الدين صاحب الموصل فكانت له اليد البيضاء في ذلك • وبلغ قراقوش بان قلعة ازبري هي بوغاز المغرب وكانت خراباً • فاشير عليه بعمارتها وقيل له متى عمرت وسكنها جنود اقوياء شجعان ملكت برقة واذا ملكت برقة ملكت ماوراءها فسار بهاء الدين قراقوش ومعه جماعة من اجناده ومماليكه الى القلعة وشرعوا في عمارتها واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدثه عن بلاد المغرب وذكر له كثرة خيرها وغزارة أموالها وضعف أهلها ورغبه في دخولها فاخذ جماعة من اصحابه وسار في حادي عشر المحرم من هذه السنة فكان يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام فاشرف على مدينة أوجلة فالقيه صاحبها واكرمه واحترمه وسأله المقام

عنده ليتعضد به ويزوجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون الف دينار فاخذ عشرة آلاف لنفسه وفرق على رجاله عشرين الف دينار وكان الى جانب أوجلة مدينة يقال لها مدينة الأزراقيه فبلغ اهلها صنيع قراقوش في أوجلة وانه حرس غلالهم فساروا اليه ووصفوا له بلادهم وكثرة خيره وطيب هوائه ورغبوه في المسير اليهم على أنهم يملكونه عليهم فاجاب سؤلهم واستخلف على أوجلة رجلا من اصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من اصحابه فحصل لقراقوش اموال كثيرة واتفق ان صاحب أوجلة مات فقتل اهل أوجلة اصحاب قراقوش فجاء قراقوش وحاصرها وفتحها عنوة وقتل من اهلها سبعمائة رجل وغنم اصحابه منها غنيمة عظيمة واستولى على البلد ثم ان اصحابه طلبوا العود الى مصر وخشي قراقوش الاقامه وحده فرجع معهم

﴿ حصار حلب وحرب الاسماعيليه ﴾

لما فرغ السلطان من حرب عزاز سار قاصدا حلب فحاصرها وضرب خيمته على رأس الياروقية فوق جبل جوشن ودخلت سنة ٥٧٢ والسلطان مشدد حصارها فرأى أهل حلب ان لا طاقة لهم به قد خلوا من باب التذلل وطلبوا الصلح فاجابهم وعفى عنهم وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها وأرسل الملك الصالح الى السلطان أخته خاتون وهي صغيرة فوقف اجلالا لها قائما وقبل الارض وبكى على والدها نور الدين فسألته ان يرد عليهم عزاز فقال سمعاً وطاعة فاعطاها اياها وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً واتفق مع الملك الصالح ان يكون للسلطان من حماه وما فتحه الى مصر وان يطلق الملك الصالح أولاد الداية وكان الصلح عاماً لحلب والموصل وديار بكر وبعد ذلك تذكر السلطان ثاره عند الاسماعيليه وكيف رموه بتلك البلية فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصياث ونصب عليه المنجنيقات الكبار وأوسعهم قتلا وأسراً وساق أبقارهم وخرب ديارهم وهدم أعمارهم وهتك أستارهم حتى تشفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي صاحب حماه وكانوا قد راسلوه في ذلك لانهم جيرانه فرحل عنهم وقد انتقم منهم وكان الصليبيون قد أغاروا على البقاع فخرج اليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وهو متولي بعلبك فحاربهم وقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير وأحضرهم الى السلطان وهو محاصر مصياث فجدد شوقه لغزو الصليبيين وكان هذا من دواعي مصالحة سنان وعاد الى دمشق وكان شمس الدولة قد خرج منها

لمحاربة الصليبيين ايضاً عند ما بلغه خبر خروجهم لانشغال السلطان بمحاربة حلب وغيرها فحاربهم عند عين الجر في تلك المروج فلم يقو عليهم ووقع من أصحابه عدة في الاسر فبلغ ذلك السلطان فارسل اليه جنوداً مصرية فارجعوا الصليبيين على أعقابهم وعاد شمس الدولة الى دمشق وتقابل مع السلطان وفوض السلطان اليه دمشق ليكون امام الصليبيين وعاد هو الى مصر وكان خروجه من دمشق في يوم الجمعة ٤ ربيع اول فوصل القاهرة يوم السبت ١٦ منه

﴿ تقوية اسطول مصر وبعض فتوحات ﴾

بعد رجوع السلطان الى مصر أعجبه حسن تنظيمها وسافر منها في شعبان الى دمياط لتفقدها ومنها الى اسكندريه وهناك عرض عليه الاسطول المصري فوجد مراكبه قد لحقها ضرر كثير فامر باصلاحها وتقويتها وجعل لها ديواناً مخصوصاً (يشابه البحرية) واقام عليه احد الامراء وكتب الى جميع الثغور بان يكون الامر امر قائد الاسطول وله ان يأخذ مايحتاج من العساكر والمال وكان ذلك في رمضان فرجع الى القاهره واما بهاء الدين قراقوش فانه سافر الى أوجلة وفتح بلاد فزان باسرها وخرج السلطان من القاهره قاصداً اعمال الشرقية فاقام ببرج فاقوس وهو يركب الى الصيد والقنص والتطلع لاحوال الصليبيين وفي أثناء ذلك بينما السلطان قدعزم على محاربة الصليبيين بغزه اذ وصلت اساطيل ثغري دمياط واسكندريه باسرى الافرنج وقد اربوا على الالف ففرح السلطان بهذا الانتصار

﴿ حرب السلطان مع الصليبيين وواقعة الرملة ﴾

في شهر جمادي الاولى سنة ٥٧٣ سار السلطان بعساكره قاصداً بلاد الافرنج فوصل الى مدينة عسقلان في يوم الاربعاء ٢٩ منه فحارب الصليبيين وكسرهم وأخذ أكثرهم أسرى وتفرق عسكره في الاعمال مغيرين وميدين آمنين من طوارق الحدثان فلما رأوا ان الصليبيين خامدون استرسلوا وتوسط السلطان البلاد واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادي الآخرة بالرملة قاصداً بعض المعاقل فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت العساكر للعبور وكان بودوين الرابع ملك القدس قد بلغه خروج السلطان صلاح الدين قاصداً عسقلان فسار بعساكره وعساكر الجمعيات الرهبانيين فاخذوا طريق شط البحر وأخفوا مسيرهم السريع بكثبان الرمل الى ان وصلوا الى عسقلان بدون علم السلطان صلاح الدين ولما

كانت عساكره مزدحمة على عبور النهر اذ فاجأته العساكر الصليبية بغتة وسرايا المسلمين في القرى مغيرة فوقف الملك المظفر تقي الدين ونازلهم الحرب فاستشهد من أصحابه عدة من الكرام وكان لتقي الدين ولد اسمه أحمد قد طرشاربه فاستشهد أيضاً بعد ما قتل من الصليبيين كثيرين وكان له ولد آخر اسمه شاهنشاه قد أسر بيد الصليبيين بحيلة عملها معه أرمني بدمشق ثم سلمه الى جمعية الهيكليين الرهبانية وتفرقت العساكر الاسلامية بالصحراء وحمل الصليبيون على السلطان فثبت ووقف ومعه من الامراء ابراهيم بن قنابر وفضل الفيضي وسويد ابن غشم المصري وصار السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن انه تخلف أحد من العساكر ودخل الليل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل وقد تعسفوا السلوك في تلك الرمال وبقوا أياماً وليالي بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا الى الديار ووقع في الاسر كثير من المسلمين منهم الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير وقد انتهت هذه الواقعة بظفر الصليبيين

﴿ محاربة الصليبيين حماه وحارم ورجوعهم الى بلادهم ﴾

وصل في سنة ٥٧٣ الى ساحل سوريا من البحر ملك يقال له اقلندس وكان يعتقد خلو الشام من حامية فاجتمع بالصليبيين واتحدوا وساروا الى حماه في ٢٠ جمادي الاولى وكان صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي مريضاً وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب بالقرب منها فدخلها وخرج للحرب وتقاتل مع الصليبيين قتالا شديداً انتهى بكسرهم ورحيلهم عنها بعد حصارهم أربعة أيام ولما قتل من الصليبيين مايزيد عن الف فارس انهزموا من حماه ونزلوا على حصن حارم فخرج اليهم الملك الصالح وكانت حارم تابعة كمشتكين فطلب أخذها فابوا تسليمها اليه ولما حاصرها الصليبيون جاء الملك الصالح لمحاربتهم وأقام الحصار من ابتدا شهر جمادي الآخرة فلما رأى أهل القلعة الخطر المحدق بهم من الصليبيين سلموها الى الملك الصالح في العشر الآخر من شهر رمضان وما اتصل ذلك بالصليبيين حتى رحلوا عنها عائدين الى بلادهم وعاد الملك الصالح الى حلب

واجتمع قسم من الصليبيين وقصدوا أعمال حمص فنهبوها وغنموا وأسروا وسبوا فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم وكمن لهم في الطريق فلما وصلوا اليه خرج عليهم من كمينه ووضع السيف فيهم فقتل أكثرهم وأسر جماعة من مقدميهم ومن سلم منهم لم يفلت الا وهو مثخن بالجراح واسترد منهم جميع ما غنموه فرده على أصحابه وكان ذلك في سنة ٥٧٣

﴿ مسير السلطان صلاح الدين الى سوريا ومحاربة الصليبيين ﴾

في شوال سنة ٥٧٣ سار السلطان صلاح الدين قاصداً سوريا فنزل دمشق وأخذ ينتقل من بلد الى أخر متفقداً القلاع والحصون وفي شهر ربيع أول سنة ٥٧٤ سار جمع كثير من الصليبين الى مدينة حماه وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغنيمة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيم بحماه سار اليهم فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فانهزم الصليبيون وكثر القتل والاسر فيهم واسترد منهم ما غنموه وكان صلاح الدين نازلا بظاهر حمص فحملت الرؤوس والاسرى والاسلاب اليه فامر بقتل الاسرى . وفي شهر القعدة سار الملك بودوين الرابع بجيشه الى دمشق فاغار على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا فارسل السلطان عز الدين فرخشاه في جمع من العسكر اليهم وأمره اذا قاربهم يرسل اليه يخبره على جناح الطائر ليسير اليه وتقدم اليه ان يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدي الصليبيين فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم فلم يشعر الا والصليبيون قد خالطوه فاضطر الى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس والقى فرخشاه نفسه عليهم وغشي الحرب ولم يكلها الى سواه فانهزم الصليبيون ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفري وغيره ولم يزد عدد عساكر فرخشاه على الفي فارس . وفي هذه السنة أغار البرنس رانود دي شاتيلون على جمع من التركمان فاجحف باموالهم وكان صلاح الدين على حصن بانياس فسير اليه ولد أخيه تقي الدين عمر الى حماه وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو

﴿ محاربة الصليبيين بمرج عيون وانتصار الاسطول المصري ﴾

في ثاني محرم سنة ٥٧٥ جاء الخبر الى السلطان بان الصليبيين قد خرجوا فالتقاهم وتقاتلوا قتالا شديداً وانتصر المسلمون على الصليبيين وأسرت فرسانهم وشجعانهم وانهزمت رجالهم في أول اللقاء فكان من جملة الاسرى مقدم جمعية الهيكليين الرهبانية ومقدم جمعية القديس يوحنا المعمدان وصاحب طبريه وأخو صاحب جبيل وابن بارزان صاحب الرملة وقسطلان يافا وابن صاحب مرقية وكثير من خيالة القدس وعكا وغيرهم من المقدمين الاكابر ما زاد عن مائتين ونيف وسبعين ثم عرضوا الاسرى على السلطان فامر بنقلهم الى دمشق ومات مقدم جمعية الهيكليين

فطلب الصليبيون جثته فافدوها باسير مسلم وطال أسر الآخرين فنهم من افتدى بمال وأطلق ومنهم من مات ومنهم من بقي مسجونا وهذه الواقعة كانت في مرج عيون وكانت عدة الصليبيين عشرة آلاف فارس وانهزم ملكهم مجروحا وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الواقعة بلاء حسن ومن أحسن ما اتفق انه في اليوم الذي كسر فيه الصليبيين بمرج عيون ظفر الاسطول المصري ببطسة كبيرة فاستولى عليها وعلى أخرى وعاد الى الثغر مستصحباً الف رأس من السبي فما أقرب ما النصرين في المصرين وانظر كيف عم النصر وتساوى في البر والبحر

﴿ تخريب حصن بيت الاحزان ﴾

كان الصليبيون قد بنوا حصناً عند مخاضة بيت الاحزان سموه بحصن بيت الاحزان فلما بلغ خبره الى السلطان أشار عليه الامراء بمخابرتهم في هدمه لان بقاء هذا الحصن يضر بالمسلمين كثيراً فارسل السلطان الى الصليبيين يطلب منهم هدم الحصن فقالوا لا نهدمه الا اذا أعطانا تكاليفه وكان هذا الحصن لجمعية الهيكليين الرهبانية فجعل لهم السلطان ستين الف دينار فابوا فزادهم الى ان جعل المبلغ مائة الف دينار فابوا فقال تقي الدين عمر للسلطان الاحسن ان تصرف هذا المبلغ في العساكر وهم يهدمونه بالقوة فسار السلطان بجيشه الي ان وصل الى المخاضة في يوم السبت ١٩ ربيع أول سنة ٥٧٥ فخيم بالقرب منها وضاق ذلك المرج عن العساكر واحتاج الي نصب ستاير فركب السلطان بكرة الاحد ٢٠ منه الي ضياع صفد وكانت قلعة صفد يومئذ للداويه وهي الجمعية المذكورة فأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها فأخذ كل ما احتاج اليه ورجع بعد الظهر ورجعوا الي الحصن بعد العصر فما أمسى المساء الا وهم قد استولوا على الباشوره وانتقلوا بكليتهم اليها وباتوا طول الليل يحرسون وخافوا ان يفتح الصليبيون الابواب ويغيروا عليهم على غرة منهم واذا بالصليبيين قد اوقدوا النار خلف كل باب ليأمنوا من المسلمين اغتراراً فاطمأن المسلمون وقالوا ما بقي الا نقب البرج ففرقه السلطان على الامراء فأخذ فرخشاه الجانب القبلي وأخذ السلطان الجانب الشمالي وقصد ناصر الدين شيركوه بقربه نقباً وكذلك تقي الدين وكل كبير في الدولة جعل له قسما وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه لكن ما انقضى يوم الاحد الا وقد تم نقب السلطان وعلق وحشي بالحطب ليلة الاثنين وحرق وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاثة اذرع وكان عرض السور تسع اذرع فما تأثر بذلك فاحتاج السلطان صبيحة

يوم الاثنين الى اطفاء النيران ليتم نقبه وقال من جاء بقربة ماء فله دينار فكانت الناس للقرب حاملين ولاوعية الماء ناقلين حتى اغرقوا تلك الثقوب فخمدت فعاد نقابوها وقد بردت فخرقوه وعمقوه وفتحوه وشقوا احجره وفلقوه ثم حشوه وعلقوه واستظهروا فيه يوم الثلاث والاربعا ثم أحرقوه واشتدا لحرص عليه لان الخبر اتاهم بان الصليبيين قد اجتمعوا بطبريه في جمع كثير فلما اصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر وتعالى النهار انقض الجدار واستبشر المسلمون وكان الصليبيون قد جمعوا وراء ذلك الموضع المتداعي حطباً فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم فاجتمعوا الى الجانب البعيد من النار وطلبوا الامان فلما خمدت النار دخل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا مائه الف قطعة من الحديد من جميع انواع الاسلحة وشيئاً كثيراً من الاقوات وغيرها وجيء بالاسارى الى السلطان فمن كان مرتدياً او رامياً ضربت عنقه وأكثر من أسر قتله المتطوعون في الطريق وكان عدد الاسارى نحو ٧٠٠ وخلص من الاسر اكثر من مائة مسلم وسير باقي الاسارى الى دمشق وأقام السلطان في منزلته حتى هدموا الحصن الى الاساس وكان الصليبيون قد حفروا في وسطه جب ماء معين فامر السلطان برمي القتلى فيه وكان عند السلطان رسول من رايمونذ قمص طرابلس وهو يشاهد بلية قومه وأهل ملته ومدة مقام السلطان على الحصن في ايام فتحه وبعدها حتى دكها اربعة عشر يوماً وبعد ذلك سار السلطان الى أعمال طبريه وصور وبيروت وغيرها فاغار عليها وأرجف قلوبهم بوصوله اليها ثم رجع الى دمشق ومرض جماعة من الامراء المسلمين لان الحر كان شديداً وأنتنت الجثث فتفشى الوباء وتوفي أكثر من عشرة أمراء

﴿ محاربة الاسطول المصري ميناء عكا ﴾

سار الاسطول المصري يغزو بلاد الصليبيين ومراكبهم وكانت قوة الاسطول قد زادت في هذه السنة واستخدم فيه عساكر بحرية مغربية ممن سبق لهم غزو الافرنج وكذلك رجالة المصريين الاقوياء المعروفين بالشهامة والقوة ومراكبه كانت كنائن الا انها تمرق مروق السهام ورواكد هي مدائن الا انها تمر مر السحاب غير الجهام فلا أعجب ان تسمى غرباناً وتنشر من ضلوعها أجنحة الحمام وتسمى جواري وكم يسر مجراها من النصر فوصلت في الاحد حادي عشر جمادي الاولى سنة ٥٧٥ ميناء عكا وكانت مملوءة بمراكب الصليبيين ومراكب التجارة فاستولى

الاسطول على عدة من المراكب تحطيما وتكسيراً وأخلى الميناء من الباقي وهذا مما لم يعهد من اسطول اسلامي في سالف الدهر ومما يذكر ان عساكر الاسطول قتلوا بعض رجال قامة عكا رمياً بالسهام من بعد كبير

﴿ وفاة المستضيء بامر الله وخلافة الناصر لدين الله ﴾

في ثاني ذي القعده سنة ٥٧٥ توفي الامام المستضيء بامر الله أمير المؤمنين ابو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضي الله عنه وأمه أم ولد ارمنيه تدعى غضه وكانت خلافته تسع سنين وستة اشهر وواحداً وعشرين يوماً وكان عادلا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للاموال والناس معه في أمن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفو والصفح عن المذنبين فقد كانت أيامه كما قيل

كأن أيامه من حسن سيرته   مواسم الحج والاعياد والجمع

ثم اخذت البيعة لولده الناصر لدين الله فبايعه أخوه الامير ابو منصور هاشم ثم بنو أعمامه وخواصه ثم الولاة وأرباب المناصب والاعيان وكان والده المستضيء قبل وفاته قد عهد اليه وسمي ولي العهد

﴿ محاربة السلطان بلاد الارمن ﴾

في سنة ٥٧٦ استمال ابن لاوون ملك الارمن بعض التركمان ليرعوا مواشيهم في مراعي بلاده ثم غدر بهم وأسرهم فلما بلغ ذلك الى السلطان صلاح الدين سار بجيشه ودخل بلاد الارمن وحارب ملكهم وأذل أعوانه وأجناده ومن خوف ملكهم أمر باحراق قلعة شامخة تعرف بالمناقير فبادر المسلمون الى اخراج ما فيها من الآلات والغلات فنقلوا بها وتمموا هدمها الى الاساس ووجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً بآلات من نحاس وفضة وذهب مضى عليها زمن طويل وأخذ السلطان كثيراً من الارمن أسرى فبذل ملكهم كثيراً من المال وتعهد ان يطلق من عنده من الاسارى لاجل خروج السلطان من بلاده فلم يرض السلطان بما بذله فزاد في المال وانه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الصليبيين ويعتقهم فاجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك وأذعن الارمني وذل وأطلق ما بيده من الاسارى واشترى الاسرى من الصليبيين وعتقهم ورجع السلطان منصوراً فقال الجمال الواسطي ابو غالب محمد وكان مشاهداً هذه الواقعة قصيدة منها

لقد جمل الله منك الورى بأوفى مليك وفيّ بهجان
ازرت ابن لاون لأواءه فأضحي به خبراً عن عيان
ودان من الذل لا يرعوى حذاراً من الراعقات اللدان

﴿ وفاة شمس الدولة وورود التشريف للسلطان ورجوعه الى مصر ﴾

كان السلطان قد أنفذ أخاه شمس الدولة تورانشاه الى الاسكندرية وجعل اليه ولايتها فلما أقام بها لم توافقه وكان يعتاده القولنج فمات به في ٥ صفر سنة ٥٧٦ ودفن بقصر الاسكندريه ثم نقلته منها اخته ست الشام بنت أيوب ودفنته في مدرستها التي انشأتها بظاهر مدينة دمشق فهناك قبره وقبرها هي وولدها حسام الدين عمر بن لاجين وقبر زوجها ناصرالدين ابن اسد الدين شيركوه وكانت قد تزوجته بعد لاجين ووصل الخبر الى السلطان وهو نازل بظاهر حمص فحزن عليه حزنا شديداً لانه كان شجاعاً باسلا عظيم الهيبة واسع الصدر جواداً كريماً قال فيه ابن سعدان قصيدة منها

هو الملك ان تسمع بكسرى وقيصر فانهما في الجود والبأس عبداه
وما حاتم ممن يقاس بمثله فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولذ بذراه مستجيراً فانه يجيرك من جور الزمان وعدواه
فلا تحمل للسحائب منة اذا هطلت جوداً سحائب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منهما فلليمن يمناه ولليسر يسراه

وفي رجب من السنة المذكورة وصلت رسل الديوان العزيز الناصري صدر الدين الشيخ أبو القاسم عبد الرحيم ومعهم شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد فخرج السلطان للقاءهم بموكبه وقابلهم بالاحترام اللائق والتعظيم والتبجيل ثم ركبوا ودخلوا المدينة وهذه أول خلعة وصلت من الامام الناصر الى السلطان الناصر وهذه الخلعة هي ثوب أطلس اسود واسع الكم مذهب وبيقار اسود مذهب وطيلسان اسود مذهب ومشدة سوداء مذهبة وطوق وتخت وسرفسار وجواد كميت من ركائب الخليفة عليه سرج اسود وسلال اسود وطوق مجوهر وقصبة ذهب وعلم اسود وعدة خيول وبقج وركب السلطان بالخلعة وكان يوم عظيم زينت له دمشق وأولمت الولائم لرسل الخليفة . ثم اراد السلطان الرجوع الى مصر فاناب عنه بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه لقوته ليكون امام الصليبين

﴿ محاربة عز الدين فرخشاه رانود صاحب الكرك ﴾

في سنة ٥٧٧ كان رانود دي شاتيلون من أشد الصليبيين عداوة للمسلمين قد عزم على المسير في البر الى تيماء ومنها الى المدينة المنورة باراضي الحجاز وكان دائماً ينقض عهوده فجمع جيشه واستعد لذلك فسمع عز الدين فرخشاه فجمع العساكر الدمشقية وسار الى الكرك ونهبها وخربها وعاد الى اطراف بلاد الصليبيين وأقام بها ليمنع البرنس رانود من العبور الى بلاد المسلمين ولما طال مقام كل منهما في مقابلة الآخر وخاف رانود من العساكر الاسلامية أمر بتفريق عساكره الى بلادهم وانقطع طمعه من الحركة فعاد عز الدين فرخشاه الى دمشق

﴿ وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ﴾

في التاسع من رجب سنة ٥٧٧ مرض الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وكان مرضه بالقولنج فلما اشتد عليه وصف له الاطباء شرب الخمر تداوياً بها فقال لا افعل حتى استفتي الفقهاء فاستفتى فافتاه فقيه من مدرسي الحنفية بجواز ذلك فقال له ارأيت ان قدر الله تعالى بقرب الأجل ايؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لا والله فقال الصالح والله لا لقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه عليّ فلم يشربه . فلما آيس من نفسه احضر الامراء وسائر الاجناد وأوصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل واستحلفهم بذلك فقال له بعضهم ان عماد الدين ابن عمك ايضاً وزوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وتولى تربيته وليس له غير سنجار فلو اعطيته البلد لكان اصلح وعز الدين بلاده واسعة ولا حاجة به الى بلدك فقال اعلم ذلك ولكن قد علمتم بان صلاح الدين قد ملك اكثر الشام سوى ما بيدي ومتى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها وان سلمتها الى عز الدين امكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا من فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات في الخامس والعشرين منه وكان حليماً كريماً عفيف اليد والفرج واللسان وكان عمره ١٩ سنه وبعد وفاته ارسلوا الى ابن عمه عز الدين فحضر واستلم حلب واقام بها واستلم جميع الخزائن والسلاح ثم بادل بها ابن عمه عماد الدين بسنجار فاستلم عماد الدين حلب واستلم عز الدين سنجار

﴿ في سفر السلطان صلاح الدين الى الشام ومحاربة الصليبيين ﴾

لمـا بلغ السلطان خبر وفاة الملك الصالح خاف على بلاده من عز الدين وندم على سفره من الشام وعزم على العودة اليها لحفظ بلاده وفي هذه السنة أيضاً سار بهاء الدين قراقوش الى بلاد الغرب فاوغل فيها ونهب ما قدر عليه وحارب عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان ثم بلغه ان ابراهيم السلحدار احتوى على أهل قراقوش وبلده فرجع اليه فهرب ابراهيم وسار الى خدمة ابن عبد المؤمن وملك قراقوش ما كان بيد ابراهيم أما السلطان صلاح الدين فانه رأى ان عز الدين قد خرق المعاهدة بتملكه واتصل به أيضاً ان أمراء الموصل تآمروا عليه سراً مع الصليبيين فجمع عساكره واستصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر لحفظ الثغور المصرية ثم سار السلطان من البركة وأخذ على طريق صدر وايله في المفاوز فبات بالبويب ثم سار على الجسر ووادي موسى حتى وصل عقبة أيله وهناك سمع باجتماع الصليبيين على الكرك فاحترز بحفظ الاطراف وانحاز بجمى ثم عقبة شتار ثم القريتين وأغار في تلك الايام على اطراف بلاد العدو ثم تجرد السلطان بكمانه وسلك بهم سمت الكرك الى الحسي وأمر أخاه تاج الملوك بوري على العسكر وأمره ان يسير بهم على يمينه ففعل واجتمع بالسلطان بالازرق بعد أسبوع ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاه لانه لما بلغه تجمع الصليبيين على الكرك اغتنم خلو ديارهم فاغار على بلاد طبريه وعكا وفتح دبوريه وجاء الى حبيس جلدك بالسواد وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين ففتحه واسكن المسلمين فيه فبقي عيناً على الصليبيين بعد ما كان لهم ورجع بالاسرى والغنائم منصوراً ومعه الف أسير وعشرون الف رأس من الانعام ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق في ١٧ صفر سنة ٥٧٨ وفي اوائل ربيع اول خرج السلطان وأغار على بلاد طبريه وبيسان والتحم القتال بينه وبين الصليبيين تحت حصن كوكب فانهزمت الصليبيون وقتل وأسر منهم كثير وعاد السلطان منصوراً

﴿ محاصرة بيروت براً وبحراً ومسير السلطان الى الموصل ﴾

أمر السلطان الاسطول المصري بالمجيء الى بيروت فسار اليها ونازلها واغار عليها وسار السلطان فوافاه اليها ونهب ما لم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة أيام فأتاه الخبر وهو عليها ان قد نزل دمياط جمع عظيم من الافرنج وكانوا قد خرجوا من بلادهم لزيارة القدس فاسروا من بها بعد ان غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى

الف وستمائة وستا وسبعون أسيراً ثم أرسل اليه مظفر الدين كوكبري صاحب حران واعلمه انه معه وطلب منه سرعة قدومه الى الفرات فجد صلاح الدين في السير مظهرا أنه يريد حصر حلب تستراً فلما قارب الفرات سار اليه مظفر الدين واجتمع به فقصد البيره وكان صاحبها معه ثم سار الى الرها فحاصرها في جماد الاولي سنة ٥٧٨ وقاتلها اشد قتال ووالى الزحف عليها وكان بها الامير فخر الدين مسعود فلما رأى شدة القتال أذعن للتسليم وطلب الأمان وسلم البلد وسار في خدمة صلاح الدين الذي سلمها الى مظفر الدين مع حران ثم سار السلطان الى الرقة فملكها ومنها الى نصيبين فملكها أيضاً وجمع أمرائه واستشارهم في أي البلاد يبدأ بالموصل أو سنجار أو جزيرة ابن عمر فاشاروا عليه بالموصل فسار اليها وحاصرها فوجدها منيعة جداً وعلم ان ليس له قدرة عليها ولكنه لازم حصارها ثم حصل تردد في الصلح فلم يتم وأخيراً تركها وسار الى سنجار وحاصرها وجد في قتالها الى ان تسلمها بالامان وقفل عائداً

﴿ الصليبيون في البحر الاحمر او بحر القلزم وهلاكهم ﴾

في سنة ٥٧٨ أيضاً طمع البرنس رانود بالاستيلاء على أراضي الحجاز فانشأ المراكب ونقل أخشابها على الجمال الى الساحل ثم ركبها وشحنها بالرجال وآلات القتال وجعلها قسمين قسما سار الى جزيرة قلعة ايله فمنع اهلها من ورود الماء فنال اهلها شدة وضيق عليهم والقسم الثاني سار نحو عيذاب وافسد في السواحل ونهب وأخذ ما وجد من المراكب الاسلامية وما فيها من التجار وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة لانهم لم يعهدوا بهذا البحر أفرنجياً لا تاجراً ولا محارباً وكان بمصر الملك العادل ابو بكر بن أيوب نائب عن أخيه صلاح الدين فعمر اسطولا في بحر القلزم بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ وشحنه بالرجال البحريين ذوي التجربة من أهل النخوة للدين وسار الى ايله فظفر بمراكب العدو بعد ما خرقها وأخذ جندها ومن هرب منهم في البرية تتبعته العرب وأحضرته اليه ثم سار نحو عيذاب مقتفياً اثر الباقي من مراكب الصليبيين فوجدهم قد قتلوا اهل عيذاب وأسروهم ونهبوهم وساروا فتبعهم فوجدهم قد قطعوا طريق التجار وشرعوا في القتل والنهب وتوجهوا الى أرض الحجاز فعظم البلاء على الناس وأشرف أهل المدينة ومكة على خطر وسار لؤلؤ يتبعهم فوصل رابغ ساحل الحوراء فأدركهم هناك فأوقع بهم من القتل والاسر فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا الى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم وقاتلهم أشد قتال وأخذ خيلا من عرب البلاد

فركبها وقاتلهم فرساناً ورجالة فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام اخافة البلاد الحرام وعاد بالباقين الي مصر فقتلوا جميعاً لئلا يدل من يظل منهم حياً على تلك الجهات فقال ابو الحسن ابن الذروي يمدح لؤلؤ بقصيدة منها

مر يوم من الزمان عجيب   كاد يبدي فيه السرور الجماد
اذ أتى الحاجب الاجل بأسرى   قرنتهم في طيها الاصفاد
بجمال كأنهن جبال   وعلوج كأنهم اطواد
قلت بعد التكبير لما تبدى   هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الاعادي   وسواه من اللآلئ يصاد

﴿ استيلاء السلطان على حلب ﴾

في سنة ٥٧٩ سار السلطان الى آمد وحصرها وفتحها عنوة بعد حرب شديدة وسلمها الى صاحب الحصن نور الدين ثم سار الى تل خالد فحاصره واستلمه وسار الي عيتناب فتسلمها ايضاً بالامان ثم سار الى حلب وحاصرها وشدد حصارها وأقام عليها أياماً والقتال بين العسكرين كل يوم فلما رأى عماد الدين صاحب حلب كثرة المصاريف شح بالمال فحضر عنده بعض الاجناد وطلبوا منه شيئاً فاعتذر اليهم بقلة المال عنده فقال له بعضهم من يريد ان يحفظ مثل حلب يخرج الاموال ولو باع حلي نسائه فمال عماد الدين الي تسليم حلب وأخذ العوض عنها وأرسل الى السلطان الامير طمان الياروقي بانه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرى اليمين على ذلك فنزل منها في ١٨ صفر سنة ٥٧٩ وسلمها واستلم البدل عنها ونصب السلطان علمه الاصفر فوق السور وقال محي الدين بن الزكي قاضي دمشق في مدح السلطان قصيدة منها

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر   مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ٥٨٣ وهو من الاتفاق العجيب وجعل فيها ولده الملك الظاهر غازي

﴿ في تنازل بودوين الرابع وولاية بودوين الخامس ﴾

في سنة ٥٧٩ عمي السلطان بودوين الرابع المسمى بالملك الابرص وصار كفيفاً ولذلك انتدب غوى دي لوزينانا زوج أخته سيبلا وأقامه نائباً على الملك وكان

ضعيفاً طائش الرأي فسار مرة في عشرة آلاف مقاتل فلقاه السلطان صلاح الدين فهزمه وقتل رجاله ولذلك كرهه الصليبيون وعزله بودوين الرابع وأقام وكيلا عنه رايموند صاحب طرابلس ثم ان الملك بودوين الرابع تنازل عن الملك لابن أخته سيبلا من زوجها الاول غوليلوم دي مونت فراتا وعمره خمس سنوات فهذا الفتى صعد على كرسي سلطنة القدس (أورشليم) سنة ١١٨٣ ميلاديه ولقب ببودوين الخامس

﴿ مناوشات الصليبيين مع العساكر الاسلاميه ﴾

انتهت سنة ٥٧٩ في مناوشات تقع بين الصليبيين وعساكر السلطان صلاح الدين وكان النصر دائماً ملازماً لعساكر السلطان لانه في كل واقعة كان يقتل ويؤسر بعض الصليبيين خصوصاً في جهات بيسان فانهم استولوا على أشياء كثيرة من أمتعة وقماش وغلال والجالوت وهي قرية عامرة فانهم عثروا على نجدة للصليبيين كانت قاصدة الشوبك والكرك فانقضوا عليهم وقتلوهم وأسروا منهم زهاء مائة نفر. ثم بلغ السلطان ان الصليبيين اجتمعوا في صفوريه ورحلوا الى الفوله وهي قرية معروفة وكان غرضه المصاف فلما سمع ذلك تعبى لقتال وسار للقاء العدو فالتقوا وجرى قتال عظيم فقتل من العدو جماعة وجرح منهم جماعة وهم ينضم بعضهم الى بعض يحمي راجلهم فارسهم ولم يخرجوا للمصاف وظلوا سائرين حتى اتوا العين فنزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا الى المصاف وهم لا يخرجون فرأى السلطان ان يرحل عنهم قليلا لعلهم يخرجون فيضرب معهم المصاف فرحل ونزل تحت الجبل مترقباً خروجهم فنكص الصليبيون على أعقابهم فزحف عليهم وأخذ يرميهم بالنشاب ويطلب مصافهم فلم يخرجوا ولم يزل السلطان وراءهم حتى نزلوا الفوله راجعين الى بلادهم فعاد. ثم طلب السلطان أخاه العادل نائبه بمصر وولاه حلب وأرسل تقي الدين الى مصر نائباً عنه وأناب سيف الاسلام على جميع اليمن

﴿ محاصرة الكرك ودخول السلطان بلاد الصليبيين ﴾

في سنة ٥٨٠ طلب السلطان العساكر المصرية الى الكرك وسار اليها بمن معه وحاصرها بعد مجيء العساكر المصرية وركب المنجانيقات عليها وضيق عليهم الحصار ولما بلغ الصليبيون ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم فملك المسلمون الربض

وبقي الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد الا ان بينهما خندقاً عظيما عمقه نحو ستين ذراعاً فأمر السلطان بالقاء الاحجار والتراب لردمه فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام والاحجار من المنجانيقات فأمر أن يبنى بالاخشاب سقايف يمكن الرجال يمشون تحتها لردمه ومنجانيقات المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلا ونهاراً أما الصليبيون فانهم زحفوا لنجدة اخوانهم فلما بلغ السلطان قدومهم سار ليلتحمهم وكانوا قد نزلوا في مكان يقال له الواله فسار حتى نزل بالبلقاء على قرية يقال لها حسبان امام الصليبيين في طريقهم ورحل منها الى موضع يقال له ماء عين ثم رحل الصليبيون الى الكرك فسار بعض العسكر وراءهم فقاتلوهم الى آخر النهار ولما رأى السلطان تصميم الصليبيين على الكرك ورأى الساحل خالياً سار بعساكره فاغار على نابلس ونهبها وغنم ما فيها ثم سار الى سبسطيه وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وجماعة من أسرى المسلمين فاستنقذهم ورحل الى جينين فنهبها وخربها وعاد الى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث السرايا في طريقه يميناً وشمالا يغنمون ويخربون

﴿ مرض السلطان وصلحه مع عز الدين صاحب الموصل ﴾

في سنة ٥٨١ سار السلطان بعسكره قاصداً الموصل فوصلها وحاصرها وضايق أهلها ثم أصابه مرض وهو يقيم الحصار فاغتنم عز الدين صاحب الموصل فرصة مرضه وأرسل اليه يطلب الصلح فصالحه بشروط ان تبقى البلاد بيد عز الدين ويخطب للسلطان فيها وأن السلطان اذا طلب عسكراً للجهاد يكون عز الدين ملزوماً بالسفر بنفسه للمساعدة ثم رجع السلطان الى حران وهو مريض واشتد به المرض حتى يئس الناس منه وسافر اليه أخوه العادل ومعه الاطباء من حلب وعاده جميع الامراء والعساكر وفي أثناء مرضه أشار عليه بعض الزائرين ان ينذر لله نذراً اذا شفاه الله من مرضه هذا وهو ان يشتغل بفتح البيت المقدس وانه لا يصرف بقية عمره الا في قتال الاعداء الصليبيين ثم أخذ السلطان في التقدم في الشفاء من ذلك المرض شيئاً فشيئاً الى ان عوفي تماماً ففرح جميع المسلمين بذلك

﴿ وفاة بودوين الخامس وولاية غوى دي لوزينانا ﴾

في سنة ٥٨١ توفي الملك بودوين الخامس ابن أخت بودوين الرابع وهو صغير السن كما تقدم وكانت مدة حكمه سنتين وكان النائب عنه البرنس رايموند صاحب طرابلس

وقيل وفاة المذكور بايام قليلة توفي بودوين الرابع الذي كان كفيفاً وتنازل عن الملك كما تقدم ثم بعد وفاة بودوين الخامس تولت المملكة والدته سيبلا أخت بودوين الرابع وتنازلت عن الملك لزوجها غوى دي لوزنيانا وألبسته التاج أمام القسوس والبطاركة ورؤساء جمعية ماري يوحنا المعمدان وجمعية الهيكلين وأمرتهم باتباع أحكامه وأوامره فاجابوها بالسمع والطاعة وصار من ذلك الوقت ملكا على القدس

﴿ حساب المنجمين بخراب الكون ﴾

في سنة ٥٨٢ حكم الفلكيون ورصاد النجوم انه في الثامن والعشرون من جمادي الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمس والشمس والقمر في برج الميزان ويثيرذلك هواء عظيما وغيما سموميأ وفي يوم الثلاث التاسع والعشرين تهلك جميع البلاد وتحمل الرمل وقالوا يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء الى نصف ليلة الاربعاء وخوفوا من ذلك جميع ملوك العجم والروم وأشعروهم بتأثيرات النجوم فشرعوا في حفر مغارات في التخوم وتعميق السراديب وتوثيقها وسد منافسها على الريح ونقلوا اليها الماء والزاد وانتقلوا اليها وانتظروا الميعاد وخاف كذلك جميع الرعايا في كل البلدان ولما جاءت ليلة الميعاد فكانت ليلة هادية وما تحرك فيها ريح قط تخزي أهل التنجيم من ذلك وعملت الشعراء في كذبهم أشعاراً قال أبو الغنائم منها

قل لابي الفضل قول معترف ... مضى جمادي وجاءنا رجب
وما جرت زعزع كما حكموا ... ولا بدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا ... أبدت أذى في قرانها الشهب
يقضي عليها من ليس يعلم ما ... يقضي عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والاسطرلاب خير من سفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفي ... أي مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الامر واحد ومتى ... للسبع في كل حادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحل ... باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق ... وانجاب التمادي وزالت الريب
فليبطل المدّعون ما وضعوا ... في كتبهم ولتحرق الكتب

﴿ اختلاف الصليبيين وانحياز رايموند الى السلطان صلاح الدين ﴾

كان رايموند صاحب طرابلس وصياً على بودوين الخامس ولما توفي بودوين وتولى بعده زوج أمه غوى دي لوزنيانا طالب البرنس رايموند بحساب ما جباه من الاموال مدة ولاية الصبي فادعى انه انفقه عليه وزاده ذلك الامر نفوراً وكدرا وجاهر بالعداوة وراسل السلطان صلاح الدين وانتمى اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج الصليبيين ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعي له في كل ما يريد وضمن له ان يجعله ملكا مستقلا للصليبيين قاطبة وكان عنده جماعة من فرسان رايموند أسرى فاطلقهم فحل ذلك عنده أعظم محل واظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الصليبيين فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم وكان ذلك في سنة ٥٨٢ هجريه

﴿ غدر رانود صاحب الكرك بالهدنه ﴾

كان البرنس رانود صاحب الكرك من أشد أعداء المسلمين وكان يوالي غدراتهم وكان السلطان يحاصره المرة بعد الاخرى حتى اذله فخضع وطلب الهدنة فهادنه وتحالفا بعدم التعرض لاحد وترددت القوافل من الشام الى مصر ومن مصر الى الشام ففي هذه السنة اجتازت به قافلة عظيمة غزيرة الاموال كثيرة الرجال ومعها جماعة من الجند كانت واردة من مصر فغدر رانود بهم وأخذهم عن آخرهم وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم واودعهم السجن فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين فاستخف بهم وقال قولوا لمحمدكم يخلصكم فبلغ ذلك السلطان وراسله في اطلاقهم فابى فحمله الدين والحمية على انه نذر ان ظفر به قتله

﴿ واقعة صفوريه وحصار الكرك ﴾

في اول محرم سنه ٥٨٣ برز السلطان من دمشق في العسكر العرمرم فلما وصل الى رأس الماء أمر ولده الملك الافضل بالاقامة هناك لمقابلة الامراء القادمين لمساعدته من جميع البلاد وسار السلطان الى بصرى وخيم على قصر السلامه ثم سار ونزل على الكرك واخاف أهله واخذ ما كان حوله ورعى زرعهم وقطع أشجارهم وكرومهم ثم سار الى الشوبك وفعل به مثل ذلك ووصل عسكر مصر فتلقاه وفرقه على أعمال القامتين واقام على هذه الحالة شهرين والملك الافضل مقيم رأس الماء ومعه جميع العساكر القادمة ينتظر أمراً من أبيه فلما طال به الانتظار سار بسرية منهم قاصداً

الاغارة على اعمال طبرية حتى اصبح صفورية فخرج اليهم الصليبيون من جمعية الهيكليين (الداويه) وجمعيةماري يوحنا المعمدان(الاسبتاريه) واقتتلوا قتالاشديداً وخرج من الصليبيين فارس راكب حصاناً ابيض وهو يدعى يعقوب دي مالي رئيس الاستبارية وهجم على العساكرالاسلامية فقتلوه وقتلوا باقي قومهوأسروا اكثرهم وأيقن باقي الصليبيين بالهلاك وهرب مقدم الهيكليين وعادت العساكر الاسلامية سالمة غانمة فكانت هذه الواقعة باكورة البركات وجاءت البشرى الى السلطان وهو على الكرك والشوبك فسار السلطان حتى خيم بعشترا ثم سار حتى قابل العساكرالاسلامية فعبى العسكر قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقة وعرف كل منهم موضعه وسار على تعبية فنزل بالاقحوانة بقرب طبرية وكان البرنس رايموند المنتمي لصلاح الدين قد اصطلح مع قومه لان ملكهم غوي قدأرسل له البطرك والقسوس والرهبان فقالوا له لاشك انك اسلمت والا لما كنت تصبر على ما فعله المسلمين في صفورية وتهدده البطرك ان يحرمه فلما رأى رايموند شدة الامر عليه خاف واعتذر وتاب وسار معهم الى القدس وتصالح مع الملك غوي

﴿ فتح طبريه وعجلس مشورة الصليبيين ﴾

لما رأى الصليبيون ما حصل لهم جمعوا عساكرهم باراضي صفورية . ثم عرض السلطان عساكره في منتصف ربيع الآخر على تل يعرف بتل تسيل ورتبهم واندفع قاصداً بلاد العدو في وسط نهار الجمعة وكان دائماً يقصد بوقعاته الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب الى الاجابة فسار ونزل على بحيرةطبرية غربي المدينة على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظراً ان الصليبيين اذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من مكامهم ولا فارقوا خيامهم فنزل وأمر عساكره بالنزول امام عساكر الصليبيين لاجل منعهم من القتال ونزل بجريدة من عسكره الى طبرية وقاتلها ونقب بعض ابراجها واخذ المدينه عنوة في ساعة ولجأ من بها الى قلعتها فامتنعوا بها وفيها زوجة رايموند واولاده فنهب المدينة واحرقها ولما بلغ الصليبيون ما فعله صلاح الدين من اخذ طبرية واحراقها بعد سلب ما بها عقدوا مجلسهم للمشورة بمدينة القدس فقام رايموندوقال اني متنازل عن مدينة طبرية للعدو ويلزمنا التجمع حول القدس لحفظه من العدو لاني ما رأيت قط جيشاً مثل هذا ذا قوة وبطش فقام رانود صاحب الكرك وقال له قد اطلت في التخويف من المسلمين ولا شك انك تريدهم وتميل اليهم والا ما كنت تقول هذا وأما قولك انهم

كثيرون فان النار لا يضرها كثرة الحطب فقال رايموند هاأنا واحد منكم وبين أيديكم فقرروا بسير العساكر الى مرج صفورية فزحفوا وكان أمامهم رايموند مع عساكره وغوي سلطان القدس مع الفرسان الهيكليين (الداوية) وضياف الغربا أى جمعية ماري يوحنا المعمدان (الاسبتارية) كانوا وراء الجيوش بصفة خفراء وكان في الوسط باقي الصليبيين مع مطران عكا حاملا الصليب الحقيقي (صليب الصلبوت الذي صلب عليه المسيح كما يدعون) فلما بلغ ذلك السلطان صلاح الدين عاد عن طبرية الى عسكره وكان قريباً منه وانما كان قصده من محاربة طبرية ان الصليبيين يفارقون مكانهم ليقاتلهم وكان المسلمون قد نزلوا على الماء وكان الوقت قيظ شديد الحر فحصل للصليبيين عطش ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء من المسلمين وقد افنوا ما هناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين فبقوا على حالهم الى الغد وهو يوم الجمعة وقد اخذ العطش منهم وأما المسلمون فانهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يحرض بعضهم بعضاً وقد وجدوا ريح النصر والظفر وكلما رأوا حال الصليبيين بخلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرائتهم فاكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية وفرق فيهم النشاب

﴿ واقعة حطين واخذ المسلمين صليب الصلبوت ﴾

لما كان صبح يوم الجمعة ٢٣ ربيع آخر ركب العسكران وتصادما وذلك بارض قرية تسمى اللوبيا ولم يزل القتال مشتبكا الى ان حال بينهم الظلام وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة مالم يروه السابقون وبات كل فريق شاكياً سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة وفي صباح يوم السبت ٢٤ منه ركب السلطان وتقدم الى الصليبيين وركبت الصليبيون ترتيبهم السابق حتى اذا دنا بعضهم من بعض اقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر فقتلوا من خيول الصليبين كثيراً فاجتمع الصليبيون وقد اشتد بهم العطش وهم يقاتلون فساروا نحو طبرية لعلهم يردون الماء فلما علم السلطان صلاح الدين ذلك صدهم عن مرادهم ووقف بالعسكر في وجوههم وطاف بنفسه في المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم والناس يتبعون اوامره فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الصليبين فقاتل قتالا عجب منه الناس ثم تكاثر الصليبيون عليه فقتلوه فلما قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا

معها الصليبين وقتلوا منهم كثيراً فلما رأى رايموند شدة الامر وعلم ان لا طاقة لهم على المسلمين اتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم وكان مقدم المسلمين في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فلما رأى حملة الصليبين حملة مكروب علم ان لا سبب للوقوف في وجوهم أمر اصحابه ان يفتحوا لهم طريق يخرجون منه وكان بعض المتطوعة قد اشعل في تلك الارض ناراً فالتهب الهشيم الكثير وهبت الريح فحملت حر النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال وانهزم رايموند وتبعه بعض عسكره وحمل الصليبيون حملات متداركة فكانوا يحاولون الحملة فيرجعون وقد قتل منهم كثير فوهنت لذلك قواهم وهناً عظيماً فاحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها واعتصم من بقي من الصليبين بتل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب عليه السلام وارادوا ان ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم بها فاشتد عليهم القتال من سائر الجهات ومنعوهم عما ارادوا ولم يتمكنوا الا من نصب خيمة ملكهم وأخذ المسلمون صليبهم الاعظم (صليب الصلبوت) فكان ذلك عليهم من أعظم المصايب وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك ودام فيهم القتل والاسر وبقي الملك على التل في قسم من جيشه ومعه الامراء والقواد فحمل عليهم المسلمون حملة شديدة حتى هلك الصليبيون فنزلوا عن خيولهم وتراموا الى الارض فاخذتهم العساكر الاسلامية أسرى باليد وكان في جملتهم الملك غوي ملك القدس والبرنس رانود صاحب الكرك والشوبك وجميع ضباط الصليبين حتى كان من يرى القتلى لا يظن انهم أسروا أحداً ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا أحداً ولم يصب الصليبيون منذ خرجوا من بلادهم الى فلسطين اي من سنة ٤٩١ الى الآن بمثل هذه الواقعة فلما فرغ المسلمون من ذلك نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الصليبين غوي دي لوزنيانا ورانود دي شانيلون صاحب الكرك وأجلس الملك غوي الى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجاً فشرب وأعطى الباقي الى رانود فشرب فقال السلطان صلاح الدين للترجمان ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني بل الذي سقاه الملك وكان من جميل عادة العرب ان الاسير اذا اكل او شرب من مال من أسره أمن فقصد السلطان بقوله هذا ان الملك غوي أمن وأما رانود فلم يأمن ثم أمر السلطان بسيرهم الى موضع معين لنزولهم فمضوا وأكلوا شيئاً ثم استحضرهم بين يديه فاقعد الملك غوي في الدهليز وأوقف رانود وقال له على ما حصل منه ثم قال السلطان ها أنا انتصر لمحمد

صلى الله عليه وسلم ثم عرض عليه الاسلام فابى ثم سل سيفه وضربه بنفسه فاطار هامته فسحب الى باب الخيمة فارتعدت فرائص الملك ولم يشك في أنه يثني به فاستحضره وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك أما هذا فانه جاوز الحد

﴿ اخذ قلعة طبرية ﴾

لما فرغ السلطان من هذه الواقعة في يوم السبت أقام بموضعه باقي يومه فاما اصبح يوم الاحد ٢٥ ربيع آخر عاد الى طبرية ونازلها فارسلت صاحبتها زوجة رايموند صاحب طرابلس تطلب الامان لها ولاولادها واصحابها ومالها فاجابها الى ذلك فخرجت بالجميع فوفي لها فسارت آمنة ثم أمر الملك غوي وجماعة من أعيان الصليبيين الاسرى فارسلوا الى دمشق وأمر بمن اسر من الداوية (الهيكليين) والاسبتارية (جمعية ماري يوحنا) الرهبانيين بان يجمعوا ليقتلهم وأمر بان كل من عنده اسير منهم يأخذ بدله خمسين ديناراً مصرياً ولما جمعوهم أمر بقتلهم وقد خص هؤلاء بالقتل لانهم أشد شوكة من جميع الصليبيين فاراح الناس من شرهم وكتب الى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم اما القمص رايموند صاحب طرابلس الذي هرب من الوقعة السابقة فانه ذهب الى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث الا أياماً قلائل ومات ومدح العماد السلطان بقصيدة منها

يا يوم حطين والابطال عابسة … وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقراً … معفراً خده والانف قد تعسا
يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد … اصاب اعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص اذ طار ذاك الرأس في دمه … كأنه ضفدع في الماء قد غطسا
مازال يعطس من كوماً بغدرته … والقتل تسميت من بالغدر قد عطسا
عرّى ظباه من الاغماد مهرقة … دما من الشرك ردا هابه وكسا
من سيفه في دماء القوم منغمس … من كل من لم يزل في الكفر منغمسا
افناهم قتلهم والاسر فانتكسوا … وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

﴿ فتح عكا وغيرها من الحصون ﴾

لما فرغ السلطان من طبرية سار عنها في يوم الثلاثاء ٢٧ ربيع آخر سنة ٥٨٣ ووصل الى عكا يوم الاربعاء ٢٨ منه وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ فتعجب السلطان لانهم علموا ان عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل

وأسير وانه لم يسلم منهم الا القليل الا انه نزل يومه وركب يوم الخميس ٢٩ منـه وقد صمم عـلى الزحف على البلد وقتاله فبينما هو يمعن النظر في اختيار الجهة التي يزحف منها ويقاتل اذ خرج كثير من أهلها يطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأمنهم على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفاً من المسلمين وساروا عنها متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقي على حاله ودخل المسلمون اليها يوم الجمعـة غرة جمـاد الاولى وصلوا بها الجمعة في جامع كان للمسلمين قديماً جعله الفرنج بيعة لهم ثم جعله صلاح الدين جامعاً وهذه أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد ان ملكه الصليبيون واستنقذ ما كان بها من أسرى المسلمين وهم ما ينوف عن أربعة آلاف مسلم وسلم البلد الى ولده الافضل واعطى جميع ما كان في البلد ملكا للداوية (الهيكليين) للفقيه عيسى وغنم المسلمون ما بقى ممـا لم يطق الصليبيون حمله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط والبندقي والسلاح وغـير ذلك من الامتعة كثيراً لانها كانت مينا عمومية لتجار الافرنج والروم وغـيرهم ففرق صلاح الدين وابنه الافضل ذلك جميعه على أصحابهما وفي مدة اقامة السلطان في عكا أرسل عساكره الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لمدينـة عكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وقدموا من ذلك ما سد الفضاء وأرسـل صلاح الدين الى أخيه العادل بمصر يبشره بمـا فتحه الله على يديه ويأمره بالمسير الى بلاد الصليبيين من جهة مصر بمن بقى عنده من العسكر ومحاصرة ما يليه منها فسارع الى ذلك وسار عن مصر فنازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم ما فيـه وسار الى مدينة يافا وهي على الساحل فحصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبي الحريم وجرى عـلى أهلها ما لم يجر على أحد من تلك البلاد وورد كتابة بذلك الى صـلاح الدين . وقد سير السلطان حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر الى نابلس فأتى سبسطيه وبها قبر زكريا عليه السلام فاخذه من أيدي الصليبيين وسلمه الى المسلمين ووصل الى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من فيها بالامان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على أملاكهم وأموالهم . وسير تقي الدين فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور

﴿فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت﴾

لمـا وصـل تقي الدين الى تبنين نازلهـا وأقام عليها فراي حصرها لا يتم الا

بوصول عمه صلاح الدين اليه فارسل اليه يعلمه بالامر ويحثه على المسير اليه فرحل من عكا في ثامن جمادي الاولى ونزل عليها في ١١ منه فحصرها وضايقها وقاتلها وهي من القلاع المنيعة على جبل فلما ضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما انضموا الى عسكر السلطان أحضرهم اليه وكساهم واعطاهم نفقة وصيرهم الى اهلهم وبقي الصليبيون محصورين خمسة ايام ثم أرسلوا يطلبون الامان فامنهم على انفسهم فسلموا اليه ووفى لهم وسيرهم الى مأمنهم ثم سار السلطان الى صيدا فاجتاز بطريقه بصرفند فاخذها صفواً عفواً بغير قتال وسار عنها الى صيدا وهي من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها خالية من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله فملكها في ٢١ منه ثم سار عنها في يومه نحو بيروت وهي من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها فوصل اليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد وقاتلوا على سورها قتالاشديداً واغتروا بحصانة البلد وظنوا انهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم مرة بعد أخرى فبينما الصليبيون يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغوغاء زائدة فاتاهم من أخبرهم ان البلد قد دخله المسلمون من الناحية الاخرى قهراً وغلبة فأرسلوا الرسل يستطلعون فلم يجدوا احداً فارادوا تسكين الخواطر فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الامان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلمها في ٢٩ منه فكانت مدة حصرها ثمانية أيام وفي أثناء حصار بيروت كان صاحب جبيل من جملة الاسرى المسجونين بدمشق ففاوض نائب السلطان بدمشق في تسليم جبيل بشرط اطلاقه فأعلم صلاح الدين بذلك فأحضره اليه مقيداً فسلم حصنه للعساكر الاسلامية وأطلق مابه من أسري المسلمين وأطلقه السلطان كما اشترط

﴿ فتح عسقلان وما يجاورها من البلاد والحصون ﴾

لما ملك السلطان بيروت وجبيل وغيرهما لم يبق عنده أهم من فتح عسقلان والقدس فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من عساكر مصر فنازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادي الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر الملك غوي ومقدم الداوية (الهيكليين) اليه من دمشق وقال لهما ان سلمتما لي البلاد فلكما الامان فأرسلا الى من بعسقلان من الصليبيين يأمرانهم بتسليم البلد

فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما أقبح رد فلما رأى السلطان ذلك جد في قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وزحف مرة بعد أخرى وتقدم النقابون الى السور فنالوا من باشورته شيئاً وصار ملكهم يكرر لهم الارسال بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم انه اذا أطلق من الاسر أضرم البلاد على المسلمين ناراً واستنجد بأهل اوروبا واجلب الخيل والرجال من أقاصي البلدان وهم لا يجيبون الى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به ولما رأوا انهم كل يوم يزدادون ضعفاً ووهناً واذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضاً ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها فاجابهم اليها وكان قد قتل أثناء الحصار من الامراء الاكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهراني فخاف الصليبيون ان تأخذ عشيرته منهم بثاره اذا خرجوا فاحتاطوا بذلك فيما اشترطوا لانفسهم فأجيبوا الى ذلك جميعه وسلموا المدينة في آخر شهر جمادي الآخرة وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوماً وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم الى بيت المقدس ووفى لهم الامان . وأقام السلطان بظاهرها وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومشهدابراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وجميع ما كان للداوية

﴿ فتح البيت المقدس شرفه الله ﴾

لما تسلم السلطان عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساعد الجد والاجتهاد في قصده واجتمعت اليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة فسار نحوه معتمداً على الله منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه اذا فتح بقوله عليه الصلاة والسلام (من فتح له باب خير فلينتهزه فانه لا يعلم متى يغلق دونه) وكان القدس مملوأً من الصليبيين حتى قدرهم بعض المؤرخين بستين الف مقاتل ماعدا النساء والصبيان والجميع بدون ملك فلذلك انتخبوا عليهم رئيساً عسكرياً وهو باليان دي ابيلين فاجتهد في الاستعداد لمحاصرة المدينة من داخلها . وسار السلطان صلاح الدين الى أن قرب من المدينة فارسل الى الصليبيين رسولا من قبله يخاطبهم بما يأتي حسب تقرير مؤرخي فرانسا قائلا لهم (اني انا نظيركم اعرف ان أورشليم) (القدس) هي بيت الله فانا لست آتياً لكي ادنس قداستها بسفك الدماء فانتم اهملوها لي وانا أخصصكم بقسم من خزائني

واعطيكم اراضي بمقدار ما أنتم تستطيعون أن تقوموا باعمالها) . فاجابه سكان المدينه بقولهم (اننا لانقدر أن نترك لك مدينة قدمات فيها الهنا بالجسد وبا كثر من ذلك نحن لانقدر أن نبيعها انتهى) وكان السلطان قد ارسل الى مصر يطلب الاسطول الذي بها في جمع من اتقاته ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة فسار الاسطول يقطع الطريق على الافرنج بحراً ويغنم مايجده من مراكبهم . واجتمع الصليبيون ببيت المقدس كما تقدم وحصنوه بما وجدوا اليه سبيلا وصعدوا على سوره بجدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة بقدر استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ولما قرب صلاح الدين زحف فرحاً الى القدس الامير جمال الدين شروين بن حسن الزرزاري فقابله فريق من الصليبيين كان قد خرج للاستطلاع فقاتله ليلا في موضع يعرف بالقيبات فاستشهد رحمه الله ولما علم بذلك صلاح الدين اسرع بالمسير ونزل على القدس في منتصف رجب سنة ٥٩٣ بالجانب الغربي وكان مشحوناً بالمقاتلة من الفرسان والرجالة ثم انتقل الى الجهة الشمالية نحو باب عمودا وكنيسة صهيون في عشرين منه ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمي بها ونصب الصليبيون على السور منجنيقات ورموا بها وقاتلوا أشد قتال لان كل واحد من الفريقين كان يرى ذلك القتال دينياً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه الى امر سلطاني وكانت فرسان الصليبيين تخرج كل يوم الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل خلق كثير من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من اكابر الامراء وأبوه صاحب قلعة جعبر وكان عز الدين يباشر القتال كل يوم بنفسه فقتل وكان محبوباً عند الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم فحملوا حملة رجل واحد فازالوا الصليبيون عن مواقفهم وادخلوهم بلدهم وزحفوا الى الخندق فاجتازوه ووصلوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة يحموتهم والمنجنيقات ترمى دراكاً وتمكن النقابون من عملهم ولما علم الصليبيون انهم قد اشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم للمشاورة فيما يفعلون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم البيت المقدس الى صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم في طلب الامان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابتهم وقال لا افعل بكم الا كما فعلتم باهله المسلمين حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هجرية من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها فلما رجع الرسل خائبين محرومين

ارسل باليان دي ايبالين رئيسهم العسكري وطلب الامان لنفسه ليحضر الى السلطان صلاح الدين في هذا الامر فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف فلما يئس من ذلك قال له أيها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لايعلمهم الا الله انما هم يفترون عن القتال رجاء الامان ظانين انك تجيبهم اليه كما اجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وامتعتنا ولا نترككم تغتنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة أو حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لايقتل الرجل منا حتى يقتل امثاله ونموت اعزاء اونظفر كراماً فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان والا يخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يدري عاقبة الامر فيه عن أي شيء تنجلي وقالوا نحسب انهم اسارى بايدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للصليبيين فاستقر ان يؤخذ عن الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير ومن كل طفل من الذكور أو الاناث دينارين ومن كل امرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين يوماً فقد نجا وان انقضت الاربعون يوماً عنه ولم يؤد ماعليه فقد صار مملوكا فاجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرون من رجب سنة ٥٨٣ أي في صباح ليلة المعراج وكان يوماً مشهوداً ورفعت الاعلام الاسلامية على أسوار المدينة ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أميناً من الامراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يحفظوا في عملهم الامانة واقتسم الامناء الاموال ولو أديت كلها لملأت الخزائن لان المدينة كانت مملوأة لكثرة ما اجتمع فيها من عسقلان والداروم والرملة وغزه وغيرها ودفع باليان ثلاثين الف دينار وبقي بعد ذلك من لم يكن معهما يعطي وأخذ أسيراً نحو ستة عشر الف ما بين رجل وامرأة وصبي ثم قام جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فكان يطلق ويأخذ هو قطيعتهم واحتال آخرون بان ألبسوا الصليبيين زي الجند المسلمين وأخرجوهم وأخذوا منهم قطيعة قرروها واستوهب جماعة من

صلاح الدين عدداً من الصليبيين فوهبهم لهم فاخذوا قطيعتهم ولم يصل خزائن السلطان الا القليل وكان بالقدس الملكة سيبلا زوجة الملك غوي المأسور وزوجة البرنس رانود وغيرهم من نساء مقدمي الصليبيين فاطلقهم بخدمهم وحشمهم واستأذنته الملكة سيبلا في المسير الى زوجها الملك غوي وكان محبوساً بقلعة نابلس فاذن لها فتوجهت اليه واقامت عنده وأتته امرأة البرنس رانود وطلبت اطلاق ولد لها محبوس في الاسر فقال لها صلاح الدين ان سلمتي لي قلعة الكرك أطلقته فتوجهت الى الكرك فلم يرض الصليبيون الذين بها تسليمها فلم يطلق ولدها وخرج البطريرك الاورشليمي ايراكلوس يتبعه الاكليروس ومعهم الاواني المقدسة مع خزنة كنيسة قبر المسيح وغيرها وكان له من المال كثير فقيل للسلطان ان يأخذ ما معه فقال لا أغدر به وسير الجميع مع من يحميهم الى مدينة صور وكان هذا اليوم يوم فرح وافتخار لجيش المسلمين فتقاطر الشعراء من سائر الانحاء لتهنئة السلطان صلاح الدين بما أتاه الله من الفتح ونظموا القصائد وألقيت الخطب وسالت أقلام الكتاب وفاضت قرائحهم فكنت ترى فيهم اما خطيباً يبشر ويحرض واما شاعراً يحمد الله ويمدح الفتح أو مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من الفخر لجيش الاسلام وقد أشار العماد في قصيدة طويلة الى ذلك منها

قل للمليك صلاح الدين أكرم من ... يمشي على الارض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... صور فان فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لجب ... وابعث الى ليل انطاكية العسسا
واخل ساحل هذا الشام أجمعه ... من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منهم نفساً ولا نفساً ... فانهم يأخذون النفس والنفسا
نزلت بالقدس فاستفتحته ومتى ... تقصد طرابلسا فانزل على قدسا

وقال أبو الحسين بن جبير الاندلسي من قصيدة

هو الفاتح البيت المقدس بعد ما ... تحامته سادات الدنا ومسودها
فضيلة فتح كان ثاني خليفة ... من القوم مبديها وأنت معيدها

وقال الرشيدي بن بدر النابلسي من قصيدة طويلة

هذا الذي كانت الآمال تنتظر ... فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت ... في سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به حان هلاك المشركين فيا ... لله طيب العشايا منه والبكر

الآن قرت جنوب في مضاجعها ونام من لم يزل حلفاً له السهر
يابهجة القدس اذ أضحى به علم الاســـلام من بعد طي وهو منتشر

وقال فخر الكتاب ابو علي الحسن بن علي الحويني المقيم بمصر من اهل بغداد هذه القصيدة في الفتح وهي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمالهم له تسعين عاماً حتى تجرد له صلاح الدين نذكر منها ما يأتي

جند السماء لهذا الملك أعوان من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما تحكيه في زمن وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الانبياء وما له سوى الشكر بالافعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده صيدا وما ضعفوا يوماً وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم خوف الفرنجة ولدان وسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس نخام عنها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر الاســـلام يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والا ســـلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم بامر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذه الفتوح وما سمت لها همم الاملاك مذ كانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا ل الناس داود هذا أم سليمان
في نصف شهر غدا للشرك مصطلماً فطهرت منـــه اقطار وبلدان
فاين مسلمة عنهـــا واخوته بل أين والدهم بل أين مروان
وعد عمـــا سواه فالفرنجة لم يبدهم من ملوك الارض انسان
لو ان ذا الفتح في عصر النبي لقد نزلت فيـــه آيات وقرآن
ياقبح اوجه عباد الصليب وقد غدا يبرقعها شؤم وخذلان
حزنت عند الله العرش سائر ما ملكته وملوك الأرض خزان
فالله يبقيك للاســـلام تحرسه من ان يضام ويلقى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بهـــا سنة فالكفر في سنة والنصر يقظان
ياجامعاً كلمة الايمـــان قامع من معبوده دون رب العرش صابان
اذا طوى الله ديوان العباد فمـــا يطوى لاجر صلاح الدين ديوان

﴿ اظهار محراب المسجد الاقصى والصخرة المقدسة ومحراب داود ﴾

لمـــا دخل السلطان صلاح الدين بيت المقدس في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣

كما تقدم لم يتمكن من اقامة صلاة الجمعة في هذا اليوم لان الصليبيين كانوا قد بنوا على محراب المسجد الاقصى مخزناً للغلال وبنت جمعية الهيكليين غربيه داراً كبيرة لسكناها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من مراحيض وغيره فامر السلطان بازالة جميع ما أحدثوه من المباني وكان على رأس قبة الصخرة المقدسة صليب كبير مذهب فتسلق جماعة من المسلمين الى أعلى القبة وأنزلوه فهتف المسلمون بالتكبير والتهليل وكان الصليبيون قد بنوا عليها بناية وذلك ان البطاركة والقسوس كانوا يقطعوا منها ما يبيعونه لملوك اوروبا تبركا بها فشفق عليها أحد ملوكها و بنى عليها لعدم مسها فامر السلطان بازالة ما عليها من المباني أيضاً وأمر بتطهير ذلك جميعه وكان السلطان يكنس بيده وبعد الفراغ من كنس الصخرة والمسجد الاقصى أمر بغسلها بالماء مراراً ثم غسلها بنفسه بماء الورد وأمر باطلاق البخور عليها ثم فرش المسجد ومحل الصخرة بالبسط الفاخرة وأمر باعمال منبر من خشب لتأدية صلاة الجمعة القابلة ربما يصل المنبر الذي كان قد أمر بصنعه الملك العادل محمود نورالدين اتابك لوضعه بالقدس لانه كان عازماً على فتحه ومات ولم يتم ما عزم عليه فامر بوضعه في حلب. وأما محراب داود عليه السلام فانه كان خارج المسجد الاقصى في حصن منيع عند باب المدينة وموضع عال رفيع وهو الحصن الذى يقيم به الوالي فرتب السلطان له اماماً ومؤذنين وقواماً وهو مثابة الصالحين ومزار الغادين والرائحين فاحياه وجدده وأمر بعمارة جميع المساجد وفي يوم الجمعة التالي الموافق ٤ شعبان عزموا على اقامة صلاة الجمعة فاستعدت العلماء والخطباء وكل منهم يطلب ان يكون هو الخطيب ليحصل له الشرف العظيم ولما قربت الصلاة أمر السلطان القاضي محي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي بان يخطب ويصلي بالمسلمين وخلع عليه خلعة سوداء من تشريفات الخلافة فصعد المنبر وتلا الخطبة الآتيه

﴿ أول خطبة بالمسجد الاقصى بعد فتحه ﴾

افتتح الخطبة بآيات الحمد الواردة بالقرآن الشريف بعد البسملة ثم قال

الحمد لله معز الاسلام بنصره . ومذل الشرك بقهره . ومصرف الامور بامره . ومديم النعم بشكره . ومستدرج الكافرين بمكره . الذي قدر الايام دولا بعدله . وجعل العاقبة للمتقين بفضله . وافاء على عباده من ظله . وأظهر دينه على الدين كله . القاهر فوق عباده فلا يمانع . والظاهر على خليقته فلا ينازع . والآمر بما يشاء فلا يراجع . والحاكم بما يريد فلا يدافع . أحمده على اظفاره واظهاره .

واعزازه لاوليائه ونصره لانصاره · وتطهير بيته المقدس من ادناس الشرك واوضاره · حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره · واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له الاحد الصمد · الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد · شهادة من طهر بالتوحيد قلبه · وأرضى به ربه · وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله · رافع الشك · وداحض الشرك · وراحض الافك · الذي أسرى به من المسجد الحرام الى هذا المسجد الاقصى · وعرج به منه الى السموات العلى · الى سدرة المنتهى · عندها جنة المأوى · اذ يغشى السدرة مايغشى · ما زاغ البصر وما طغى · صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق الى الايمان · وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان · وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن · وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الاوثان · وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان · أيها الناس ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى · والدرجة العليا · لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة · من الامة الضالة · وردها الى مقرها من الاسلام · بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام · وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وان يذكر فيها اسمه · واماطة الشرك عن طرقه · بعد ان امتد عليه رواقه · واستمر فيه رسمه · ورفع قواعده بالتوحيد · فانه بني عليه · وبالتقوى فانه أسس على التقوى · من خلفه ومن بين يديه · فهو موطن أبيكم ابراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه السلام · وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام · وهو مقر الانبياء · ومقصد الاولياء · ومقر الرسل · ومهبط الوحي · ومنزل تنزل الامر والنهي · وهو في أرض المحشر · وصعيد المنشر · وهو في الارض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين · وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين · وهو البلد الذي بعث الله اليه عبده ورسوله · وكلمته التي القاها الى مريم · وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته · ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته · فقال تعالى · لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله · وقال لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم · وهو أول القبلتين · وثاني المسجدين · وثالث الحرمين · لا تشد الرحال بعد المسجدين الا اليه · ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين الا عليه · ولولا انكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاه · من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة · التي لا يجاريكم فيها مجار · ولا يباريكم في شرفها مبار · فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات

النبوية · والوقعات البدرية · والعزمات الصديقية · والفتوح العمرية · والجيوش العثمانية · والفتكات العلوية · جددتم للاسلام أيام القادسية · والوقعات اليرموكية · والمنازلات الخيبرية · والهجمات الخالدية · فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم افضل الجزاء · وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الاعداء · وتقبل منكم ما تقربتم به اليه من مهراق الدماء · واثابكم الجنة فهي دار السعداء · فأقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها · وقوموا لله تعالى بواجب شكرها · فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة · وترشيحكم لهذه الخدمة · فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء · وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء · وابتهج به الملائكة المقربون · وقر به عينا الانبياء المرسلون · فماذا عليكم من النعمة بان جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان · والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الايمان · فيوشك ان تكون التهاني به بين أهل الخضراء · اكثر من التهاني به بين أهل الغبراء · اليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه · ونص عليه في خطابه · فقال تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله الآية اليس هو البيت الذي عظمته الملوك · واثنت عليه الرسل · وتليت فيه الكتب الاربعة المنزلة من الهكم عز وجل · اليس هو البيت الذي امسك الله عز وجل الشمس على يوشع لاجله ان تغرب · وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب · اليس هو البيت الذي أمر الله موسى ان يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه الا رجلان · وغضب عليهم لاجله فالقاهم في التيه عقوبة للعصيان · فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنوا اسرائيل · وقد فضلهم على العالمين ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الامم الماضيين · وجمع لاجله كلمتكم وكانت شتى · واغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى · فليهنئكم ان الله قد ذكركم به في من عنده · وجعلكم بعد ان كنتم جنوداً لاهوائكم جنده · وشكركم الملائكة المنزلون · على ما أهديتم الى هذا البيت من طيب التوحيد · ونشر التقديس والتحميد · وما أمطتم عن طرقهم فيه من اذى الشرك والتثليث · والاعتقاد الفاجر الخبيث · فالآن يستغفر لكم أملاك السموات · وتصلي عليكم الصلوات المباركات · فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم · واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم · ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم · واحذروا من اتباع الهوى · وموافقة الردى · ورجوع القهقرى · والنكول عن العدا ·

وخذوا في انتهاز الفرصه ٠ وازالة ما بقي من الغصه ٠ وجاهدوا في الله حق جهاده ٠ وبيعوا عباد الله انفسكم في رضاه ٠ اذ جعلكم من خير عباده ٠ واياكم ان يستذلكم الشيطان ٠ وان يتداخلكم الطغيان ٠ فيخيل لكم ان هذا النصر بسيوفكم الحداد ٠ وبخيولكم الجياد ٠ وبجلادكم في مواطن الجلاد ٠ لا والله ما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم ٠ واحذروا عباد الله بعد ان شرفكم بهذا الفتح الجليل ٠ والمنح الجزيل ٠ وخصكم بهذا الفتح المبين ٠ وأعلق أيديكم بحبله المتين ٠ ان تقترفوا كبيراً من مناهيه ٠ وان تأتوا عظيما من معاصيه ٠ فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ٠ والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ٠ والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم ٠ وأشرف عاداتكم ٠ انصروا الله ينصركم اذكروا أيام الله يذكركم ٠ اشكروا الله يزدكم ويشكركم ٠ جدوا في حسم الداء ٠ وقطع شافة الاعداء ٠ وتطهير بقية الارض التي اغضبت الله ورسوله ٠ واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ٠ فقد نادت الايام بالثارات الاسلامية ٠ والملة المحمدية الله اكبر فتح الله ونصر ٠ غلب الله وقهر ٠ اذل الله من كفر ٠ واعلموا رحمكم الله ان هذه فرصة فانتهزوها ٠ وفريسة فناجزوها ٠ ومهمة فاخرجوا لها هممكم وابرزوها ٠ وسيروا اليها عزماتكم وجهزوها ٠ فالامور بأواخرها ٠ والمكاسب بذخائرها ٠ فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول ٠ وهم مثلكم أو يزيدون ٠ فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون ٠ وقد قال الله تعالى ٠ ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين ٠ أعاننا الله واياكم على اتباع أوامره ٠ والازدجار بزواجره ٠ وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ٠ ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ٠

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة وقال بعد الدعاء للخليفه

اللهم وأدم سلطاننا ٠ عبدك الخاضع لهيبتك ٠ الشاكر لنعمتك ٠ المعترف بموهبتك سيفك القاطع ٠ وشهابك اللامع ٠ والمحامي عن دينك المدافع ٠ والذاب عن حرمك الممانع ٠ السيد الاجل الملك الناصر ٠ جامع كلمة الايمان ٠ وقامع عبدة الصلبان ٠ صلاح الدنيا والدين ٠ سلطان الاسلام والمسلمين ٠ مطهر البيت المقدس ٠ أبا المظفر يوسف بن أيوب ٠ محيي دولة أمير المؤمنين ٠ اللهم عم بدولته البسيطة ٠ واجعل ملائكتك براياته محيطة ٠ واحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ٠ واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه ٠ اللهم أبق للاسلام مهجته ٠ ووق للايمان حوزته ٠ وانشر في المغارب والمشارق

دعوته اللهم فكما فتحت علي يده البيت المقدس بعد ان ظنت الظنون. وابتلي المؤمنون . فافتح على يده أداني الارض وأقاصيها. وملكه صياصي الكفر ونواصيها. فلا تلقاه منهم كتيبة الا مزقها. ولا جماعة الا فرقها. ولا طائفة بعد طائفة الا ألحقها بمن سبقها . اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه . وانفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه . اللهم واصلح به أوساط البلاد وأطرافها. وأرجاء الممالك واكنافها . اللهم ذلل به معاطس الكفار . وارغم به انوف الفجار. وانشر ذوائب ملكه على الامصار. وأبث سرايا جنوده في سبل الاقطار. اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه الى يوم الدين. واحفظه في بنيه وبني أيوب الملوك الميامين. واشدد عضده ببقائهم. واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم. اللهم كما أجريت على يده في الاسلام. هذه الحسنة التي تبقى على الايام. وتتخلد على مر الشهور والاعوام. فارزقه الملك الابدي الذي لا ينفد في دار المتقين . وأجب دعاءه في قوله رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وان أعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين

﴿ حصار مدينة صور وفتح هونين ﴾

لما فتح السلطان صلاح الدين القدس أقام بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وجعل دار الاسبتارية (جمعية القديس ماري يوحنا المعمدان) مدرسة للشافعية وهي حسنة جداً ثم سار الى مدينة صور وكان قد اجتمع بها من الصليبيين عالم كثير لان الصليبيين أهل عسقلان والقدس وغيرهم لما سلموا بلادهم وأخذوا الامان ساروا الى صور وكان قد جاءها كونراد بن المركيز منفردات بسفنه وتسميه العرب المركيس فاقام حاكما بها وحصنها كل التحصين ووصل صلاح الدين الى عكا وأقام بها أياماً ثم سار الى ان وصل الى صور تاسع رمضان فنزل على نهر قرب البلد حتى اجتمع العسكر الاسلامي فلما علم كونراد بقدوم صلاح الدين الى بلده أخذ يجدد التحصين ويعمق الخنادق ومدينة صور واقعة على رأس ممتد في البحر فكانت محاطة بالمياه من ثلاث جهات ومتصلة بالبر من جهة واحدة ثم سار صلاح الدين في الثاني والعشرين منه الى تل يقارب سور البلد وقسم القتال على عساكره وجعل لكل أمير من امرائه وقتاً يحارب فيه بعسكره لكي تكون الحرب متصلة دواماً على اهل البلد وكان موضع القتال قريباً ويكفيه جماعة للمحاربة فقط فزحفت العساكر الاسلامية بالمنجنيقات

والدبابات وكان اهل صلاح الدين متولين الحرب مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقي الدين وكانت للصليبيين شوان يحاربون بها كي يمنعوا العساكر الاسلامية من محاربة البلد فارسل صلاح الدين يطلب الشواني التي بعكا فارسات اليه وعددها عشر برجالها فلما وصلت منعت شواني العدو من مقاتلة المسلمين فتمكن حينئذ المسلمون من الدنو من البلد ومن قتاله فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه حتى كادوا يظفرون فجاءت الاقدار بما لم يكن في الحساب وذلك ان عبد السلام المغربي مقدم شواني المسلمين الموصوف بالحذق في صناعته وشجاعته وقف على باب الميناء في ليلة ليمنع خروج شواني العدو فباتوا ليلتهم يحرسون فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا الا بشواني الصليبيين قد نازلتهم وضايقتهم فاوقعت بهم فقتل الصليبيون من أرادوا قتله وأخذوا خمس شوان من المسلمين بما فيها وأدخلوها ميناء صور والمسلمون في البر ينظرون اليها ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق وأسر المقدم عبد السلام ومتوليه بدران الفارسي وأمر السلطان بمسير الشواني الباقية الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فخرجت شواني الصليبيين وراءها فنجا منها شيني رئيس جبيل والباقون نظروا شدة طلب العدو لهم فالقوا انفسهم في الماء وخرجوا الى البر على وجوههم وبعد هذا طمع الصليبيون فخرجوا عصر أحد الايام للقتال فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الصليبيين وأسر أحد مقدميهم وظن انه كونراد فسلمه السلطان الى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم ان كونراد لا يزال حياً ثم طال الحصار حتى ضجر كثير من امراء المسلمين لانهم رأوا ما لم يألفوه من تعسر الفتح عليهم فاشاروا على السلطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال وكان البرد قد اشتد عليهم وكان رأي السلطان وبعض الامراء كالفقيه عيسى وحسام الدين طمان وعز الدين جرديك النوري الثابت الجنان الى الفتح لئلا يضيع ماتقدم من الاعمال وانفاق الاموال وقال السلطان قد هدمنا السور وقاربنا الامور فاصبروا تفلحوا وصابروا تفتحوا ولاتعجلوا فاظهروا الموافقة وفي انفسهم مافيها فلم يصدقوا القتال وتعللوا بان الرجال جرحى والعلف قد قل فلم يسع السلطان بعد ذلك الا الرحيل فامر بنقل الأثقال فحمل بعضها الى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لئلا يناله العدو وفي أثناء حصار السلطان لصور جاءه الخبر بان الصليبيين المقيمين في هونين قد طلبوا الامان فانفذ الامير بدر الدين

دلدرم ففتحهاوأخرج الصليبيين منها وكان السلطان قبل ذلك قد وكل عليها بعض العسكر لمحاصرتها ورحل السلطان عن مدينة صور في آخر شوال وسار تقي الدين الى دمشق عن طريق هونين واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين ورحل السلطان الى عكا من طريق الناقورة وهي طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب المثل لايعبر بها الا جمل جمل فعبرت بها الأثقال والاحمال في أسبوع وكان قد عين يوم رحيله امراء يقيمون على صور الى أن تعبر الأثقال وخيم السلطان عند التل وسار العادل الى مصر والظاهر الى حلب وفي مدة رحيل السلطان توفي الامير سيف الدين محمود أخو عز الدين جاولي وسبب ذلك انه كان باقياً من اعمال الصليبيين حصنان بدون فتح وهما حصن صفد وفيه الداوية (الهيكليين) وحصن كوكب وفيه الاسبتارية (جمعية ماري يوحناالمعمدان) واحتاج السلطان في فتحهما الى المطاولة فوكل بحصن صفد جماعة يعرفون بالناصرية ومقدمهم مسعود الصلتي ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين فاقام في حصن عقربلا وهو قريب من حصن كوكب ومنع عن المقيمين فيه المطعم والمشرب وضيق عليهم المذهب الى ان دخل الشتاء فاختلت الحراسة فلما كانت ليلة آخر شوال وكانت ليلة باردة حرس اصحاب سيف الدين حتى ضجروا فغلبهم النعاس فما استيقظوا الا وافرنج كوكب عليهم باركةفدافعوا عن انفسهم حتى استشهدوا وأخذ الصليبيون غنيمة المسلمين ودخلوا بها كوكب

﴿ في التحريض على طلب الحروب الصليبية الثالثة ﴾

بينما كان البابا أوربانوس الثالث موجوداً في مدينة البندقية مشدداً في تحريض أهل البندقية على سرعة تجهيز عمارة مراكب المشيخه وارسالها الى فلسطين اسعافاً لاخوانهم الصليبيين بلغه خبر سقوط مدينة أورشليم (القدس) في ايدي صلاح الدين سلطان المسلمين فسقط طريح الفراش مريضاً ولما اشتد مرضه انتقل الى مدينة فرارا فمات هناك ثم تعين بعده البابا غرغوريوس الثامن وبعد تعيينه حضر بين يديه غويليوم الصوري رئيس اساقفة صور وترامى على قدميه وطلب منه المساعدة التامة في تسيير حملة صليبية لاسترداد القبر المقدس من أيدي المسلمين فاصدر البابا منشوراً عاماً لسكان أوروبا أوضح لهم فيه عظم ما ألم بالصليبيين اخوانهم وخصوصاً امتلاك المسلمين مدينة القبر المقدس وقد جاء في هذا المنشور ما يأتي (انه لقد جاء الزمان الذي فيه يصير الامتحان والحين الذي فيه نستخدم

خزائن الارض وكنوزها لاجل اكتساب البلاد جديداً التي مات فيها يسوع المسيح لكي يكتسب لنا بموته خزائن السماء وكنوزها والاوان الذي فيه تباح الخيرات الزائلة لاجل امتلاك الخيرات الدائمة) ثم انه اختتم منشوره المذكور بقوله (غير انكم لا تسيرون الى هذه الحروب الصليبية بأثواب فاخرة وملابس ثمينة آخذين صحبتكم الطيور والبواشق والكلاب للصيد بل تجنبوا كل ما يشير الى السعة ولا يفيد سوى البذخ والمجد الباطل واحتشموا في محاميلكم أولى من اهتمامكم بما يرجع الى الفخفخة والصلف ثم أظهروا باعمالكم حقائق روح التوبة والخشوع) وبعد تحرير هذا المنشور لم يتمكن البابا من اعمال الوسائط اللازمة لارسال حملة صليبية ثالثة لانه اعتراه مرض في مدينة (بيزا) ومات وتعين بعده البابا اكليمنضوس الثالث الذي بعد تعينه أناب عنه في التحريض على ذلك رئيس اساقفة صور المذكور وفوض اليه الانذار بهذه الحرب المقدسة وبعد ذلك اخذ الاسقف غوليلوم الصوري المذكور يخطب في أهالي ايطاليا ويحرضهم على التجهيز لاسترداد القبر المقدس ثم اسرع الى بلاد فرانسا منهضاً غيرتهم الشهيرة

﴿ صلح فرانسا وانكلترا وتحريضهم على الحروب الصليبية ﴾

بينما كان الملك فليب أوغسطوس ملك فرانسا يحارب الملك هنريكوس الثاني ملك انكلترا لاجل تملك بلد فاكسين حضر غوليلوم الصوري لتحريضهم على الحروب الصليبية فوجدهم على هذه الحالة فسعى بينهما في الصلح حتى انه كلفهما باصدار أمر بعقد جمعية عمومية من الجيشين في فرانسا للمفاوضة في الحروب المقدسة وبعد انعقاد تلك الجمعية التي حضرها ضباط الجيشين قوبل غليلوم باحتفال ديني عظيم ثم أخذ يشرح لهم حوادث حروب المسلمين وكيفية استيلائهم على القدس وان هذه المدينة صارت الآن مسكونة بشعب بربري وانها تدفع الخراج والجزية تحت رق العبودية وان سكانها المسيحيين والصابيين مساقون كالغنم الى بلاد الاسلام يباعون في الاسواق كالعبيد ثم قال ما يأتي : ان امارات المشرق المسيحية بقيت صامدة على ثلاث مدن فقط وهي انطاكية وطرابلس وصور لاغير ونحن قد شاهدنا باعيننا ما كان قد فاه به اشعيا النبي بقوله ان الرب قد مد يده وضربانه بالقروح من حد نهر الفرات الى حد نيل مصر لان سكان أربعين مدينة قد طردوا من مساكنهم وفقدوا خيراتهم وموجوداتهم المختطفة منهم وساروا تائهين مع عيالهم بالشقاء والضنك فيما بين شعوب اسيا خالين من ان يجدوا لهم حجراً

يسندون اليه رؤوسهم . ثم تلا عليهم منشور البابا لجذب قلوب سامعيه الى الغيرة والحرارة كما ان فليب أوغسطوس ملك فرانسا وهنريكوس الثاني ملك انكلترا تعانقا وتقدما قبل الجمع واستلما صليب الحرب المقدسة ثم تبعهم ريكارد دوك دي غونيانا ابن السلطان اريكوس ثم فيلبس كونت دي فلاندرا وهوكوز دوك دي برغونيا وهنريكوس كونت دي شامبانيا وتيبوت كونت دي بلواز ومثلهم امراء سواسون وناڤار وباروفاندوم وأقسم الاخوان يوسالين ومتى دي هورانسي على تخليص أورشليم (القدس) من أيدي المسلمين ثم هتف أعضاء هذه الجمعية صارخين هلموا نحو الصليب . فلنذهبن وراء الصليب . وشرعوا جميعاً في التجهيزات للمسير للحروب الصليبية

﴿ ضريبة العشور للحروب الصليبية الثالثة ﴾

لما شرع كل من ملك فرانسا وملك انكلترا في اعداد معدات السفر للحروب الصليبية وجدوا ان ذلك يحتاج لاموال عظيمة فعقدوا مجلس شوراهم الذي قرر باتحاد اراء الملكين والامراء والاشراف بان كل من لم يرغب السفر للحروب الصليبية او تعذر عليه السفر يدفع عشر مداخيله مع عشر ثمن موجوداته المنتقلة (لا الثابتة) وقد سموها (ضريبة العشور الصلاحية) رمزا الى انتصار السلطان صلاح الدين عليهم وحرم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفع هذه الضريبة وعينوا لجمعها اناساً اقتضوها بصرامة كلية غير ان الاموال المجموعة من ضريبة العشور الصلاحية لم تكن كافية لهذه الاستعدادات ولذلك اكره ملك فرانسا اليهود على ان يدفعوا الى الخزينه مبلغ خمسة آلاف وزنه فضة (كل وزنة تساوي ماية درهم)

﴿ موت ملك الانكليز وتولية ولده ريكاردوس وذبح اليهود ﴾

في أثناء تلك الاستعدادات مات الملك هنريكوس الثاني ملك انكلترا ثم حضر ابنه ريكاردوس الى بلاد الانكليز لاستلام زمام الملك وأخذ يشتغل في اكتساب الفخر باسترجاع القدس ولذلك ترى ان أول أمر سعى اليه عند استلامه مقاليد الاحكام انما هو جمع النقود استعداداً للحملة الصليبية فبذل في سبيل ذلك كل تليد وطارف واستخدم كل وسيلة ممكنة حتى انه باع طاعة الاسكوتلانديين الذين أخضعهم أبوه بمبلغ عشرة آلاف ميرك (الميرك نقود اسكوتلاندية قديمة يساوي

الواحـد منها ثلاثة ريالات مصرية تقريباً) ثم طلب الاموال من أغنياء البـلاد وصيارفها واكثرهم من اليهود وحدث ان اليهود سيقوامن فرانسا بعصا الاضطهاد فالتجأوا الى انكلترا وكان وصولهم اليها يوم تنصيب ريكاردوس فثارت عليهم رعاع الناس بدعوى ان الملك أمر بذبحهم فدارت عليهم رحى الموت حتى جرت دماؤهم في الأسواق والتجأ منهـم نحو خمسمائة الى قلعة يورك بنسائهم واولادهم فضيق عليهم أهل المدينة فالتمسوا ان يقبلوا منهم الفدية فما ارادوا فاشتد غيظ اليهود وقنطوا من الحياة فاحرقوا كل ما كان لديهم من الاموال والمتاع والحلى وفضلوا ان يقتل بعضهم بعضاً من ان يقتلهم عدوهم فقتلوا اولادهم بايديهم ثم أخذوا يقتل احدهم الآخر وبقيت منهم بقيـة استقتلوا وفتحوا أبواب القلعة فدخل اليهم بعض الرعاع الثائرين وقتلوهم وحصل مثل ذلك أيضاً في نوريش وستامفورد وليكولن وغيرها وكل ذلك حصل بغير ارادة الملك فعاقب المعتدين عقاباً طفيفاً وأمن من بقي من اليهود وجعلهم تحت حمايتـه فلما اهتم باعـداد الحملة الصليبية طلب مساعدتهم فامدوه بالمال

﴿ التحريض على الحروب الصليبية ببلاد النمسا ﴾

بعـد ما عزم كل من ملك فرانسا وملك انكلترا على السفر الى بلاد فلسطين سافر غوبليوم الصوري المفوض بانذار الحروب الصليبية من قبل البابا الى بلاد النمسا وقابل ملكها فريد ريكوس الاول الملقب باللحية الحمراء وكان بينه وبين كرسي البابا بعض ضغائن فازالها ثم طلب منه المساعدة في تخليص بيت المقدس من يد المسلمين فامر في الحال بعقد جمعية في مايانص وفي هـذه الجمعية لبس الاثواب المكرسة المختصة بالحروب الصليبية ثم اقتدى به أعظم أمراء مملكته وكذلك جميع كنائس المانيا أثرت فيها خطب غويليوم السوري فاستعدوا للسفر برئاسة ملكهم المذكور وبما ان الملك فريد ريكوس كان عرف بلاد فلسطين في الحروب الصليبية الثانية اذ كان مع عمه الملك كونراد الذي رجع بخفي حنين وعرف ما يلزمه من الجيش وما يحصل له من المشقة والتعب خاف من نيات افراد العساكر الصليبية في أثناء مسيرهم فلذلك قرر بانه لايقبل تحت علمه الصليبي احداً من الراغبين في السفر الا اذا كان معه على الاقل ثلاث وزنات فضة وذلك بعد انعقاد جمعية في مدينة نورامبارك فلذلك امتنع عن السفر الاشقياء الذين كانوا يفرحون بسفرهم للنهب في الطريق وعزم على ان يكون مسيره براً

﴿ في اتحاد فرنسا وانكلتره للمسير الى سوريا ﴾

اجتمع الملكان فليبس وريكاردوس بمدينة نورمنديا واتفقا على تهذيب العساكر وابعاد كل الرذائل عنها فاصدرا امراً بمنع النساء من السفر صحبة العساكر لان وجودهن في وسط العسكر في الدفعتين السابقتين اخل انتظام العساكر وأمرا أيضاً بعدم لعب القمار وجمعا عساكرهما تحت علم الصليب في مدينة فاسلاي حيث كان القديس برنردوس (الذي كان محرضاً على الحروب الصليبية الثانيـة) وجـددا تحالفهما على يديه وتواعدا على المسير الى سوريا وان يسافر ريكاردوس الى مرسيليا ثم ينزل في المراكب وان فليبس يسافر الى جنوي ثم يتقابلان معاً بميناميسنا بجزيرة سيسيليـا

﴿ حصر حصن كوكب وفتح بعض البلاد ﴾

في اوائل محرم سنة ٥٨٤ سار السلطان من عكا بمن بقي معه من العساكر الى قلعة كوكب فحصرها ونازلها ظاناً ان تملكها سهل فلما رآها عاليـة منيعة والوصول اليهـا متعذر وجنوده مشتغلة بها وبصفد والكرك رحل عنها وكانت البلاد الساحلية من عكا فما وراءها جنوباً جميعها قد اصبحت ملكه فلم ير ان يظل في وسط بلاده ما يشغل قلبـه ويحتاج الى حفظه وخوفاً من ان ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم فلهذا اقام على كوكب بعـد رحيله قايماز النجمي ليديم حصارها ثم أتاه بعض رسل ملوك المسلمين يهنئونه بالفتح وسار الى دمشق وكتب الى جميع عماله بالبلاد وجميع أمراء الاسلام بخروج العساكر لمحاربة الصليبيين ثم رحل عن دمشق في منتصف ربيع الاول فنزل على بحيرة قدس غربي حمص فجاءته العساكر فسار حتى نزل على حصن الاكراد من الجانب الشرقي فاقام يومين وسار جريدة وترك العسكر في محله تحت الحصن ودخل بلاد الصليبيين فاغار على صافيثا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد ووصل الى قرب طرابلس وابصر البلاد وعرف من أين يأتيها ومن أين يسلك منها ثم عاد الى معسكره سالماً وقد غنم العسكر كثيراً من الدواب على اختلاف انواعها وفي اثناء وجود السلطان تحت حصن الاكراد آتاه قاضي جبـلة وهو منصور ابن نبيل ليستدعيه اليه ليسلمها له وكان هـذا القاضي عنـد بوهيموند صاحب انطاكيه وجبله مسموع الكلمة له الحرمة الوافرة والمنزلة العالية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها فحملته

الغيرة للدين على قصد السلطان وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح الدين معه في الرابع من جمادي الاولى فنزل بانطرطوس في سادسه فرأى الصليبين قداخلوا المدينة واحتموا في برجين حصينين نخرب المسمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم وكان الداويه (جمعية الهيكليين) باحدى البرجين فحصرهما صلاح الدين فنزل من بالبرج الثاني وطلبوا الامان فامنهم وسلموه وخرب البرج والقى حجارته في البحر

﴿ فتح جبلة واللاذقية وغيرهما وخبر اسطول صقليه ﴾

ثم رحل السلطان من انطرسوس في الرابع عشر من جمادى الاولى سنة ٥٨٤ ونزل على مرقيه وقد أخلاها سكانها فخيم فيها السلطان وكانت الطريق الى جبلة ضيقة المسالك وهناك لجمعية الأسبتاريه (ضياف الغرباء) حصن اسمه المرقب ولا طريق الا تحت تله ومما اتفق ان صاحب جزيرة صقليه أرسل اسطولا يحتوي على ستين قطعة من الشواني كل واحدة منها مثل قامة ولما وصل الاسطول الى ساحل فلسطين أمام طرابلس سمع بمسير السلطان فجاء ووقف في البحر تحت المرقب ليمنعوا من يجتاز بالسهام فلما رأى السلطان ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلي البحر من اول المضيق الى آخره وجعل وراءها الرماة فمنعوا الصليبيين من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا الى جبلة في اليوم الثامن عشر من ذاك الشهر وتسلمها السلطان وقت وصوله وكان قاضيها قد سبق اليها ودخل فلما وصل السلطان رفع أعلامه على سورها وتحصن الصليبيون الذين كانوا بها بالقلعة فمازال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الامان وان يأخذ رهائن منهم عنده الى ان يطلق الصليبيون رهائن المسلمين الذين بانطاكية وكان قد أخذهم بوهيموند من القاضي . ثم جاء مقدمو الجبل مطيعين وكان في الجبل على طريق حماه حصن يعرف ببكسرائيل وكان استعاده الجبليون من الصليبيين منذ سنين فتسلمه السلطان أيضاً منهم ثم سلم جبلة الى سابق الدين عثمان صاحب شيزر وبجل قاضي جبلة وحكمه في ولاية حكمه وقضائه ثم سار الى اللاذقية فوصل في الرابع والعشرين منه فترك الصليبيون المدينة لعجزهم عن حفظها وصعدوا الى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين وزحفوا عليهما ونقبوا الاسوار ستين ذراعاً وأشعلوا فيها النار وعظم القتال واشتد الامر عند الوصول الى السور فلما أيقن الصليبيون

بالعطب دخل اليوم قاضي جبلة نخوفهم من المسلمين فطلبوا الأمان فأمنهم السلطان ورفعت الاعلام الاسلامية على الحصنين وكان ذلك في اليوم الثالث من النزول عليها وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الابنية وأكثرها زخرفة مملوأة بالرخام على اختلاف انواعه ووصل اسطول صقلية بازاء مينا اللاذقية فلما سلمها الصليبيون الى السلطان عزم من بالاسطول على أسر كل من يخرج منها غيظاً وحنقاً لانهم سلموها سريعاً فلما سمع بذلك اهل اللاذقية أقاموا بها ودفعوا الجزية ثم طلب مقدم الاسطول مقابلة السلطان والامان له فأمنه وحضر بين يديه وقال ما معناه (انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالصليبيين ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم والا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به فيعظم عليك الامر ويشتد الحال) فاجابه صلاح الدين بنحو كلامه من اظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر وانهم ان خرجوا اذاقهم ما اذاق أصحابهم من القتل والاسر فانقلب على وجهه ورجع الى أصحابه

﴿ فتح حصن صهيون وغيره من الحصون ﴾

ثم رحل السلطان عن اللاذقية في يوم الاحد ٢٧ جمادى الاولى سنة ٥٨٤ طالباً صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها صباح الاربعاء ونصب عليها ستة منجنيقات وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة وليس لها خندق محفور الا من جانب واحد وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب فلما اقبلت العساكر الاسلامية وقع فاستبشرت بالنصر واشتد القتال عليها من سائر الجوانب فضربها منجانيق الملك الظاهر ولد السلطان وكان نصبه أمام جهة قريبة من السور وكان الحجر صائباً فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة ولما كان يوم الجمعة ثاني جماد الاخرة عزم السلطان على الزحف وركب وتقدم وتواترت المنجنيقات بالضرب وارتفعت الاصوات وما كان الا ساعة حتى رقي المسلمون على أسوار الربض واشتد الزحف وعظم الامر وهجم المسلمون الربض وانضم من كان في الربض الى القلعة بما امكنهم ان يحملوه من أموالهم ونهب المسلمون باقي الاموال واستدارت العساكر حول أسوار القلعة فلما رأى الصليبيون الهلاك استغاثوا بطلب الامان فأمنهم السلطان على أن يسلموا بانفسهم وأموالهم ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير وعن المرأة خمسة

وعن الصغير دينارين فسامت القلعة وأقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالسيدو بلاطنس وقلعة الجماهريين وغيرها

﴿ فتح بكاس والشغر والسرمانية وبرزيه ﴾

ثم رحل السلطان حتى أتى بكاس وهي قلعة حصينة على جانب العاصي ولها نهر يخرج من تحتها وكان النزول على ذلك الشاطئ يوم الثلاثاء سادس جمادي الاخرة سنة ٥٨٤ فصعد السلطان بجريدة الى القلعة وهي جبل مطل على العاصي فاحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق الى يوم الجمعة تاسع شهره ففتحها عنوة وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان فيها وكان لها قليعة (تصغير قلعة) تسمى الشغر قريبة منها يعبر منها اليها بجسر وهي في غاية المنعة ليس اليها طريق فسلطت عليها المنجنيقات من سائر الجوانب ورأوا انهم لاناصر لهم فطلبوا الامان وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشره وسألوه ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان انطاكية لانها تابعة لها فأذن في ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشره ثم عاد السلطان الى عسكره وسير ولده الظاهر الى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشره فقاتلها قتالاً شديداً وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها أيضاً يوم الجمعة الثالث والعشرين منه ومن غريب الاتفاق ان فتوحات الساحل من جبلة الى سرمانية في أيام الجمع المتوالية وهذا من نوادر الفتوح التي لم يتفق مثلها • ثم سار السلطان بجريدة الى قلعة برزية وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق تحيط بها أودية من سائر جوانبها فحاصرها وفي صباح الاحد الخامس والعشرين منه ركب عليها المنجنيقات وآلات الحصار من سائر نواحيها وشدد القتال وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة ليلا ونهاراً وظل يقاتلها حتى يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه فقسم العسكر ثلاثة أقسام كل قسم يقاتل شطراً من النهار ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر حتى لايفتر القتال ساعة واحدة وكان صاحب النوبة الاولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالا شديداً حتى استوفى نوبته وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه فلما ركب وسار عدة خطوات صاح في الناس فحملوا حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن الا بضع ساعة حتى رقي الناس على الاسوار وهجموا على القلعة فاخذوها عنوة وطلب من فيها الامان وقد ملئت الايدي منهم فلم يك ينفعهم أمانهم ونهب جميع ما كان فيها وأسر جميع من كان بها وكان قد أوى اليها

خلق عظيم وهذه القلعة من قلاعهم المشهورة ويوم أخذها كان يوماً عظيما ثم عاد الناس الى خيامهم غانمين وعاد السلطان الى معسكره وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلاً كبيراً منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً فمنّ عليهم السلطان ورق لهم وانفذهم الى صاحب انطاكية استمالة له لانهم كانوا من ذوي قرباه وكانت هذه القلعة مقابلة لحصن افاميا وتناصفها في أعمالها وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي وقد مدحه الشهاب فتيان الشاغوري بقصيدة منها

لما ملكت حصون انطاكية ... يئس الصليب وحزبه من مظهر
أرديت كل مثلث متكبر ... بموحد متواضع ومكبّر
برزت الى برزية عزمتك التي ... مدّت يداً عن مطلب لم يقصر
فتناولته بيدها من باذخ ... في الافق ذي مثل يروع مسير
فانهض لصور فهي أحسن صورة ... في هيكل الدنيا بدت لمصور
ما سور صور عاصم منه وهل ... سور المعاصم عاصم لمسوّر

﴿ فتح حصن دربساك وحصن بغراس ﴾

ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً ومنه سار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن رجب سنة ٥٨٤ وهي قلعة منيعة قريبة من انطاكية فنزل عليها وقاتلها قتالا شديداً بالمنجنيقات وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ووقفت في الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها وكان كلما قتل منهم رجل قام غيره مكانه وهم قيام عوض الجدار واشتد الامر حتى طلبوا الامان واشترطوا مراجعة انطاكية وكانت القاعدة ان ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير ورقى عليها العلم الاسلامي في يوم الجمعة ثاني عشر رجب وتسلمها بما فيها وسار السلطان الى قلعة بغراس وهي قلعة منيعة أقرب الى انطاكية من دربساك وكانت كثيرة العدة والرجال فنزل العسكر في مرج لها واحدق العسكر بها واقام يزك لحفظها من ناحية انطاكية خوفا من هجوم أهل انطاكية يضرب على بابها بحيث لايمكن أحد الخروج منها ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان على استئذان انطاكية ورقى العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان وتسلمها بما فيها من الاموال والذخائر والغلال وسلمها السلطان مع دربساك الى علم الدين صاحب عزاز وفتح السلطان أبراج ومغارات وشقفان كثيرة حتى خاص ذلك الاقليم

﴿ الهدنة ورجوع السلطان عن انطاكية وفتح الكرك وصفد وكوكب ﴾

لما فتح السلطان بغراس عزم على التوجه الى انطاكية وحصرها فخاف بوهيموند صاحبها فارسل يطلب الهدنة على أن يطلق كل اسير عنده من المسلمين بعد ان استشار الامراء فاشار اكثرهم في ذلك ليرتاح الناس ويجمعوا مايحتاجون اليه أما السلطان فانه اجابه وجعلت مدة الهدنة ثمانية أشهر ثم أرسل رسوله الى بوهيموند ليستلم منه الاسرى وذلك في ثاني شعبان سنة ٥٨٤ وعاد الى حلب في ثالثه ومنها سار الى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار وعسكر الموصل ولما هل رمضان اشير عليه بالاستراحة في شهر الصوم فقال ان العمر قصير والاجل غير مأمون وقد بقي بيد الصليبيين حصن كوكب وصفد والكرك وغيرها ولا بد من اخذها فانها في وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر اهلها وان اغفلناهم ندمنا وكان السلطان قد جعل على الكرك من يحصره فلازموا حصاره مدة طويلة حتى فنيت ازواد أهله وذخائرهم وأكلوا دوابهم فراسلوا الملك العادل اخا صلاح الدين ونائبه على هذه البلاد يبذلون تسليم القلعة اليه ويطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأرسل الى مقدم العسكر المحاصرين بذلك فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضاً مايقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وارتاح المسلمون من تلك النواحي . ثم سار السلطان في منتصف شهر رمضان الى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمي ليلا ونهاراً بالحجارة والسهام وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم وأزوادهم النفوذ في المدة التي كانوا فيها محصورين فخافوا من بطشه فارسلوا اليه يطلبون الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا منها وساروا الى مدينة صور . ولما كان السلطان محاصراً صفداجتمع من في مدينة صور وقالوا ان فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذه البلاد واتفق رأيهم على ارسال نجدة اليها سراً من رجال وسلاح وغير ذلك فارسلوا مائتي رجل من شجعانهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين واتفق ان رجلا من المسلمين المحاصرين كوكب خرج للاصطياد فلقي رجلا من تلك النجدة فاستغرب وجوده بتلك الارض فضربه ليعلمه بحاله وسبب قدومه الى هناك فاقر ودله على اصحابه فعاد الجندي المسلم الى قايماز النجمي وهو مقدم العسكر

فاعلمه الخبر والافرنجي معه فركب في طائفة من رجاله الى الموضع الذي احتفى فيه الصليبيون فكبسهم فاخذهم على غرة وتبعهم في الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد وكان معهم مقدمان من الاسبتارية (جمعية ضياف الغرباء) فحملوا الى السلطان وهو على صفد ولما احضر المقدمين احضرهما ليقتلهما وكانت عادته قتل الداوية (جمعية الهيكليين) والاسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم قال له أحدهما لا أظن ان ينالنا سوء وقد نظرنا الى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان السلطان كثير العفو والاستعطاف يقبل الاعتذار فيعفوا ويصفح فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بسجنهما . ثم سار الى قلعة كوكب ونازلها وحاصرها وأرسل الى من بها يعلمهم بانهم اذا سلموا آمنهم واذا امتنعوا يقتلهم وينهبهم فلم يصغوا اليه واصروا على الامتناع فجد في قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رشقهم بالاحجار وزحف مرة بعد مرة وكانت الامطار كثيرة لا تنقطع ليلا ولا نهاراً فلم يتمكن المسلمون من القتال كما يريدون وطال مقامهم الى أن زحف اليها دفعات في يوم واحد فوصلوا الى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا الى السور الاعلى فلما رأى الصليبيون ذلك اذعنوا بالتسليم وطلبوا الامان فأمنهم وتسلم الحصن منهم في منتصف القعدة وسيرهم الى صور فوصلوا اليها واجتمعوا بها . وكانت صور قد امتلأت بالصليبيين وابطالهم لان أهل جميع البلاد التي فتحت ساروا اليها وأرسلوا الى أوروبا يطلبون النجدة كما تقدم فلذلك تكدر السلطان صلاح الدين لتركه صور وعدم استيلائه عليها قبل فتح القدس وعض بنانه ندماً وأسفاً . وسار الى القدس وعيد فيها عيد الاضحى ومنها الى عكا فاقام بها الى آخر السنة

﴿في بناء استحكامات عكا وحصار شقيف ارنون﴾

قلنا ان السلطان أقام بعكا في آخر سنة ٥٨٤ فامر باحضار بهاء الدين قراقوش من مصر ومعه المهندسون وطائفة البنائين ومايلزمهم لعمارة سور عكا واستحكاماتها فوصلوا في شهر محرم سنة ٥٨٥ والسلطان مقيم بها فاقام بهاء الدين قراقوش والياً عليها وأمر ببناء السور أمتن بناء وترك معه حسام الدين بشاره وسار الى دمشق فوصلها في مستهل شهر صفر وأقام بها وجاءه من بغداد رسول الخليفة فامر بالخطبة لولي العهد عدة الدين أبي الفضل نصر محمد بن الامام الناصر فخطب له بذلك في يوم الجمعة ١٣ صفر ثم عاد الرسول ومعه رسول من السلطان بهدايا عظيمة واسرى من

الصليبيين والصليب الذي كان على قبة الصخرة (وقيل صليب الصلبوت الذي اخذ في واقعة حطين) وتاج ملك القدس · وفي يوم الجمعة الثالث من ربيع الاول خرج السلطان من دمشق فسار حتى نزل في مرج فلوس ونزل في صباح يوم السبت رابع شهره في مرج برغوث فاقام به والعساكر تتابع الى الحادي عشر ورحل الى بانياس ومنها الى مرج عيون نخيم به وهو قريب من شقيف ارنون فكان يركب كل يوم يشارفه ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب نخاف صاحب الحصن من كثرة العساكر وعلم ان لاقدرة له عليها فرأى بان الصلح مع السلطان هو اسلم طريق الى سلامته فنزل بنفسه الى باب خيمة السلطان وطلب الاذن في الدخول فاذن له فدخل فاحترمه السلطان واكرمه وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث وكان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وأكل مع السلطان الطعام ثم خلا به وذكر انه تحت طاعته وأن يسلم اليه الحصن من غير تعب وطلب أن يعطي موضعاً لسكنه في دمشق لانه لايقدر بعد ذلك على مساكنة الافرنج واقطاعاً بدمشق تقوم به وباهله وان يفتح له مدة ثلاثة شهور ليظل في حصنه ويتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور ويأخذ غلة هذه السنة فاجيب الى ذلك كله وأقام يتردد الى خدمة السلطان في كل وقت ويناظر المسلمين في صحة دينه ويناظرونه في بطلانه وكان حسن المحاورة متأدباً في حديثه ثم ظهر ان جميع ذلك مخادعة منه لطول الوقت وظهر على ذلك دلائل كثيرة في تحصيل الميرة واتقان الابواب فرأى السلطان أن يصعد الى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع كل نجدة وميرة تأتيه واظهر ان ذلك فراراً من وخم المرج فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فماطله السلطان وقال نفكر في ذلك ونأخذ رأي الجماعة ثم وكل به من حيث لايشعر فانكشفت سريرته الغادرة فقبض عليه السلطان وطلب تسليم الحصن فقال انا انفذ الى نوابي في التسليم وكان قد أوصاهم بما يفعلونه فقالوا لانسلم ويبقى عندكم مكانه فقيدوه وحملوه الى قلعة بانياس ثم احضره السلطان في سادس رجب وهدده وتوعده فلم يفد فأمر بسجنه في دمشق وعين بعض الامراء لحصار الحصن صيفاً وشتاء

﴿ مناوشات بين الصليبيين وعساكر المسلمين ﴾

قلنا ان مدينة صور امتلأت بالصليبيين الذين اتوها من جميع البلاد التي فتحها المسلمون ولما وجدوا كثرتهم اتفقوا جميعاً على مهاجمة المسلمين فخرجوا وعسكروا على باب صور · وبينما كان السلطان في مرج عيون محاصراً شقيف ارنون يوم الاثنين سابع عشر

جمادى الاولى سنة ٥٨٥ بلغه من اليزك ان الصليبيين قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وهي الارض التي عليها السلطان فركب نحو اليزك وكان جماعة من الصليبيين قد عبروا الجسر فنهض اليهم يزك الاسلام وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجرحوا اضعاف ما قتلوا ورموا في النهر جماعة فغرقوا ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بايبك الاخرش وكان شجاعاً باسلا مجرباً للحرب ممارساً له جمح به فرسه فلجأ الى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني نشابه ثم بالسيف حتى قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه وفي يوم الاربعاء تاسع عشر من ذاك الشهر ركب السلطان كي يشرف على القوم على عادته فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة فامرهم بالرجوع فلم يفعلوا وخاف عليهم لان المكان حرج وليس للراجل فيه ملجاء ثم اندفع الرجالة على الجسر وناوشوا العدو القتال وعبر منهم جماعة اليهم وجرى بينهم قتال شديد واجتمع عليهم من الصليبيين خلق عظيم لانهم علموا ان ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان لانه كان بعيداً عنهم ولم يكن معه عسكر لانه لم يخرج للقتال وانما ركب مستشرفاً عليهم على عادته ولما بانت له الواقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والصليبيين قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفر الصليبيون بالرجالة ظفراً عظيماً وأسروا جماعة وعدّ من قتل من الرجالة فكان ١٨٠ في ذلك اليوم وقتل من الصليبيين عدد عظيم وغرق أيضاً منهم كثيرون وكانت هذه الواقعة لم يتفق للصليبيين مثلها ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في هذه الواقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرر معهم ان يهجم على الصليبيين ويعبر الجسر ويقاتلهم ويستأصل شافتهم وكانوا قد رحلوا عن صور ونزلوا قريباً من الجسر وبين الجسر وصور فرسخ وزيادة فلما صمم على ذلك رحل الصليبيون عائدين الى صور ملتجئين الى سورها فرأى ان يسير الى عكا ليلاحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي فسار على تبنين ولم يرجع على مرج عيون فمضى الى عكا ورتب أحوالها وعاد الى العسكر بمرج عيون منتظراً مهلة صاحب الشقيف ولما كان يوم السبت سادس جمادى الاخرى بلغه ان جماعة من رجالة العدو يخرجون الى جبل تبنين فيحتطبون ووراءهم من الفرسان من يحفظهم فارسل الى عسكر تبنين ان يخرج منهم نفر يسير الى أولئك المحتطبين فاذا تبعتهم خيل العدو ينهزمون الى جهة عينها لهم وان يكون ذلك في صبيحة يوم الاثنين ٨ منه

وأرسل الى عسكر عكا ان يسير حتى يكون وراء عسكر الصليبيين حتى اذا تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم وركب هو وعسكره الى الجهة التي عينها الهزيمة عسكر تبنين ورتب عسكره ثمانية اطلاب واستخرج من كل طلب عشرين فارساً وأمرهم ان يتراآوا للعدو حتى يخرج اليهم ويناوشهم فيهربون من وجهه حتى يصلوا الى الكمين ففعلوا وخرج اليهم من الصليبيين معظم عسكرهم وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وانفت من الانهزام وحماتها الحمية على مخالفة السلطان واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الامر وقد هجم الليل فبعث بعوثا كثيرة فعاد الصليبيون ناكصين على أعقابهم ومن نوادر هذه الواقعة ان مملوك للسلطان اسمه ايبك الساقي وقع عن فرسه فجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فجرح منهم عدة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو على آخر رمق فظنوه ميتاً فتركوه وانصرفوا عنه ثم ان المسلمين جاؤا في صباح يوم الثلاثاء ٩ منه الى موضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حياً فحملوه في كساء وهو لايعي شيئاً فيئسوا من حياته فعرضوا عليه الشهادة وتركوه وعادوا اليه فرأوه قد قويت نفسه فاقبلوا عليه بمشروب فعوفي وكان بعد ذلك لايحضر موقعة الاكان له فيها أثر عظيم ثم عاد السلطان الى مخيمه في يوم الاربعاء ١٠ منه

﴿محاصرة الصليبيين عكا ومحاربتهم ومصارعة الصبيان﴾

لما كان السلطان على حصن الشقيف بلغه ان الصليبيين خرجوا بجمعهم من مدينة صور وساروا قاصدين عكا بقيادة ملكهم غوي الذي كان أسيراً وأطلق سراحه السلطان فلم ير المسارعة بالمسير الى عكا خوفا من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف فاقام مستكشفاً للحال الى يوم الاحد ثاني عشر رجب سنة ٥٨٥ فوصل رسول يقول ان الصليبيين رحلوا ونزلوا عين بصه ووصل أوائلهم الى الزيب فعظم عنده ذلك وكتب الى سائر أرباب الاطراف بالمسير اليه وسار السلطان بالثقل (عموم الجيش) ليلا وأصبح يوم الأثنين ١٣ منه سائراً الى عكا على طريق طبرية اذ لم تكن طريق أخرى تسع العسكر وسير جماعة على طريق تبنين يستشرفون العدو ويواصلونه باخباره وظل مواصلا الزحف حتى اتى الجولة في منتصف النهار فنزل فيها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضع يقال له المنية صباح الثلاثاء وفيه بلغه خبر نزول الصليبيين على عكا فارسل صاحب الشقيف الى دمشق

ليسجن فيها وسار السلطان بجريدة من المنية حتى تقابل ببقية العسكر الذي كان قد أرسله بطريق تبنين بمرج صفورية الذي واعدهم اليه وأمر الثقل ان يلحقة الى مرج صفورية ولم يزل سائراً حتى شارف العدو من الخروبة وبث بعض العسكر فدخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعثاً بعد بعث حتى اجتمع فيها خلق كثير وسار من الخروبة الى تل كيسان في أوائل مرج عكا فنزل عليه وأمر الناس ان ينزلوا على التعبية فكان في آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر الميمنة بالقرب من تل العياضية واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لايخرج منها أحد الا يجرح أو يقتل وكان عسكر الصليبيين على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد وعدد فرسانهم الفان وعدد راجلهم ثلاثون الفاً وكان المدد يأتيهم من البحر خصوصاً ممن اتاهم من طائفتي الفريزيين والدانيين وعددهم اثنا عشر الف غير الذي آتاهم من الانكليز والفلامنديين وكان مقدمهم رئيس أساقفة كانطورباري ويعقوب دي افسناس الفلامندي وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والمسلمون يتهافتون على قتالهم والسلطان يمنعهم من ذلك الى وقته ثم وصل تقي الدين من حماه ومظفر الدين بن زين الدين واستفحل أمر الصليبيين فاستداروا بالبلد في آخر شهر رجب ومنعوا الناس من الدخول والخروج اليها فعظم على السلطان ذلك وضاق صدره وثارت همته العالية في فتح الطريق الى عكا لتستمر وصول الميرة والنجدة اليها فباكرهم في أول شعبان وضايقهم مضايقة شديدة فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة وانتشر عسكر الصليبيين الى ان ملكوا التلول وكانت ميسرة عسكرهم الى البحر الحلو ممتدة الى البحر المالح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا واتصلت الحرب الى ان حال بين الفئتين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الاخرى واصبحوا يوم السبت ثاني شعبان على القتال وانفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين الى البحر من شمالي عكا ولم يكن هناك للصليبيين خيم لكن عسكره كان قد امتد جريدة شمالي عكا الى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الصليبيين الواقف شمالي عكا فانكسروا كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً والتقت السالمون منهم الى خيامهم وهجم المسلمون خلفهم الى أوائل خيامهم ووقف اليزك الاسلامي مانعاً من ان يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل اليه داخل وانفتح

الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذي جدده وصار الطريق آمناً واليزك بين الطريق وبين العدو ودخل السلطان في ذلك اليوم عكا ورقي على السور ونظر الى عسكر الصليبيين . وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقيا الدواب والاستراحة ولم يعودوا الى القتال وفي صباح الاحد ثالثه رأى بعض الامراء تأخير القتال الى ان يدخل الجيش الراجل كله الى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو ومن ورائه وتركب العساكر من خارج من سائر النواحي ويحملون حملة الرجل الواحد وكان السلطان يعاين هذه الامور كلها بنفسه ويلاحظها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى وقال أحد اطبائه انه بقي من يوم الجمعة الى يوم الاحد لم يتناول من الغذاء الا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه وفعلوا ما كانوا قد عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس وتمطر سماء حربها الرؤس من كل رئيس ومرؤس حتى كان يوم الجمعة ثامنه فعزم الصليبيون على الخروج بجموعهم فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين في نفوسهم ولا خارجين من راجلهم والرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضا حتى قاربوا خيام اليزك فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا باجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد فعاد الصليبيون ناكصين على عقبهم والسيف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح والعاطب طريح يشتدون هزيمة فيعثر جريحهم بقتيلهم حتى لحق خيامهم من سلم منهم وكفوا عن القتال اياماً وكان قصاراهم ان يحفظوا نفوسهم واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون اليها . ثم رأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون الى مصارعهم فنقل الثقل الى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو . ثم بلغ السلطان ان جماعة من الصليبيين تخرج للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فامر السلطان بان يكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لحقهم على خيلهم فهجموا عليهم وقتلوا منهم حلقاً عظيما واسروا جماعة واحضروا الرؤس بين يديه وذلك يوم السبت تاسع عشره وفي مساء ذلك اليوم كانت حرب شديدة بين أهل البلد والصليبيين قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين وطال الامر بين الفئتين ولا يخلو يوم عن قتال وانس البعض بالبعض حتى ان الطائفتين كانتا تتحدثان معاً ويتركان القتال ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة وسئموا يوماً فقالوا الى كم يتقاتل الكبار وليس

الصغار حظ نريد ان يصطرع صبيان صبي منا وصبي منكم فاخرج صبيان من البلد الى صبيين من الافرنج فوثب أحد الصبيين المسلمين على احد الصبيين الافرنج فاحتضنه وضرب به الارض واخذه اسيراً فاشتراه منه بعض الصليبيين بدينارين وقالوا هو اسيرك حقاً فاخذ الدينارين واطلقه

﴿ ورود المدد للصليبيين وواقعة عكا الكبرى ﴾

ومازالت الامداد تتوالى على الصليبيين من البحر مع المراكب من بلادالبندقية وبيزا وجنوى وكذلك عدد وافر من العساكر الفرنساوية والايطالية والنمساوية والانكليزية واتحدوا مع الصليبيين الآخرين وكان يوجد بين الصليبيين الجدد أساقفة ورؤساء كنائسيون وامراء ودوكات مثل كونت دي فرارا وانسلموس أمير المونت راله وفيس كونت دي شاطالاروتل وحاكم برغاس مع رئيس اساقفة بيزا وارملة ملك الدانيمرك وصحبتها ٤٠٠ عسكري ٠وغوي دي دامياراواسقف نيرونا وصلا مع بعض عساكر رومانية وجمعوا جميع جنودهم واعلامهم الى جنود الصليبيين الذين كانوا برئاسة غوي (الذي كان أسيراً) يحاصرون عكا حتى اصبح جيش الصليبيين نيفاً ومائة الف مقاتل ثم قر رأيهم على مقاتلة المسلمين قتالا شديداً فرتبوا صفوفهم كما يأتي فالملك غوي تقدم على العساكر الفرنساوية وعلى خيالة الاسبتارية (جمعية ضياف الغرباء) وامامه أربعة فرسان حاملون بشائر الانجيل المقدس والشاب كونراد صاحب صور ترأس جنود البندقية ولومبارديا وأهل صور ولاندغرافا دي طورينجا ترأس العساكر النمساوية والبيزاوية والانكليزية في وسط الحرب ٠ والدوك دي غوالدرا قاد عساكره وفرسان الداوية (جمعية الهيكليين) وأقاموا الخفر منهم ورؤساء كنائس رافينا ٠ وبيزا ٠ وبيزانصون ٠ وكانطورباري ٠ وبوفيس ٠ وغاميراي ٠ وغيرهم تسلحوا بالخوذ والزرديات وفي يوم الاربعاء الحادي والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٨٥ تحرك الصليبيون فأمر السلطان صلاح الدين أن ينادي في الناس ياللاسلام فركبوا وكان السلطان قد انزل الجند في الخيم ميمنة وميسرة وقلباً على تعبية الحرب حتى اذا وقعت صيحة لايحتاجون الى ترتيب جديد وكان هو في القلب وفي ميمنة القلب ولده الافضل ثم ولده الظافر ثم عسكر الموصل يتقدمهم ظهير الدين ابن البكنكري ثم عسكر ديار بكر وعليه قطب الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس ثم قاعاز النجمي وجموع عظيمة تتصل بطرف الميمنة ويليها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر

وأما اوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن احمد المشطوب من كبار ملوك الاكراد والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين وعسكره وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين ياز كوج ورسلان بغا وجماعة الاسديه الذين يضرب بهم المثل وكان في مقدمة القلب الفقيه عيسى والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه يحثهم على القتال ويدعوهم الى النزال ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضي منه أربع ساعات وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين واخرج لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على تقي الدين وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً اطماعاً لهم لعلهم ينفصلون عن اصحابهم فينال منهم غرضه فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً فامده باطلاب من القلب حتى قوى جانبه وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في قلب معسكر الصليبيين ضعف من في قلب المسلمين ومن خرج منه من الاطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم على عسكر ديار بكر فانكسروا كسرة عظيمة وسرى الامر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين الى العياضية لانهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من الصليبيين الى خيم السلطان فقتلوا طشت دارا واسماعيل المكبس وابن رواحة وأما الميسرة فانها ثبتت وأما السلطان فانه أخذ يطوف على الاطلاب ينهضهم ويوعدهم ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم ياللاسلام ولم يبق غير خمسة رجال معه وهو يطوف ويتخرق الصفوف واوى الى تحت التل الذي كانت عليه الخيام اما المنهزمون من العسكر فبلغت هزيمتهم الى الاقحوانة وراء جسر طبرية والحقهم الصليبيون الى العياضية فقط حتى اذا ماراؤهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم الى عسكرهم فلقيهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة واما الذين صعدوا الخيم فلم يقتلوا غير الثلاثة المذكورين ثم راوا ميسرة الاسلام ثابتة فعلموا ان الكسرة لم تتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم والسلطان واقف تحت التل يجمع الناس ليعودوا الى الحملة على العدو فلما رأى الصليبيين نازلين عن التل اراد رجاله لقاءهم فامرهم بالصبر الى ان ولوا ظهورهم واسرعوا يطلبون اصحابهم فصاح في الناس فحملوا عليهم وقتلوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم

حتى لحقوا أصحابهم والطرد وراءهم فلما رأوهم الصليبيين منهزمين والمسلمون خلفهم في عدد كثير ظنوا ان من حمل منهم قد قتل وانه أنما نجا منهم هذا النفر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتحايا الرجال وتداعت وتراجعت الناس من كل جانب وظل المسلمون يقتلون ويضربون الى ان وصل المنهزمون الى معسكرهم فهجم المسلمون عليهم في الخيام فخرج منهم أطلاب كانوا عدوها خشية من هذا الامر مستريحة فردوا المسلمين وكان التعب قد أخذهم والعرق قد الجمهم فتراجعوا عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم فرحين مسرورين وعاد السلطان وجلس وحصروا من قتل منهم من الغلمان والمجهولين ١٥٠ نفراً ومن المعروفين استشهد ظهير الدين أخو الفقيه عيسى والامير مجلي ابن مروان والحاجب خليل الهكاري ومن قتل من الصليبيين بلغ سبعة آلاف وقيل أقل . في أثناء هزيمة المسلمين رأت الغلمان خلو الخيام من معارض لان العسكر انقسم قسمين منهزم ومقاتل ولم يبق في الخيم أحد فظنوا ان الكسرة تمت على المسلمين وان العدو سينهب جميع مافي الخيم فاسرعوا هم في نهب جميع ما فيها فلما عاد السلطان الى الخيم ورأى ما حصل سارع في ارسال الكتب والرسل برد المنهزمين وتتبع من شذ من العسكر فردهم وأخبرهم بانتصار المسلمين وأمر السلطان بجمع الاقمشة من اكف الغلمان فجمعوا ذلك حتى المخالى امامه فامر بان كل من يعرف له شيئاً وحلف عليه يسلم له أما الصليبيون فانهم عادوا الى خيمهم وقد قتلت شجعانهم وقتل مقدموهم وأمر السلطان باخراج عربيات من عكا ليحملوا القتلى ويرموهم في النهر ثم جمع رؤساء جيوشه واستشارهم فيما يفعل وهل يناجز العدو أم لا فقالوا جميعاً الاوفق ان ننتظر قدوم الملك العادل وتستريح العساكر لان العساكر قد تعبت جداً وعند قدوم الملك العادل نشركه في الرأي فوافقهم على ذلك وأشير على السلطان بالانتقال الى الخروبة فسار اليها رابع رمضان وأمر باغلاق أبواب عكا فوجد الصليبيون بذلك فرجاً لهم وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حوالى عكا من البحر الى البحر وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصر . وعملوا حولهم سوراً من تراب حفر الخندق فكان معسكرهم كانه بلد ورتبوا على سورهم رجالا لحفظه . وكان الذي أوجب رحيل السلطان من هذا الموضع هو فساد الهواء بدم المقتولين ونتانة الرائحة

﴿ وصول العساكر المصرية والاسطول المصري وهجوم الصليبيين على اليزك ﴾

في منتصف شهر شوال سنة ٥٨٥ وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فلما وصل قويت النفوس به وبمن معه واشتدت ظهورهم وأحضر معه من آلات الحصار ومن الدرق والطارقيات والنشاب والاقواس شيئاً كثيراً وفي منتصف شهر القعدة وصل الاسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤ فجاءة على مراكب الصليبيين فبغتها وسحقها وبددها وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما من أموالهم ورجالهم وغلالهم وكان عدد مراكب الاسطول خمسين مركباً فيها زهاء عشرة آلاف مقاتل وأرسل السلطان الى عكا في المراكب جماعة من الامراء باجنادهم وأزوادهم فاستظهر بهم من بالبلد وبالاسطول وحمدوا الله وأخذت العساكر الاسلامية تخرج الى العدو ليلا وتذيقه مرارة القتل والاسر والسرقة وكانوا يختفون بالحشيش في أجراف الانهار ليفتكوا بمن يرد الماء وقد وأرسل صاحب الموصل الى السلطان من أحمال النفط الابيض شيئاً كثيراً مع عزة وجوده ومن التروس والرماح من كل جنس أحكمه وأجوده وأقام السلطان بموضعه بالخروبة مدة الشتاء وكان يزكه وطلائعه لا تنقطع عن الصليبيين فلما هل شهر صفر سنة ٥٨٦ سمع الصليبيون بان صلاح الدين قد سار للصيد ورأوا العسكر الذين في اليزك قليلا وان الاوحال التي في مرج عكا كثيرة تمنع من سلوك من يريد ان ينجد اليزك فاغتنموا الفرصة وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحموا أنفسهم بالنشاب حتى فنى نشابهم فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم الامر وعلم المسلمون انه لا ينجيهم الا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل الى ان جاء الليل وقتل من الفريقين جمع كثير وعاد الصليبيون الى خنادقهم . ولما عاد السلطان الى المعسكر بلغه الخبر فندب الناس الى نصرة اخوانهم فاتاه الخبر ان الصليبيين قد وصلوا مأمنهم

﴿ احراق أبراج الصليبيين وواقعة الاسطول ﴾

كان الصليبيون مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة ابراج من الخشب عالية جداً طول كل برج منها ستون ذراعاً وعملوا كل برج منها خمس طبقات وكل طبقة مملوأة بالمقاتلة وغشوها بالجلود المدهونة بالخل وطلوها بما يمنع النار من احراقها

وأصلحوا الطرق لها وعملوها بعجل لاجل جرها وتسييرها الى حيث شاءوا وشرعوا في طم خندقها وزحفوا بها في ٢٠ ربيع اول سنة ٥٨٦ فأشرفت على السور وقاتل من بها من عليه وانكشف من بالبلد وأشرفت البلد على الهلاك وكان السلطان لما وجد البلد محصورة وغب بعض الناس في السباحة ودخول الميناء فكانوا واسطة في المفاوضة بينه وبين البلد فأرسل اهلها احد العوامين الى السلطان وأخبروه بتلك الابراج وبضررها وانها اذا استمرت أخذ العدو البلد عنوة فركب مسرعاً بعسكره وتقدم الى الصليبيين وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائماً يشغلهم عن اهل البلد فافترق الصليبيون فرقتين فرقة تقاتل السلطان وفرقة تقاتل اهل عكا ولكن خف الامر عنهم ودام القتال ثمانية ايام متتابعة آخرها ٢٨ منه وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلا ونهاراً والمسلمون تيقنوا من استيلاء العدو على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الابراج لانهم لم يتركوا حيلة الا عملوها ولم يفدهم ذلك شيئاً وتابعوا رمي النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فمن الطاف الله بهم ان شخصاً من اهل دمشق اسمه علي ابن شيخ النحاسين كان في عكا وهو مولع بجمع آلات النفاطين وايجاد عقاقير تقوي عمل النار . فلما رأى تلك الابراج وما فعلته باهل المدينة شرع في عمل ما يعرفه من تلك الادوية المقوية للنار ولما فرغ منها حضر الى الامير بهاء الدين قراقوش حاكم البلد وقال له ان يأمر المنجنيقي ان يرمي بالمنجانيق المحاذي لاحد هذه الابراج ما أعطيه لكي يحرقه وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد غيظاً بقوله وقال له قد بالغ اهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط فلم يفلحوا فقال له من حضر لعل الله جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا اذا وافقناه على كلامه فأجابه الى ذلك وأمر المنجنيقي بامتثال أمره فرمى عدة قدور خالية من النفط والصليبيون اذا رأوا القدور لا تحرق شيئاً يفرحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج حتى علم ان الذي القاه قد تمكن من البرج التى قدرة مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج ورمى ثانية وثالثة فاضطرمت النيران في نواحي البرج فاحترق بما فيه من السلاح والزرديات وكان شيئاً كثيراً وكان الصليبيون قد استهانوا امر القدور الاولى لانها لم تفعل شيئاً فاطمأنوا وتركوا السعي في الخلاص ولما احترق البرج الاول انتقل الى البرج الثاني وقد هرب من فيه خوفاً فأحرقه وكذلك الثالث وكان ذلك يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله والمسلمون ينظرون فرحين وقد

أبرقت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر وخلاصهم من القتل وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه شيئاً وقال انا عملت ذلك لوجه الله تعالى ولا أريد الجزاء الا منه وارسل السلطان يطلب العساكر الشرقية فأول من أتاه عماد الدين زنكي وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم اتاه علاء الدين بن عز الدين مسعود سيره ابوه مقدماً على عسكره وهو صاحب الموصل ثم وصل زين الدين يوسف صاحب اربل وكان كل منهم اذا وصل يتقدم الى الصليبيين ويقاتلهم ثم ينضم الى الآخرين ووصل الاسطول من مصر فلما سمع الصليبيون بقربه جهزوا اسطولاً ليلقاه في طريقه ويقاتله فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من كل جهة ليشتغلوا بقتاله عن قتال الاسطول فيتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا وخرج اسطولهم وكانت الناس خرجت على جانب البحر تقوية للاسطول وايناساً له ولرجاله والتقى الاسطولان في البحر والعسكران في البر واضطرمت نار الحروب واستعرت وباع كل فريق روحه وجرى قتال شديد انقشع عن نصرة الاسطول المصري بعد اخذ مركب منه وقتل من باسطول الصليبيين ونهب ما فيه وأُخذ منه مركباً ايضاً ودخل الاسطول المصري المنصور الى عكا وكان قد صحبته مراكب من الساحل فيها مير وذخائر وطابت قلوب اهل البلد بذلك وانشرحت صدورهم واتصل القتال بين العسكرين خارج البلد الى ان فصل بينهما الليل وعاد كل فريق الى خيمه وقتل من الصليبيين في هذا اليوم كثيرون لان اهل البلد اشتدوا في قتالهم والاسطول وعساكر السلطان فكان قتال الصليبيين في ثلاث مواضع.

﴿ الحروب الصليبية الثالثة ﴾

(سفر ملك النمسا والمانيا الى فلسطين وما جرى له ووفاته)

ثم أقام الملك فريدريكوس عوضاً عنه في تدبير المملكة مدة غيابه عنها ولده هنريكوس وسافر من راتيسبونا بعسكره مجتازاً بلاد هونكريا ثم بلغاريا حيث لاقت العساكر النمساوية موانع واهانات كثيرة من سكانها فكان كل من كان يقع في ايديهم يعذبونه ويربطونه من رجله في الشجر منكساً . وكان جالساً على تخت القسطنطينية الملك اسحاق فلما بلغه قدوم العساكر النمساوية ارسل الى السلطان صلاح الدين يخبره بذلك ووعده بمنعهم من العبور وأمر عساكره بمحاربة النمساويين فلما وصل الملك فريدريكوس الى مدينة فيلبوبولي تحقق ان وفده الذي ارسله

الى ملك الروم مسجون بالقسطنطينية وكان يظن ملك الروم صديقاً له فوجده عدواً فغضب وأخذ يحارب جميع المدن التي يجتازها حتى انه امتلك المدن الآتية · ادريانوبولي · ديديموتيك · سايفريا · فاليبولي · وسائر السهول الواقعة على شاطئ بوربونديا الايمن مع هاليسبونت وكادت تقع مدينة القسطنطينية في يده وكانت العساكر المقبلة من بلاد البندقيــة ومن انكونا ومن جنوى بمراكبهم قد علمت بما جرى للعساكر الصليبية النمساوية فعزموا على ضرب مدينــة القسطنطينية من البحر فحينئذ خاف الملك اسحاق ملك الروم من هذه الجيوش فاطلق سراح وفد ملك النمسا وقدم الذخائر للصليبيين وهيأ لهم ١٥٠٠ مركب و ٢٦ غلياطه لاجــل نزول العساكر النمساوية فيها ونقلهم الى موانئ اسياولما نزلوا باراضي اسيا الصغرى مارين بمملكة قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان ثار بهم التركمان وظلوا يترصدونهم ويقتلون من انفرد منهم وكان الزمن شتاء وقــد أهلكهم البرد فلما قربوا من مدينة قونيه خرج اليهم الملك قطب الدين ملك شاه ابن قليج ارسلان وحاربهم فلم يقدر عليهم فعاد الى قونيه وسار الصليبيون وراءه ولكنهم ضلوا الطريق وساروا في ارض لا ماء فيها حتى هلكوا من العطش ومن الجوع وكانوا يترامون في الطرق ويستخرجون دم الخيل ويمتصونه الى ان وصلوا الى مدينة قونيه فارسلوا الى قليج ارسلان هدايا عظيمة وقالوا له ما قصدنا بلادك ولا اردناها وانما نحن نقصد البيت المقدس وطلبوا منه ان يأذن لرعيته في اخراج ما يحتاجون اليه من قوت وغيره فاذن في ذلك فاتاهم ما يريدون فشبعوا وتزودوا وقال المؤرخون النمساويون ان الملك فريدريكوس لما وصــل الى مدينة قونيه حاربها حتى امتلكها) وساروا الى بلاد الارمن فنالهم تعب زائد ومشقة عظيمة وفي ذات ليلة حصلت زلزلة عظيمة وشعروا بقعقعة الاسلحة وصهيل الخيل كان جيوشاً قد فاجأتهم فتقطعت قلوبهم خوفاً ولكنهم لم يروا احداً فكانوا يتساءلون عن سبب ذلك فقالت رؤساؤهم ان في ذلك رمزاً عن قرب حصول حادث مهول يقعون فيه (وهذا ما ذكره مؤرخوهم أيضاً) ثم وصلوا الى بلاد الارمن وصاحبها لافون ابن اصطفان فارسل اليهم وفداً لمقابلتهم وقدموا لهم جميع ما يحتاجون اليه من ذخائر وزاد وغيره من العلف وقدموا لهم الطاعة ثم سار الصليبيون قاصدين انطاكية فحصل لهم من التعب ما لا يوصف ثم ساروا وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ونزل الملك فريدريكوس في النهر ليغتسل فغرق في مكان لا يبلغ الماء فيه وسط الرجل فاعترته قشعريرة شديدة وطلب الاغاثة

فاخرجوه ميتاً وحزنوا عليه حزناً شديداً وكان معه ولده فاقاموه ملكا مكانه ولكن الخلاف وقع بينهم فاحب بعضهم العود الى بلاده وبعضهم مال الى تمليك أخيه فعادوا وسار ولده فيمن رضي به ملكا قاصداً انطاكية فوصلوها وقد تفشى بينهم الوباء فاهلكهم ويددهم فحسن لهم صاحبها المسير لمشاركة الصليبيين في حصار عكا فساروا على جبلة واللاذقية وغيرها من البلاد التي ملكها المسلمون وخرج اهل حلب اليهم واخذوا منهم خلقاً كثيراً ومات اكثر من أخذ فبلغوا طرابلس واقاموا بها اياماً فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم الا الف رجل وعلى قول مؤرخيهم خمسة آلاف نسمة (فانظر الى لطف الله كيف خرجت هذه الحملة الصليبية من بلادها نحو ٢٠٠ الف مقاتل وقيل اكثر وكيف بقي منهم الف فارس) ثم وصلوا الى عسكر الصليبيين حول عكا فوجدوهم في خلاف وكان الملك قليج ارسلان يكاتب السلطان باخبارهم ويعده انه يمنعهم من العبور في بلاده فلما عبروها ارسل يعتذر بالعجز عنه لان اولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته فلما ورد الخبر الى السلطان بعبور الملك فريدريكوس استشار امراءه فاشار كثير منهم بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل وصولهم الى عكا فقال السلطان بل نقيم الى ان يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستلم من بعكا من عساكرنا ولكنه سير من عنده من العساكر عسكر حلب وجبلة واللاذقية وشيزر وغير ذلك ليكونوا في اطراف البلاد يحفظونها من العدو فكفى الله المسلمين القتال

﴿ الواقعة العادلية على عكا بين الصليبيين والمسلمين ﴾

لما أرسل السلطان العساكر الاسلامية الى بلادها خوفاً من ملك النمسا وعلم الصليبيون ان العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد وان الميمنة قد خفت لان معظم من سار كان منها أجمعوا رأيهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم الملك العادل فلما بصر الناس بهم صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها وركب السلطان وصاح منادياً يا للاسلام وكان هو أول راكب وهو كالفاقدة لولدها الثاكلة لوحيدها ثم ضرب الصنوج فاجابته صنوج الامراء من أماكنها وركب الناس وسارع الصليبيون في قصد الميمنة حتى وصلوا الى مخيم الملك العادل قبل ان تركب جميع العساكر ودخلوا في وجاقه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي

وعز الدين جرديك النوري ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم فى المخيم ويشتغلوا بالنهب وكان كما ظن ولما علم باشتغالهم بالنهب صاح بالناس وحمل بنفسه يتقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة واتصل الامر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح الى عسكر الموصل وهجموا على العدو هجمة الاسود على فرائسها وأوقعوا فيهم القتل فعاد الصليبيون هاربين الى خيامهم وعلى أعقابهم ناكصين والسيف يعمل فيهم وصاح صائح السلطان في الناس يا أبطال الموحدين هذا عدوكم قد أمكنكم الله منه وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه فبادر الى اجابة دعوته أهل حلقته وخاصته ثم عسكر الموصل يتقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ثم عسكر مصر يتقدمهم سنقر الحلبي وتتابعت العساكر وتحاربت الأبطال وقامت سوق الحرب فلم يكن الا ساعة حتى تراءى الصليبيون صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية وغطت قتلاهم الارض من خيم الملك العادل الى خيامهم فكان اولهم بالخيام الاسلامية وآخرهم بخيام العدو صرعى على التلول والوهاد وكان ما بين العسكرين ما يزيد عن فرسخ مفروش باشلائهم ولم ينج من القوم الا النادر وأسر نفر يسير لان السلطان أمر بالا يبقوا على احد وكان هذا جميعه في الميمنة وبعض القلب اما الميسرة فما اتصل الصائح بهم الا وقد نجز الامر وقضي القضاء على العدو لبعد المسافتين وكانت هذه الواقعة ما بين الظهر والعصر ثم أمر السلطان العساكر الاسلامية بالرجوع وكانت النصرة في هذا اليوم عظيمة جداً للمسلمين ولم يقتل منهم الا عشرة انفس ومن الصليبيين ثمانية آلاف وقال مؤرخوهم بان عسكر الصليبيين لما رأى عساكر السلطان قد سافرت طمع في الباقي وطلب من رؤسائهم حرباً عمومية ضد المسلمين فمنعوهم فلم يمتنعوا وخرجوا بدون ارادة رؤسائهم ويعترفون بالواقعة كما تقدم ويقولون هذا جزاء مخالفتهم لاوامر الرؤساء. وكان المسلمون الذين بالبلد ينظرون الي هذه الواقعة من أعلى السور ولما علموا بكسرة الصليبيين خرجوا من البلد وأوقعوا في عسكر الصليبيين قتلا ونهباً حتى انهم أخذوا القدور وفيها الطعام وكثيراً من الاقمشة

﴿ حصار عكا من البحر ودخول الزاد اليها قهراً ﴾

لما رأى الصليبيون اتصال المدد من البحر الي عكا عزموا على محاصرة الميناء من البحر لمنع دخول مراكب المسلمين اليها وكان ورد للصليبيين مدد من البحر من فرنساويين وانكليز وايطاليين تحت رياسة قائدهم هنريكوس كونت دي شمبانيا

ومعهم من آلات الحرب والحصار شيء كثير . وكان السلطان قد أمر بشحن بطسة كبيرة بالغلال والبصل والجبن والغنم وغير ذلك من الميرة من مينا بيروت لان أهل البلد قد اشتدت حاجتهم الى الطعام والميرة فركب في تلك البطسة جماعة من المسلمين وتزيوا بزي الافرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة لتظهر من بعد وعلقوا الصلبان وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم نراكم قاصدين البلد واعتقدوا انهم منهم فقالوا او لم تكونوا أخذتم البلد فقالوا نأخذ البلد بعد فقالوا نحن نرد القلوع الى العسكر ولكن وراءنا بطسه أخرى في هوائها فانذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة أفرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر فنظروا فراوها فقصدوها لينذروها فاشتدت البطسة الاسلامية في السير واستقام لها الريح حتى دخلت مينا البلد وسلمت ولله الحمد وكان ذلك في أواخر شهر رجب سنة ٥٨٦ ثم أرسل بهاء الدين قراقوش والي البلد والحاجب حسام الدين لؤلؤ مقدم الاسطول الى السلطان في أول شعبان يذكران له انه لم يبق بالبلد ميرة الا قدر يكفي البلد الى ليلة النصف من شعبان لا غير فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لاحد لامن خاصته ولامن الجيش خشية الشيوع والبلوغ الى العدو فتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب السلطان الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادام والميرو جميع ما يحتاج اليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء فاقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تتوخى التوتية بها الريح التي تحملها الي عكا فطابت لهم الريح حتى وصلوا اليها ليلة النصف من شعبان وقد فنيت الازواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم وخرج أسطول العدو يقاتل البطس والعساكر الاسلامية تشاهد ذلك من الساحل والناس في تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون الى الله تعالى في القضاء بسلامتها الى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال ويدعو ربه بنصره وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره وفي قلبه مافي قلبه والله يثبته ولم يزل القتال حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح يشتد والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعا يخرق الحجب حتى وصلت بحمد الله سالمة الى مينا البلد وتلقاها أهل عكا تلقي الأمطار عند جدب وكان دخولها وقت العصر رابع عشر شعبان

﴿احراق منجنيقات الصليبيين ومراكبهم واداء الامانة بعد الموت﴾

ونصب الصليبيون على البلد منجنيقات هائلة محكمة على السور وتواترت حجارتها حتى أثرت فيه أثراً بيناً وخيف من غائلته فاخذ سهمان من الجرخ العظيم واحرق نصلاها حتى امسيا كالشعلة من النار ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه واجتهد الصليبيون في اطفاء النار فلم يقدروا وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما واتصل اللهيب بالآخر فاحرقه واشتدت نارهما بحيث لم يقدر أحد ان يقرب من مكانهما ليحتال في اطفائهما وكان في أثناء ذلك يرسل السلطان الكتب والمال المخصوص بنفقات العساكر التي داخل البلد بواسطة أناس عوامين ومن غريب ما حصل ان عواماً من هؤلاء العوامين اسمه عيسى مسلماً أخذ كتاباً من السلطان وشد على وسطه ثلاثة أكياس داخلها الف دينار وعام في البحر كعادته (لانه كان يغطس بذلك من وراء مراكب العدو ويخرج في المينا من البحر) فأتاه القضاء المحتوم وكان كلما يصل الى البلد يرسلون طائراً الى السلطان فيعلم بوصوله فلما انتظر السلطان الطائر عن هذه الرسالة فابطا الطائر فاستشعر السلطان بهلاك عيسى العوام فلما كان بعد أيام بينما الناس على شط البحر في البلد واذا البحر قد قذف اليهم ميتاً غريقاً فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب ومشمع الكتب وكان الذهب نفقة المجاهدين فما رؤي من لم يمكنه ان يؤدي الامانة في حال حياته فاداها بعد وفاته الا هذا الرجل الذي برأه الله مما قالوه فيه وكان يوجد برج اسمه برج الذبان في وسط البحر مبني على الصخر على باب مينا عكا يحرس المينا وكان متى عبره المركب أمن من غائلة العدو فاراد الصليبيون أخذه لتبقى المينا بحكمهم ويمنعوا دخول شيء من البطس الى البلد فتنقطع الميرة عنها فاجتهد ليو بولد دوك دي اوطريش وعساكره وعساكر البيزاويه فجعلوا على صواري بطسة كبيرة برجا وملؤوه حطباً ونفطاً لاجل ان يسيروا فاذا قاربت البرج ولاصقته احرقوا البرج الذي على الصواري والصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه فيحرقوه من الاعلى ويقتلوا من فيه من المقاتلة ويأخذوه وعبوا بطسة أخرى بالحطب والوقود على انهم يدفعونها الى ان تدخل بين بطس المسلمين ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية ويهلك من فيها وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو عملوه فيها بحيث لايصل اليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح حتى اذا احرقوا ما أرادوا احراقه دخلوا تحت القبو فامنوا ثم أحرقوا ما أرادوا وقربوا

البطسة من البرج المذكور وكان طمعهم شديداً لان الهواء كان مساعداً لهم فاوقدوا النار واشعلوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج الخشبي باسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة ولم يصب البرج بضرر (برج الذبان) ثم احترقت البطسة التي كانت معدة لاحراق مراكب المسلمين فوثب المسلمون عليها فاخذوها . وأما البطسة التي كان فيها القبو فانهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع فاختلفوا واضطربوا اضطراباً عظيماً فانقلبت وهلك جميع من بها لانهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها فكان ذلك من أعظم آيات الله وقد رد الله كيدهم في نحرهم

﴿ واقعات الدبابات والخندق والكمين ﴾

انشأ الصليبيون دبابات من حديد تشبه البرج على عجل تتحرك بها وفيها المقاتلة ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد وهي تسمى كبشاً ينطح بها السور بشدة وعنف فيهدمه بتكرار النطح وآلة أخرى وهي قبو وفيها رجال أيضاً ولها رأس محدد كرأس المحراث ويسمى سفود فرأس الكبش مدور يهدم بثقله والسفود يثقب بحدته وفي ثالث رمضان سنة ٥٨٦ زحف الصليبيون على البلد في خلق لايحصى بدباباتهم فامهلهم أهل البلد حتى نشبت مخالب اطماعهم فيه وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى كادوا يلصقونها بالسور وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة فاطلق المسلمون عليهم الجروخ والمجانيق والسهام والنيران وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفتحوا الابواب وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم في الخنادق فهربوا واعمل السيف في من بقي في الخندق منهم ثم هجموا على دباباتهم فالقوا فيها النار والنفط وتمكنوا من احراقها لهرب المقاتلة فكان لهيب شديد وارتفعت الاصوات بالتكبير والتهليل وسرت النار بالدبابات من واحدة الى أخرى فاحترقت كلها وعلق المسلمون في الكبوش الكلاليب الحديد فجروها وهي مشتعلة حتى أخذوها وأدخلوها في البلد وكانت منشأة من آلات هائلة عظيمة فالقي عليها الماء حتى برد حديدها بعد أيام فكانت زنته مائة قنطار وفي يوم الاثنين حادي عشر شوال اقام من الصليبيين على البلد الملك فريدريكوس الصغير ملك النمسا بفرقة عظيمة لمحاصرته وخرج باقي معسكرهم ومعه ميرة أربعة أيام للجيش والخيل وكان يزك السلطان مخيما على تل العياضية فلما رأى السلطان ذلك نقل أثقال المسلمين الى ميمون وهي على ثلاثة فراسخ من عكا وكان قد عاد اليه

من سافر من عساكره بعد وفاة ملك النمسا فلقي الصليبيين بجيش عرمرم تام التعبئة وولى أولاده الافضل علي والظاهر غازي والظافر القلب وأخاه العادل أبا بكر الميمنة المؤلفة من عساكر مصر ومن انضم اليها وكان في الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماه ومعز الدين سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه واتفق ان السلطان أخذه مغص كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم فسار الصليبيون شرقي نهر هناك حتى وصلوا الى رأس النهر فرأوا عساكر المسلمين وكثرتها فارتاعوا ولقيهم الجاليشية وامطروهم من السهام ماكاد يستر الشمس فتحولوا الى غربي النهر وثبت الجاليشية على قتالهم حتى تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً وكان مقصد الجاليشية ان يحمل الصليبيون عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس ولكن الصليبيين ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلهم فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخندقهم والجاليشية في اكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام وكلما قتل منهم قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم ولولا ذلك الالم الذي حدث للسلطان لكانت هذه الواقعة هي الفصل (وانما لله أمر هو بالغه) فلما بلغوا خنادقهم واستكنوا بها لايخرجون عاد المسلمون الى خيامهم وقد قتلوا من الصليبيين خلقاً كثيراً وفي الثالث والعشرين منه كمن جماعة من المسلمين وتحرش بالعدو جماعة أخرى فخرج اليهم بعض عسكر الصليبيين فقاتلوهم يسيراً وطاردوا متقهقرين فتبعهم الصليبيون حتى جازوا الكمين فخرج عليهم من فيه فمزقوهم ولم يفلت من سيوفهم احد

﴿ في دخول البدل العسكري عكا ﴾

لما حل فصل الشتاء وعصفت الرياح خاف الصليبيون على مراكبهم التي يحاصرون بها عكا لانها لم تمكن من الميناء ولا امكنها رد المسلمين عن دخول البلد فسيروها الى بلادهم صور وغيرها فانفتح طريق عكا في البحر وأرسل اهلها الى السلطان يشكون الضجر والملل والسآمة وكان بها الامير حسام الدين ابو الهيجاء السمين مقدماً على جندها فامر السلطان باقامة البدل وانفاذه الى البلد واخراج من فيها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني فكان يرسل عليها الى عكا كل جماعة تقدم عليه من العساكر فيحتل البلد ويخرج جماعة فدخل اليها عشرون اميراً وكان بها

ستون فكان الذين دخلوا اقل من الذين خرجوا وأهمل نواب السلطان تجنيد الرجال وانفاذهم وكان على خزانة ماله قوم من النصارى فكانوا اذا جاءهم جماعة قد تجندوا تفننوا عليهم بانواع شتى تارة باقامة معرفة وتارة بغير ذلك فتفرق بهذا السبب خلق كثير وزاد الامر خطارة توانى صلاح الدين نفسه لوثوقه بنوابه واهمال النواب فانتهى الشتاء والامر كذلك وكان من جملة الامراء الذين دخلوا عكا سيف الدين علي بن احمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الاسديه بعد جاولي وذلك في غرة سنة ٥٨٧ وكان قد اشار بعض الامراء على السلطان بان يرسل الى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والاقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام لانهم قد جربوا وتدربوا واطمأنت نفوسهم على ماهم فيه فلم يفعل السلطان ذلك خوفاً من ان ضجرهم وملهم يحملهم على الفشل

﴿سفر العساكر الصليبية الثالثة في البحر وما جرى لملك الانكليز بسيسليا وقبرص وزواجه﴾

بعد ان تعاهد ملك فرنسا فيلبس اوغسطوس وملك الانكليز ريكاردوس الملقب بقلب الاسد على المقابلة في مدينة ميسينا بجزيرة سيسليا (صقليه) لنصرة الصليبيين باراضي فلسطين سلو ملك فرانسا عن طريق جنوى وسار ملك الانكليز الى مرسيليا وانتظر اسطوله فلم يحضر حتى ملّ الانتظار فركب سفناً صغيرة وقصد ميسينا وأوعز الى جنده ان يركبوا الاسطول حين وصوله ويلحقوا به ٠ وأخيراً التقى الجيشان في ميسينا على حدود سيسليا مما يلي ايطاليا وكان لريكاردوس أخت اسمها جوانا تزوجت بوليم ملك سيسليا فمات في شرخ شبابه واختلس الملك من أرملته امير اسمه تنكريد واستولى على اموال زوجها فعلم بذلك ريكاردوس في أثناء اقامته بميسينا فعزم على محاربة اهل سيسليا ورفع علمه علي اسوار ميسينا ولما رأى ذلك الملك فيلبس ملك فرنسا اغتاظ منه فامر عساكره بانزال العلم الانكليزي من على السور فعزم ريكاردوس على محاربة فيلبس ولكن ملك فرانسا لكونه اكبر سنا من ملك الانكليز لم يرغب في هذه الحرب وأعمال السلاح المعد لمحاربة المسلمين ضد الصليبيين فركب مراكبه وسار قاصداً فلسطين وأما ملك الانكليز فانه تهدد تنكريد ملك سيسليا فأرضاه بمال مقداره عشرون الف اوقية من الذهب ٠ وكان ريكاردوس قد خطب برنجاريا دي نافار ولم يتأت له الاقتران بها في انكلترا

خوفاً من التأخر عن الجهاد فأشار بحملها اليه في صقلية فجاءت بها والدته ووقت السفر قد دنا فأجل الزفاف الى وقت آخر وعهد بخطيبته الى اخته جوانا أرملة وليم ملك صقلية المتقدم ذكرها وركب اسطوله وهما معه وسار قاصداً المشرق فهبت عليهم انواء شديدة قذفت بمراكبهم الى سواحل كريد فافتقد ريكاردوس الاسطول فعلم ان ثلاثاً من سفنه قد ضاعت وفيها خطيبته وحاشيتها فانفذ من يبحث عن السفن فأنبأوه ان اثنتين منها جنحتا عند سواحل قبرص وان ملكها اسحق قتل النوتية وحجر على النساء في ليموسا وطلب من ريكاردوس ان يقدم اليه ليعقدا مؤتمراً فغضب ريكاردوس لذلك غضباً شديداً وسبه بالانكليزية ويقال انها المرة الوحيدة التي تكلم بها ريكاردوس بالانكليزية لانهم كانوا يستعملون اللغة الفرنساوية القديمة (النورماندية) اذ ذاك وأسرع ريكاردوس الى قبرص وخرج الى البر بعساكره وقبض على ملكها وأوثقه بسلاسل من فضة واغتنم وجوده هناك فرصة للاقتران بخطيبته برنجاريا فزفت اليه وكان ريكاردوس قد الف أثناء اقامته في صقليه جمعية من الفرسان سماها (جمعية السير الازرق) لان أعضاءها كانوا يلبسون في أفخاذهم اليسرى سيوراً من جلد أزرق وقد تعاهدوا على فتح عكا فسار ريكاردوس بجيشه قاصداً تلك المدينة

﴿ وصول الصليبيين الى عكا ومحاصرتهم لها وقتل بعض أمرائهم ﴾

وصل الملك فيلبس ملك فرنسا الى عكا في ثاني عشر ربيع الاول سنة ٥٨٧ ففرح به الصليبيون وجعلوه رئيساً عليهم وكتب السلطان صلاح الدين الى عز الدين سامة متولي بيروت بمحاربة من يمر به من الصليبيين وكان في أثناء اقامة الملك ريكاردوس ملك الانكليز بجزيرة قبرص قد سافرت بعض مراكبه قاصدة عكا فخرج عليها عز الدين واستولى على خمس مراكب مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا وتقدم الصليبيون الى عكا فنصبوا عليها المنجنيقات وذلك في رابع جمادي الاولى وأرسل اهل عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس أن يشغل العدو عنهم فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما ضيقوا على البلد فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر واذا رجع عنهم عاودوه وكانت العلامة بين السلطان وأهل البلد انه متى زحف العدو عليهم دقوا صنوجهم فتدق صنوج السلطان اجابة لهم وكان السلطان مخيماً على شفر عم واستبعد منزلته فتحول الى تل العياضية تاسع جمادي الاولى ثم وصل الملك ريكاردوس في ثالث عشره وكان السلطان لما علم بقرب وصوله قد أمر بتجهيز

بطسه كبيرة مملوءة بالرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسارت من بيروت وفيها سبعمائة مقاتل فلقيها ريكاردوس فقاتلها وصبر من فيها على القتال واحاطت بها مراكب الانكليز من كل جانب ولما يئس من بها من الخلاص نزل المقدم الى اسفلها وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر بها العدو بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع مافيها ولما وصل ريكاردوس الى عكا كما تقدم فرح به الصليبيون وقويت شوكتهم وبالغوا في محاصرة البلد وقتال أهلها ليلا ونهاراً واسرعوا الى طمي الخندق وكانوا يرمون فيه جثث الاموات وصنعوا دبابة عظيمة ذات اربع طبقات الاولى من خشب والثانية من رصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تعلو على سور البلد ويركب فيها المقاتلة فخاف منها أهل البلد وقربها اصحابها من السور فواصل المسلمون رشقها بالنفط ليلا ونهاراً الى ان احترقت وزادت شكوى اهل البلد لاستفحال أمر العدو ومواصلة قتالهم ليلا ونهاراً من حين قدوم ريكاردوس ثم ناب كلا من ريكاردوس وفابس مرض شديد فارسل ريكاردوس الى السلطان صلاح الدين يطلب دجاجاً وطيراً وأرسل ثانية يطلب فاكهة وثلجاً فارسل اليه كل ما طلب والقتال مستمر من الصليبيين وأهل البلد حتى ضعفت الحامية وبقي أكثر المسلمين بدون نوم عدة ايام لا ليلا ولا نهارا وفي سابع جمادى الآخر ركب السلطان بالعسكر الاسلامي وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر وجرى قتال عظيم وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه من طلب الى طلب ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه ياللاسلام وعيناه قدغرقتابالدمع وكلما نظر الى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على من بها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ولم يأكل في ذلك اليوم طعاما ولما هجم الليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ثم ركب سحراً وأصبحوا على ما أمسوا عليه وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها انا قد بلغ بنا العجز الى غاية ما بعدها الا التسليم ونحن في الغد ان لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الامان ونسلم ونشتري مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر لان رجال الصليبيين وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم وهجم عليهم بعض العسكر من اطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب . ثم ان الصليبيين بعد ما أعيتهم الحيلة في الاستيلاء على البلد وانهم كلما عملوا ابراجاً أو دبابات أو كبوشاً

اوغيرها يحرقها المسلمون فعمدوا الى اقامة سور من تراب يستترون وراءه للمحاربة كي لا يصيبهم نشاب ولا سهام من المسلمين باعلى سور البلد ثم أخذوا يدونه شيئاً فشيئاً الى أن صار قريباً من سور البلد فاحتار المسلمون لان العدو قرب منهم وليس في وسعهم ايصال أي أذى اليه لان السور التراب لاتؤثر فيه النار ولا السهام ولم تزل الحرب قائمة حتى ضعفت نفوس أهل البلد وتمكن العدو من الخنادق فملأها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه فوقعت بدنة من الباشورة ودخل بعض الصليبيين منها فاجتمعت أهل البلد على هذا النقب وقتلوا مايزيد عن المائة وخمسين نفساً وكان ممن ضمنهم كل من روطروا • وتيبوددي شامبانيا • والكونت دي بلواز واستفانوس دي صانسار • وغوي دي شاتيليون • وجفروا دي أومالا • وفيس كونت دي شاتا لارولت • وفلورانت دي انجارس • وراول دي كوزى ثم ان بعض الصليبيين أراد الصعود على سور البلد وكان في مقدمتهم الباريك كلامان فنصب سلماً وصعد عليها الى أن بلغ السور وتبعه بعض رجاله ونصبوا السلالم فتكردست بهم ووقعوا جميعاً ولم ينالوا مرادهم وأما الباريك فان المسلمين تكاثروا عليه وقتلوه

﴿ طلب الصلح ودخول الصليبيين عكا ﴾

تابع السلطان صلاح الدين زحفه وهجماته على معسكر الصليبيين لكي يشغلهم عن محاربة أهل البلد ولكنهم لم ينفكوا عن قتالهم ومضايقتهم فامر قايماز النجمي بان يزحف هو وأصحابه الى اسوار العدو وترجل جماعة من امراء الاكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب وزحفوا حتى بلغوا أسوار العدو ونصب قايماز علمه بنفسه على سورهم وقاتل عن العلم ووصل عز الدين جرديك النوري وسوق الزحف قائمة فترجل هو وجماعته وقاتل قتالا شديداً وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظراً نجاح الامل ولما علم السلطان بان عكا قد وهنت أرسل الى جماعة من فيها سراً وقال لهم خذوا من العدو حذراً واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يداً واحدة وسيروا الى جانب البحر وصادموا العدو بالقهر واتركوا البلد بما فيه فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ولم يعلم ان التهاءه به يهلكه فما تمكنوا من المراد حتى اسفر الصباح ولم يصح كذلك في الليلة الثانية لوصول الخبر الى الصليبيين فحرسوا الجوانب والابواب ثم ان الامير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب وكان هو مقدم العسكر في البلد خرج الى ملك

فرانسا فيلبس أوغسطوس وقال له انا قد أخذنا منكم بلاداً كثيرة وكنا نهدم البلد وندخله ومع هذا اذا سألونا الامان أعطيناهم وحملناهم الى مأمنهم واكرمناهم ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على انفسنا وبعد مداولة ملك فرانسا مع ديوان المشورة العسكري قال انه لا يعطي الامان للمسلمين الا بعد ان يرجعوا مدينة القدس وجميع البلاد التي استولوا عليها بعد حرب طبرية (سواحل سوريا) (فانظر فرق المعاملة بين المسلمين في استيلائهم على المدن من الصليبيين وكيف كانوا يعطونهم الامان ويوصلونهم الى الجهات التي يريدونها ومعاملة هؤلاء الصليبيين لعساكر المسلمين وعدم اعطائهم الامان) فاغاظ المشطوب له القول وانصرف عنه ولما دخل البلد بهذا الخبر خاف جماعة من الامراء فاخذوا لهم بركوسا وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي منهم عز الدين ارسل وحسام الدين تمرتاش ابن الجاولي وسنقر الوشاقي وهو من الاسدية الاكابر ثم ان سيف الدين المشطوب اتفق مع الصليبيين على تسليم البلد بجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي الف دينار والف وخمسمائة أسير مجاهيل ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم وصليب الصلبوت على انهم يخرجون بانفسهم سالمين وما معهم من الاموال والاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم وضمنوا لكونراد صاحب صور عشرة آلاف دينار لانه كان واسطة الصلح ولاصحابه اربعة آلاف ولما وقف السلطان على ذلك انكره وأعظمه وعزم على ان يكتب اليهم بانكار ذلك وجمع أمراءه وأصحاب مشورته فما احس المسلمون الا وقد ارتفعت اعلام الصليبيين على اسوار البلد وذلك ظهيرة يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وهكذا دخلوا البلد صلحاً بعد حصار سنتين وسفك دماء كثيرة وموت نيف ومائة الف مقاتل كما قال مؤرخوهم ونصه « بعد ما ينيف عن مدة سنتين من حصار هذه المدينة باتعاب وشدائد وأعمال كلية وحروب شديدة دخلها المسيحيون آمنين في اليوم الثالث عشر من شهر حزيران سنة ١١٩١ ونشروا بيارق الصليب فوق أسوارها فهذه كانت نهاية حصار عكا الذائع الصيت الذي فيه سفكت دماء عظيمة المقدار والصليبيون ندبوا فيه فقدان عدد وافر من كل ذي رتبة من الشجعان ضمن نحو مائة معركة حربية خصوصية وتسع حروب عمومية عظيمة حدثت أمام اسوار هذه المدينة بعساكر كانت اجواقها تحضر وتبتدي بالحرب بعد ان تكون العساكر التي قبلها قد تلاشت اما تماماً او في اكثر اجزائها بعد ان تصل المراكب

العديدة التي كانت تتوارد من جميع مدن بلاد المغرب حاملة طغمات من المقاتلين الذين كانوا يتقاطرون منذكين نزولا حول تل طورمان وفوق ارمال بيولوس وبالاجمال انه في مدة هذا الحصار قد حصدت سيوف الاسلام وانواع الامراض الرديئة من الصليبيين نحو مائة الف مقاتل » وكان لما اتفق المشطوب مع الصليبين على الصلح حدد لتحصيل المال والاسرى مدة شهرين فلما حلفوا له على ذلك سلم البلد اليهم ودخلوا سالما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى اموالهم وحبسوهم وأظهروا انهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما بذل لهم وراسلوا السلطان في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال فلما اجتمع عنده من المال مائة الف دينار جمع الامراء واستشارهم فاشاروا بان لا يرسل شيئاً حتى يجددوا الحلف باطلاق أصحابه وان يضمن رجال جمعية الداوية (الهيكليين) ذلك لأنهم اهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية لا نحلف ولا نضمن لاننا نخاف غدر من عندنا ثم قال ملوك الصليبيين اذا سلمتم الينا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار في من عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيئاً وأعاد الرسالة اليهم وقال نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيكم رهناً على الباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء فقالوا لا نحلف ولا نفعل شيئاً من ذلك بل تسلمون المال الذي تحصل والاسرى والصليب وتقنعون بأمانتنا حتى نسلم اليكم أصحابكم فأبى السلطان ذلك لعلمه انهم اذا تسلموا المال والصليب والاسرى بدون رهن لا يؤمن غدرهم فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم الى ظاهر خنادقهم بجميع عساكرهم وركبوا في وقت العصر في اليوم السابع والعشرين من رجب وساروا حتى اتوا الابار تحت تل العياضية ثم أحضروا من الاسرى المسلمين نحو الثلاثة آلاف وأوقفوهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبراً طعناً وضرباً بالسيف (وهي نقطة سوداء في تاريخ ريكاردوس) واليزك الاسلامي يشاهد الصليبيين ولا يعلم ماذا يصنع لبعده عنهم وكان اليزك قد انفذ للسلطان واعلمه بركوب القوم ووقوفهم فانفذ الى اليزك من قواه وبعد ان فرغ الصليبيون من قتل الاسرى حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة قتل فيها وجرح من الجانبين خلق كثير ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم فتولاهم حزن شديد أما الصليبيون فانهم

لم يبقوا من الاسرى الا المقدمين والاقوياء للعمل فتصرف السلطان في المال المجموع وأرسل أسارى الصليبيين وصليب الصلبوت الى دمشق

﴿ رمي علم النمسا في الخندق وسفر ملك فرانسا الى بلاده ﴾

لما دخل الملك فيلبس ملك فرنسا وريكاردوس ملك الانكليز مدينة عكا كما تقدم اقتسما بينهما خزائن القوت وذخائر الحرب وكل ما كان فيها وكان الملك فيلبس قد استعمل الرفق واللين في عسكره بخلاف ريكاردوس المتصف دائماً بالخنق وحدة الطبع والشراسة ضد عساكر الصليبيين انفسهم ومن ذلك انه عند مادخلوا المدينة ورفعوا اعلامهم على أسوارها رفع ليوبولدوس دوك دي اوطريش (ملك النمسا) علمه على احد ابراج المدينة فغضب ريكاردوس من ذلك وأمر بنزع علم النمسا ورميه في الخندق فلما فعل ذلك تألم ليوبولدوس باطناً ولم يظهر غيظه من هذه الاهانة وكتمها في قلبه وحرم على عساكره الانتقام عن هذه الاهانة قائلا لهم سوف أنتقم بنفسي من عدوي عند وجود الفرصة ثم ان كونراد صاحب صور لما وجد شدة معاملة ريكاردوس انسحب بعساكره من عكا راجعاً الى صور

ولهذا السبب أيضاً عزم الملك فيلبس اوغسطوس ملك فرانسا على العود الى بلاده وخصوصاً لما اعتراه مرض ضيق الصدر ولم يعد يحتمل كبر ملك الانكليز ولعلمه بانه لا يمكنه الاقامة مع ريكاردوس بالمسالمة ففرح بذلك ريكاردوس لابتعاد ملك مثل هذا عنه لكونه كان يشاركه في الانتصار والكسب ثم التمس من الملك فيلبس القسم بانه في رجوعه الى مملكته لا يمارس شيئاً ضد بلاد الانكليز ولا يتعرض لها مدة غياب ريكاردوس عنها فحلف له على ذلك ثم سافر من عكا بحراً الى مدينة صور وترك من جيشه الفرنساوي عشرة آلاف محارب تحت رياسة الدوك دي برغونيا ثم سافر من صور قاصداً بلاده وقال مؤرخوهم « سافر الملك فيلبس بعد ان اهداه السلطان صلاح الدين هدايا عظيمة لانه كان رأى فيه صفات جليلة بعكس غيره من الصليبيين وانه هو أعظم ملوك اوروبا ووصل الى مدينة روميه وزار قبور الشهداء وقابله اهلها باحتفالات عظيمة ثم سار منها الى مملكته فدخل مدينة باريس باحتفال عظيم »

﴿ سفر ريكاردوس من عكا وواقعة ارسوف وتخريب عسقلان ﴾

بعد سفر الملك فيلبس من عكا الى بلاده صار الرئيس على جميع الصليبيين

الملك ريكاردوس فبعد ترتيبه عكا جعلها مستقراً لزوجته برنجاريا وقد اخذه طمع فتح البلاد فجمع من العساكر الصليبيه مائة الف ورفع علمه على سارية مقامة على اربعة دواليب تجر بعجل في وسط جيشه نوى الاستيلاء على عسقلان ويافا وقيسارية وكان ذلك في أول شعبان سنة ٥٨٧ وسار نحو حيفا على شاطئ البحر لا يبتعد عنه فلما سمع السلطان برحيلهم نادى في معسكره بالرحيل فساروا وكان على اليزك الملك الافضل نجل السلطان ومعه سيف الدين ايازكوش وعز الدين جورديك فضايقوا الصليبيين في مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الصليبيين فقتلوا منهم جماعة وأسروا جماعة فعاد ريكاردوس الي الساقة فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بالقرب منهم وقدم السلطان ثقله الى مجدل يابا ثم سار الصليبيون الى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم من قدروا عليه فيقتلونه لان السلطان كان قد اقسم انه لا يظفر باحد منهم الا قتله أخذاً بثار من قتلوه ممن كان في عكا فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم قتالا شديداً ونزل الصليبيون بنهر القصب وبات المسلمون قريباً منهم وفي أثناء اقامتهم على نهر القصب خرج من الصليبيين جماعة مسترسلين وتقدموا على البركة فبصر بهم ابن المقدم فعبر اليهم من ورائهم هو ومن معه وهم لم يأخذوا من خلفهم الحذر ففاجأهم وفجعهم وفرغ من القتل والاسر فيهم قبل ان يدركهم المدد ثم نهض الصليبيون اليه وحملوا عليه وجرت وقعة شديدة انتهت بهزيمة الصليبيين واحضر الاسارى لدى السلطان ثم رحل السلطان وعبر شعراء ارسوف ونزل على قرية تعرف بدير الراهب وكان المسلمون قد سبقوهم اليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق فلما وصل الصليبيون حمل المسلمون عليهم حملة منكرة الحقوهم بالبحر فقتل منهم كثير والمسلمون يكبرون ويهللون ثم ان الصليبيين اجتمعوا وحملوا حملة واحدة وفي مقدمتهم ريكاردوس الشجاع وفرسان جمعية ضياف الغرباء (الاسبتاريه) وكانت هذه المعركة عمومية وقد اظهر فيها ريكاردوس من البسالة والشجاعة العجيبة وقتل من أمراء الصليبيين يعقوب دي افنساس وفي حال وقوعه صرخ قائلا ياريكاردوس انتقم من الاعداء عن موتي وولى المسلمون منهزمين لا يلوي أحد على أحد وكان كثير من السوقة قد الفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون الى القلب الذي فيه السلطان صلاح الدين وكان بالقرب من المسلمين شعراء

(غابة) كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الصليبيون مكيدة فعادوا عنهم وزال عن المسلمين ما كانوا فيه من الضيق وقتل من المسلمين اياز الطويل مملوك السلطان صلاح الدين وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله وقد اشتهرت شجاعته بين العسكرين بحيث انه اذا كان في موضع وعرفه الصليبيون خافوا منه وسبب قتله سقوط جواده فلما رأى السلطان ما حل بالمسلمين سار حتى اتى طلبه فوقف فيه ودق الصنوج فاجتمع في الطلب خلق كثير ووقفت الصليبيون قبالتهم على رؤس التلول والروابي ثم رجعوا الى منزلتهم لخوفهم من وجود كمين وتراجعت باقي العساكر المنهزمة والجرحى وصدم الملك الافضل وانفتح دمل كان في وجهه . ثم سار ريكاردوس بعسكر الصليبيين الى يافا ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها واقاموا بها واخذوا في بناء الاستحكامات فيها أما السلطان صلاح الدين فانه رحل باثقاله الى مدينة الرملة تاسع عشر شعبان وهناك عقد مجلساً من أخيه الملك العادل وأمراء المسلمين واستشارهم فاشار علم الدين بن سلمان بن جندر بخرابها للعجز عن حفظها على ما بها ووافقه الجماعة على ذلك وقالوا ان الصليبيين قد تقووا باخذ عكا وما فيها من الاسلحة فلم تسمح نفس السلطان بتخريبها وندب الناس الى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد وقالوا هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا سبيل الى حفظ المدينتين فاعمد الى اشرف الموضعين فحصنه وحكمه فتقرر الرأي على اقامة العادل ومعه عشرة من الامراء بقرب يافا حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم وسار السلطان حتى اتى عسقلان وضرب خيمته شماليها فبات هناك مهموماً بسبب خراب عسقلان وقال والله لان افقد أولادي كلهم أحب اليَّ من ان أهدم منها حجراً واحداً ولكن اذا قضى الله بذلك لحفظ منفعة المسلمين فكيف أصنع فاستحضر الوالي وأمره بذلك وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجا يخربونه ودخل الناس البلد ووقع فيه الضجيج والبكاء وشملهم عليه حزن عظيم وكان هو بنفسه وولده الافضل يحثان الناس على الخراب خشية ان يسمع العدو فيحضر ولا يمكنهم من خرابها واباحهم الناس الذي كان ذخيرة في البلد وأمر بحرق البلد فاحترقت والاخبار تتوارد من جانب الصليبيين بعمارة يافا وكان عرض سور عسقلان تسعة اذرع وفي بعض مواضع عشرة واحرق برج الاسبتاريه وذلك لغاية آخر شعبان

﴿ في وقوع ريكاردوس في الاسر ونجاته وعرض زواج أخته جوانا بالملك العادل ﴾

لما كان السلطان صلاح الدين مهتما بتخريب مدينة عسقلان وصله من عز الدين جرديك كتاب يذكر فيه ان الصليبيين قد تقسموا وصاروا يخرجون من يافا ويغيرون على البلاد القريبة منها ويطلب تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضاً في عزلتهم فعزم على الرحيل وفارق عسقلان في يوم الثلاثاء ثاني رمضان سنة ٥٨٧ ونزل بالرملة يوم الاربعاء ثالثه وأمر بتخريب حصنها وتخريب كنيسة اللد وركب جريدة الى القدس فوصله يوم الخميس رابعه لاجل تقويته وخرج منه يوم الاثنين ثامنه وفي هذا اليوم خرج ريكاردوس وبعض خاصته للتنزه والصيد بين حقول صارون وجلس تحت شجرة هو ومن معه من الامراء والعساكر ففاجأته العساكر الاسلامية فركب هو ومن معه خيولهم ولكن قد كانت احاطتهم العساكر الاسلامية من كل ناحية فلم يقدروا على المدافعة عن نفسهم فخاف ريكاردوس من سقوطه بيد المسلمين (فكان المسلمون لا يعلمون انه الملك) فاراد أحد خاصته وهو وليم دي برآر الاس المولود في اقليم بروفانس بفرانسا ان يحمي ريكاردوس وكان وليم هذا لابساً ملابس أفخر من ملابس ريكاردوس فنادى المسلمين بالعربية قائلا (أواه ياشجعان احفظوا لي حياتي أنا هو الملك) فهجم عليه فرسان المسلمين وشدوا وثاقه وأخذوه أسيراً وبهذه الحيلة نجا ريكاردوس وهرب الى يافا لان المسلمين فرحوا باسر وليم ظانين انه الملك ولما علموا خطأهم أرسلوه الى دمشق ليسجن بها . اما ريكاردوس فانه أراد مكافأة هذا الامين على أمانته فطلب من السلطان صلاح الدين اطلاقه وفداه بعشرة امراء من المسلمين المأسورين عنده وتم ذلك فعلا وكان السلطان قد نزل على النطرون في ثالث عشره وخيم بها فراسله ريكاردوس يطلب المهادنة وكانت الرسل تتردد الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب بامر ريكاردوس وأعلموه بان للملك أختاً اسمها جوانا كانت متزوجة بوليم ملك صقلية ومات ويرغب تزويجها للملك العادل بالشروط الآتية : ان يكون القدس وجميع بلاد الساحل التي بايدي المسلمين للملك العادل وتكون عكا وما بيد الصليبيين من البلاد الى جوانا اخت ريكاردوس وان فرسان جمعية الهيكليين (الداوية) وجمعية ماري يوحنا المعمدان (الاسبتارية) خاضعين لهذا الاتفاق وان الملك العادل يقطعهم البلاد والقرى دون الحصون فلما وجد ذلك الملك العادل صواباً

ونافعاً لمصالح المسلمين عرضه على أخيه السلطان صلاح الدين فأجابه الى ذلك فلما شاع الخبر في معسكر الصليبيين اجتمع القسيسون والاساقفة والرهبان عند جوانا أخت ريكاردوس وانكروا عليها ذلك وخوفوها واتهموها في دينها وقالوا هذه فضيحة فظيعة ونسبة شنيعة وتكونين عاصية للمسيح فرجعت عن قصدها

﴿ مراسلة ريكاردوس لصلاح الدين بالصلح وما جرى بعد ذلك وتعمير بيت المقدس ﴾

وبعد ذلك أرسل ريكاردوس الى السلطان صلاح الدين يقول له ان المسلمين والصليبيين قد هلكوا وخربت البلاد وتلفت الأموال والارواح وان هذا كله بخصوص القدس والصليب والبلاد وحيث ان القدس متعبدنا فلا ننزل عنه ولولم يبق منا واحد وأما البلاد فيعاد الينا ما هو قاطع الاردن وأما الصليب فهو خشبة عندكم لاقيمة لها وهو عندنا عظيم الشان فيمن به السلطان علينا ونستريح من هذا العنا الدائم فأرسل له السلطان في جوابه ان القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فلا يتصور ان ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الاصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين ذلك الوقت وأما الصليب (صليب الصلبوت) فاتلافه عندنا قربة عظيمة لايجوز ان نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام . ثم تواتر الخبر ان الصليبيين عزموا على النهوض فسار السلطان من مخيمه بالنطرون الى الرملة سابع شوال سنة ٥٨٧ وحصلت واقعة في ناحية يازور في ثامنه وكان النصر فيها للمسلمين وفقد منهم ثلاثة وفي سادس عشره وقعت واقعة أخرى عظيمة قتل فيها جماعة من الامراء وأسر فارسان من الصليبيين معروفان بالبأس سوى غيرهما وقتل منهم زهاء ستين وورد خبر بان الاسطول المصري استولى على مراكب الصليبيين وفيها مركب تعرق بالمسطح وفي ثامن عشره اجتمع الملك العادل وريكاردوس على طعام ومحادثة وانفصلا على توادد ومطايبة وطلب منه الاجتماع بخدمة السلطان صلاح الدين فامتنع السلطان وقال الملوك اذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك واذا انتظم أمر حسن الاجتماع وفي ثالث القعدة رحل الصليبيون الى الرملة وأظهروا قصد القدس بتلك الرحلة ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم وفي الثالث والعشرين من شهره رحل السلطان الى القدس ينوي الاقامة وكان الشتاء

قد حل" والغيث قد اتصل فوصل القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء المجاورة كنيسة القمامة وفي ثالث الحجة وصلت العساكر المصرية بقيادة أبي الهيجاء السمين ومعها أموال وتحول الصليبيون الى النطرون فقوي السلطان اليزك فوقعوا على سرية فغنموها وساقوا منها الى القدس ما يزيد عن خمسين أسيراً عدا من قتل منهم وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيزر يوم عيد الاضحى فنحر منهم وضحى واحتوى على عشرة من مقدميهم اسرا وقتلا وانهزم باقي الصليبيين في الجبال وتركوا خيلهم فغنمها المسلمون ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدة مقامهم بالنطرون وأخذوا يقطعون الطريق على تجارهم حتى انهم أخذوا قافلة ثقيلة بما فيها ولم يقدر الصليبيون على تخليصها فرحلوا عائدين الى الرملة في الثاني والعشرين من شهره وكان السلطان قد شرع في تحصين القدس وعمارة أبراجه وأسواره وحفر خنادقه وأرسل الى البلاد بجمع رجال هذه الاعمال ففي هذا اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا لقطع الصخور من الخندق وأقبل الامراء للعمل فيه وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ومعهم القضاة والعلماء وقد قال الرشيد ابن النابلسي من قصيدة له عن قصد الصليبيين المقدس *

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أو ما   فيهم لبيب على العلات يعتبر
فكم نثرتهم ضربا اذ انتظموا   وكم نظمتهم طعناً اذ انتثروا
كم قد سقيتهم ذلا فلا عجب   ان عربدوا سفهاً فالقوم قد سكروا
ان يمموك فلا بدع لجهلهم   تسعى الى الاسد في غاباتها الحمر
زاروا نموراً ولا تغني وقاحتهم   اذا أسودك في أبطالهم زأروا
فحام عن حوطة البيت المقدس لا   خوف وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصما   فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الايام هفوتها   وتحصد الفئة الاوغاد مابذروا

وقد قسم السلطان سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده فشرعوا في انشاء سور جديد وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه فيتبعه الاكابر والامراء في نقل الصخور واهتم السلطان بذلك اهتماماً زائداً

﴿ بناء الصليبيين مدينة عسقلان وماجرى في أثناء ذلك وغضب بعضهم ﴾

عقد الصليبيون مجلس شوراهم الملكي فقرر مسيرهم الى عسقلان وتعمير أسوارها التي هدمها السلطان صلاح الدين وكان هذا على غير مرام العساكر الصليبيين

فغضب الدوك دي برغونيا وخرج هو وعساكره الفرنساوية من تحت سنجق الصليب فأرسل اليه ريكاردوس وفداً لمصالحته وارجاعه وفي ثالث محرم سنة ٥٨٨ سار ريكاردوس بالمعسكر الصليبي الى عسقلان فشرعوا في بناء اسوارها وكان ريكاردوس يحثهم على ذلك ويطوف حولهم ثم ان بعض امرائهم شكا من ذلك التعب وقالوا ما اتينا من بلادنا الى آسيا لنبتني المدن بل لتخليص القدس من أيدي المسلمين وكان الامير ليوبولدوس دي اوطريش هو وجيشه النمساوي ممتنعاً عن الشغل وقال لريكاردوس اني لست حداداً ولا نجاراً ولا بناء ثم انه سحب عسكره وخرج عن معسكر الصليبيين بغضب وكذلك بعض الامراء قد أهملوا معسكر الصليبيين راجعين الى ورائهم أما ريكاردوس فلم يهتم لهم وداوم في بناء السور وفي أثناء ذلك نظر ريكاردوس من بعد دخاناً فقصده وكان ذلك جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وهم لا يعلمون بما دهمهم فوصل اليهم ريكاردوس وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين فلما وقع على احدهما ركب الفريق الثاني وواقعه حتى ركب الفريق الاول فدافعوهم وواقعوهم وساقوا قدامهم اثقالهم وخلصوا ناجين وسلم المسلمون من أعدائهم ولم يفقد منهم الا اربعة وكانت وقعة عظيمة دفع الله خطرها وهول ضررها وفي حادي عشره كبس عز الدين جرديك تبنى على من نزل بها من الصليبيين فأوقع بهم البلاء وساق منهم اثنى عشر أسيراً ومتاعاً كثيراً وأغار ايضاً على ظاهر عسقلان في ثاني صفر وجاء بثلاثين اسيراً وفي ليلة رابع عشر صفر كمنت سرية مقدمها فارس الدين ميمون القصري عند تبنى الى ان عبرت قوافل الفرنج فساقها باحمالها واثقالها ونسائها ورجالها

﴿ في عزم ريكاردوس على السفر الى بلاده وموت كونراد صاحب صور وغيره ﴾

اجتمعت العساكر الصليبية في سهل عسقلان للاحتفال بعيد الفصح واذا بوفد قد اقبل من بلاد الانكليز قاصداً ملكهم ريكاردوس وأخبروه بان أخاه يوحنا خرب المملكة واستولى عليها فلما سمع هذا الخبر جمع اليه رؤساء العساكر وأعلمهم بما جرى وانه يرغب السفر الى بلاده فتكدروا لذلك وشرعوا في انتخاب رئيس عليهم بدلا منه يكون ذا كفاءة فانتخبوا الامير كونراد صاحب

مدينـة صور ذاك الرجل المشهور بالمكر والدهاء وهو السبب في تجريد هـذه الحروب الصليبية الثالثة وكان كونراد هذا مقيما بمدينته فارسلوا اليه وفداً يعلمونه بانتخابهم هذا ففرح بذلك اهل مدينة صور وعسكره وشرعوا في الاحتفال بعيد له وكان ذلك في ثالث عشر ربيع آخر سنة ٥٨٨ وكان رجلان من الاسماعيلية الحشاشين دخلا مدينة صورقبل ذلك بمدة وتنصرا وأظهرا الترهب والتعبد ولزما الكنيسةوشكرهما القسيسونوالرهبان وأحبهما كونراد (وهو لا يعلم بأنهما سيكونان قاتليه) ولم يكن يصبر عنهما ففي اليوم المذكور الذي هو أعظم الايام يوم ورود الخبر بانتخابه رئيساً على جميع العساكر الصليبية وثب عليه الاسماعيليان وجرحاه جراحاً بليغة واختفى احدهما بكنيسة فاتفق ان كونراد حمل اليها لتسد فيها جراحاته فوثب عليه الاسماعيلي ثانياً واجهز عليه فقبضوا عليهما وسألوهما عن اسباب ذلك فقالوا ان الذيأغرانا هو ريكاردوس (ولكن مؤرخيالصليبيينقد برأوا ريكاردوس من ذلك وبعض مؤرخي العرب قال ان السلطان صـلاح الدين أرسل الى سنان رئيس الاسماعيلية يقول له ارسل من يقتل ريكاردوس او كونراد ولمـا علم سنان بان قتل ريكاردوس صعب ارسل هذين الرجلين الى صور وجرى ما تقدم) ثم بعد قتل كونراد المذكور تزوج أرملته هنري دى شمبانياوعمهملك فرنسا فيلبس وخاله ملك الانكليز ريكاردوس فأقيم ملكا على صور ثم ان خاله ريكاردرس لتصـميمه على السـفر تنازل له عن البلاد التي امتلكها فسار هنري الى عكا فقابلوه باحتفال لائق بملك لهـم . وفي أثنـاء ذلك قدم من بلاد الانكليز وفد آخر جدد قلق ريكاردوس وانزعاجه بمـا أخبروه عن بلبلة مملكته من اعمال اخيه يوحنا وبان الملك فيلبس ملك فرنسا قد هدد أمارة نورماندية

﴿ في تقرب الصليبيين الى القدس ورجوعهم عنه بقرار مجلس مشورتهم وما فعله السلطان ﴾

لمـا اتت الوفود من بلاد الانكليز الى ريكاردوس وعزم على السـفر وولى ابن أخته على بلاد فلسطين اراد ان يظهر اثراً من شجاعته أمام الصليبيينلتكون تذكاراً له فجمع عسكره بجهة الرملة وفي تاسع جمادي الاولى سـنة ٥٨٨ سار الى قلعة الداروم فاستولى عليها وخربها وكان السلطان صلاح الدين لدخول فصل الشتاء قد أمر باعادة العساكرالى بلادها (وهو مقيم بالقدس الشريف) ليستريحوا ولم

يبق الا بعض العساكر المصرية معه فلما علم بذلك ريكاردوس فرح وظن انها فرصة مناسبة له وأراد اغتنامها فسار بالعساكر الصليبية حتى بلغوا بيت نوبة وبينها وبين القدس عشرون ميلا وقد ألهيهم المسلمون بنهبهم وأضعفوهم بسلبهم يتسلطون عليهم من كل ناحية ويكمنون لهم تحت كل رابية وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس وفي آخر شهره وصل ريكاردوس الى قلونية وهي على فرسخين من القدس فلما سمع السلطان صلاح الدين بقربهم فرق ابراج البلد على الامراء واستعد للقتال فلما وصلت الصليبيون الى قلونية صب المسلمون عليهم البلاء وتابعوا ارسال السرايا فبلي الصليبيون بما لا قبل لهم به قام ريكاردوس بعقد مجلس مشورتهم مؤلفاً من خمسة أعضاء من جمعية الهيكليين (الداوية) ومن خمسة أمراء فرنساويين ومن خمسة أمراء من اهل سوريا فدام انعقاد هذا المجلس جملة ايام وكان الاعضاء الفرنساويون قد طلبوا حصار القدس عاجلا لعلمهم بان العساكر الاسلامية في أجازتها وباقي الأعضاء قرروا بان هذه الاشاعات غير حقيقية وانها فقط حيلة وشراك وانه لا يجوز حصار هذه المدينة لانها الآن في غاية القوة خصوصاً لوجود السلطان بها وبعد مناقشات قرروا بأغلبية الآراء بعدم حصار هذه المدينة المقدسة والرجوع عنها والتوجه الى الديار المصرية ومحاصرة مدينة القاهرة (فانظر قرار مجلس مشورة الصليبيين الثالثة وكيف انها خرجت من بلادها بقصد تخليص القدس من المسلمين والآن قرروا بعدم حصاره ومحاصرة القاهرة كأن القاهرة هي بيت المقدس الذي فيه قبر المسيح على دعواهم) مع ان هذا القرار جاء كما قال مؤرخوهم مذهلا مبلبلا. وكان السلطان صلاح الدين أحضر عنده جميع الامراء وفي مقدمتهم الامير أبي الهيجاء السمين والمشطوب والاسدية بأسرهم فقام فيهم القاضي ابن شداد خطيباً يحثهم على الجهاد ومما قاله ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الامر بايعه الصحابة على الموت في لقاء العدو ونحن أولى من تأسى به والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ثم شرع السلطان بعد ان سكت زماناً وهو يفتكر والناس سكوت كان على رؤوسهم الطير ثم قال الحمد لله والصلاة على رسول الله اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون ان دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم وان هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه الا أنتم فان لويتم أعنتكم والعياذ بالله طوي البلاد كطي السجل للكتاب وكان

ذلك في ذمتكم فانكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله وأكلتم مال بيت مال المسلمين فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يامولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك والله ما يرجع احد منا عن نصرتك الى ان يموت وقال الجماعة مثل ماقال فانبسطت نفس السلطان وانصرف من بالمجلس ثم اجتمع جماعة المماليك عند ابي الهيجاء السمين وأنكروا موافقة الامراء للسلطان على حصار القدس وقالوا انهم يخافون ان يحصروا بالقدس ويجري عليهم ما جرى على اهل عكا وحينئذ تؤخذ بلاد الاسلام وطلبوا ان يعمل مصاف فاما ان يكون النصر للمسلمين فيستولوا على باقي بلاد فلسطين واما ان يكون النصر للصليبيين فيأخذوا القدس واذا كان لا بد من الحصار فيكون بعض أقارب السلطان معنا أو هو معنا لان الاتراك لايدينون للاكراد والاكراد لا يدينون الاتراك وكان ذلك في يوم الخميس وفي يوم الجمعة صلى السلطان صلاة الجمعة وصار يتضرع الى الله سبحانه وتعالى وهو ساجد ودموعه تتقاطر على مصلاه ويطلب من الله النصر ويقول اللهم انصر دينك واحم بيتك المقدس واحفظ عبادك المسلمين انك سميع مجيب وفي صباح يوم السبت وصل مكتوب من عز الدين جرديك في اليزك يفيد بان الصليبيين قد رجعوا جميعهم بعد قرار مجلس مشورتهم كما تقدم وكفى الله المؤمنين القتال

وكان ريكاردوس قد استعمل جواسيس من أهل سوريا ليأتوه باخبار المسلمين وكان قادماً بعض عسكر من مصر ومعهم قوافل للتجار فاقاموا بنابلس أياماً حتى اجتمعوا فاتى الجواسيس الى ريكاردوس وأعلموه بذلك فامر عسكره بالانحياز الى سفح الجبل وركب في الف فارس والف راجل فاتى تل الصافية فبات ثم سار حتى اتى موضعا يقال له الحسي فانفذ السلطان الى هذا الركب يعلمه بنهوض الصليبيين نحوهم وأمرهم ان يبعدوا في البرية فركب ريكاردوس بصفة بدوي (اعرابي) مع بعض جواسيسه وسار حتى اتى الركب وطاف حوله بالصفة المذكورة ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريبة الصباح فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله وداهمهم وكان الشجاع منهم الذي يركب فرسه وينجو وانقسم الركب ثلاثة أقسام قسم قصد الكرك مع جماعة من العرب وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب أيضاً وقسم استولى العدو عليه فساقهم بجمالهم وأحمالهم

وجميع ما معهم وكانت واقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة وتبدد الناس في البرية وتركوا متاعهم وجمع ريكاردوس كثيرا من الخيل والبغال والاقمشة وغيره وسار بالجميع الى معسكره فوصله في السادس عشر من جمادى الآخرة وكان يوماً عظيما عندهم

﴿ استيلاء السلطان على يافا ومحاربة ريكاردوس ﴾

وبلغ السلطان فى العاشر من شهر رجب سنة ٥٨٨ بان الصليبيين قد خرجوا من عكا قاصدين بيروت فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجيب وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل السلطان من الجيب الى بيت نوبة . ثم رحل الى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة واللد وركب جريدة حتى أتى يازور وبيت حن وأشرف على يافا ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره فجعل في الميمنة ولده الظاهر وفي الميسرة أخاه العادل وركب عليها المنجنيقات وزحف عليها فارسل من بها يطلبون الصلح فاجابهم على قاعدة القدس وقطيعته فرضوا بذلك وطلبوا الانتظار الى يوم السبت التاسع عشر من رجب اما ان تجيئهم نجدة والا تكون القاعدة على ما استقر فأبى السلطان وأمر بالنقب فحشي وأحرق فوقع بعض السور فملأ الغبار مع الدخان فأظلم الافق وما تجاسر أحد على الدخول خوفا من اقتحام النار فلما انكشف الغبار ظهر وقوف الصليبيين بأسلحتهم في الموضع المهدوم وجد السلطان في القتل ورمي المنجنيقات فارسلوا يطلبون الصلح فقال لهم على قطيعة القدس فسألوا السلطان أبطال القتال الى ان يأتي من داخل المدينة بقرار الصلح فقال السلطان ما أقدر على منع المسلمين من هذا الامر وقاتل المسلمون قتالا شديداً وأخذوا البلد عنوة ودخلوها ونهبوا من الاقمشة العظيمة والغلال شيئاً كثيراً وبقايا من منهوبات القافلة المصرية وبعد دخول المسلمين استقرت القاعدة على ما قرره السلطان وكان قايماز النجمي في طرف الغور لحمايته من عسكر الصليبيين الذي بعكا فوصل منه كتاب بان ريكاردوس عدل عن قصد بيروت لما سمع باخبار يافا وقد جمع عسكره في المراكب وعزم على قصد يافا فاشتد عزم السلطان على تتمة الامر وتسلم القلعة لانه لم يستول بعد عليها فطلبوا منهم الخروج من القلعة حسب الاتفاق فخرج البعض والباقي رأى مراكب الصليبيين قادمة فعلموا بانها نجدة لهم فشقوا عصا الطاعة فابطأ ريكاردوس بنزوله الى البر فخاف من بالقلعة وأرسلوا بطركهم وغيره في طلب الصلح كما كان ويعتذر عنهم وكان ريكاردوس لما وصل الى مينا يافا

وجدها مملوءة بعساكر الاسلام وكذلك المدينة مرفوعاً عليها اعلام المسلمين فعلم بان المسلمين قد استولوا عليها لامحالة فتأخر عن النزول الى البر ثم بلغه انه لم يزل البعض بالقلعة فنزل من المراكب هو وعسكره وحمل على المسلمين فلما رأى السلطان ذلك قبض على الرسل وأمر بتأخير الاثقال والاسواق الى يازور فرحل العسكر وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من يافا واقام ريكاردوس في موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد وأمر ريكاردوس من في القلعة ان يخرجوا اليه لتعظيم سواده وبلغ السلطان بان ريكاردوس مخيم بظاهر يافا بألفي رجل من عسكره فاراد كبسه فسار بجريدة ولما تقدم بمن معه لمحاربتهم وصار يحث العساكر على الثبات قال له الجناح أحد الامراء وهو أخو المشطوب قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون وكان أيضاً في قلوب العساكر الاسلامية غيظ من حصول الصلح بعد دخول يافا لان السلطان كان منعهم عن أخذ الغنيمة فلما رأى السلطان ذلك اعرض عن القتال وسار الى يازور وحصلت مناوشات بين العساكر الاسلامية والصليبية أظهر فيها ريكاردوس من الشجاعة ما لم يره أحد فانه استل سيفه وقال لعن الله من لم يتبعني وهجم على المسلمين هجمات شديدة بنفسه بدون مساعدة وحمل من طرف الميمنة الى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد وصار في وسط العساكر الاسلامية وقد ظنه عسكره انه قتل أو اسر ثم وصل اليهم سالماً وقد مدحه مؤرخوهم مدحافائقاً حتى انهم فضلوا شجاعته على شجاعة الاسكندر الكبير وعن اعمال يهوذا المكابي ورولاندو وغيرهم

﴿ في مرض ريكاردوس والهدنة بينه وبين السلطان ﴾

في أوائل شعبان سنة ٥٨٨ حصل لريكاردوس مرض فصار يرسل رسله الى السلطان في طلب الفاكهة والثلج والسلطان يرسل له كلما يشتهيه وأرسل اليه طبيباً يعالجه وقد اكثر ريكاردوس في طلب الكمثرى والخوخ والسلطان يمده بذلك بقصد كشف الاخبار عن العدو بتواتر الرسل ثم جاء رسول من ريكاردوس مع الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والثلج وقال أبو بكر ان ريكاردوس انفرد به وقال له قل لاخي (يعني الملك العادل) يتبصر كيف نتوصل الى السلطان في طلب الصلح وتستوهب لنا منه عسقلان وأسافر الى بلادي ويبقى هو هاهنا بهذه الشرذمة ويأخذ البلاد منهم فليس غرضي الا اقامة جاهي بين ملوك أوروبا وان لم ينزل السلطان عن عسقلان فتأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها

فارسل السلطان الى الملك العادل بانه اذا تنازل ريكاردوس عن عسقلان فصالحه لان العساكر قد ضجرت من ملازمة البيكار والنفقات قد نفذت ثم ان ريكاردوس تنازل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك فعقد السلطان ديوانه يوم السبت ثامن عشر شعبان لاجل تحرير شروط الصلح وتحديد البلاد التي تكون بيد الصليبيين فذكر يافا وأعمالها وأخرج منها الرملة واللد ومجدل يابا وذكر قيسارية وأعمالها وارسوف واعمالها وحيفا واعمالها وعكا واعمالها واخرج منها الناصرة وصفورية وأثبت ذلك في الورقة وقال للرسول هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فان صالحتم على ذلك فبارك وقد اعطيتكم يدي فينفذ ملككم من يحلف في بكرة غد والاّ نعلم ان هذه مماطلة وكان من القاعدة ان تكون عسقلان خرابا وان يتفق المسلمون والصليبيون على خرابها واشترط دخول بلاد الاسماعيلية في يد المسلمين وتكون انطاكية وطرابلس في الصلح وان تكون الرملة واللد بينهما مناصفة وان جميع المسيحيين يزورون القدس بالراحة بدون ممانعة واستقرت القاعدة على انهم يحلفون يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شهره ورضي بذلك رجال الجمعيات الرهبانية (جمعية الهيكليين وجمعية القديس يوحنا المعمدان) وسائر أمراء الصليبيين فحلف هنري دي شامبانيا ابن اخت ريكاردوس وهو المتولي على بلاد سوريا وجماعة من أمرائهم للسلطان على الصلح وأخذوا يده وحلف لهم الملك العادل والافضل والظاهر وغيرهم وجميع أصحاب البلاد المجاورة لبلادهم وعقدت الهدنة العامة في البر والبحر والسهل والوعر لمدة ثلاث سنوات وثمانية اشهر ابتداؤهم الحادي والعشرين من شعبان الموافق اول سبتمبر

﴿ انتهاء الحروب الصليبية الثالثة ﴾

بعد انتهاء شروط الصلح المذكورة بين السلطان صلاح الدين وريكاردوس ملك الانكليز ورئيس العساكر الصليبية الثالثة امر السلطان صلاح الدين ان ينادى في الوطاقات والاسواق والمدن ان الصلح قد تم فمن شاء من المسلمين الدخول في بلاد النصارى فليدخل ومن دخل من النصارى في بلاد المسلمين فلا احد يمنعه ثم أرسل مائة نقاب ومعهم امير لاجل الاشتغال في هدم سور عسقلان الذي بناه الصليبيون كما هو مذكور في شروط الصلح ولخروج من بها من الصليبيين وقد اقام مع النقابين بعض الصليبيين لاتمام هدم السور وكان ذلك اليوم الذي تم فيه الصلح يوماً مشهوداً بين الطرفين ثم ان جميع العساكر الصليبية طلبوا زيارة القدس الشريف

قبل سفرهم فسارت العساكر الفرنساوية بقيادة دوك دي بورغونيا وبعد الزيارة توفي القائد المذكور وسافرت العساكر الى بلادها ثم تبعتهم العساكر النمساوية وغيرها لاجل الزيارة وكان السلطان صلاح الدين يرسل معهم الخفراء الى ان يتموا زيارتهم ويعودوا ولما وجد ريكاردوس كثرة الزوار من الصليبيين أرسل الى السلطان صلاح الدين لكي يمنع كل من أراد الزيارة ما لم يكن معه تصريح من ريكاردوس ولكن السلطان لما وجد الامراء والقواد قدموا اليه بقصد الزيارة أبى ردهم بل شرع في اكرام كل من يرد منهم وامدادهم بالطعام ومباسطتهم ومحادثتهم وعرفهم أمر ملكهم وانه لم يلتفت اليه وارسل الى ريكاردوس يعتذر له ويقول ان اقواماً وردوا علينا لاجل الزيارة فلا يمكنني ان استحل منعهم وقد مدح السلطان مؤرخوهم ثم أمر السلطان جميع العساكر الاسلامية بالانصراف الى بلادها ٠

﴿ سفر ريكاردوس ووقوعه في الاسر ببلاد النمسا ﴾

وفي ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨ سافر ريكاردوس من عكا بعساكره في المراكب قاصداً بلاده وعند وصوله الى سواحل ايطاليا حصلت انواء عظيمة فغرق بعض مراكبه وكسر الباقي ثم ان هذا الملك أبى ان يسافر الى بلاده عن طريق البر ماراً ببلاد فرانسا (لكدره من الملك فيلبس لتهدده بلاده في غيابه ولم يعلم ما قدّر له) وأراد السفر عن طريق بلاد النمسا فسار وحده متنكراً بصفة أحد زوار القدس والتزم ان يمر في مقاطعة الدوك ليوبولدوس دي اوطريش وكان هذا الدوك قد تكدر من ريكاردوس حالما رفع علمه على أحد أبراج عكا ورماه ريكاردوس في الخندق وكان اسرّها في نفسه ففي اثناء مسير ريكاردوس ببلاده وعلمه بذلك ارسل جنوده يفتشون على ريكاردوس ويقبضون عليه حيثما وجدوه فلما عثروا به قبضوا عليه واحضروه بين يدي الدوك المذكور المملوء عداوة وغيظاً فامر بسجنه في حبس مظلم تحت الارض (وهكذا تم لريكاردوس الشجاع الذي لم يقدر احد ان يأسره في الحرب أسر في السلم وحبس تحت الارض في حبس مظلم بعد عزه) واقام محبوساً بدون ان يعلم احد به بقلعة تنيروس وأما زوجته برنجاريا فكانت في سفينة أخرى لم يتغلب النوء عليها فنزلت البر سالمة ووصلت رومية آمنة فسمعت بما أصاب سفينة زوجها ولكنها لم تتحقق ذلك حتى رأت منطقته الذهبية تباع في السوق فلبثت تتوقع خبره

﴿ في التفتيش على ريكاردوس ووجوده في السجن ونقله الى سجن آخر ﴾

وبعد ذلك صار عظماء الانكليز يرسلون الى جميع ممالك اوروبا للبحث على ريكاردوس فما وجدوه وكان يوجد شخص اسمه بلونديل احد خاصة ريكاردوس وكان يحبه ويرتاح الى مجالسته وكان في جملة اهل سفينته عند غرقها ونجا معه ثم انفصل عنه في بعض المزدحمات ولم يعد يعرف مكانه حتى سمع بالقبض عليه وسجنه ولكنه لم يعرف اسم السجن فأخذ يفتش السجون متنكراً فلم يقف له على خبر فوصل يوماً الى قلعة تيبروس وقد اعياه التعب (وهو بصفة شاعر بيده عود يضرب عليه ويغني) واستولى عليه اليأس فأسند كتفه الى سورها وغنى أبياتاً كان قد نظمها هو وريكاردوس معاً فلم يكد يبدأ بها حتى سمع تكملتها من داخل القلعة فعلم ان ريكاردوس هناك فاسرع الى والدته الملكة اليونورا وجميع أرباب الحكم في بلاد الانكليز ولما شاعت هذه القضية خاف ليوبولدوس دوك دي اوطريش من دوام حبس ريكاردوس فاسرع في ارساله تحت الحفظ الى الملك هنري السادس ملك النمسا وكان هذا الملك أيضاً عنده عداوة لريكاردوس وحسد على شجاعته فكان يترقب الفرصة للانتقام منه فلما وصلت عساكر ليوبولدوس اليه ومعهم ريكاردوس أمر بقيده بسلاسل حديدية

﴿ محاكمة ريكاردوس ظلماً واطلاقه من الاسر ﴾

لما وصل ريكاردوس الى هنري السادس وقيده بالسلاسل الحديدية أرسله الى ديوان عظماء المملكة المنعقد وقتئذ في مدينة فورمس فهناك قد صورت البغضاء والحسد لريكاردوس جملة تهم اختلقوها وطلبوا الجواب منه عنها ولكن هذا الشجاع الباسل صاحب القلب القوي لم تزعجه سطوتهم ولا مدة سجنه ولا قيده بالسلاسل الحديدية فاجاب عن كل تهمة بما يفيد براءته ببراهين قوية دامغة فلما ظهرت براءته بكى أكثر رجال الديوان على ظلمه وخرج القضاة أيضاً بعد معرفتهم اختلاق هذه التهم وأما الملك فلم يتنازل عن بغضه وحسده فأمر بسجنه دائماً . وأما عظماء الانكليز فكانوا دائماً مجتهدين في خلاص ملكهم باي طريقه لانهم كانوا يحبونه حباً شديداً فتارة بالمخابرات مع الملك هنري المذكور والتوسل اليه وتارة بتوسط الملوك والامراء وقد ذهب تعبهم سدى حتى التزموا بتوسيط البابا لما له من الرئاسة الدينية فلم تنجح وساطته وأخيراً أنفذوا اثنين من رؤساء ديور جرمانيا ليفتدياه

من ملك النمسا بمئة وخمسين الف مارك فضة وبما ان خزنة الانكليز عجزت عن دفع هذا المبلغ التزمت الملكة اليونورا والدة ريكاردوس بان تكسر جميع الاواني الذهبية والفضية التي في قصرها الملوكي وأخذت أيضاً بعض أواني مقدسة من الكنائس وضربت الجميع مسكوكات لاجل اتمام دفع المبلغ المذكور الى هنري ثم أطلق سراحه فسار الى بلاده محفوفاً بالتجلة والاكرام وفيما هو في نورمنديا جاءه أخوه جون نادماً وجثا أمامه باكياً مستغفراً فعفا عنه ولما وصل انكلترا قوبل بالاحتفال اللائق ·

﴿ سفر السلطان الى دمشق بعد الهدنة وعزمه على الحج ﴾

بعد الهدنة سار السلطان الى القدس وأمر باحكام سوره وأنشأ به مدرسة ورباطاً وبمارستاناً وغير ذلك من مصالح المسلمين ووقف عليها أوقافاً وصام رمضان بالقدس وعزم على الحج والاحرام منه وكتب الى مصر واليمن بما عزم عليه وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج اليه من الزاد والنفقات فأرسل القاضي الفاضل الى السلطان يمنعه عن السفر وكذلك الامراء قالوا له لا يصح ان تسافر الى الحج وتترك هذه البلاد على ما بها من الشغب وهذه المعاقل التي في الثغور فان حفظهامن أهم الامور ولا تغتر بعقد الهدنة فان القوم على ترقب ودأبهم الغدر وما زالوا به حتى عدل عن هذا العزم وأقام بالقدس الى ان سافر ريكاردوس الى بلاده في أول شوال سنة ٥٨٨ فعند ذلك عزم السلطان على دخول الساحل جريدة لتفقد القلاع والحصون وأن يدخل دمشق ويقيم بها أياماً قلائل ويعود الى القدس سائراً الى الديار المصرية لتفقد أحوالها والنظر في مصالحها وأقام على القدس عز الدين جرديك وسار منها في يوم الخميس خامس شوال وجاوز ناحية البيره ونزل بظاهر نابلس وكان بها سيف الدين المشطوب وقد ظلم أهلها جملة مظالم فشكا أهلها الى السلطان فأمر بازالة ما يشكون منه ثم سار الى بيسان وصعد الى قلعتها المهجورة ونظر قللها العالية وقال الصواب بناء هذه وتخريب كوكب ثم سار منها الى كوكب نزل بطبرية وهناك حضر بين يديه الأمير بهاء الدين قراقوش وكان قد أطلق من أسره بعكا فتلقاه السلطان بالسرور والفرح وسار في خدمة السلطان الى دمشق حتى أطلقوا باقي أصحابه المصريين فأخذهم وسار الى مصر ثم سار السلطان الى قلعة صفد ومنها الى قلعة تبنين وجاز على هونين ثم سار الى مرج عيون وجسر حامد الى ان وصل بيروت فحضر البرنس بوهيموند صاحب

انطاكيه بين يدي السلطان وخدمه فأكرمه السلطان وأنعم عليه وعلى رؤساء عسكره ثم سار السلطان الى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها وشحنها بالرجال فدخل دمشق بكرة يوم الاربعاء السادس والعشرين من شوال فخرج أهلها جميعاً صغيراً وكبيراً نساء ورجالاً لملاقاته وعملوا له زينة عظيمة وأقام بها ومعه الافضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار ٠

﴿ مرض السلطان صلاح الدين ووفاته ﴾

كان السلطان يحب مدينة دمشق ويؤثر الاقامة فيها على سائر البلاد ولذلك أقام بها مدة في رغد وسلام مع ان المنية على عجزها مهاجمة هذا الباسل في ساحة الحرب لم تخف مهاجمته على فراشه وبين أولاده وأخواته ففي يوم الجمعة ١٥ صفر سنة ٥٨٩ ركب السلطان لملاقاة الحج فعاد الى منزله كسلا ثم غشيته حمى صفراوية ثم أصبح في اليوم التالي أكثر كسلا وضعفاً وما زال المرض يتزايد يوماً فيوماً الى اليوم التاسع من مرضه حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتد الارجاف في البلد وغشي الناس من الكآبة مالا يمكن حكايته وكان القاضي ابن شداد والقاضي الفاضل يقيمان عنده الى ان يمضي من الليل ثلثه ثم ينصرفان فكان الناس يترقبون خروجهما لكي يقرأوا أحواله من صفحات وجوههما وفي اليوم العاشر من مرضه حقن دفعتين فحصل له راحة وبعض الحمة وتناول شيئاً من ماء الشعير وفرح الناس فرحاً شديداً ثم زاد به المرض حتى صار لايقدر على التكلم ولما رأى الملك الأفضل ما حل بوالده وتحقق اليأس منه شرع في تحليف الناس فجلس واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وبعد وفاته للملك الأفضل واعتذر للناس بان المرض قد اشتد وانه يعمل هذا احتياطاً على جاري عادة الملوك فحلف جماعة من الاكابر ولم يحضر أحد من الامراء المصريين وفي الليلة الثانية عشرة من مرضه وهي ليلة الاربعاء ٢٧ صفر اشتد مرضه وضعفت قوته وبات بجانبه الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة يقرأ القرآن ويذكره بالله تعالى وكان ذهنه غائباً وذكر الشيخ أبو جعفر انه لما انتهى الى قوله تعالى : هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة : سمعه وهو يقول صحيح وهذه لفظة في وقت الحاجة ولما بلغ الى قوله تعالى: لا اله الا هو عليه توكلت: تبسم وتهلل وجهه وسلمت روحه الى ربه بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧

صفر وكان يوم وفاته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم وغشى الملك والدنيا وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وكان سنه عند وفاته ٥٧ سنة ومدة حكمه ٢٦ سنة في مصر وسوريا فحضر الجميع وشيعوا جنازته ودفنوه في الدار التي كان متمرضاً فيها وكانت بينهم شقيقة الفقيد ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص وقام بالعزاء ولده الافضل ويقول بعض المؤرخين ان السلطان صلاح الدين لم يترك في خزينته الخصوصية الا ديناراً واحداً و ٤٧ درهماً من الفضة ولم يجدوا في جميع صناديقه اثراً للذهب او لغيره من الحجارة الكريمة وذلك مما يدل على فرط كرمه لانه اصاب اموالا كثيرة جاد بها جميعها وكان حليما حسن الاخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب اصحابه يسمع من احدهم ما يكره ويتغافل عنه ولا يعلمه بذلك وقد رثاه العماد بقصيدة مائتان اثنان وثلاثون بيتاً منها

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء واقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشية ... مرجوة رهباته وهباته
اين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته
أين الذي ما زال سلطانا لنا ... يرجى نداه وتتقى سطواته
اين الذي عنت الفرنج لبأسه ... ذلا ومنها ادركت ثاراته
اغلال اعناق العدا اسيافه ... اطواق أجياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم ... اجدت لطب الدهر تدبيراته
من في صدور الكفر صدر قناته ... حتى توارت بالصياح قناته
في نصرة الاسلام يسهر دائماً ... ليطول في روض الجنان سباته
لاتحسبوه مات شخص واحد ... فمات كل العالمين مماته

﴿ تقسيم مملكة صلاح الدين على اولاده وماجرى في أثناء المدنه ﴾

ترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكوراً وانثى واحدة وهي مؤنسة خاتون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل واقتسم كل من اولاده واخوته واولادهم مملكته فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية فان ثلاثة من اولاده اخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة وتم

كل ذلك بموافقة الامراء · فتلقب اول اولاده المدعو نور الدين بالملك الافضل وكان من نصيبه مملكة دمشق والشطوط البحرية واورشليم (القدس) والبصرة وبانياس وسوريا الغربية · ولقب ابو الفتح الغازي بالملك الظاهر غياث الدين فاخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل باشر وعيراز والمنبج ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولى مصر بجميع أعمالها · ومن هؤلاء الامراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدول الايوبية الحلبية والدمشقية والمصرية أما من بقي من تلك العائلة فكانوا ولاة على بلاد اقطعهم اياها صلاح الدين قبل وفاته الا انهم كانوا تحت سلطة هؤلاء الثلاثة فسيف الدين ابو بكر بن ايوب وأخو صلاح الدين الملقب بالملك العادل كان حاكما في الكرك والشوبك وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهين شاه احد اخوى صلاح الدين كان أميراً على حماة والسلامية ومارا · وبهرام شاه الملقب بالملك الامجد حفيد شاهين شاه ايضاً كان ملقباً بملك الرها وشمس الدولة طورانشاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن بامر أخيه سنة ٥٦٩ كان قد اقام فيها مملكة وكان اخوه توغتقن حاكما فيها تحت اسم الملك المعز · وفي سنة ٥٩٠ سار الملك العزيز صاحب مصر بعساكره وحاصر مدينة دمشق وكان بها الافضل فارسل الى عمه الملك العادل يستنجده فجاءه وجاءه أيضاً أخوه الملك الظاهر صاحب حلب وجميع الامراء الايوبية واجتمعوا بدمشق فعلم العزيز بانه لاقدرة له على اخذها فترددت الرسل بينهم على الصلح فاستقرت القاعدة على ان يكون البيت المقدس وما جاوره من اعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية واعمالها للافضل ويعطي الافضل اخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية وان يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد منهم الى بلده وفي سنة ٥٩١ سافر الى دمشق ثانياً بقصد محاصرتها واستيلائه عليها وكان ذلك باغراء بعض مماليك أبيه المعروفين بالصلاحية مثل فخر الدين جركس وسراسنقر وغيرهم فسار الافضل من دمشق واستنجد بعمه الملك العادل وباخيه الملك الظاهر فسبقه الملك العادل ودخل دمشق لتقته به ثم ان بعض الامراء الاسدية الذين بقيادة العزيز راسلوا الافضل والعادل بطلب انحيازهم لهما فقبلاهم واتفقا بان الافضل والعادل يأخذان دمشق فعلم بذلك العزيز فخاف على مملكته فرجع الى القاهرة ليحفظها وسار كل من الافضل والعادل الى ان وصلا بلبيس فخاف العادل من الافضل انه اذا أخذ مصر لا يعطيه دمشق فأرسل الى العزيز بارسال القاضي

الفاضل ليتوسط في الصلح فاستقر الامر بان يكون للافضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والاردن وجميع ما بيده ويكون للعادل اقطاعه القديمة ويكون مقيما بمصر عند العزيز فتعاهدوا وعاد الافضل الى دمشق وبقي العادل بمصر مع العزيز

﴿ استيلاء الملك العادل على دمشق ﴾

لما أقام العادل بمصر رأى ان حصته قليلة ومنصبه حقير بالنسبة لاولاد أخيه فتواطأ مع الملك العزيز على خلع الافضل عن دمشق وتولية الملك العادل عليها فسارا معاً من مصر الى دمشق وحصراها واستمالا أحد أمراء الافضل واسمه العزيز ابن أبي غالب الحمصي وكان الافضل كثير الاحسان اليه والوثوق به فسلمه الباب الشرقي ليحفظه فوعد العزيز والعادل بفتحه لهم في اليوم السابع والعشرين من رجب سنة ٥٩٢ فدخل منه الملك العادل وبعض رجاله ولما علم الافضل ان عمه معه بدمشق أيقن ان البلد قد ملكت منه فخرج الى أخيه العزيز وتحادثا ثم دخلا معاً واجتمعا بعمهما ثم استقل الملك العادل بدمشق وعاد العزيز الى مصر وسار الافضل الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة الناصر لدين الله وكانا كلاهما شاعرين ماجدين فكتب الافضل الى الامام الناصر

مولاي ان أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
وهو الذي كان قد ولاه والده ... عليهما فاستقام الامر حين ولي
فخالفاه وحلا عقد بيعته ... والامر بينهما والنص فيه جلي

فاجابه الامام الناصر بقوله

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً ... بالود يخبر ان أصلك طاهر
غصبا علياً حقه اذ لم يكن ... بعد النبي له بيثرب ناصر
فابشر فان غداً عليه حسابهم ... واصبر فناصرك الامام الناصر

﴿ ابتداء الحروب الصليبية الرابعة ﴾

﴿ تحريض البابا وسفر العساكر الصليبية الرابعة ﴾

لما توفي السلطان صلاح الدين كان البابا على رومية سيليستينوس الثالث فرأى تقسيم مملكة صلاح الدين على أولاده وعائلته فاغتنم هذه الفرصة وأرسل منشوراً الى ملوك اوروبا يقول لهم فيه (بان السلطان صلاح الدين قد توفي ومملكته تقسمت على أولاده وعائلته وكل منهم قد استقل بنفسه وأخذ يطلب منهم الاتحاد والخروج

لتجريد حملة صليبية رابعة والاستيلاء على القدس قبر المخلص لعدم وجود من يحميه من المسلمين) ولما وصل هذا المنشور الى الملوك لم يلتفتوا اليه لان الملك ريكاردوس ملك الانكليز بعد اطلاقه من الاسر لم ير الاهتمام الا بصالح مملكته والاستعداد لمحاربة ملك فرانسا وكذلك الملك فيليبس ملك فرانسا فانه كان خائفاً على مملكته من ريكاردوس فكان هذان الملكان واقفاً أحدهما للآخر بالمرصاد ولذلك لم يهتما بمنشور البابا أما الملك هنريكوس السادس ملك النمسا فانه كان قد حرمه البابا من يوم أسر ريكاردوس ولكن لما وجد البابا عدم التفات ملوك فرنسا وانكلترا أرسل وفداً الى ملك النمسا المذكور يطلب اليه الاستعداد للزحف الى بلاد فلسطين وأخذ القدس من المسلمين مذكراً اياه بمسائل والده فريدريكوس الاول فقبل الملك هنريكوس تجهيز الحروب الصليبية الرابعة وفي جمعية عظماء المملكة المنعقدة في مدينة فورمس أعلن بالحروب المذكورة وطلب من القواد والامراء المساعدة فقبل ذلك عدد عظيم من النمساويين والالمانيين والجرمانيين وجميع البلاد الخاضعة لهذا الملك وكل منهم استلم صليباً واستعد للسفر الى فلسطين ولما كان هنريكوس دأبه الطمع والجشع وحب المجد الباطل وكان طامعاً في الاستيلاء على جزيرة سيسيليا فرح بهذا الاستعداد لينال مرغوبه بهذه الوسيلة ٠ ولما استعد كل الصليبيين للسفر انقسم جيشهم ثلاثة أقسام وسار كل قسم من طريق مخصوص فالقسم الاول كان برئاسة الدوك دي ساكس والدوك دي برابانت وسافر بحراً من مين البحر البلطيكي والقسم الثاني كان برئاسة الكونت دي لامبورك رئيس أساقفة مايانص فاجتاز نهر الطونه وسار نحو مدينة القسطنطينية والقسم الثالث كان برئاسة الملك هنريكوس فسافر الى بلاد نابولي لكي يصلي الحرب التي كان عازماً عليها ضد جزيرة سيسيليا٠

﴿ وصول الصليبيين الى عكا واستيلاء المسلمين على يافا واخذ الصليبيين بيروت ﴾

لما وصلت العساكر الصليبية الرابعة الى عكا عزمت على محاربة المسلمين وكان هنريكوس كونت دي شمبانيا المتولي على بلاد الصليبيين بفلسطين قد عقد هدنة مع الملك العزيز صاحب مصر زاد فيها مدة الهدنة المعقودة بين صلاح الدين وريكاردوس فاخذ يقنعهم بالقعود عن الحرب حتى انتهاء الهدنة فابوا ذلك وخرجوا من

عكاغاضيين يقصدون بلاد المسلمين فلما علم بذلك الملك العادل وكان بدمشق أرسل الى الملك العزيز بمصر يطلب ارسال العساكر وأرسل كذلك يطلب العساكر من البلاد الشرقيـة تجاه الامراء واجتمعوا على عين جالوت في شهر رمضان سـنة ٥٩٣ وبعض شوال ثم سار الملك العادل بجميع العساكر الاسلامية قاصداً يافا وحاصرها وشـدد في قتالها فملكها وخرب البلد فاعتصم الصليبيون بقلعتها فحاصرها وضايقها وملكها عنوة وقهراً بالسيف وذبح منهم ما ينوف عن عشرين الف حسب تقرير مؤرخيهم وكان هنريكوس كونت دي شمبانيا المذكور لم يزل بعكا وقد عزم على المسير بعساكر الصليبيين لاجـل خـلاص يافا فوقع من شـباك بقصره فمـات ثم بعـد دفنه ساروا جميع الصليبيين لنجدة يافا فبلغهـم خبر استيلاء المسلمين عليها فعزموا على المسـير نحو بيروت والاستيلاء عليها ولمـا بلغ ذلك الى الملك العادل أرسل اليها بعض العسكر لاجل هدمها وتخريبها فشرعوا في هدم سور المدينة في سابع ذي الحجة فمنعهـم اسامة (والي المدينة) من ذلك وتكفل بحفظها وعاد عسكر المسلمين منهـا فالتقوا بالصليبيين بنواحي صيدا وجرى بينهـم قتال شديد قتل فيه كثير من الفريقين وحجز بينهم الليـل وسار الصليبيون في ٩ منه فوصلوا بيروت فلما قاربوها هرب منها اسامة وجميع من معه من المسلمين فملكها الصليبيون صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة وكان بها من أسرى الافرنج ما ينوف على تسعة آلاف فاطلقوهم فارسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقي منها لان صلاح الدين كان قد خرب اكثرها ثم سافرت العساكر الاسلامية الى صور فقطعوا أشجارها وخربوا ما لها من قرى وأبراج فلما سمع الصليبيون بذلك رحلوا من بيروت الى صور وأقاموا بها ونزل المسلمون عنـد قلعة هونين وأذن العادل للعساكر الشرقية بالعود ظناً منه ان الصليبيين يقيمون ببلادهم

﴿ مسير القسم الثالث من الجيوش الصليبية الرابعة ﴾

سار الملك هنريكوس بالقسم الثالث من العساكر الصليبيـة الى ان وصل الى جزيرة سيسيليا فحارب اهلهـا وانتصر عليهـا واستعمل في حروبه معها القساوة والعذابات البربرية حتى تتوج عليها سلطاناً (وكان قـد تزوج بقسطانسا ابنة روجار صاحب الجزيرة وكانت قسطانسا تستحق التملك عليها ولكن قد زاحمها تنكريد واستولى عليها وبعد وفاته كثرت التحزبات الى ان وصل هنريكوس واستولى عليها) ثم ان هـذا الملك عزم على السفر الى فلسطين ليحارب سـنة

تكفيراً عن ذنوبه (لانه اصبح محروما من رأس الكنيسة لمحاربته المسيحيين) فارسل الى عظماء مملكته بسفر كل من كان أقسم بالمسير الي الحروب الصليبية وبعد ان استعد للمسير الى فلسطين برئاسة هذا القسم عدل عن هذا العزم وجعل كونراد اسقف هيدالكسيم رئيساً عليه فساروا بحراً الى ان وصلوا الى سوريا ففرح بهم جميع الصليبيين واشتدت قوتهم وعزموا على التوجه الى القدس ومحاصرته ولما كان ذلك في فصل الشتاء ولم يمكنهم المحاصرة لشدة البرد انتظروا فصل الربيع

﴿ حصار حصن تبنين وقدوم العزيز اليه ورجوع الصليبيين على اعقابهم ﴾

وفي أثناء انتظار الصليبيين دخول فصل الربيع لمحاصرة القدس عزموا على حصار حصن تبنين وكان الملك العادل قد أتاه الخبر في منتصف المحرم سنة ٥٩٤ بأنهم يريدون ان يحصروا تبنين فسيراليه عسكراً يحمونه ويمنعون عنه وأرسل أيضاً الى العزيز بمصر يطلب منه ان يحضر هو بنفسه ويقول له ان حضرت نخير والا فلا يمكن حفظ هذا الثغر فسار العزيز مجداً فيمن بقي معه من العساكر ورحل الصليبيون عن صور ونازلوا تبنين في اول صفر وقاتلوا من به وجدوا في القتال ونقبوا من جهاتهم من تحت الجبل فلما علم بذلك من بالحصن وخافوا ان يتملكه الصليبيون بالسيف نزل بعضهم الى الصليبيين يطلب الامان على انفسهم وأموالهم ليسلموا القلعة فقال لهؤلاء المسلمين بعض افرنج سوريا ان سلمتم الحصن استأسركم هؤلاء الصليبيون وقتلوكم فاحفظوا نفوسكم (وكان الخلاف واقعاً بين الصليبيين) فعادوا كانهم يراجعون من في القلعة ليسلموا فلما صعدوا اليها أصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه فحموها الى ان وصل الملك العزيز الى عسقلان في ربيع الأول فلما سمع الصليبيون بوصوله واجتماع المسلمين رحلوا وخصوصاً لان ليس لهم ملك يجمعهم فاقاموا الى ان وصل الملك العزيز في اول شهر ربيع الآخر ورحل هو والعساكر الى جبل الجبل المعروف بجبل عاملة فاقاموا أياماً والامطار تهطل فبقي الى ١٣ منه ثم سار وقارب الصليبيين وأرسل رماة النشاب فرموهم ساعة وعادوا ورتب العساكر ليزحف الى الصليبيين ويجد في قتالهم فرحلوا الى صور في منتصف الشهر ليلا ثم سار المسلمون الى اللجون وتراسلوا في الصلح وطال الامر فعاد الملك العزيز الى الديار المصرية قبل انتهاء الصلح

﴿ وفاة الملك هنريكوس السادس وتعيين الملك اموري على فلسطين وانتهاء الحروب الصليبية الرابعة ﴾

لما قتل هنريكوس دي شمبانيا ملك فلسطين وترملت زوجته ايزابال قدم الملك اموري ملك قبرص وتزوج بها وفي اثناء حفلة العرس ورد عليهم ما كدر خاطر جميع الصليبيين وهو نعي الملك هنريكوس السادس ملك النمسا فحينئذ عزم جميع الامراء النمساويين والالمانيين على السفر الى بلادهم فركبوا سفنهم الى بلادهم ولم يبق منهم في سوريا الا ملك هونكريا الذي حصلت بينه وبين العساكر الاسلامية مناوشات بجهة يافا فاحتاطت العساكر الاسلامية برجاله وقتلتهم عن آخرهم وكان قد حضر الكونت دي منتفورت الى سوريا منذ أيام قليلة فطلب من الملك العادل هدنة لمدة ثلاث سنوات فاجابه الى ذلك وكان في شعبان من السنة المذكورة وهكذا قد انتهت هذه الحرب الصليبية الرابعة

﴿ وفاة العزيز صاحب مصر وتولية ابنه المنصور وماجرى للافضل ﴾

في شهر محرم سنة ٥٩٥ صار العزيز الى جهة الفيوم للصيد فطارد ذئباً فنفر به جواده فسقط على الارض وأصابته حمى فعاد الى القاهرة وحدث له يرقان وقرحة في الامعاء واحتبس طبعه فمات في ليلة العشرين منه وكانت مدة حكمه ست سنين الا شهراً وكان عمره ٢٧ سنة وأشهراً وكان في غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والاحسان عليهم وكان الغالب على دولة العزيز فخر الدين جهاركس فاقام على المملكة ولد العزيز وهو الملك المنصور محمد وكان عمره تسع سنين وشهوراً واتفق الامراء على احضار احد بني أيوب ليكون اتابكا للملك (أي وصياً عليه) فتشاوروا بالامر بحضور القاضي الفاضل فاشاروا بالملك الافضل وكان بصرخد فارسلوا اليه فسار مجداً في ٢٨ منه فوصل الى بلبيس في ٥ ربيع الاول فخرج الملك المنصور للقائه فترجل له عمه الملك الافضل ودخل بين يديه الى دار الوزارة وهي قد كانت مقر السلطنة وكان الافضل لما وصل الى بلبيس فاتفق ان أخاه الملك المؤيد مسعود صنع له طعاماً وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاماً أيضاً فابتدأ بطعام أخيه ليبين حلها أخوه انه يبدأ به فظن جهاركس انه فعل هذا انحرافاً عنه وسوء اعتقاد فيه فتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الافضل وقال ان طائفة من العرب قد اقتتلوا ويطلب المسير اليهم ليصلحهم فأذن له الافضل ففارقه

وسار مجداً حتى وصل الى القدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الامراء الناصرية فقويت شوكتهم واجتمعت كلمتهم على خلاف الافضل فأرسلوا الى العادل يطلبون قدومه ليدخلوا معه الى مصر ليملكوها وكان محاصراً ماردين فلم يقدم اليهم وكان دخول الافضل القاهرة في ٧ ربيع اول ولما سمع بهرب جهاركس المذكور أرسل اليه ليعود فأبى ويومئذ قام الافضل اتابكا على المنصور بمصر وكان الوزير وقتئذ سيف الدين يازكج ٠

وأرسل الملك الظاهر صاحب حلب الى أخيه الافضل يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل وان ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين فبرز الملك الافضل خارج مصر وسار الى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره الى دمشق فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل وسار فسبق الافضل ودخل دمشق قبل نزول الافضل عليها بيومين ونزل الافضل على دمشق ثالث عشر شعبان وزحف من الغد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكره على المدينة حتى وصل الى باب البريد ولم يمدهم العسكر فتكاثر أصحاب العادل وأخرجوهم من البلد ثم تخاذل العسكر فتأخر العادل الى ذيل عقبة الكسوة ثم وصل الظاهر صاحب حلب لنجدة أخيه فعاد الى مضايقة دمشق وداوم الحصار عليها وقلت الاقوات عند الملك العادل حتى أهل البلد واشرف الافضل والظاهر على امتلاك دمشق وعزم العادل على التسليم ولكن حصل بين الاخوين منافرة فغضب الظاهر وترك قتال عمه العادل لاخيه الافضل وظهر الفشل في العساكر ثم انهما تأخرا بمرج الصفر في آخر صفر سنة ٥٩٦ ثم سارا الى رأس الماء ليقيما به الى انقضاء فصل الشتاء ومنه سار الافضل الى مصر والظاهر الى حلب ولما افترقا خرج الملك العادل في أثر الافضل الى مصر ولما وصل الافضل الى بلاده تفرقت عساكره في بلادهم الى الربيع فادركه عمه العادل فخرج الافضل بمن بقي عنده من العسكر وضرب معه مصافاً بموضع يقال له السائخ في ٧ ربيع آخر فانكسر الافضل وانهزم الى القاهرة ودخلها ليلا ثم سار العادل في أثره وأتى القاهرة وحصرها فجمع الافضل من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فارسل الى عمه في الصلح وطلب العوض عن مصر وتسليمها اليه وأن يكون العوض ميافارقين وحاني وسميساط فاجابه الى ذلك وتحالفا عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت ١٨ منه واجتمع بالعادل وسار الى صرخد وأرسل من يستلم البلاد المذكورة فامتنع

نجم الدين أيوب ابن العادل عن تسليمه ميافارقين وسلم ماعداها

﴿ خلع الملك المنصور وسلطنة الملك العادل على مصر وسوريا ﴾

ودخل الملك العادل القاهرة يوم السبت ١٨ ربيع آخر ٥٩٦ ولما خلا له الجو وثبتت قدمه فيها خلع الملك المنصور محمد بن عبد العزيز في شوال بعد ان حكم ٢١ شهراً وتولى الملك العادل سلطنة مصر وسوريا وخطب لنفسه فلم يرض بذلك الامراء المصريون فراسلوا أخويه الظاهر بحلب والافضل بصرخد وتكررت المكاتبات والمراسلات يدعونهما الى قصد دمشق وحصرها ليخرج العادل من مصر اليهم فيسلمونهم مصر فحضر الظاهر والافضل الى دمشق وحاصراها وبعد قتال مع من بالبلد وكان العادل أرسل اليها من يحفظها حصل بين الاخوين منافرة فعادا الى تجديد الصلح مع العادل . واستقرا على ان يكون للظاهر منبج وافامية وكفر طاب وقرى معينة من المعرة ويكون للافضل سميساط وسروج ورأس العين وحماين ورحلا عن دمشق أول محرم سنة ٥٩٨ وسار العادل الى دمشق فوصلها تاسع شهره . ومازال يشتغل حتى جعل جميع الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانه وفي جملتهم الظاهر والافضل فعادت المملكة الايوبية بعد ان انقسمت حصصا الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد

وفي سنة ٥٩٨ أيضاً أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر الى الشام فسار بوالدته واخوته وأقام عند عمه الملك الظاهر بحلب

﴿ الحروب الصليبية الخامسه ﴾

(تحريض البابا اينوشانسيوس الثالث على الحروب الصليبية)

لما جلس على كرسي السدة البطرسية برومية البابا اينوشانسيوس الثالث وعمره ٣٣ سنه أراد أن يجعل له اثراً يذكر فاخذ يحرض على الحروب الصليبية وأرسل الى جميع ملوك أوربا منشورات بالاتحاد على الحروب الصليبية لتخليص قبر المسيح من أيدي المسلمين ثم أرسل نوابا الى الملوك والى جميع قواد العساكر ورؤساء الكنائس والى شعوب فرانسا وانكلترا وهونكاريا وسيسيليا وقد أعلن لهم على انه عازم أن يضحى أعز ماالديه بشأن استنقاذ قبر المسيح وحيث أن ريكاردوس ملك الانكليز وفيلبس ملك فرانسا كانا دائماً متحاربين مع بعضهما بخصوص بلادهما فكان لايمكنهما ترك بلادهما والتوجه لحروب صليبية ولذلك قد

أرسل اليهما البابا الكردينال بطرس ليتوسط بينهما في الصلح باسمه وأن يعقد هدنة بينهما لمدة خمس سنوات فلم تحصل ثمرة ولم يتم صلحهما وكذلك كان اوتون والي ساكسيا وفيلبس اميرسوابيا فانهما كان يخاصمان امير جرمانيا وجميع مملكة النمسا متداخلة في هذا المشكل ولهذه الاسباب لم تثمر تحريضات البابا . ثم انه كان يوجد في فرانسا كاهن اسمه فولك خوري كنيسة نويلي سورفارنا وكان محبوباً عند الشعب لفصاحته وطلاقة لسانه حتى انهم كانوا يلقبونه بالقديس فارسل اليه البابا وفداً ومعه تفويض منه بانذارات الحروب الصليبية فقبل فولك هذا التفويض واخذ بالطواف ومعه بطرس دي رزوني لاجل ان ينذر بالحروب الصليبية فسار متجولا في بلاد نورمانديا وفلاندرا وبورغونيا فكان يخطب فيهم ويحثهم على الاستعداد للسفر الى الحروب الصليبية لتخليص قبر المسيح مفدي العالم ثم سار الى قلعة داكري وكانت هناك جمعية عمومية من رؤساء العساكر في وليمة قد أعدها لهم تيوبلت كونت دي شمبانيا وصار يخطب فيهم ويحثهم ويطلب منهم النظر الى البلاد المقدسة وما زال بهم حتى ان تيوبلت كونت دي شمبانيا وهو أخو هنريكوس ملك فلسطين المتوفي وابن أخي سلطان فرانسا وابن أخت سلطان انكلترا قبل التوجه الى فلسطين واستنقاذ القدس من المسلمين تحت راية الصليب وتبعه كل من كونت دي تشارتراس . وكونت دي بلواز وكونت دي سانيول . وسمعان دي منتفورت . ورنهارد . وبرندوس دي موتميريل وأخوه والكونت غوتير . والكونت يوحنا دي بريانا ومنسي دي ليزلاورانودي رابيارا . ومتى دي موغورانسي . وهوكوز ورمانوس دي بورن وكونت دي أميانس والكونت رانوددي بولونيا . وجفرو كوت دي براش وجفر وكونت دي فيلا هردوين والمرشال دي شمبانيا

﴿ سفر العساكر الصليبية الخامسة واتحادهم مع مشيخة البندقيه ﴾

اقتفى قواد بلاد فلاندرا أثر من ذكروا فاقسم كل من الكونت بودوين واسطاكيوس وهنريكوس اخوه ويعقوب دي افنسا ومحافظ قلعة بورجس ويوحنا دي نزالا وكونون دي بيوتونا وغيرهم على المسير تحت راية الصليبيين لانقاذ القبر المقدس وتعيين رئيساً عاماً على هذه الجيوش تيوبلت كونت دي شمبانيا ثم اجتمع الرؤساء في مدينة سواسنوس ثم في مدينة كومبينا واتفقوا على ان العساكر تسافر الى المشرق بحراً وان يرسلوا وفداً الى مشيخة

البندقية لاجل ان ترسل مراكبها لتقلهم الى بر اسيا وسار الوفد الى ان وصل البندقيه في سنة ٥٩٦ وتقدم هذا الوفد بين يدي الدوجا (لقب رئيس مشيخة البندقية) هنريكوس داندولو وعرض عليه الرسائل وطلب منه المساعدة بارسال المراكب لتقل الصليبين فقال لهم باي شروط فقالوا كما تريد فاشار الدوجا بطريقتين احداها ان يرسل مراكب لتقل الصليبين لحمل أربعة آلاف وخمسمائة من الفرسان وعشرين الفاً من الرجال وتستطيع ان توسق الذخائر اللازمة لهذا العسكر لمدة تسعة شهور بشرط ان يدفعوا له خمسة وثمانين الف وزنة فضة والثانية انه يرسل خمسين مركباً بعساكرهم صحبة الصليبين وان جميع الغنائم تقسم بينهم مناصفة أي للصليبين النصف وللبندقيين النصف الاخير ثم أرسلوا الشروط الى البابا ليصدق عليها فصدق عليها ثم عاد رجال الوفد الى الصليبين فوجدوا تيوبلت الرئيس العام مريضاً ثم مات فانتخبوا رئيساً عليهم بونيفاسيوس أمير مونتفرات واستلم الصليب من يد فولك الخوري بحضر من الاكليروس في كنيسة السيدة مريم البتول ثم سار الصليبيون من بلاد فرانسا فاجتازوا الجبال الالبية وواصلوا الزحف الى ان وصلوا الى البندقية وهناك قابلهم أهلها باكرام واحترام وقد أعدوا لهم المراكب اللازمة وزيادة حسب الشروط وطلبوا منهم ان يدفعوا لهم مبلغ ٨٥ الف وزنة فضة فوجد الصليبيون ان لا قدرة لهم على دفع المبلغ جميعه ودفعوا ثلثه فقط فلذلك رئيس مشيخة البندقية أجمع امرائه وقال لهم بما ان الصليبيين ليس معهم الآن باقي المبلغ المتفق عليه فارى الاحسن ان نأخذهم معنا في مقابلة باقي المبلغ لمساعدتنا على اخضاع مدينة زارا التي اغتصبها منا سلطان هونكرا فقبل هذا الرأي رؤساء الصليبيين وأما الصليبيون نفسهم فاكثرهم رفض قبوله وكذلك الوكيل البابوي بطرس دي كابوا رفض هذا الرأي وقال انه نفاق ولكن الدوجا هنريكوس أراد ان يجذب الجميع الى رأيه هذا ويتم مرغوبه وانتصاره على هذه المقاومة فاجتمع هو ورؤساء عساكره وشعبه في كنيسة القديس مرقص واتخذ علامة الصليب على صدره وتبعه جميع شعبه فصاروا جميعاً صليبيين ومتحدين معاً تحت راية الصليب فثبت على رأيه ورفض معارضة الوكيل البابوي وغيره

﴿ محاربة الصليبيين مدينة زارا والقسطنطينية وغيرها ﴾

سار جميع الصليبيين ومعهم أهل البندقية الى ان وصلوا الى مدينة زارا وحاصروها مدة أسبوعين وفي كل يوم يقاتلونها وأخيراً انتصروا على من في

المدينة واستولوا عليها واقتسموا غنائمها بالسوية بينهم حسب الشروط ولمناسبة دخول فصل الشتاء عزموا على الاقامة بهذه المدينة الى ان ينقضي بسلام ثم أرسل اليهم البابا يوبخهم على محاربتهم المسيحيين وتأخيرهم عن التوجه الى فلسطين فارسلوا له وفد الاجل ان يعتذر لهم امامه ويطلب منه المغفرة والبركة فسامحهم البابا ثم انه قدم للصليبيين وفداً من الملك فيلبس سوابا أحد ملوك النمسا يطلب منهم مساعدة اليكسيوس ابن ملك القسطنطينية اسحاق وتمليكه عليها (لان عمه اغتصب المملكة من ابيه وسجنه وسجن اباه بعد سمل عينيه بالقسطنطينية فتخلص الولد المذكور وسافر الى صهره الملك فيلبس) وتعهد بدفع مائتي الف وزنة من الفضة بصفة مصاريف للصليبيين وان يضع مملكة الروم كلها تحت طاعة الكنيسة الرومانية وانه يقدم للصليبيين ما يحتاجون اليه من القوت ويتبعهم الى بلاد فلسطين أو يرسل معهم عشرة آلاف محارب فانعقد مجلس مشورتهم وبعد معارضة من بعض الرؤساء قرر قبول هذه الشروط المقدمة لهم وانه في فصل الربيع ينزلون في المراكب ويسيرون الى القسطنطينية . ثم وردت اليهم رسائل من البابا بتوبيخهم على ما عزموا عليه فلم يلتفتوا اليه وباشروا في الاستعداد كما تقرر ثم حضر اليهم اليكسيوس نفسه وجدد امامهم توسلاته . ثم سار الصليبيون بالمراكب الى ان وصلوا مينا دورتسيوس ومينا كورفو وهناك نودي بالامير الكسيوس ملكا ثم ساروا في البحر أيضاً وكلما وصلوا الى مدينة أو بلد نادوا بان الملك هو الكسيوس الى ان وصلوا الى مدخل البسفور ورموا مراسيهم عند شط مدينة القديس استفانوس ثم قرروا بانتشار أعلامهم على المراكب وبفك القلوع وبعبور كل المعارة في الخليج الكبير وقد ساعدهم الريح الى ان صاروا تحت أسوار القسطنطينية فطلعوا الى البر فارسل اليهم ملك القسطنطينية وقتئذ يسألهم عن أمرهم فقالوا للرسول انا حضرنا لاجل رد المملكة الى الملك الكسيوس بن اسحاق صاحبها الاصلي واذا لم يشأ تسليم المملكة بدون حرب فاعلمه باننا سنأخذها بالقوة ثم قرر مجلس مشورتهم بانتقال العساكر الى الجهة الثانية لمحاصرة القسطنطينية من كل جهة وكان ذلك في شهر القعدة سنة ٥٩٩ وانتشبت الحرب بين الفريقين فتغلبت العساكر الفرنساوية على برج غلطة وأخذوه ووضعوا علمهم فوقه وفي الوقت نفسه تغلبت عساكر البندقية على قطع السلسلة الحديدية التي تمنع المراكب من دخول قرن الذهب ودخلوا في قلب المدينة وتبعهم نحو عشرين الف مقاتل من الفرنساويين وحاصروا المدينة من البر والبحر وبعد قتال شديد بينهم أظهر فيه الشجاعة اهل

البندقية والدوجا كل النشاط والشجاعة مع انه كان كفيف البصر ثم استولى الصليبيون على المدينة قهراً واضرموا النار في المنازل القريبة من السور اما الملك فانه هرب في ظلام الليل ونزل في مركب مع خزائنه وسار مفتشاً على موضع يلتجئ اليه ثم ان الروم هجموا على السجن واخرجوا منه الملك اسحاق واجلسوه على تخت ملكه فارسل اليه الصليبيون يطلبون منه التصديق على الشروط التي حررها ولده الكسيوس في مدينة زارا وتنفيذ مفهومها فهاله المبلغ المعين ولكنه كتم امره واظهر رضاه بالتصديق عليه ثم ان الصليبيين توجوا ولده الكسيوس ليكون شريكا في المملكة

﴿ ثورة القسطنطينية وامتلاك الصليبيين لها ﴾

وبعد ذلك طلب الصليبيون من الملك المبلغ المعين في الشروط وان تكون مملكة الروم خاضعة للبابا فحينئذ اجبر الملك اليكسيوس بطريرك القسطنطينية بالاعتراف بساطة البابا الدينية ثم امر بجمع المال من الاهالي ولكنه لم يتم له تسديد المبلغ فاخذ جميع الاواني المقدسة التي بالكنائس وحلاها وضربها مسكوكات لاجل تسديد المبلغ ولذلك تضررت الروم باجمعها ومما زاد ضررها ان عساكر الصليبيين الفلامنديين اشعلوا النار في كنيس لليهود فاحترق والتهبت النيران في باقي المدينة فلذلك جاهر الروم بالعداوة للصليبيين بقيادة من يدعى اليكسيوس مورزوفلا وقبضوا على الملك اليكسيوس وقتلوه ثم ان اباه الملك اسحاق مات حزناً على ولده المذكور فانتخب الروم اليكسيوس مورزوفلا ملكا عليهم واستعدوا لمحاربة الصليبيين وكذلك الصليبيون استعدوا لمحاربة الروم ونزلوا في المراكب واقتتل الفريقان فتأخر الصليبيون وبعد ثلاثة ايام انتصروا على الروم واستولوا على المدينة عنوة واوقعوا باهلها القتل والنهب وصاروا يجولون في المدينة شاهري سيوفهم مشعلي مشاعلهم ليحرقوا بها الدور فأحرقوا اكثر منازل المدينة فالتجأت النساء الى كنيسة اياصوفيا للاحتماء بها فخرجت الاساقفة والقسس حاملين الانجيل امامهم يطلبون من الصليبيين الامان وان يبقوا على اهل المدينة فلم يلتفتوا اليهم (فانظر رأفة الصليبيين الذين خرجوا من بلادهم بقصد تخليص قبر المسيح وادعاءهم بالشفقة على مسيحي الشرق كيف فعلوا في مسيحيين القسطنطينية من القتل والنهب وحرق المدينة) وصاروا يقتلون وينهبون حتى كنيسة ايا صوفيا نفسها فقد احرقوا جميع ما فيها من الستاير والتصاوير وغيرها ونبشوا قبور الملوك المدفونين فيها واخذوا ما بها من الذهب والاحجار الكريمة ولم يبقوا في المدينة منزلا بدون نهب وقتل وكذلك احرقوا وكسروا جميع

التماثيل المقامة بالميادين العمومية وقد خرج بطريرك الروم هاربا من القسطنطينية حافي الاقدام تاركاً جميع امتعته لنهب الصليبيين وهرب موروزوفلا في احد المراكب

﴿ تتويج بودوين على القسطنطينية وماجرى للصليبيين بها وانتهاء الحروب الصليبية الخامسة ﴾

بعد امتلاك الصليبيين بلاد الروم شرعوا في انتخاب احدهم ليكون ملكاً على القسطنطينية فاختاروا ستة أشخاص ومن البندقيين ستة اشخاص وادخلوا الاثنى عشر كنيسة ايا صوفيا وطلبوا منهم ان ينتخبوا احد الرؤساء الصليبيين ليكون ملكا فاقاموا بالكنيسة يومين ثم خرجوا ونادوا بان الذي يكون ملكا هو بودوين كونت دي فلاندرا فاقاموه ملكا ثم شرعوا في تقسيم المملكة ووظائفها فاستخدم بودوين اكثر رؤساء الصليبيين ليكونوا حكاماً على البلاد الرومية وكذلك اهل البندقية وكان ذلك في سنة ١٢٠٤ ميلاديه الموافقة ٦٠١ هجريه ثم انعقد مجلس مشورتهم وقسم المملكة الرومية قسمين قسما للفرنساويين والقسم الآخر لاهل البندقية ثم ان بودوين ملك القسطنطينية قد ارسل رؤساء الصليبين الى البابا يعلمونه بما امتلكوه ويعتذرون اليه لتأخرهم عن التوجه الى البلاد السورية فغضب عليهم لمحاربة اخوانهم المسيحيين وبلغت انتصارات الصليبيين المذكورة على بلاد الروم اقصى البلاد فسارت خيالة الجمعيات الرهبانية جمعية الهيكليين وجمعية القديس يوحنا المعمدان اليها ولما استوطن الصليبيون القسطنطينية ارسلوا الى البلاد حكاما وعساكر منهم فكانوا كلما ذهبوا الى مدينة لاخضاعها يخرج عليهم الروم ويقاتلونهم وهكذا تفرقت عساكر الصليبيين في جميع البلاد وممن عصاهم أهل بلغاريا فاسروا بودوين المذكور وقتلوه فجاس بدلا عنه اخوه هنريكوس دي هالينولت ملكا على القسطنطينية ثم ارسلوا الى بلاد فرانسا وايطاليا يطلبون النجدة منهما مستغيثين بأهلهما وقد اقامت هذه المملكة تحت حكم الفرنساوية نحو سبعة وخمسين سنة ثم استردها الروم منهم وهكذا انتهت الحروب الصليبية الخامسة بدون محاربة او قتال مع المسلمين

﴿ مناوشات الصليبيين والملك العادل ﴾

واما الملك العادل ظل متمتعاً بملكه العظيم وكلما انقضت هدنة بينه وبين الصليبيين جددها وفي سنة ٦٠٤ خرج الصليبيون الذين بطرابلس وحصن الاكراد واكثروا الاغارة على بلد حمص وولايتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيراً فلم

يكن لصاحبها اسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه قوة علي دفعهم ومنعهم فاستنجد بالظاهر غازي صاحب حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده احد الا الظاهر فانه سير اليه عسكراً اقام عنده ومنع الصليبيين عن ولايته وفي هذه السنة أيضاً خرج اهل قبرص على الأسطول المصري فاخذوا منه مراكب واسروا من بها فارسل الملك العادل الى الملك اموري صاحب عكا فى رد ما اخذوه وقال له حيث اننا في صلح فلم غدرتم باصحابنا فاعتذر الملك اموري وقال ان اهل قبرص ليسوا في طاعتي بل هم تابعون القسطنطينية ثم انه حصل غلاء بقبرص وتعذرت عليهم الاقوات فذهب اهلها الى القسطنطينية فاعادوهم الى حكم سوريا ثم راسل الملك العادل اموري صاحب عكا فلم ينفصل حال فخرج الملك العادل من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فصالحه صاحبها على قاعدة استقرت باطلاق اسرى المسلمين وغير ذلك ثم سار الى حمص ونزل على بحيرة قدس وجاءته عساكر الشرق وديار الجزيرة ودخل بلاد طرابلس وحاصر موضعاً يسمى القليعات واخذه صلحاً واطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه وتقدم الى طرابلس فنهب واحرق وسبى وغنم وعاد الى بحيرة قدس وترددت الرسل بينه وبين الصليبيين في الصلح فاصطلحوا

﴿ موت الملك اموري صاحب عكا وتعيين خلفه والتحريض على الحروب الصليبية السادسة ﴾

في سنة ٦٠٦ مات الملك اموري ملك سوريا وماتت زوجته فأرسل الصليبيون المقيمون بسوريا الى الملك فيلبس اوغسطس ملك فرانسا يخبرونه بذلك فعين يوحنا بريانا ملكا على سوريا فرضي به البابا وباركه وسار يوحنا المذكور الى فلسطين فقابله الصليبيون باحتفال عظيم وتوجوه بتاج الملك عليهم ولما جلس هذا الملك داخله الطمع فارسل الى البابا والى ملوك أوروبا يطلب اليهم تجريد عساكر صليبية سادسة لاجل تخليص القدس من المسلمين والاستيلاء على جميع البلاد الاسلامية بسوريا

﴿ ابتداء الحروب الصليبية السادسة ﴾

(التحريض على الحروب الصليبية السادسة والصليبيون الفتيان ومؤتمر رومية)

لما أرسل يوحنا بريانا ملك سوريا الى البابا والى ملوك اوروبا كما تقدم ارسل البابا الى الاساقفة ورؤساء الكنائس في جميع الممالك الاوروباوية بالحضور الى رومية لعقد مؤتمر بذلك ولما وصلت رسل يوحنا المذكور الى بلاد أوروبا صاروا

يحثون الناس على الحروب الصليبية فتجمع كثير من الشبان تحت اسم الصليبيين واتخذوا الصليبان على صدورهم وساروا مجدين واجتازوا الجبال الالبية واقليم لومبارديا ونزلوا على ايطاليا وامامهم راية الصليب لاجل نزولهم في المراكب وتوجههم الى فلسطين فلما علم بذلك البابا باركهم ونزل اكثرهم بالمراكب فداهمتهم عواصف بحرية واغرقتهم بمراكبهم قريباً من الشطوط فامر البابا بانتشالهم ودفنهم بالشاطئ وبنى عليهم كنيسة دعاها كنيسة الفتيان الابرار وتشتت باقي الصليبيين الفتيان بعد ذلك في البلاد فمنهم من رجع الى بلاده ومنهم من خدم في فلاحة ارض ايطاليا وفي سنة ٦١٢ انعقد المؤتمر في مدينة رومية بكنيسة القديس يوحنا تحت رئاسة البابا اينوشانسيوس وقد اجتمع فيه ما ينيف على ٥٠٠ من الاساقفة ورؤساء الكنائس وكذلك بطريرك القسطنطينية وبطريرك القدس ووكلاء كل من الملك فريدريكوس ملك النمسا وفيليبس ملك فرانسا وملك الانكليز وملك هونكريا فقام فيهم البابا خطيباً بفصاحة يصف لهم تعب مسيحيي الشرق وما يقاسونه من العذاب وان القدس مغطى بازار الحزن الاسود ومقيد بسلاسل حديدية تحت عبودية الاسلام وصار يحثهم على حض جميع المسيحيين بتحضير عساكر صليبية سادسة كي تنقذ قبر المسيح من ايدي المسلمين وبعد عدة جلسات تقرر بان البابا والكردينالية يقدمون عشر مداخيلهم لنفقات هذه الحرب المستجدة وكذلك الكنائسيين رؤساء ومرؤوسين يقدمون نصف عشر مداخيلهم وتعهد جميع ملوك اوروبا برضاء تام على ابطال الحروب من بلادهم مدة خمس سنوات وفي سنة ٦١٣ توفى البابا المذكور فتعين خلفاً له البابا اونوريوس الثالث ولما توسد السدة البطرسية حذا حذو سلفه في التحريض على الحروب الصليبية السادسة فارسل من عنده وفوداً الى جميع ملوك اوروبا بالتحريض والحث على تجهيز الحروب الصليبية المذكورة وذكرهم بوعودهم

﴿ سفر العساكر الصليبية السادسة ﴾

استعد للسفر تحت علم الصليب كل من الملك اندراوس الثاني ملك هونكريا وليوبولدس دوك دي اوطريش ودوك بافيرا وغيرهما من الامراء والقواد فساروا الى ان وصلوا مدينة سبولاترو وهناك انتظروا قدوم المراكب من البندقية كي توصلهم الى فلسطين وسافر من مرسيليا وجينوى وبرنيداس جيوش كثيرة في المراكب الى فلسطين فسبقوا ملك هونكريا ومن معه وكذلك هوكز الاول سلطان قبرص فانه

عند ما علم باخبار هذه الجيوش الصليبية السادسة اخذ معه أشراف دولته وعساكره ونزل بالمراكب من مينا ليميسون وسافروا جميعاً الى عكا ولما وصلوا اليها كان زادهم قد قل وأرض سوريا كانت وقتئذ مجدبة فاضطروا للخطف والنهب ثم خرجوا من عكا وأغاروا على البلاد الاسلامية وكان الملك العادل بمصر فسار منها تواً الى الشام

﴿ محاربة الصليبيين مع الملك العادل وسفرهم الى مصر وسفر ملك هونكريا وقدوم صليبيين أخرين ﴾

لما وصل الملك العادل الى الرملة ومنها الى اللد برز له الصليبيون من عكا فسار العادل نحوهم فوصل الى نابلس عازماً على ان يسبقهم الى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم فساروا هم فسبقوه فنزل على بيسان من الاردن فتقدم اليه الصليبيون في شعبان ٦١٤ ه عازمين على محاربته لعلمهم انه في قليل من العسكر لان جنوده كانوا متفرقين في البلاد فلما رأى العادل قربهم منه لم ير ان يلقاهم في من معه خوفاً من هزيمة تكون شراً عليه وكان حازماً كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل الى البلاد ويجمع العساكر فوصل مرج الصفر فنزل فيه فاخذ الصليبيون كل ما كان في بيسان من الذخائر وكانت كثيرة ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس وبثوا سراياهم في القرى الى ان وصلوا الى خسفين وأطراف السوداء ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها الى مرج عكا وأقاموا به أياماً ثم خرجوا منه الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا وبينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وكان هذا في النصف الاخير من رمضان ثم سير الملك العادل ولده الملك المعظم عيسى صاحب دمشق في قسم من جيشه الى نابلس ليمنع الصليبيين عن المقدس اما الصليبيون فانهم ساروا بجمعهم الى ان وصلوا قلعة الطور وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها حديثاً فتقدم اليها الصليبيون وحاصروها وركبوا عليها المنجنيقات وآلات الحصار وزحفوا اليها وصعدوا على جبلها حتى وصلوا الى سورها وكادوا يملكونه ثم ارتدوا عن القلعة وتركوها وساروا الى عكا وبعد رجوعهم حصل لهم فشل لان معسكرهم كان مركباً من ثلاثة رؤوس وهم ملك هونكريا بعساكره وملك قبرص وملك سوريا وكان معسكرهم مقسما ثم ان ملك قبرص مرض ومات وكان عازماً على الرجوع الى مملكته وكذلك ملك هونكريا عزم على الرجوع

أيضاً ولكنه خاف لوم الصليبيين فأبقى نصف جيشه في سوريا تحت قيادة يوحنا ملك سوريا ورجع هو الى بلاده ثم وردت عساكر صليبية أخرى من بلاد فرنسا وايطاليا وكانوا قد تأخروا عن المسير لمحاربة مسلمي اسبانيا ولما وصلوا الى عكا فرح جميع الصليبيين والمسيحيين بقدومهم وعقدوا مجلس مشورتهم فقرروا سفر جميع الصليبيين من سوريا الى الديار المصرية ومحاربة المسلمين هناك

﴿ محاصرة الصليبيين لمدينة دمياط ﴾

قصد الصليبيون مدينة دمياط فوصلوها في يوم الثلاثاء ٤ ربيع اول سنة ٦١٥ وهم نحو من ٧٠ الف فارس و٤٠٠ الف راجل فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي وحفروا حول معسكرهم خندقاً وأقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط وكان برجاً منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر الملح من الدخول الى ديار مصر في النيل وكان البر الذي نزل عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر الملح من الاخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصاراً منيعاً من البحر والبر والسلسلة ممتدة بين البرج والسور فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لأنهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلة تأتي اليه المؤن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وقد انكسر ذلك الجسر بعد مدة فاغتنم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوه على مركبين موسوقين قيوداً وكان جميع الصليبيين بقيادة يوحنا بريانا ملك سوريا وليوبولدوس دي اوطريش فانزلوا في البرج الخشبي ليوبولدوس برجاله وساروا في النيل لمهاجمة برج المسلمين فلما رأى المسلمون ذلك تجمهروا في البرج والسور وأخذوا في رمي السهام والحراب والحجارة والمنجانيقات على برج الصليبيين فلعبت به النار فخاف الذين فيه ثم انطفأت حالا وتشدد الصليبيون حتى استولوا على برج المسلمين فبلغ الملك الكامل قدوم الصليبيين ومحاصرتهم دمياط وكان يخلف أباه الملك العادل على ديار مصر فخرج بمن معه في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر الصليبيين وأمر والي الغربية بجمع العربان وسار هو في جمع كبير ونزل بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط وامتدت عساكره الى دمياط ليمنع الصليبيين من السور والقتال مستمر أربعة أشهر والملك العادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء

﴿ وفاة الملك العادل ﴾

كان الملك العادل نازلاً بمرج الصفر وقد أرسل العساكر الى ولده الكامل بالديار المصرية كما تقدم ثم رحل من مرج الصفر الى عالقين فنزل بها ومرض واشتد مرضه ثم توفي هناك الى رحمة الله في سابع جمادى الآخرى سنة ٦١٥ وكان مولده سنة ٥٤٠ وعمره ٧٥ سنة وكانت مدة سلطنته بمصر نحو عشرين سنة أو أقل وكان حازماً متيقظاً غزير العقل سديد الآراء ذا مكر وخديعة وصبوراً حليماً يسمع ما يكره ويغضي عنه واتسع ملكه وكثرت أولاده ورأى فيهم ما يحب ولم ير احداً من الملوك في أولاده ما لقاه العادل فيهم من القوة والشجاعة والملك وخلف الملك العادل ستة عشر ولداً ذكراً غير البنات ولما توفي لم يكن عنده احد من اولاده حاضراً فحضر اليه ابنه الملك المعظم عيسى وكان قد أرسله الى نابلس لحماية القدس فكتم موت أبيه وحمله في محفة وجعل عنده خادماً وطبيباً راكباً الى جانب المحفة والشرابدار يصلح الشراب ويحمله الى الخادم فيشربه ويوهم الناس ان السلطان شربه الى ان دخلوا به قلعة دمشق وصارت اليها الخزائن والبيوتات فأعلن موته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان معه ودفنه بالقلعة ثم نقله الى مدرسة العادلية

﴿ محاربة الصليبيين بارض دمياط ودخولهم حتى اشمون طناح واخماد ثورة المسلمين ﴾

لما بلغ الكامل موت أبيه وهو بمنزلة العادلية استلزمام الاحكام أما الصليبيون فألحوا في القتال ولا سيما عند ما علموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في نهر النيل ويتمكنوا من البلاد فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالاً شديداً الى ان قطعوه وكان قد انفق عليه وعلى البرج ما ينوف على سبعين الف دينار . وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتفقد الاحوال واعمال الحيلة في مكايدة الاعداء فامر ان تغرق المراكب في النيل لتمنع الصليبيين عن الابحار فيه فعمد الصليبيون الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري فيه قديماً فحفروه وعمقوا حفره وأجروا فيه الماء الى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم منه الى بورة على أرض جزيرة دمياط قبالة المنزلة المعسكر فيها الكامل ليقاتلوه منها فلما نزلوا في البورة ابتدأوا بقتاله بحراً وزحفوا اليه مراراً فلم يظفروا منه بطائل ولم

يتغير على أهل دمياط شيء لان الميرة والامداد كانت تصل اليهم والنيل يحجز بينهم وبين عدوهم وأبواب المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصار ضيق ولا ضرر وكان العربان يغيروا على الافرنج في كل ليلة حتى منعوهم الرقاد خوفاً من غاراتهم فقوي طمع العرب في الصليبيين حتى صاروا يخطفونهم نهاراً ويأخذون الخيم بمن فيها فكمن لهم الصليبيون عدة كناء وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فكفوا عن مناوشتهم . ثم أدرك الناس الشتاء وهاج البحر على مخيم المسلمين وأغرقهم فعظم البلاء وتزايد الغم وألحّ الصليبيون في القتال حتى كادوا يملكون كل مال المسلمين والملك الكامل يرسل الرسل الى الجهات ويستصرخ اخوته ويستنجد أهل الاسلام على النصارى ويخوفهم من غلبة الصليبيين ولا من مجيب . وفي أثناء ذلك ثارت بين رجاله ثورة كان زعيمها عماد الدين أحمد بن المشطوب أحد كبراء الرجال على ان لا يقبلوا الكامل عليهم سلطاناً بعد أبيه وكان ذلك باتفاق مع أخيه الملك الفائز فوقع الملك الكامل في حيرة وأوجس خيفة على منصبه ولم ير من ينجده فسار من العادلية الى قرية تدعى اشمون طناح (اشموم نطاح) بجريدة فأصبح العسكر بغير سلطان فركب كل انسان منهم هواه ولحقوا بالكامل ولم يتمهلوا لاخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم كل ذلك والصليبيون في البر الثاني لا يدرون . وفي ٢٠ القعده سنة ٦١٥ بلغهم ما كان من أمر المسلمين فعبروا النيل الى بر دمياط (البر الشرقي) آمنين لا ينازعهم منازع وغنموا ما في معسكر المسلمين مما تركوه من أمتعتهم وغيرها وكان شيئاً لا يحيط به الوصف فلما بلغ السلطان الكامل ذلك داخله وهم عظيم وأوشك ان يفارق البلاد لانه أصبح لا يثق بنفسه ولا بمن حوله . أما مدينة دمياط فبقيت محاصرة وقد شدد الصليبيون عليها براً وبحراً وكانت تلك السنة ليس أشد منها وطأة على المسلمين وقد أخذ اليأس منهم مأخذاً عظيما ففيما هم في ذلك الشأن وفدت عليهم نجدة من الشام بقيادة الملك المعظم عيسى أخي الملك الكامل وكان قد تولى على دمشق بعد أبيه العادل فلما علم بما حل بجيوش أبيه بعد وفاته أتى في عدة من رجال الشام فأطلعه الكامل على الحال سراً وأسرّ اليه ان رأس هذه الطائفة ابن المشطوب فجاء الملك المعظم يوماً على غفلة الى خيمة ابن المشطوب واستدعاه فخرج اليه فقال له أريد ان أفاوضك سراً في خلوة وسار معه وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق بهم وقال لهم اتبعونا ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء الى شيء حتى أبعده عن المعسكر ثم قال له

ياعماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي ان تهبها لنا وشيئاً من النفقة ثم قال لرجاله تسلموه حتى تخرجوه من الرمل فلم يسعه الا امتثال الامر لانفراده وعجزه عن المخالفة وعاد المعظم الى أخيه الكامل وأطلعه على ما جرى ثم جهز أخاه الملك الفائز شريك المتآمرين الى الموصل لاحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لاخراجه من البلاد فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الامراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً

﴿ قدوم نجدة للصليبيين بقيادة بيلاجيوس وهدم سور البيت المقدس ﴾

ظل البابا انوريوس الثالث يحث ملوك اوروبا لنجدة اخوانهم الصليبيين حتى اجتمع لكلمته جيوش كثيرة من بلاد النمسا وبيزا وجنوى والبندقية وانكلترا وفرانسا فأرسلهم الى اخوانهم بدمياط بقيادة الكردينال بيلاجيوس بصفته نائب بابوي وأرسل معه خزائن المال الذي جمعه باسم الحروب الصليبية فسار الكردينال المذكور بعساكره الى ان وصل الى معسكر الصليبيين باراضي دمياط وبعد يسير عاد الملك المعظم الى دمشق لينظر في أحوال رعيته ثم خشي من الصليبيين ان امتلكوا دمياط ان يمدوا يدهم الى اورشليم (القدس) فتقوى سلطتهم فأمر بهدم أسوارها حتى اذا ملكوها لا تزيد قوتهم شيئاً يستحق الاعتبار

﴿ تشديد الحصار على دمياط واستيلاء الصليبيين عليها ﴾

شدد الصليبيون الحصار على دمياط ومنعوا القوت من الوصول اليها وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقا وبنوا عليه سوراً وأهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال ويمانعونهم وقد نفذت من عندهم الاقوات وغلت الاسعار والملك الكامل كان لايزال في أشمون ناظراً الى دمياط وهي محصورة ولا يقدر ان يصل اليها وخشي أخيراً ان ييأس أهلها من المساعدة فيسلموا المدينة فانتدب أحد الجاندرية المدعو شمايل للدخول الى دمياط لينشط من فيها ويعدهم بالانقاذ فكان يسبح في النيل الى ان يصل الى أهل دمياط فيوصل اليهم الاخبار ويطمنهم ويعود وبقي على ذلك مدة فحظي بذلك عند الكامل وتقرب منه حتى جعله والياً على القاهرة واليه تنسب خزانة شمايل بالقاهرة - وفي أثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون في داخلية البلاد اضطهاداً شديداً وكان في الاسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقص هدمها

المسلمون خيفة ان يباغت الصليبيون الاسكندرية من أجلها فيتخذونها حصناً لانها كانت حصينة البناء كثيرة الاعمدة وجعلوها بعد ذلك جامعاً ولا تزال آثارها الى هذا العهد بقرب باب القباري · ثم دخلت سنة ٦١٦ وقد غلت الاسعار بدمياط بما هو فوق الحد فبلغ ثمن البيضة عدة دنانير وكان رجال الملك الكامل ينفذون الاقوات الى أهل دمياط بحيل مختلفة فكانوا يأتون بجمل ويشقون جوفه ويملأونه فراخاً وفاكهة وبقلا وغير ذلك ثم يخيطون جلده عليها ويرمونه في النيل فيسير منحدراً مع المجرى فاذا جاء أمام دمياط نزل من فيها اليه وأخذوه واقتاتوا بما كان في جوفه · وكان الصليبيون يعرفون أحياناً هذه الحيل فيأخذون تلك المؤن ثم توالت هجماتهم على من في المدينة فقاتلوهم قتالا شديداً خصوصاً جمعيات الرهبان (جمعية الهيكليين وجمعية التيطونيكين أي جمعية الشريط الازرق التي أسسها ريكاردوس قلب الاسد ملك الانكليز) ثم أمر الكردينال بيلاجيوس ان يتحد جميع الصليبيين للحرب دفعة واحدة براً وبحراً وان يتسلحوا بالزروخ والزرديات فعلقوا السلالم على الاسوار ليتسلقوها وشددوا الحرب فجاهد المسلمون حق الجهاد واحرقوا سلالم الصليبيين بقذف النيران عليها وهجموا على الصليبيين هجمة قوية فقتلوا منهم كثيراً وأغرقوا كثيراً ثم كر الصليبيون عليهم واشتد القتال فعلم بذلك الملك الكامل فسار بجيشه وهجم على مخيم الصليبيين لردهم عن محاربة المدينة فالتزموا قتاله ورجع بعضهم عن المدينة واشتد النزال بين الملك الكامل والصليبيين وبين هؤلاء ودمياط فانكسرت العساكر الصليبية في هذه الوقعة وقتل منهم كثير وانهزم منهم كثير فاتبع الملك يوحنا ملك سوريا المنهزمين ليردهم وصار يرسل الى كل فار من رجعه ودامت هذه الحال بينهم أي كلما ضيق الصليبيون على أهل دمياط يصعد المسلمون الى أعلا البرج ويوقدوا ناراً لتنظرهم عساكر الملك الكامل فيعلمون بان أهل المدينة في ضيق فيهجم الملك الكامل بعساكره على مخيم الاعداء فيرتدون من محاربة المدينة ليحاربوا الملك الكامل وكانت تتواصل النجدات من أوروبا الى الصليبيين بتحريض البابا · وفي آخر الامر زاد الضيق في المدينة وكثرت الموتى جوعا وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد منهم وعدمت الاقوات حتى لم يبق عندهم الا بعض القمح والشعير · وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهراً و٢٢ يوماً فدخلوها واحكموا السيف في من بقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الابخرة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى

فتلحق الاحياء بهم وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرة فكان يموت الابن جوعا وليس من يسعى الى دفنه فيبقى في مكانه فيلحقه الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا وجعل الصليبيون الجامع الكبير الذي بدمياط كنيسة لهم باسم القديسة مريم

﴿ في شقاق الصليبيين وبناء مدينة المنصورة ﴾

بعد استيلاء الصليبيين على دمياط قرر مجلس مشورتهم بان تكون دمياط تابعة للملك يوحنا دي بريانا ملك سوريا · ولما اتصل خبر سقوط دمياط بالملك الكامل رحل بعسكره بعد سقوطها بيومين ونزل قبالة طلخا على رأس بحر اشموم ورأس بحر دمياط ليمنع الصليبيين من المسير الى داخلية القطر بحراً وخيم في محلة المنزلة واقام معسكره هناك وكان الصليبيون قد قرروا سرعة المسير الى القاهرة ومحاصرتها حصل شقاق بين رؤسائهم وخصوصاً لان الكردينال بيلاجيوس كان يعتبر نفسه الرئيس الاعلى على جميع الصليبيين وجميع الرؤساء دونه رتبة والملك يوحنا دي بريانا ملك سوريا يعتقد انه هو الرئيس والكردينال بصفة رئيس ديني فزاد التنافر بينهم فغضب الملك يوحنا وعاد الى مدينة عكا بعسكره ومعه الاسرى وترك باقي الصليبيين في دمياط وقدمت نجدات للصليبيين من فرانسا والنمسا وايطاليا ففرح الكردينال بذلك وعزم على المسير الى مدينة القاهرة فابى رؤساء العساكر المسير معه فارسل وفداً الى الملك يوحنا كي يستسمحوه ويرجع الى معسكر الصليبيين وقد حصنوا دمياط تحصيناً عظيما وبثوا رجالهم في القرى يقتلون وينهبون ويأسرون ·

أما الملك الكامل فانه أخذ في تحصين معسكره في المنزلة فامر ببناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق الى ان صارت مدينة عظيمة ولقبوها بالمنصورة اشارة الى انتصاره على الصليبيين هناك كما سيأتي وكتب الى المسلمين في سوريا يستحثهم على محاربة الصليبيين واخراجهم من ديار المسلمين

﴿ ما جرى للصليبيين بعد ذلك واستيلاء المسلمين على دمياط ﴾

ولما عاد الملك يوحنا دي بريانا الى معسكر الصليبيين انعقد مجلس مشورتهم وقرر سرعة المسير لمحاصرة القاهرة فتركوا أمتعتهم ومؤنتهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية كافية وساروا الى ان وصلوا تجاه المنصورة فيما هو أمام سراي المنصورة الآن وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذاك نحو مائتي الف راجل وعشرة آلاف

فارس فقدم المسلمون شوانيهم أمام المنصورة وعدتها مائة قطعة فاصبح المسلمون في ضيق . فامر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اسوان الى القاهرة ونودي بالنفير العام ايضاً فيما بين القاهرة الى آخر الحوف الشرقي فاجتمع عالم كثير وانزل السلطان على ناحية شارمساح الف فارس في آلاف من العربان ليحولوا بين الصليبيين ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على رأس بحر المحلة وعليها الامير بدر الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الصليبيين من البر والبحر . وفي أثناء ذلك أتت النجدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقتها الملك المعظم عيسى فتلقاهم الملك الكامل وانزلهم عنده بالمنصورة في ١٣ جمادى الاخرى سنة ٦١٨ وتتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدة جيوش المسلمين نحو أربعين الف فارس فحاربوا الصليبيين وأخذوا منهم ست شواني وأسروا منهم الفين ونيفاً فتضعضعوا وضاق بهم المقام فخابرهم الملك الكامل بامر الصلح ليخرجهم من بلاده فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين الا الشوبك والكرك لانهما أصبحتا ملكا خاصاً له نالهما بالأرث من السلطان صلاح الدين وطلب اليهم في مقابل ذلك ان يردوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصري فانعقد مجلس مشورتهم ورضي كل من يوحنا ملك سوريا وغيره من رؤساء العساكر وأما الكردينال فابى وداخله الطمع وبعد مجادلات أقر رأي الصليبيين على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضاً لما سببه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم أسوار بيت المقدس فامتنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرا من وراء معسكر الصليبيين وتخرق سد ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعه فطافت مياه الترعة حتى أغرقت جميع الاراضي التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فاصبحوا على أرض مثل الجازيرة وقد حال الماء بينهم وبين نجدة أصحابهم فخافوا سوء المصير وباتوا يشكون قلة الطعام وكثرة المياه ولم يكن باقياً بينهم وبين دمياط الا طريق ضيق فامر السلطان بنصب الجسور عند اشمون طناح فعبرت العساكر عليها وملكت تلك الطريق فاضطرب الافرنج وضاقت عليهم الارض . واتفق مجيء مرمة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقدملئت كلها بالميرة والاسلحة فقاتلتها شواني المسلمين حتى ظفرت بها فاتصل ذلك بالصليبيين فزاد خوفهم وندموا على رفضهم المعاهدة المار ذكرها فطلبوا من

الملك الكامل الامان على ان ينسحبوا من القطر المصري جميعه ولا يطلبون لذلك مقابلا فقبل منهم الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ هجرية بان يعطى كل من الفريقين رهائن فأعطى الصليبيون الملك يوحنا دي بريانا ملك عكا والكردينال بيلاجيوس نائب البابا رهناً وأعطى الملك الكامل ابنه الملك الصالح وكان سنه ١٥ سنة وجماعة من الامراء فسار الصليبيون الى دمياط وسلموها للمسلمين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد أجهدوا انفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الصليبيين فشكر المسلمون الله لتأخرها الى ذلك الحين ثم ارسل الصليبيون الملك الصالح ومن معه الى أبيه فأرسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان ليوم دخوله اليها احتفال عظيم ثم عادوا وأقاموا بالمنصورة أياماً فأنشده هناك القاضي الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزه

هنيئاً فان السعد جاء مخلدا ... وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحاً لنا بدا ... مبيناً وانعاماً وعزاً مؤبداً
تهلل وجه الارض بعد قطوبه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ ... طغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه ... صقيلا كما سل الحسام المهندا
فلم ينج الا كل شلو مجندل ... ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادي لسان الكون في الارض رافعاً ... عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعباد عيسي ان عيسى وحزبه ... وموسى جميعاً ينصران محمدا

فكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط الى ان أقلعوا عنها ثلاث سنين وأربعة أشهر و ١٩ يوماً منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة اشهر و ٢٤ يوماً ثم سار الملك الكامل الى مقر ملكه في القاهرة وانتقل من دار الوزارة التي كانت الى ذلك العهد منزلا للخلفاء وسكن القلعة

﴿ ما جرى للملك فريدريكوس الثاني باوروبا واستيلائه على القدس صلحاً ﴾

وبعد رجوع يوحنا دي بريانا الى عكا وجد مملكته في ضعف زايد من القوة والمال فسافر الى اوروبا طالباً المعونة من ملوكها فوصل الى البابا انوريوس الثالث

فقابله باحترام وكتب له منشورات الي جميع الملوك بالتحريض بارسال تجريدة صليبية لاستخلاص القبر المقدس من أيدي المسلمين ثم سار يوحنا الى جميع الملوك بهذا الشأن فما التفتوا اليه وكان ملك النمسا فريدريكوس الثاني عند وفاة والده صغيراً فاقيم عليه وصياً البابا اينوشانسيوس الثالث الى ان بلغ وتسلم مملكته فلذلك كانت البابوية ذات دالة عليه فكتب اليه البابا يحرضه على المسير بنفسه الى سوريا وتجديد الحروب الصليبية ثم سعى في زواج فريدريكوس المذكور وبابنة يوحنا سلطان سوريا المدعوة بولاندا لتوثيق العلاقة بينهما وتم الاحتفال بهذا الزواج في مدينة رومية وفي أثناء ذلك جدد فريدريكوس القسم بمسيره الى فلسطين وتخليصه قبر المسيح من يد أعدائه واستعد للسفر وقد نادوا في اوروبا بذلك فحضر اليه جملة عساكر من الانكليز وفرانسا والمانيا والنمسا وغيرهم وتعين لاجتماع العساكر مدينة برنيدس وكان من الرؤساء الذين قبلوا السفر للحروب الصليبية دوك دي بافير ودوك دي أوطريش ولويس لاندغرافا وساروا بالجيوش فاتحدوا مع عساكر الملك فريدريكوس في المدينة المذكورة فاخذ يحثهم البابا بالمسير فنزلوا بالمراكب في سنة ٦٢٤ هـ وبعد مسيرهم من الميناء هاجت عليهم العواصف فتشتت مراكبهم وبعد ثلاثة ايام عدل الملك فريدريكوس عن المسير الى فلسطين ورجع بعساكره الى مدينة اترانتا أما الامير لاندغرافا فبعد نزوله في البحر أخذته حمى فلحق بفريدريكوس راجعاً الى الميناء المذكورة وبعد أيام قليلة توفى . وكان البابا انوريوس قد توفي وتعين خلفاً له البابا غريغوريوس التاسع وهو الذي احتفل بنزول فريدريكوس الى البحر ولما بلغه عدوله عن السفر ورجوعه تكدر واعتبره عاصياً . ولذلك أرسل منشوراً الى جميع ملوك اوروبا يعلمهم فيه بحرمان الملك فريدريكوس فحارب الملك المذكور البابا برومية وأهانه اهانة شديدة أمام الهيكل المقدس وألزمه بالخروج من رومية . وفي ٦٢٥ هـ سافر براً قاصداً القدس ولما وصل الى سوريا لم يقابله الصليبيون هناك لعلمهم انه محروم من البابا وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج منها الى الشام بعد وفاة أخيه المعظم يريد امتلاك دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود ابن المعظم ولما سمع بذلك داود المذكور أرسل الى عمه الملك الاشرف صاحب البلاد الجزرية يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه الكامل فسار الى دمشق فترددت الرسل بينهم في الصلح فاصطلحا واتفقا وسار الملك الاشرف الى الملك الكامل فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الملك

فريدريكوس واستقرت القاعدة على ان يسلموا البيت المقدس بشرط ان يبقى الجامع مع المسلمين ولا يتعرض أحد من الصليبيين للمسلمين فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم مالا يمكن وصفه وتضرروا من ذلك وكذلك جميع الصليبيين أنكروا هذا الصلح لانه على كلام مؤرخيهم صلح نفاق لحصول الاسلام على جامع شهير أمام قبر المسيح ولذلك أرسل البطريرك الى البابا يعلمه وانه وضع المنع على الكنائس المقدسة المستخلصة بهذه الصورة ونهى الزوار عن زيارتها ثم ان فريدريكوس سار بنفسه ومعه جماعة الى المقدس ولم يتبعه احد من الصليبيين فوجد القمامة والكنيسة وغيرها قد تركها خدمها الرهبان لعدم مقابلته لانه محروم فلبس التاج فيها بنفسه من غير احتفال كنائسي وذلك في ربيع الآخر سنة ٦٢٦ ثم انه حرر رسائل الى البابا والى ملوك اوروبا يخبرهم فيه بامتلاكه القدس ثم أقام بالقدس يومين ولما وجد عدم احترامه عند الصليبيين سافر راجعاً نحو عكا ومنها الى بلاده فمر بايطاليا فحارب اهل لومبارديا ثم حارب صهره يوحنا دي بريانا ثم توسل الى البابا غريغوريوس التاسع بالصفح عنه فرأف به البابا وحله من الحرم

﴿ ذكر خلفاء المسلمين ﴾

وكان في سنة ٦٢٢ في آخر ليلة من رمضان قد توفي الخليفة الناصر لدين الله ابو العباس احمد بن المستضيء بامر الله أبي محمد الحسن وكانت مدة خلافته نحو ٤٦ سنة وعشرة أشهر و ٢٨ يوماً وعمره نحو ٧٠ سنة وسبب موته بالدوسنطاريا وكان سيء السيرة ظالماً فتولى الخلافة بعده ولده ابو نصر محمد وتلقب بالظاهر بامر الله فاظهر في الرعية العدل والاحسان وأطلق من في السجون ووزع عليهم نقوداً ثم في ١٤ رجب سنة ٦٢٣ توفي الامام الظاهر بامر الله المذكور فكانت خلافته تسعة أشهر و ١٤ يوماً وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه ثم بويع بالخلافة ابنه الاكبر ابو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله وسلك في الرعية سيرة أبيه في الخير والاحسان والعدل

﴿ مؤتمر مدينة سبولاته ﴾

أرسل الصليبيون بسوريا يطلبون من البابا المساعدة ويخبرونه بان المسلمين يضيقون عليهم ويشنوا الغارة على بلادهم فعقد مؤتمر بمدينة سبولاته في سنة ٦٢٩

حضره الملك فريدريكوس وبطريرك اورشليم وبطريرك القسطنطينية وغيرهم من الاساقفة والرؤساء الكنائسيين فعرض عليهم البابا الرسائل الواردة له من سوريا وطلب منهم المساعدة والحث والتحريض بالحروب الصليبية المقدسة وكلفوا جمعية رهبان القديس عبد الاحد وجمعية رهبان القديس فرنسيس الاكبر بالانذار بالحروب الصليبية بصفة مفوضين من البابا وكذلك أرسل البابا قسيسين الى كل من بغداد ودمشق ومصر ليجادلوا علماء المسلمين

﴿ باقي سلطنة الكامل ووفاته وسلطنة ولده العادل ﴾

وأقام الملك الكامل سلطاناً على الديار المصرية بعد ابيه الملك العادل أبي بكر ابن أيوب وكان قبل وفاة ابيه نائباً عنه على مصر كما تقدم وكان تارة يقيم بمصر وتارة يخرج منها الى الشام وذلك لقصد توسيع ملكه وأقام ابنه الملك العادل نائباً عنه بمصر في حال غيابه بالشام واقام ولده الملك الصالح نجم الدين نائباً عنه في بلاد آمد . وحصن كيفا . وحران وغيرها من البلاد الشرقية وفي سنة ٦٣٥ بلغه وفاة أخيه الملك الاشرف فسار الى دمشق ومعه الناصر داوود صاحب الكرك فوصلها في جمادى الاولى وحاصرها وفيها أخوه الملك الصالح اسماعيل ثم استلمها من أخيه المذكور واعطاه بدلا منها بعلبك والبقاع وغيرهما وذلك في ١٩ جمادى الاولى وأقام بدمشق ثم اصابه مرض فمات هناك في ٢١ رجب سنة ٦٣٥ وكان عمره نحو ستين سنه وكانت مدة سلطنته بمصر عشرين سنة ما عدا مدة نيابته بها قبل ان صار سلطاناً وهي قريباً من عشرين سنة وكان ملكا جليلا مهيباً حازماً حسن التدبير يباشر شؤون المملكة بنفسه وينظر في أمور الجسور عند زيادة النيل واصلاحها فعمرت في مدته ديار مصر أتم عمارة وكان محباً للعلماء ومجالستهم فاتفق رأي الامراء على تحليف العسكر للملك العادل أبي بكر بن الكامل وهو حينئذ نائب ابيه بمصر فحلف له جميع العسكر وانابوا على دمشق الملك الجواد يونس ابن مودود بن العادل أبي بكر بن أيوب وصار الملك العادل سلطاناً على مصر واتفق في سنة ٦٣٦ كل من الملك الجواد يونس صاحب دمشق والملك الصالح نجم الدين أيوب شقيق سلطان مصر وكان اميراً على ما بين النهرين على ان يتبادلا الامارات فاتى الملك الصالح الى دمشق وسار الملك الجواد يونس الى ما بين النهرين وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة الاقتراب من مصر والسعي لاختلاس الملك من أخيه

﴿ في سجن الملك الصالح نجم الدين ايوب ﴾

لمـا استقر الملك الصالح بدمشق وردت اليـه رسائل من بعض امراء مصر يطلبون قدومه لاستلام مصر فاقام ولده الملك المغيث فتح الدين عمر نائباً بدمشق وسار قاصـداً مصر وشرع يكاتب عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه اليـه وهو يحتج ويعتذر عن الحضور ويظهر انه معه ويعمل في الباطن على امتلاك دمشق وكان الناصر صاحب الكرك قد سافر الى مصر واتفق مع الملك العادل على قتال الملك الصالح أيوب وفي سنة ٦٣٧ سار الملك الصالح اسماعيل ومعه شيركوه صاحب حمص بجموعهما فهاجموا دمشق وحصروا القلعة وتسلمها الصالح اسماعيل وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وكان الصالح أيوب بنابلس ولمـا بلغه ذلك فسدت نيات عساكره عليه وشرع الامراء ومن معه من الملوك يفارقونه ورحل هو الى الغور ولم يبق عنده غير مماليكه واستاذ داره حسام الدين فاحتار بامره وليس له موضع يقصده فقصد نابلس ونزل بها بمن بقي معه وسمع الناصر صاحب الكرك بذلك وكان قد وصل من مصر فنزل بعساكره وامسك الصالح أيوب وأرسله الى الكرك واعتقله بها وتفرق عنه باقي اصحابه ومماليكه ولم يبق معه منهم غير جماعة قليلة فارسل أخيه الملك العادل صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر فلم يسلمه له فارسل يهدد الناصر فلم يلتفت اليه

﴿ استيلاء المسلمين على القدس وما جرى للبابا وفريدريكوس ﴾

واستمرت تجهيزات الصليبيين للسفر الى سنة ٦٣٥ ثم قدم الى البابا غريغوريوس التاسع بودوين ملك القسطنطينية يطلب مساعدته على الروم فارسل البابا الصليبيين الذين تجمعوا الى القسطنطينية وفي سنة ٦٣٧ بعـد اعتقال الملك الصالح بالكرك سار الملك الناصر الى القدس وكان الصليبيون قد عمروا قلعتها بعـد موت الملك الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعه وخرب برج داود ايضاً لانه لما خربت القدس اولا لم يخرب برج داوود فخربه في هذه المرة . ثم انه بعد سفر الصليبيين الى القسطنطينية حصل نفور بين البابا المذكور والملك فريدريكوس حتى حصلت بينهما محاربة شديدة براً وبحراً ثم ان فريدريكوس حاصر مدينة روميـة فتخاف اهلها عن البابا فاخذ هذا ذخائر القديسين بطرس وبولس وخرج بها من شوارع رومية قاصداً أعداء الرومانيين قائلا لهم ألا ترغبون في المحاماة عن هذه الوديعة

المقدسة المحفوظة في وطنكم وتهملونها لتفقد فعادت جميع العساكر الرومانية والنمساوية عن محاربته وطردت الملك فريدريكوس ثم تجمعت عساكر صليبية بقيادة تيوبلت الرابع كونت دي شمبانيا سلطان نافار وهوكاز دوك دي بورغونيا وبطرس دي دروكس وكونت دي بار وساروا قاصدين سوريا ولما وصلوا هنالك تفرقوا كل رئيس بعسكره يحارب لنفسه

﴿ سلطنة الصالح نجم الدين أيوب على مصر وخلافة المستعصم ﴾

في آخر رمضان سنة ٦٣٧ أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب واجتمع عليه مماليكه وسار الناصر والصالح الى قبة الصخرة وتحالفا بها على ان تكون ديار مصر للصالح ودمشق والبلاد الشرقية للناصر ثم سارا الى غزه فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وبرز بعسكر مصر الى بلبيس لقصد الناصر والصالح وأرسل الى عمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق ان يبرز ويقصدهما من الوراء فسار الصالح اسماعيل من دمشق فنزل الفوار فبينما الناصر داود والصالح أيوب في هذه الشدة بين جيشين قد أحاطا بهما اذ ركبت جماعة من المماليك الاشرفية ومقدمهم ايبك الاسمر وأحاطوا على دهليز الملك العادل وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليه من يحفظه وذلك يوم الجمعة ٨ القعدة فكانت مدة ملكه نحو سنتين وأرسلوا الى الملك الصالح أيوب يستدعونه فأتاه فرج لم يسمع بمثله وسار الملك الصالح أيوب والملك الناصر داود الى مصر ودخل الملك الصالح قلعة الجبل في صباح يوم الاحد ٢٤ القعدة المذكور فزينت له البلاد وفرحت بقدمه الناس ثم سار الملك الناصر الى الكرك ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر أخذ في تمكين قدمه فيها فامر في السنة التالية وهي سنة ٦٣٨ بالقبض على ايبك الاسمر مقدم المماليك الاشرفية والامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه وبايعوه مكانه وقتلهم جميعاً وولى مكانهم من اختبر أمانتهم نحوه ثم شرع في بناء قلعة الجزيرة واتخذها مسكناً لنفسه وفي سنة ٦٤٠ توفي المستنصر بالله في ١٠ جمادى الآخرى وكانت مدة خلافته ١٦ سنة و١١ شهراً ثم تولى الخلافة بعده ولده المستعصم بالله وهو السابع والثلاثون من بني العباس

﴿ محاربة الصليبيين بغزه ورجوعهم الى بلادهم ﴾

فسار بطرس دي دروكس نحو دمشق فاغار عليها وأخذ من القرى التابعة لها غنائم كثيرة من المواشي والبغال ولما علم بذلك باقي الامراء الصليبيين طمعوا في المسلمين وساروا الى نواحي غزه وكان في أثناء ذلك ان قبيلة الخوارزميين طردهم جنكيزخان ملك التتر من شرقي آسيا أثناء فتوحاته هناك فجاؤا سوريا الشرقية ونزلوا على حدودها فانفذ اليهم الملك الصالح سلطان مصر رسلا عقدوا معهم عهدة وعاهدوهم على محاربة الصليبيين وأمراء سوريا الذين على دعوتهم (لان بعض ملوك سوريا كانوا قد حالفوا صليبيي سوريا على محاربة مصر وفي نظير ذلك سلموهم طبرية وعسقلان والشقيف والقدس فاحتل الصليبيون تلك الاماكن) فتجند الخوارزميون واخترقوا سوريا الى أن بلغوا غزه فحاربوا الصليبيين عند اسوارها وانجدهم سلطان مصر من الجهة الثانيه بعساكر مصر بقيادة ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح وكان من اكبر مماليكه وهو الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك فانهزم الصليبيون فتتبعوهم حتى استولوا على غزه والقدس باسم الملك الصالح وهلك الصليبيون الذين بقيادة الكونت دي بار وسمعان دي منتفورت عن آخرهم والرئيسان المذكوران وقعا في الاسر بايدي المسلمين مع من نجا وأرسلوا الى مصر مع بعض رؤوس القتلى ولما بلغ الخبر الى تيوبلت سلطان نافار جمع باقي الصليبيين في مدينة عسقلان ثم سار منها بقصد نجدة الصليبيين المحاربين فلما وصل الى غزه وجد الحرب قد انتهت ودارت الدائرة على اخوانه فاخذه الوهن هو وعساكره ومن معه من الصليبيين وأقام بسوريا جملة شهور ثم جدد هدنة مع السلطان الصالح الذي أطلق الاسرى الصليبيين ولم يكن بينهم الكونت دي بار فحزنوا عليه حزناً شديداً ثم سافروا كلهم الى بلادهم غانمين سلامتهم وقدمت عساكر صليبية اخرى الى مدينة عكا بقيادة ريكاردوس دي كوتوبلاس ابن أخي ريكاردوس قلب الاسد فلما أرادوا محاربة المسلمين تخلف صليبيو سوريا عن مساعدتهم فلذلك جددوا عقد الصلح مع المسلمين واستأذنوا من السلطان الصالح في دفن قتلى الصليبيين بنواحي غزه فاذن لهم فدفنوهم ثم زاروا القدس ورجعوا الى أوطانهم

﴿ محاربة الملك الصالح نجم الدين أيوب وسجن بيبرس ﴾

في سنة ٦٤٢ بلغ السلطان الصالح نجم الدين أيوب خبر وفاة ابنه الملك

المغيث فتح الدين عمر في حبس الصالح اسماعيل صاحب دمشق فاشتد حزنه وحنقه على الصالح اسماعيل وفي سنة ٦٤٣ سار معين الدين ابن الشيخ بعسكر السلطان الصالح أيوب الى دمشق وحاصرها وكان بها صاحبها الصالح اسماعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص فتسلمها على أن يستقر بيد الصالح اسماعيل بعلبك وبصرى والسواد وتستقر بيد صاحب حمص بلده وماهو مضاف اليها فاجابهما معين الدين الى ذلك ثم وصل الى دمشق حسام الدين بن أبي علي ومن معه من العسكر المصري وكان معين الدين بعد ما استلم دمشق قد مرض بها ومات فبقي حسام الدين نائباً بدمشق. ثم ان الخوارزميين خرجوا عن طاعة الصالح أيوب وصاروا مع الصالح اسماعيل وانضم اليه الناصر داود صاحب الكرك فساروا جميعاً الى دمشق وحصروها وغلت بها الاقوات وقاسى اهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثلها وقام حسام الدين في حفظ دمشق اتم قيام ثم اتفق الحلبيون والملك المنصور ابراهيم صاحب حمص وساروا مع الصالح ايوب وقصدوا الخوارزمية فرحل هؤلاء عن دمشق وساروا نحو الحلبيين وصاحب حمص والتقوا على القصب في سنة ٦٤٤ فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها وقتل مقدمهم حسام الدين بركه خان وحمل رأسه الى حلب ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشلوخان فلحقوا بالتتر وصاروا معهم وانقطع منهم جماعة وتفرقوا في الشام وكفا الله الناس شرهم ولما وصل خبر كسرتهم الى السلطان الصالح أيوب بمصر فرح فرحاً شديداً ودقت البشائر بمصر وزال ما كان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حمص ثم رحل حسام الدين بن أبي علي الهيذاني بمن عنده من العسكر بدمشق ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح اسماعيل وحاصرها وتسلمها بالامان وحمل أولاد الصالح اسماعيل الى السلطان الصالح أيوب بمصر فاعتقلوا هناك ومعهم امين الدولة وزير الصالح اسماعيل واستاذ داره ناصر الدين تغمور فدقت البشائر بمصر وزينت القاهرة لفتح بعلبك. ثم ان الصالح أيوب استولى على عجلون لوفاة صاحبها. ثم جهز الامير فخر الدين يوسف بن الشيخ الى حرب الملك الناصر صاحب الكرك فسار فخر الدين واستولى على جميع بلاد الملك الناصر وحاصر الكرك وخرب ضياعها فتولى على جميع البلاد ماعدا الكرك فانها بقيت بيد صاحبها وفي هذه السنة أيضاً حبس السلطان الصالح أيوب مملوكه بيبرس وهو الذي كان معه لما اعتقل في الكرك وسببه ان بيبرس المذكور مال الى الخوارزمية والى الناصر داود وصار معهم على استاذه (سيده) لما أرسله بتجريدة

الى غزه كما ذكر فارسل استاذه الصالح أيوب واستماله فوصل اليه فاعتقله ثم ان الصالح أيوب استقدم الامير حسام الدين من دمشق وانابه بمصر وولي بدلاً منه على دمشق الامير جمال الدين مطروح وسار الصالح أيوب الى دمشق ومنها الى بعلبك ثم عاد الى دمشق وفي سنة ٦٤٥ عاد السلطان الصالح أيوب الى مصر ثم سار الامير فخر الدين ابن الشيخ وفتح قلعتي عسقلان وطبرية من الصليبيين ٠ ثم توفى علاء الدين قراسنقر الساقي العادلي احد مماليك الملك العادل بن أيوب وصارت مماليكه بالولاء للصالح أيوب ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحي ٠ وفي سنة ٦٤٦ أرسل الملك الناصر صاحب حلب عسكراً مع شمس الدين لؤلؤ الارمني فحاصروا حمص مدة شهرين وبها الاشرف موسى فسلمها اليهم وتعوض عنها بتل باشر مضافاً الى ما بيده من تدمر والرحبة فشق ذلك على السلطان الصالح أيوب وسار الى الشام لارجاع حمص من الحلبيين فوصل دمشق وأرسل عسكر الى حمص مع حسام الدين فنزل عليها وحاصرها وركب عليها المنجنيقات ووصل اليه نجم الدين الباذرائي رسول الخليفة وسعى في الصلح بين الصالح والحلبيين وان تستقر حمص بيد الحلبيين فاجاب الملك الصالح الى ذلك وأمر العسكر فرحلوا عن حمص بعد ان اشرفوا على أخذها

﴿ التتر باوربا ومؤتمر ليون بفرنسا ﴾

لما ظهر التتر باسيا لم يقتنعوا بما ملكوا بل ساروا بقيادة رئيسهم جانكيز خان الى بلاد أوروبا فهجموا على بلاد هونكريا وبلاد النمسا وتهددوا باقي الممالك فوقع الرعب في قلوب ملوك أوروبا واحتاروا في أمرهم فامر البابا بايقاد حرب مقدسة ضد هؤلاء التتر ولكن نداه هذا لم يلاق صدى وأرسل ملك النمسا الى سائر الملوك يطلب اتحادهم لصد هجمات التتر ولكن الرعب كان ملأ قلوبهم فلم يلتفت أحد اليه واكتفوا بالتوسل في الكنائس يطلبون من الله ازالة هذا العدو ٠ وكان الخوارزميون قد قاتلوا صليبيين سوريا وأهلكوهم كما ذكر فسافر أسقف بيروت فاليران الى بلاد أوروبا يطلب المساعدة فقابله البابا اينوشانسيوس الرابع بالحنو والشفقة ووعده بالمساعدة التامة ٠ ثم ان بودوين الثاني ملك القسطنطينية التمس من البابا أيضاً الاغاثة لتعضيد كرسي مملكته المائل الى السقوط من الروم لانهم شقوا عليه عصا الطاعة ٠ وكان البابا أيضاً قد تضايق من الحروب الحاصلة بينه وبين ملك النمسا فترك رومية وسار الى مملكة فرانسا وعقد بها مؤتمراً عاماً في مدينة ليون سنة ٦٤٣ ففي هذا المؤتمر (السينودس) حضر الاساقفة وأمراء الشرق وبودوين ملك القسطنطينية ونواب الملك فريدريكوس

بالعفو النمسا المدافعة عنه في التهم الموجهة اليه من البابا ففي الجلسة الاولى التي عقدت في يوم ١٨ يونيه سنة ١٢٤٥ م افتتح البابا المؤتمر وعرض عليه الاوجه الآتية · أولا مسألة التتر باوروبا · ثانياً انشقاق الروم · ثالثاً غزوات الخوارزميين بسوريا · رابعاً الاضطهاد الذي تعمده الملك فريدريكوس · فقرر أعضاء المؤتمر ما يأتي · أولا يلزم اغاثة القسطنطينية وتخليص القبر المقدس وتجريد عساكر لايقاد حروب صليبية سابعة وان البابا والأساقفة يقدمون النفقة على هذه الحروب عشر مداخيلهم وباقي الاكليريكيين نصف عشر مداخيلهم وأصدروا الاوامر اللازمة لتجهيز هذه الحروب · ثانياً تقرر بعزل الملك فريدريكوس ملك النمسا وذلك بعد مدافعة نوابه التي لم تأت بفائدة ثالثاً أمر البابا ان الكردينالية يلبسون أثواب لونها أحمر علامة على استعدادهم لسفك دمائهم في حفظ الكنيسة

﴿ ابتداء الحروب الصليبية السابعة ﴾

(سفر العساكر الصليبية السابعة)

وبعد انتهاء المؤتمر السابق الذكر أرسل البابا وأعضاء المؤتمر الى الملك لويس التاسع سلطان فرانسا يطلبون منه استعداده ومسيره لخلاص القبر المقدس من المسلمين فلبى طلبهم هذا ونبه على عساكره بالتجهيزات الحربية فنهته عن ذلك والدته وأرباب دولته · ثم أصابه مرض تهدد حياته فنذر للمسيح بانه اذا شفي توجه بعساكره لخلاص قبره · فلما شفي استلم الصليب وصار يجهز العساكر الصليبية السابعة للمسير فاستعد للسفر كل من السلطان المذكور وأخواته الثلاثة والكونت دي براتانيا وأولاده والدوك دي بورغونيا · والكونت دي فلاندرا · والكونت دي بار · والكونت دي منتفرت والكونت دي سان بول مع ابن أخيه شاتيلون والكونت دي سواسونس والكونت دي فاندوما وغيرهم كثيرون والامير جانفيلا صديق الملك لويس التاسع وهو مؤرخ هذه الحروب وعقد للملك المذكور جمعية بمدينة باريس لتحديد ميعاد السفر وأقام والدته بلانشا نائبة عنه في المملكة مدة غيابه وقد اقسم له رجال حكومته بان يحفظوا الطاعة لعائلته ان حدث له شيء في سفره وأرسل البابا منشورات تقرأ في الكنائس بمدح الملك لويس التاسع صاحب الحروب الصليبية السابعة والثناء عليه وسار الملك لويس الى كنيسة القديس ديونيسيوس واستلم سنجق الصليب هناك من يد النائب البابوي كما انه البسه ثوب الحروب الصليبية ورجع الى باريس وحضر الذبيحة الالهية في كنيسة والدة الاله الكاتدرائية وفي اليوم الثاني سار من باريس وبرفقته زوجته

مرغريتا وخرجت لوداعه الملكة بلانشاوالدته وجميع الاكليروس ورجال الحكومة ثم سار من بلاد فرانسا الجنوبية واجتاز اقليم لانكادوك ونزل في المراكب من مينا اكاس بورتاس وساروا في البحر المتوسط الى ان وصلوا جزيرة قبرص وأقاموا بها ثم انه تفشى في المعسكر الصليبي مرض وبائي شديد اهلك معظمهم ومات به هناك الكونت دي دروكس · والكونت دي مونتفرت · والكونت دي فاندوماوالارشامبود دي بوربون وغيرهم

﴿ وصول الصليبيين الى دمياط ومحاربتهم للملك الصالح أيوب ﴾

كان السلطان الصالح أيوب قد فاجأه مرض ثقيل وهو تورّم في مأبضه تكوّن منه ناصور فتح وعسر برؤه وانضاف اليه قرحة في الصدر فلزم الفراش في دمشق فجاءه منبئ يخبره بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر وأخذهاوقد اكثروامن التجنيد ووردت اليهم النجدات من جميع ممالك أوروبا فلما علم بذلك وهو مريض لم يسعه الا مبارحة دمشق فسار في محفة ونزل اشمون طناح في أول سنه ٦٤٧ وجمع في مدينة دمياط من الاقوات والزاد والاسلحةو آلات القتال شيئاً كثيراً خوفاً من ان يجرى على دمياط ما جرى في أيام أبيه وجهز أسطولا من صناعةمصر وجعلوفيه سائر ما يحتاج اليه الجند وسيره شيئاً فشيئاًوضم الى جنده كثيراً من العربان واكثرهم من بني كنانة جعلهم وراء متاريس دمياط وعهد قيادة حامية هذه للمدينة الى الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ففي صباح يوم الجمعة ٢٠ صفر من هذه السنة وردت مراكب الصليبيين الى دمياط وفيها جموعهم وحال وصولهم بعث ملكهم لويس التاسع الى الملك الصالح كتابا نصه (أما بعد فانه لم يخف عليك اني أمين الامة العيسوية كما انه لايخفى عليّ انك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك ان عندنااهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لي بكل الايمان وأدخلت عليّ الاقساء والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا اليك وقاتلتك في أعز البقاع اليك فاما ان تكون البلاد لي فياهدية حصلت في يديّ واما ان تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العلياء ممتدة اليّ وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعددالحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء) فلما قرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح

وقد اشتد به المرض بكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب (بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد فانه وصل كتابك وانت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بغي علينا باغ الا دمرناه ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك ان تعض على اناملك بالندم ولابد ان تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه على أول سورة النحل أتى أمر الله فلا تستعجلوه وتكون على آخر سورة ص ولتعلمن نباه بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو اصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام)

﴿ في امتلاك الصليبين دمياط ﴾

وبعد ذلك عقد الملك لويس التاسع مجلس مشورة الصليبين ليقرروا هل تنزل عساكر الصليبين الى بر دمياط أو تقيم أياماً بمراكبهم للاستراحة فقرر سرعة نزولهم فنزل الملك لويس ومعه اخوته وبجانبه أحد الرؤساء رافعاً علم الحرب وامامه النائب البابوي حاملا الصليب واصطفوا للقتال في يوم السبت ٢١ صفر سنة ٦٤٧ فحصلت بين الفريقين مناوشات قتل فيها بعض امراء المسلمين ثم حصلت أيضاً مناوشة في البحر بين مراكب الصليبين ومراكب المسلمين وفي المساء فر الامير فخر الدين بغير داع فتبعه بنو كنانة وخرجوا من المدينة فتبعهم الاهالي في الليل هائمين على وجوههم لا يلتفتون الى شيء ولحقوا بالعسكر في أشمون فخلت المدينة للصليبين ففي يوم الاحد ٢٢ من الشهر المذكور سار الصليبيون قاصدين محاصرة المدينة فوجدوها مفتوحة خالية من سكانها فدخلوها بامان واستولوا على جميع ما فيها من المؤن والذخائر والاسلحة وعدة الحرب ودخلوا الجامع وجعلوه كنيسة فخسر سلطان مصر بذلك خسارة لا تعوض فاستشاط الملك الصالح غيظاً لذلك وجمع اليه بني كنانة وعنفهم لانهزامهم على حين لم يكن داع للهزيمة فقالوا نحن لم نفعل ذلك الا بعد ان رأينا الامير فخر الدين فاراً ومن ورائه رجاله فامر الملك الصالح باعدام ٥٤ من امرائهم لانهم خرجوا من دمياط بغير اذنه

﴿ استيلاء الملك الصالح على الكرك ووفاته ﴾

وفي ٢٤ صفر سنة ٦٤٧ كان عسكر الصالح في المنصورة وحصنها واستعد للمدافعة وكان الملك الناصر صاحب الكرك قد سار الى حلب مستجيراً بصاحبها واستناب على بلاده ابنه عيسى ولقبه الملك المعظم وكان له ولدان آخران أكبر من عيسى وهما الامجد حسن والقاهر شاذي فغضبا لتقديم أخيهما عيسى عليهما وبعد سفر أبيهما قبضا عليه وتوجه الامجد حسن الى الملك الصالح أيوب وهو مريض في المنصوره وبذل له تسليم الكرك على اقطاع له ولاخيه بديار مصر فاحسن اليه الصالح أيوب وأعطاهما أقطاعاً أرضاهما بها وأرسل الى الكرك من تسلمها يوم الأثنين ١٨ جمادى الآخرى وفرح الصالح بالكرك فرحاً عظيما مع ما هو فيه من المرض وفي ليلة الاحد ١٤ شعبان توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب وكانت مدة سلطنته على الديار المصرية تسع سنين و٨ أشهر و٢٠ يوماً وعمره نحو أربعين سنة وكان مهيباً عالي الهمة عفيفاً طاهر اللسان والذيل شديد الوقار كثير الصمت وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره حتى كان أكثر امراء عسكره من مماليكه ورتب جماعة منهم حول دهليزه وسماهم البحرية ولم يبق من أولاده غير الملك المعظم تورانشاه وكان مقيما بحصن كيفا ومات الصالح ولم يوص بالملك لاحد فكان من جملة جواريه جارية تدعي شجرة الدر وهي والدة المعظم تورانشاه فتواطأت مع الامير فخر الدين ورئيس الخصي جمال الدين محسن على مبايعة ابنها وكانت عارفة بامور الحكومة وسياستها ويقال ان الملك الصالح كثيراً ما عهد اليها ادارة الاحكام أثناء غيابه عنها في حملاته الحربيسة . فلما توفى كتمت أمر موته ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلة (ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه وقد عين الامير فخر الدين اتابك لادارة الاحكام) فبايع جميع الامراء . ثم أرسلت هذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد وأعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك مختومة بختم السلطان الصالح الى جميع انحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لا يزال حياً لكنهم عند ما علموا بان الامير فخر الدين أرسل قاصداً لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا بسرعة الى القاهرة داخلهم الريب

﴿ محاربات الصليبيين وواقعة المنصورة ﴾

بعد امتلاك الصليبيين مدينة دمياط رتبوا حالهم فيها وأقامت بها الملكة مرغريتا وسافروا منها قاصدين مصر القاهرة فوجدوا معسكر المسلمين بالمنصورة فردهم عن غرضهم فاقاموا في الموضع الذي قامت به العساكر الصليبية السادسة واستمرت بين العدوين المناوشات وأخذت العساكر الاسلامية تحذفهم بالنبال وكرات النار التي يسميها مؤرخوهم النيران (الفريجاوزيه) وكان كل يوم يقتل من الصليبيين كثيرون ويأسر منهم خطفاً كثيرون ولما بلغ الصليبيين خبر وفاة الملك الصالح طمعوا في البلاد فحاربوا العساكر الاسلامية محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي بقيادة الامير فخر الدين فحارب ببسالة كلية . كل ذلك حصل بين الجيشين ببحر أشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة وهم لا يعلمون طريقاً اليها غير النيل فأتى اليهم بعض من غدر من المسلمين وأخبرهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسان جمعية الهيكليين وجمعية القديس يوحنا المعمدان بقيادة الكونت روبرتوس دي ارتواز شقيق الملك لويس وهاجمت معسكر المنصورة بغتة وكان الامير فخر الدين في الحمام فأتته الاخبار بهجوم الصليبيين فنادى برجاله وخرج للدفاع فأدركه بعضهم فقتله واشتد عزم الصليبيين حتى كادت تدور الدائرة على المسلمين لولا مماليك السلطان الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانقضوا على الصليبيين انقضاض الاسود على فريستها فقتلوا راول دي كوزى وغويليوم لونكانيه رؤساء الجمعيات المذكورة والكونت روبارتوس أخ الملك لويس ثم باقي الفرسان فلم يبقوا منهم احداً ولما بلغ خبر هذه الواقعة الملك لويس ومقتل أخيه أمر بوجو رئيس الجيوش بالسرعة في المسير الى معسكر المسلمين ومباغتتهم فسار الى ان وصل الى عسكر المسلمين واشتد بينهم القتال تارة بالنبال وأخرى بالرماح ومثلها بالبلطات وبالسيوف وبعد جهاد عجيب وصبر من المسلمين شديد قتل من الصليبيين والي تريشاطو . وهوكنز دي اكوساه وراول دي قنوره . وفاريس دي لوبي وأما ارارد دي ابري فضربه أحد المماليك بسيفه فقد وجهه شطرين فلحقهم الملك لويس وقوى عزمهم وقد وقع اخوه الثاني الكونت دي انجو عن حصانه فاراد المسلمون أسره فلحقه لويس وجنده وخلصه من أيديهم واستمر القتال عاماً بين جميع الصليبيين وعساكر المسلمين وقد أعيي الفريقان التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الخسائر . وبعد انقضاء هذه

الواقعة العظيمة نزل بمعسكر الصليبيين امراض رديئة من كثرة جثث المقتولين منهم وتصاعد العفونة فأفسدت الهواء عليهم فكثر بينهم الموت كأنه وباء ثم أعقب ذلك فناء زادهم واشتد عليهم الجوع وضربهم بسيفه تكميلا لمصائبهم ٠ لان عساكر المسلمين وقفوا بمراكبهم في البحر بالقرب للمنصورة ٠ وكلما وجدوا مراكب واردة للصليبيين بالقوت هجموا عليها وأخذوها أو ارتدت ثانياً الى دمياط وكذلك الملك لويس نفسه مرض فخاف جميع الصليبيين ان يموت الملك فاجتمعوا وعولوا على طلب هدنة لرفع السلاح أياماً معدودة

﴿ قدوم المعظم تورانشاه وسلطنته وواقعة الصليبيين ﴾

﴿ واسر لويس التاسع وغيره ﴾

في ٢١ القعده سنة ٦٤٧ قدم السلطان غياث الدين تورانشاه من حصن كيفا فاستولى على سلطنته واشتد عزم المسلمين به وضعفت قلوب الصليبيين ووقع القتال بين الفريقين في البر والبحر فأسر المسلمون ٣٢ مركباً فلما رأى الصليبيون ما كان من ضعفهم أرسل لويس التاسع يطلب المصالحة على ان يأخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط فرفض الملك المعظم هذا الطلب وفي ٢ محرم سنة ٦٤٨ عزم الصليبيون على الرجوع الى دمياط فتعقبهم المسلمون حتى أدركوهم غربي فارسكور فاستلحموهم وأثخنوا في قتلهم ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ الفاً وأسروا الملك لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة وقيدوه بالسلاسل الحديدية وكان الملك لويس واخوته وجميع رؤساء جيشه قد انحازوا الى منية أبي عبد الله وطلبوا الامان فأمنهم الطواشي محسن الصالحي ثم احتاطوا بهم وقبضوا على الملك المذكور واخوته وجميع الرؤساء وأحضروهم الى المنصورة وجعلوهم في الدار التي كان ينزلها كاتب الانشاء فخر الدين بن لقمان ووكل بالملك لويس الطواشي صبيح المعظمي ثم رحل الملك المعظم من المنصورة ونزل بفارسكور ونصب بها برجاً من الخشب

﴿ قتل المعظم وسلطنة شجرة الدر واطلاق الملك لويس التاسع ﴾

ثم ان الملك المعظم تورانشاه عزل جميع من كان بيده أزمة الحكومة من أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نفر قلبه منه واعتمد على رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا وكانوا سفلة أراذل فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور وهجموا عليه بالسيوف وكان اول من ضربه ركن الدين

بيبرس فهرب الملك المعظم منهم الى البرج الخشبي الذي نصب له بفارسكور فاطلقوا في البرج النار فخرج المعظم من البرج هاربا طالباً البحر ليركب في حراقته فحالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فادركوه واتموا قتله في يوم الاثنين ٢٩ محرم سنة ٦٤٨ وكانت مدة اقامته في المملكة من حين وصوله الى الديار الديار المصرية شهرين واياماً وبموته انقرضت الدولة الايوبية ولما جرى ذلك اجتمع الامراء واتفقوا على ان يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة وان يكون عز الدين ايبك الجاشنكير الصالحي المعروف بالتركماني اتابك العسكر وحلفوا على ذلك في ١٠ صفر سنة ٦٤٨ وخطب لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة باسمها وكان نقش السكة (المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل) وكانت قد رزقت من الملك الصالح ولداً اسمه خليل مات صغيراً (فسميت بهذا الاسم)وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل ثم دارت المخابرة بين رجال الحكومة المصرية وبين الملك لويس التاسع المحبوس بشأن اطلاقه هو ومن معه من الاسرى فتم الصلح على ان يدفع ٨٠٠ الف دينار ويسلم مدينة دمياط ويرحل بسلام وتطلق الحكومة المصرية جميع الاسرى فاستقر الرأي على ذلك وكانت دمياط لم تزل مع الصليبيين والعساكر الاسلامية محاطة بها والملكة مرغريتا تقيم فيها وهي حامل فوضعت ولداً فسمته تريستان (اي الحزين) وكان الصليبيون الذين معها بالمدينة وهم البيزاويون والجنويون قدعزموا على ان يهربوا من المدينة ويتركوا هذه الملكة فوزعت عليهم جميع ما عندها من الذهب والفضة حتي استمالتهم ثم ركب الملك لويس واخوته وبعض الرؤساء وساروا قاصدين دمياط وحوله العساكر الاسلامية للاستيلاء على دمياط واستلام المبلغ المقرر فلما وصلها سلمها للعساكر المصرية ودفع ٤٠٠ الف دينار ونزل هو وباقي الصليبيين وزوجته بمراكب البحر وسار قاصداً عكا فقال جمال الدين يحيي ابن مطروح في ذلك ابياتاً منها

قل للفرنسيس اذا جئته ... مقال صدق عن قؤول نصيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها ... تحسب ان الزمر ياطبل ريح
وكل اصحابك اوردتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسين الفاً لاترى منهم ... غير قتيل أو أسير جريح
الهمك الله الى مثلها ... لعل عيسى منكم يستريح

اذا كان باباكم بذا راضياً فرب غش قد اتى من نصيح
وقل لهم ان اضمروا عودة لاخذ ثار او لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

﴿ الملك لويس بعكا وسلطنة ايبك الجاشنكير ﴾

ولما وصل الملك لويس التاسع الى عكا ببعض رجاله لان الآخرين سافروا الى بلادهم اجتهد في جمع باقي المبلغ المقرر وقدره ٤٠٠ الف دينار ولما كمل عنده ارسله صحبة بعض الصليبيين الى الديار المصرية وطلب اطلاق باقي الاسارى فاستلموا المبلغ وأطلقوا نحو اربعماية أسير فقط فاغتاظ لويس وأخذ يستعد في تحصين بلاد سوريا واما شجرة الدر فان الناس لم يرتاحوا الى طاعتها فانفذ السوريون الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في أمر هذه الملكة فكتب اليهم مامفاده (اذا لم يكن بينكم من يصلح للسلطنة اقدم اليكم فاقيم عليكم من يحكم فيكم اما قرأتم ماقاله النبي صلى الله عليه وسلم عليهن") فاستمسك مماليك مصر بهذه الفتوى وثار رفقاؤهم في دمشق وخاموا طاعة شجرة الدر وبايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف الايوبي في ٨ ربيع اول سنه ٦٤٨ وقتلوا كل من كان في دمشق من المماليك على دعوة شجرة الدر وفعل مثل ذلك اهل بعلبك وشميمس وعجلون فنشأ بسبب ذلك خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر آل الى مواقع حربية فتمكن عز الدين ايبك في هذه الانقسامات والاستقلال والجأ الامراء شجرة الدر الى الاستقالة فاستقالت ثم بويع عز الدين ايبك على مصر ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالحي وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبها الى حزبه . وبعد قليل انقسم المماليك الى حزبين عرفا بالمعزيين نسبة الى الملك المعز أيبك وبالصالحيين نسبة الى الملك الصالح نجم الدين وتنازعا النفوذ ففاز الصالحيون .

﴿ سفر اخوات الملك لويس الى فرانسا وسلطنة الملك الاشرف ابن يوسف ﴾

وفي أثناء ذلك ارسلت الملكة بلانشا والدة الملك لويس التاسع ونائبته على المملكة الى ولدها المذكور بسوريا تطلب منه سرعة سفره الى مملكته فعزم على السفر فاستغاث به صليبيو سوريا وطلبوا منه البقاء معهم خوفاً من استيلاء المسلمين على بلادهم بعد سفره فاجاب طلبهم وعدل عن السفر الى مملكته فلما رأى ذلك اخواه اي عزمه على الاقامة بسوريا ركبا البحر وتبعهما باقي

الصليبيين وسافروا الى بلادهم . وأما المماليك الصالحيون فانهم اجبروا أيبك أن يقبل بمبايعة شاب من العائلة الايوبيــة لم يبلغ الثامنه من العمر وكان في اليمن واسمه موسى مظفر الدين بن يوسـف اتسز ملك اليمن فبويع في ٥ جمادى الاولى سنة ٦٤٨ وبايعه الناس ولقبوه الملك الاشرف وتعين عز الدين ايبك اتابكاله غير ان ازمة الاحكام مابرحت في يده ولم يكن الاشرف الا اسماً بلا مسمى ومن الغريب تأليف هذه السلطنة المزدوجة من أحد سلالة العائلة الايوبية وأحد مماليكها والاغرب من ذلك أن يخطب لهما معاً .

﴿ حروب بين المماليك والسوريين واتحادهم مع الملك لويس ﴾ ﴿ وتخريب دمياط ﴾

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق ناصر الدين يوسف الايوبي للاخذ بثار الملك المعظم فدعى اليه اقاربه امراء العائلة الايوبية للتعاضد على ذلك ولتأكيد النجاح بمسعاه طلب من الملك لويس التاسع مساعدته ولما أحس بذلك المصريون أرسلوا الى لويس المذكور مائتي فارس من الاسرى وطلبوا منه عقد معاهدة مقتضاها أن المصريين اذا انتصروا على صاحب دمشق اعطوا ملك فرانسا القدس وان جميع البلاد التي يستولون عليها تكون مناصـفة بينهم فمال الملك لويس الى معاهدة المصريين واعتذر الي صاحب دمشق بأن بينه وبين المصريين هدنة بعشر سنين

فاتصل أمر تلك المخابرات بسلطان دمشق فانفذ فرقة من عشرين الف مقاتل تحول دون اتحاد الجيشين فعثروا بالمصريين في غزة فناهضوهم حتى ارجعوهم الى الصالحيه فانجدهم الفـارس اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعده سـنة ٦٤٩ في العباسه وتقاتلا فانكسر المصريون أولا فتعقبهم السوريون فجعل ايبك والفـارس اقطاي انهزامهما نحو سوريا ومعهما جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شرذمة من رجاله فقتلاه وشتتا رجاله فاشتد ازرهما فعادا لمهاجمة سلطان دمشق وكان في معسـكره مع شرذمة قليلة من الجند . أما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الجيوش المصرية المنهزمة فاضـطر ناصر الدين الى الفرار بنفسـه فتبعاه فلم يدركاه فعادا الى مصر فرأيا الجيوش السورية قد دخلت القاهرة وخاف اهاليها ظناً منهم ان النصر لناصر الدين فبايعوه وخطبوا له . الا ان الائمة لم يوافقوا على تلك المبايعة فلم ينجوا من انتقام ايبك فلما علم المصريون ان النصر لهـم فرحوا جداً وابطلوا

مبايعة ناصر الدين أما هذا فلما رأى أمر انكساره على ما تقدم لم يعد يمكنه اعادة الحرب ثانية فصالح المصريين على أن ينجلي لهم عن مصر وغزة وبيت المقدس ولكنه ربح من الجهة الثانية ماكان يرومه من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين . ثم اتفق المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفاً من قدوم الصليبيين اليها مرة أخرى فسيروا اليها الحجارين والفعلة فتولوا هدم اسوارها ومحيت اثارها ولم يبق منها سوى الجامع ويعرف بجامع الفتح واخصاص ابتناها بعض الفقراء للسكن في قبليها ودعوا ذلك المكان المنشية . أما دمياط الباقية الى هذا العهد فابتنيت على انقاض تلك

﴿طلب الملك لويس التاسع النجدة من اوروبا ووفاة الاشرف بن يوسف﴾

لما علم الملك لويس بفساد المعاهدة المذكورة واتحاد المسلمين خاف على بلاد سوريا فارسل الى البابا برومية يطلب منه المساعدة في ارسال نجدة الى سوريا وكذلك أرسل الى والدته بلانشا نائبة المملكة الفرنساوية فسار البابا يرسل المنشورات بالحث والتحريض على نجدة لويس الي ملوك أوروبا فلم يلتفت احد الى أوامره وكذلك في فرانسا وذلك لعلم الجميع بما حصل لملك فرانسا وغيره من الملوك وانه من عهد الحروب الصليبية الاولي وتجريداتهم تذهب هباء منثوراً . واما من جهة المصريين فان الفارس اقطاي عظم في عيون المصريين لما اظهره من البسالة والاقدام في الحروب الاخيرة فلقبه احزابه بالملك وتزوج أخت المنصور سلطان حماه واسكنها في القلعة لاتصال حبل قرباها بالعائلة الملوكية فاوجس ايبك شراً من انتشار نفوذ الفارس المذكور حتى خشي مناظرته في الملك فاخذ يسعى للتخلص منه وكان الفارس زعيما لحزب من المماليك الصالحية وكان يطلبون له المشاركة في الملك مع الملك الاشرف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقي كثيرين منهم وفي جملتهم سيف الدين قطوز الذي صار ملكا بعد ذلك . اما الفارس اقطاي فقتله ايبك وهو داخل بسراي القلعة ثم خشي الوقوع في شر أعماله فأمر بقفل أبواب القلعة وأبواب المدينة ولبث يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى جاء الامراء الصالحيون برئاسة ركن الدين بيبرس وتجمهروا على أبواب القلعة وطلبوا الفارس اقطاي ظناً منهم انه كان مأسوراً فرمي اليهم برأسه من على السور فلما علموا بقتله ارتاعت قلوبهم فعمدوا الى الفرار قاصدين باب القراطين ففتحوه وساروا قاصدين سوريا وبقي منهم شرذمة قبض عليهم وأودعوا السجن . فلما تخلص الملك المعز

ايبك من طائفة الامراء الصالحيين قبض على الملك الاشرف وألقاه في سجن مظلم فمات فيه تعيساً بعد ان حكم سنة وشهراً واستقل ايبك بالسلطنة واستوزر شخصاً من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله ابن صاعد الفائزي أحد كتاب الاقباط وكان قد تظاهر بالاسلام في أيام الملك الكامل وترقى في خدمة الكتابة وكان طبيباً له مشهوراً بالطب والسياسة فلما صار وزيراً قرر على التجار وذوي اليسار وأرباب العقاقير أموالا ورتب مكوساً وهو أول قبطي ولي الوزارة

﴿ انتهاء الحروب الصليبية السابعة ﴾

لما علم الملك لويس التاسع بان اوروبا لا ترسل اليه عساكر صليبية ولا يأتيه أحد من مملكته نفسها خاف من فشله فأرسل الى بلاد الموره ورومانيا وقبرص يطلب الجنود على نفقته فجاءته عساكر منها برواتب شهرية ومصاريف وغيره حتى فرغت خزائنه ولكنه لم يمكنه ان يتقدم لمحاربة المسلمين فحصل له فشل فصرف جهده في تحصين بلاد الصليبيين بسوريا لصد هجمات الهاجمين ثم أتاه خبر من فرانسا يفيد موت والدته الملكة بلانشا نائبة المملكة وطلب سرعة حضوره لاستلام المملكة فحالا استعد للسفر ونزل في مراكبه وسار نحو بلاد فرانسا قاصداً مملكته وبذلك انتهت الحروب الصليبية السابعة

﴿ وفاة ايبك الجاشنكير وسلطنة ولده نور الدين ﴾

ولما استتب المقام لايبك وتخلص من المماليك الصالحية وغيرهم ممن كانوا ينازعونه الملك حسب الجو قد خلا له وما دري ان شجرة الدر لا تزال واقفة له بالمرصاد بعد ان صارت له زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتها مع علمه باستقالها من مهام الملك على انه لم يستطع احتمال هذا التقييد والسلطان في يده فجعل يبحث عن طريقة تنقذه من هذه القيود مع علمه ان مكائد النساء أشد وطأة من ملاقاة أبطال الرجال . فادعى انها عقيمة لا يرجو منها نسلا فاقتنى عليها سراري أخريات فولدت له احداهن ولداً دعاه نورالدين علي ثم بلغها انه ساع الى التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد أمسك عن زيارتها فاشتعلت حسداً لعلمها ان هذه الزوجة الاخيرة من بنات الملوك فخافت ان تحل محلها من العظمة فاقرت على الكيد به . فبينما كان ماراً في ٢٣ ربيع اول سنة ٦٥٥ في الدهليز السري الى دار الحريم وثب عليه خمسة خصيان بيض كانوا قد

كنوا له هناك وخنقوه بعمامته وكان ذلك بدسيسة شجرة الدر فاشاعت انه مات مصروعاً وكان ايبك ظلوماً غشوماً سفاكاً للدماء • ولم تجسر شجرة الدر تعاطي الاحكام بنفسها خوفاً من الايقاع بها فجاءت بخاتم الملك الى أميرين من كبار الامراء وهما جمال الدين عضو غدى وعز الدين الحلبي وطلبت اليهما أمام جثة زوجها ان يستلما زمام الاحكام فأبيا • وكان قتل ايبك في داخل السراي ليلا ولم يشع الخبر في القاهرة حتى الصباح التالي • فلما علم أصحابه من المماليك بما حل به أضمروا على الانتقام وكان سن ابنه نور الدين علي ١٥ سنة فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور وكانت مدة ايبك في الاحكام عشرسنوات و ١١ شراً شاد في خلالها بنايات عظيمة وفي جملتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلا مخصوصاً للنفقة عليها • وهو اول من أقام من ملوك الترك بقلعة الجبل • ولما بويع الملك المنصور قبض على قاتلة أبيه وعهد بها الى نساء بيته فاماتوها ضرباً بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق القلعة فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة أما الملك المنصور فلم يحكم الا مدة قصيرة تحت مناظرة وصيه شرف الدين هبة الله المتقدم ذكره ولم يلبث حتى استبدله بسيف الدين قطوز مع لقب اتابك اي وصى الملك ونائبه ولما تولى سيف الدين هذا المنصب استقدم اليه المماليك الصالحية من سوريا وعقد معهم مجلساً أقروا فيه على عدم لياقة نور الدين للاحكام نظراً لصغر سنه وأذاعوا ذلك فأنزلوا نور الدين في ٤ ذي القعده سنة ٦٥٧ بعد ان حكم سنتين

﴿ استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية ﴾

في أول سنة ٦٥٦ قصد هولاكو ملك التتر مدينة بغداد وملكها في ٢٠ محرم عنوة وقتل الخليفة المستعصم بالله وسبب ذلك ان وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي كان رفضياً وكان أهل الكرخ روافض فجرت فتنة بين السنية والشيعية ببغداد على جاري عادتهم فامر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين دويدار العسكر فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر واطمعهم في ملك بغداد وكان عسكر بغداد يبلغ مائة الف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل الى التتر متحصل اقطاعاتهم وصار عسكر بغداد دون عشرين الف فارس وارسل ابن العلقمي الى التتر أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم وخرج عسكر الخليفة لقتالهم ومقدمهم ركن الدين الدويدار والتقوا على مرحلتين

من بغداد واقتتلوا قتالا شديداً فانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم الى جهة الشام ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقي ونزل باجو وهو مقدم كبير في الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي الى هولاكو فتوثق منه لنفسه وعاد الي الخليفة المستعصم وقال له ان هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر وحسن له الخروج الى هولاكو فخرج اليه المستعصم في جمع من اكابر أصحابه فانزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والاماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيي الدين ابن الجوزي وأولاده وكذلك بقي يخرج الي التتر طائفة بعد طائفة فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف في بغداد وهجموا دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ولم يسلم الا من كان صغيراً فاخذ أسيراً ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً ثم نودي بالامان وأما الخليفة فانهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل غرق في دجلة وقيل غير ذلك وكان المستعصم ضعيف الرأي وكانت خلافته نحو ١٦ سنة وهو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد وكان ابتداء دولتهم في سنة ١٣٢ وكانت مدة ملكها ٥٢٤ سنة تقريباً وعدد خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة

﴿ سلطنة المظفر سيف الدين قطوز وانتصار المصريين على التتر ﴾

وسيف الدين هذا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفه فهو ابن مودود شاه ابن اخ ملك خراسان فتح التتر بلاده فتشتت عائلته ولما تولى سلطنة مصر لقب بالملك المظفر وحالما استوى على السلطنة قبض على نور الدين وأمر بقتله فحاول العلامة شرف الدين المدافعة عنه فصلبه على باب القلعة . ثم لاح له ان دمياط بعدان دكت أسوارها لم يعد شيء يعيق مراكب العدو عن المرور في النيل فامر بردم مصب النيل هناك وبعث بفرقة من الحجارين فمضوا وقطعوا كثيراً من الحجارة والقوها فيه حتى ضاق وتعذر سير المراكب منه الى دمياط وهو على ذلك الى اليوم فان المراكب الكبيرة لاتستطيع المرور فيه فتنقل البضائع منها الى الجروم والمتواتر على السنة البعض ان سبب ذلك وجود جبل او رمل متجمع هناك . ثم كاتب ركن الدين بيبرس البندقداري الملك المظفر قطوز فبذل له الامان ووعده الوعود الجميلة فجاء بيبرس الى مصر في جماعة من اصحابه فأقبل عليه الملك المظفر واكرمه وانزله في دار الوزارة واقطعه قليوب وأعمالها وفي خلال ذلك جاء القاهرة قاصد تتري ناقلا منشوراً من هولاكو

ملك المغول (التتر) حفيد جانكيز خان وكان التتر قد انتشروا في جميع أسيا الشمالية والشرقية واستولا هولاكو بعد بغداد الموصل وحلب ودمشق وجميع السواحل البحرية حتى قدم مصر فبعث اليها منشوراً ونصه (من ملك الملوك الحاكم من الغرب الى الشرق أعظم الخانات هولاكوخان فاتح الفتوحات الغريبة صاحب الجيوش العديدة الى أهل مصر . فياأهل مصر لاتخاطروا بانفسكم في محاربتي لانكم ان فعلتم اذاً انتم مخذولون فاقتدوا بغيركم من سكان حلب والموصل) فلماقرأ قطوز ذلك المنشور وعلم ما كان من امر فتوحات هذا التتري وما هو عليه من القوة والمنعة اوجس خيفة غير ان جيوشه كانوا قد حاربوا الجيوش الصليبية وانتصروا عليها ولم يزل في نفوسهم عزة الظفر وانفة النصر فاستخفوا بقول هولاكو واصروا على القتال فحشدهم قطوز وجهزهم بما يلزم من العدة والسلاح واستقدم اليه قبائل العربان وفرق فيهم وفي سائر جيشه نحواً من ٦٠٠ الف دينار جمعها من الضرائب التي اقامها على المصريين مما دعاه تصقيع الاملاك وزكاتها واحدث على كل انسان ديناراً يؤخذ منه واخذ ثلث التركات الاهلية فكان يجمع منها ٦ آلاف ديناراً سنوياً . ثم سار من القاهرة لملاقاة التتر في غاية شعبان سنة ٦٥٨ . وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت ابيه منجوخان ملك التتر فاضطر الى العود حالا ليطالب بحقوق الوراثة فعاد تاركا في سوريا قسما من نخبة فرسانه تحت قيادة نسيبه ونائبه كتبوغا لمحاربة قطوز فالتقيا في فلسطين في عين الجالوت فالتحم الجيشان فانهزمت التتر هزيمة قبيحة واخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبوغا واسرابنه وتعلق من سلم من التتر برؤوس الجبال وتبعتهم المسلمون فأفنوهم وهرب من سلم منهم الى الشرق فأرسل ركن الدين بيبرس البندقداري في أثرهم فتبعتهم المسلمون الى اطراف البلاد الشرقية فتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم لان القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ولأنهم ما قصدوا اقليما الا فتحوه ولا عسكراً الاهزموه فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم وفي يوم دخول المظفر دمشق امر بشنق جماعة من المنتسبين الى التتر فشنقوا وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار الملك الناصر يوسف وغنم المصريون غنيمة كبيرة تكفي لاغناء كل المشرق لانها تحتوي على اثمن ما نهبه هولاكو من اغنى المدن أثناء فتوحاته

﴿ قتل الملك المظفر وسلطنة الظاهر بيبرس البندقداري ﴾

وبينما كان الملك المظفر قطوز عائداً من سوريا الى الديار المصرية اتحدت المماليك

الصالحية على قتله ومنهم ركن الدين بيبرس البندقداري وانص مملوك نجم الدين الرومي الصالحي والهاروني وعلم الدين صغن أغلى وساروا معه يتوقعون الفرصة فلما وصل قرب الصالحية وقد سبقه العساكر الى الصالحية فبينما هو سائر وحوله الامراء اذ مر بين يديه أرنب بري وكان مولعاً بالصيد فسار في أثره في عرض الصحراء وساروا معه الامراء المذكورين فلما بعدوا تقدم اليه انص وشفع عنده في انسان فاجابه الملك المظفر قطوز الى ذلك فاهوى لتقبيل يده وقبض عليها فحمل عليه ركن الدين بيبرس حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وذلك في ١٧ ذي القعده سنة ٦٥٨ ثم دفنوه في قبر صغير قرب قبر خلف تخشي ذوو الفقيد ان تبلغ الموسى لحاهم فتفرقوا في مصر السفلى لا يظهرون على أحد فكانت مدة ملكه احدى عشر شهراً و١٣ يوماً وسار بيبرس بعد ذلك ورفقاه حتى وصلوا الى الدهليز بالصالحية وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين اقطاي المستعرب فسألهم نائب السلطنة المذكور وقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا فقال له اقطاي اجلس يا خوند في مرتبة السلطنة فجلس واستدعيت العساكر للتحليف فحلفوا له في اليوم المذكور أيضاً واستقر بيبرس في السلطنة وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ثم بعد ذلك غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر لانه بلغه ان القاهر لقب غير مبارك وأضاف اليه أبو الفتوح وكان يلقب أيضاً بالعلي وبالبندقداري نسبة الى سيده المسمى علاء الدين بندقدار الصالحي ثم سار الملك الظاهر بيبرس الى القاهرة فدخلها وكانت مزينة للملك المظفر فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس ولما تم له أمر السلطنة جعل بهاء الدين وزيراً وبيلي بك وهو من أعز أصدقائه من المماليك خزنداراً واستقدم من بقي من عائلة قطوز فامنهم وضمهم اليه واطلق من في السجون جميعاً بغير استثناء و اكثر من العطايا لرجاله وابطل كثيراً من الضرائب التي كانت قد ضربها سلفه كتصقيع الاملاك وتقويمها وأخذ زكاة ثمنها في كل سنة وجباية دينار كل انسان وغير ذلك وأعلن امره هذا على لسان الخطباء في المنابر . على انه مع ذلك لم ينل رضاء كل الرعية لاسيما السوريون فانهم شقوا عصا الطاعة وبايعوا الامير سنجر الحلبي حاكم دمشق ولقبوه بالملك المجاهد فارسل الظاهر بيبرس عسكراً بقيادة علاء الدين البندقدار سيده لقتال علم الدين سنجر الحلبي فوصلوا الى دمشق في ١٣ صفر سنه ٦٥٩ فخرج اليهم الحلبي لقتالهم وكان صاحب حماه وصاحب

حمص مقيمين في دمشق ولم يخرجا مع الحلبي لقتال العساكر المصرية فاقتتل الحلبي مع علاء الدين فولى الحلبي واصحابه منهزمين الى قلعة دمشق واقام بها الى ان جن الليل فهرب منها الى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل الى الديار المصرية فاعتقل ثم اطلق واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس واقيمت الخطبة له بها وبغيرها من سوريا مثل حماه وحلب وحمص واستقر علاء الدين ايدكين البندقداري نائباً بدمشق لتدبير امورها ثم رحل صاحب حماه وصاحب حمص من دمشق الي بلادهما ثم ارسل الظاهر بيبرس مرسوم الي علاء الدين البندقدار نائب دمشق بالقبض على بهاء الدين بغدى الاشرفي وعلى شمس الدين اقوش البرلي فبقي علاء الدين متوقعاً الفرص لتنفيذ ذلك فقبض على بهاء الدين وخرج اقوش البرلي من دمشق ليلا ونزل بالمرج فارسل علاء الدين اليه يطيب قلبه فلم يلتفت اليه وسار الى حلب ودخلها واخرج منها فخر الدين الحمصي بحيلة واستبد فيها وجمع العرب والتركمان واستعد لقتال عسكر مصر ثم ارسل الظاهر بيبرس جمال الدين المحمدي الصالحي لقتال البرلي ثم رضي عن علم الدين سنجر الحلبي وجهزه بعسكر وراء المحمدي ثم اردفه بعز الدين الدمياطي بعسكر آخر وساروا الجميع الى حلب لقتال البرلي فطردوه منها

﴿ انتقال الخلافة العباسية الى الديار المصريه ﴾

في رجب سنة ٦٥٩ قدم الى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص اسود اللون اسمه احمد زعموا انه ابن الامام الظاهر بالله محمد ابن الامام الناصر وانه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه جماعة من الاكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الاعز فشهد أولئك العرب ان هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد بن الامام الناصر فيكون عم المستعصم واقام القاضي جماعة من الشهود اجتمعوا باؤلئك العرب وسمعوا شهاداتهم ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة فاثبت القاضي تاج الدين نسب احمد المذكور ولقب المستنصر بالله أبا القاسم احمد وبايعه الملك الظاهر بيبرس والناس بالخلافة واهتم الملك الظاهر بامره وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة واستخدم له عسكراً فاصبحت القاهرة من ذلك الحين مقر الخلفاء العباسيين غير ان سلطتهم لم تكن تعتبر الا من وجهها الديني فقط وكانوا يلقبون بالائمة وقد وافق نزول العباسيين بالقاهرة

قحط عم سائر القطر فتشاءم الناس بحلولهم · اما بيبرس فلم يأل جهداً في استجلاب الاقوات من سائر جهات سوريا وغيرها وتفريقها على الناس فانقذ بلاده من ضيق عظيم

﴿ فتوحات الملك الظاهر بيبرس ووفاة المستنصر وخلافة الحاكم بامر الله ﴾

ثم اراد بيبرس ان يسترجع مدينة بغداد للخلفاء العباسيين فانفذ مع الخليفة المستنصر بالله جنداً عظيما وبرز معه الظاهر بيبرس وتوجها الى دمشق فنزل الظاهر بالقلعة ونزل الخليفة في جبل الصالحية ونزل حول الخليفة امراءه واجناده وجهز الخليفة عسكره للمسير الى بغداد طمعاً في انه يستولي عليها ويجتمع عليه الناس فسار الخليفة المستنصر من دمشق بعسكره وركب الملك الظاهر وودعه ووصاه بالتأني في الامور ثم عاد الملك الظاهر من توديعه الى دمشق ثم سار الى الديار المصرية ثم وصلت اليه كتب الخليفة المستنصر بانه قد استولى على عانة والحديثة · وولي عليهما وقبل ان يصل الخليفة ومن معه الى بغداد لاقاهم التتر في الطريق فحاربوهم وشتتوا شملهم وقتلوا الخليفة ولم يجلس على كرسي الخلافة الا خمسة اشهر وعشرين يوماً فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم بامر الله بعد ثبوت نسبه واقامه الظاهر بيبرس في برج محترزاً واشرك له الدعا في الخطابة لاغير ثم امر السلطان الى كل من سنقر الرومي وصاحب حماه وصاحب حمص ان يسيروا الى انطاكية وبلادها للاغارة عليها فساروا اليها ونهبوا بلادها وضايقوها ثم عادوا فتوجهت العساكر المصرية صحبة سنقر الرومي الى مصر ووصلوا اليها ومعهم ما ينوف عن ثلثماية أسير فقابلهم الملك الظاهر بالاحسان والانعام · ثم سار بيبرس بتجريدة أخرى لفتح قلعة الكرك انتقاماً من صاحبها الملك المغيث فتح الدين عمر وسبب ذلك ان بيبرس قبل توليته سلطنة مصر كان قد ترك امرأته عند المغيث فتح الدين وقاية لها مما كان يقاسيه من الاسفار والعذاب وعهد اليه رعايتها فلم يحترم هذا حرمة الدين والشرف ففتك بها بغير وجه الحق فاتصل ذلك بيبرس وكان قد تولى سلطنة مصر فثار فيه حب الانتقام فجرد العساكر وسار الى الكرك وحاصر قلعتها وكانت منيعة الجانب طالما امتنعت على كبار الفاتحين ومنهم السلطان صلاح الدين ثم تمكن بيبرس من القبض على المغيث فتح الدين احتيالا وسلمه الى امرأته فقتلته بالقباقيب على مثل ما قتلت عليه شجرة الدر فأمست الكرك بغير رئيس فسلمت وصارت جزءاً من مملكة مصر فأرسل بيبرس اليها بدر الدين البيسري الشمسي وعز الدين

أستاذ الدار في يوم الخميس ٢٣ جمادي الآخرة سنة ٦٦١ ثم عاد الى الديار المصرية

﴿ محاربات الظاهر بيبرس مع الصليبيين بسوريا ﴾

ولما عاد بيبرس الى القاهرة حشد جيشاً كبيراً لمحاربة الصليبيين بسوريا وسار به في سنة ٦٦٣ الى ان وصل مدينة قيسارية في ٩ جمادى الاولى فحاصرها وضايقها وفتحها عنوة في ١٥ منه بعد محاصرتها ٦ أيام ثم أمر بهدمها ثم سار منها الى ارسوف فنازلها وفتحها في شهر جمادى الآخرة ثم أرسل الملك الظاهر بيبرس قسما من جيشه الى ساحل طرابلس ففتحوا القليعات وحلبا وعرقا ونزل هو على صفد في ٨ شعبان سنة ٦٦٤ فحاصرها وضايقها بالزحف وأقام عليها آلات الحصار وقدم اليه وهو على صفد الملك المنصور صاحب حماه ثم التصقت العساكر بالقلعة وكثر القتل والجرح في المسلمين الى ان فتحها في ١٩ منه بالامان ثم قتل أهلها عن آخرهم وسار الى دمشق فلما دخلها واستقر فيها جرد عسكراً ضخما قدّم عليه الملك المنصور صاحب حماه وأمره بالمسير الى بلاد الارمن فسارت العساكر حتى نزلت على بلاد سيس في ذي القعدة وكان صاحب سيس هيثوم بن قسطنطين قد حصن الدربندات بالرجال والمنجنيق وحمل عسكره مع ولديه على الدربندات لقتال العسكر الاسلامي ومنعه وما انتشب القتال حتى غلبتهم عساكر المسلمين وأوقعت فيهم القتل فأفنتهم عن آخرهم قتلا وأسراً وقتل احد ولدي هيثوم وأسر الآخر وهو ليفون وانتشرت العساكر الاسلامية في بلاد سيس وفتحوا قلعة العامودين وقتلوا أهلها ثم عادت العساكر وقد امتلأت أيديهم من الغنائم فلما وصل خبر هذا الفتح العظيم الى الملك الظاهر بيبرس رحل عن دمشق الى حماه ففامية حيث التقى بعساكره منصورة ولما وصلوا بلد قارا أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم وكانوا نصارى يسرقون المسلمين ويبيعونهم خفية للصليبيين وأخذ صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك في الديار المصرية فصار منهم جنود وأمراء ثم عاد الظاهر الى الديار المصرية على طريق الكرك فجفل به فرسه عند بركة زيزا فانكسر فخذه وحمل في محفة الى قلعة الجبل

﴿ اصلاحات الملك الظاهر بيبرس ﴾

لما رجع الظاهر بيبرس أخذ يستعد لحروب جديدة وينظم داخليته فابطل ضمان المزر وجهاته وأمر باراقة الخمور وابطال المنكرات وتعقبة بيوت المسكرات

ومنع الخانات والفواحش بجميع أقطار مملكة مصر والشام فطهرت من ذلك البقاع وعادت البلاد الى الهدوء والرغد فقال أحد الشعراء المعاصرين

ليس لابليس عندنا أرب غير بلاد الامير مأواه
حرمته الخمر والحشيش معاً حرمتا ماءه ومرعاه

ثم رأى ان بعض الرعية لا يزالون على ما كانوا قد اعتادوه من الفواحش فامر بمنع النساء الخواطئ من التعرض للبغاء ونهب الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب أهلها جميع ما كان لهم ونفى بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بجميع ذلك توقيعاً قرئ في المنابر . ثم علم ان الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز يشرب المسكر فشنقه تحت قلعة الجبل ولا شك ان الملك الظاهر لم يشدد في ابطال جميع هذه المنكرات الا لعلمه يقيناً ان استعمالها يورث الفقر والذل ويخمد الهمة ويضعف عزة النفس ويغضب الله

وكان في سنة ٦٦٢ قد بنى دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها لعرض العساكر في كل يوم اثنين وخميس وكان ينظر في أمر المتظلمين بنفسه فاذا كان لاحد مظلمة يأتي بنفسه بدون أحد يمنعه ويشكو مظلمته للسلطان وهو يأمر في الحال بصرفها بوجه الحق

﴿ فتوحات الظاهر بيبرس ببلاد الصليبيين بسوريا ﴾

في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٦٦ توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره العديدة الى الشام وفتح يافا وتملكها من الصليبيين ثم سار الى انطاكية ونازلها في مستهل رمضان وحاصرها وضيق عليها وقاتلها وفر صاحبها بوهيموند دي طرابلس الى طرابلس فشدد الحصار وزحفت العساكر الاسلامية على انطاكية فملكوها بالسيف في يوم السبت رابع رمضان وقتلوا اهلها وسبوا ذراريهم وغنموا منهم أموالا جايلة وفي ١٣ رمضان استولى الظاهر على حصن بغراس وكان أهله قد تركوه فشحنه الظاهر بالرجال وجعله حصناً للمسلمين وفي شهر شوال وقع الصلح بين الملك الظاهر بيبرس وبين هيثوم صاحب سيس على انه اذا أحضر صاحب سيس سنقر الاشقر المأسور عند التتر (كان التتر قد أخذوه من قلعة حلب لما ملكها هولاكو ملكهم) وان يسلم بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشيح الحديد يطلق له بيبرس ابنه ليفون فدخل صاحب سيس على ابغا ملك التتر وطلب منه

سنقر الاشقر فاعطاه اياه فارسله الى الظاهر بيبرس وسلم دربساك وغيرها من البلاد المذكورة ما عدا بهسنا وأطلق الظاهر ابنه ليفون وعاد الى الديار المصريه

﴿ حج الملك الظاهر بيبرس ﴾

وفي سنة ٦٦٧ عزم الملك الظاهر بيبرس على اداء فريضة الحج وكان طريق الحج من مصر الى مكة المشرفة في صحراء عيذاب فيركبون النيل من ساحل الفسطاط الى قوص بمصر العليا ثم يركبون الابل من قوص فيقطعون صحراء عيذاب الى البحر الاحمر حيث ينزلون فيه الى جدة ساحل الحجاز وهكذا بعودهم الى مصر وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي مصر على هذه الطريق أيضاً وصحراء عيذاب اذ ذاك آهلة بالسكان أمينة المسلك وبقيت طريق الحج على مثل ذلك الى هذه السنة اذ تغيرت بالطريق التي سار فيها الملك الظاهر كما يأتي وأما التجار فما زالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء الى سنة ٧٦٠ ومن ذلك الحين قلت أهمية مدينة قوص فصارت في حالة تشبه حالتها في الوقت الحاضر بعد ان كانت مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة . ففي ٢٥ شوال سنة ٦٦٧ رحل الظاهر بيبرس من الفوار ووصل الى الكرك وأقام بها أياماً وتوجه من الكرك في ٦ القعدة الى الشوبك ورحل من الشوبك في ١١ منه ووصل الى المدينة النبوية في ٢٥ منه ووصل الى مكة في ٥ الحجة وبعد اداء الفريضة كسا الكعبة بالديباج وكذلك الحجرة النبوية ووقف لهما أوقافاً وعمل لها مفتاحاً ثم سار منها فوصل الكرك في آخر الحجة سنة ٦٦٧ وفي أول محرم سنة ٦٦٨ سار من الكرك فوصل دمشق بغتة وتوجه منها في يومه فوصل الى حماه في ٥ منه وتوجه من ساعته الى حلب ولم يعلم به العسكر الا وهو في الموكب معهم ثم عاد الى دمشق في ١٣ منه ثم توجه الى القدس فزاره ثم رجع الى الديار المصرية فوصل القاهرة في ١٣ صفر وهكذا أتم سياحته الجهادية والدينية معاً

ثم سار الظاهر بيبرس بعساكره الى بلاد الاسماعيلية فتسلم مصياف في العشر الاوسط من رجب سنة ٦٦٨ ثم عاد الى حماه ومنها الى دمشق في ٢٨ منه ثم رحل الى مصر القاهرة

الحروب الصليبية الثامنة

﴿ في التحريض على الحروب الصليبية الثامنة ﴾

في سنة ٦٥٩ قام الروم على الصليبيين الذين تملكوا على القسطنطينية وقتلوهم

واستخلصوها منهم بقيادة زعيمهم مخائيل باليولوغوس الذي أقاموه ملكا عليها (كانت الحملة السادسة للصليبيين اغتصبوها وصارت تابعة لهم الى ان خلصها مخائيل المذكور وعادت للروم) فسافر من نجا من الصليبيين من القسطنطينية الى البابا اكليمنضوس الرابع وكذلك لما استولى السلطان الظاهر بيبرس على البلاد السورية من الصليبيين أرسلوا الى البابا المذكور يطلبون منه المساعدة والمعاونة فارسل منشورا الى جميع ملوك اوروبا يخبرهم فيه بان الروم استولوا على القسطنطينية وان بيبرس قد استولى على انطاكية وغيرها من بلاد سورية ويطلب منهم مساعدة اخوانهم الصليبيين وتشكيل عساكر صليبية ثامنة لاجل ذلك وخصوصاً لاستخلاص قبر المسيح من أيدي المسلمين (وهي حجتهم الواهية في كل حرب) وحيث ان ملوك اوروبا علموا بان جميع التجريدات والعساكر التي سبق تشكيلها وارسالها سواء كان لسوريا أو لمصر أو للقسطنطينية لم تأت بفائدة لاوروبا غير فقد العساكر وافناء المال فلذلك لم يلتفتوا الى منشورات البابا ولا الى نوابه الذين كان قد أرسلهم لهذه الغاية

﴿ تجهيز العساكر الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرانسا ﴾

وبعد جهد شديد قبل الملك لويس التاسع ملك فرانسا تجهيز عساكر صليبية ثامنة بقيادته كما فعل أولا ثم انه أمر بانعقاد جمعية في مدينة باريس من عظماء المملكة بقصر لوبلا ثم حضر بنفسه هذه الجمعية ومعه نائب البابا حامل بيديه اكليل الشوك الذي تكلل به المسيح (على زعمهم وهو الآن محفوظ في كنيسة مريم العذراء الكاتدرائية بباريس) فقام لويس وقال لمن في الجمعية بانه عزم على تجهيز حروب صليبية ثامنة وطلب منهم مساعدته والتوجه معه ثم قام النائب البابوي وطلب منهم انقاذ اخوانهم المسيحيين بالمشرق فاستلم الملك لويس صليب الحرب من يد النائب الرسولي وتبعه ثلاثة من أولاده ثم تبعهم عدد وافر من رؤساء الكنائس ثم يوحنا كونت دي براتانيا . وتيبوت ملك نافار . والفونسوس دي بريانا . والكونتات دي فلاندرا ودي سان بول . ودي مارشا . ودي سواسون وغيرهم وعزم بعض أمراء أوروبا على تجهيز عساكر كما فعل سلطان فرانسا مثل ادوارد ملك الانكليز . وغاسطون ملك بيان وملك البرتغال وغيره . ثم ان لويس المذكور استمد في تجهيز عساكره للمسير بها وحيث انه وجد نفسه شيخاً كبيراً خاف على مملكته اذا مات هو في الحرب فعزم على تقسيمها على ورثته فقسمها على أولاده الاربعة الذكور وكذلك على بنتيه

اللتين لم تزوجا وعلى زوجته مرغريتا وذلك التقسيم يكون بعد مماته ثم اقام وكيلين على مملكته بصفة نواب الملك وهما متى دي فاندوم وسمعان دي ناظلا

﴿ سفر العساكر الصليبية الثامنة ﴾

توجه الملك لويس الى كنيسة القديس ديونيسيوس للتبرك بها ثم حضر الذبيحة بكنيسة الكاتدرائية بباريس وسار الى مدينة اغوزموورتاس المعينة لاجتماع جميع العساكر الصليبية بها وكان قبل حضور الملك لويس المذكور الى هذه المدينة قد سافر بعض العساكر الصليبية الثامنة من اقليم اراغون وغيره قاصدين بلاد فلسطين ولما اجتمع الملك لويس وعساكره في هذه المدينة عقد مجلس شوراه الحربي للتداول في خطة السفر والبلاد التي يقصدونها فالبعض رأى المسير الى الديار المصرية والبعض رأى المسير الى تونس عاصمة الغرب وكان من هؤلاء الملك لويس لانه قال ان المغاربة طالما تعدوا على بحرية فرانسا وغيرها من أوروبا وبعد المداولات تقرر مسير العساكر الصليبية الثامنة الى تونس ومحاربتها واستعدت بالنزول في المراكب والمسير الى تونس

﴿ وصول الصليبيين الى تونس ومحاصرتها ﴾

سارت العساكر الصليبية في البحر الى ان نزلوا بانقاض مدينة قرطاجنة القديمة وأقاموا فوق طلالها وعملوا خندقا حول معسكرهم وكان صاحب تونس يدعى أبا عبدالله محمد بن أبي زكريا الحفصي الملقب بالمستنصر بالله فجمع أمراء مملكته واستشارهم في صد الصليبيين عن النزول الى البر أو بتركهم ينزلون الى البر ويحاربهم فقال بعضهم اذا صديناهم عن النزول أمام الحامية فربما ساروا ونزلوا على ثغر من الثغور فامتلكوه واستباحوه واستصعبت مغالبتهم فوافق السلطان على هذا وأرسل الى جميع الثغور بالتحفظ ونادى السلطان في الناس بالاستعداد والنفير ثم أرسل الى جميع الممالك التابعة له يطلب المدد فجاءه أبو هلال صاحب بجاية وجاءته جميع العرب وسدويكش ووطاصه وهوارة وقد أمدته ملوك المغرب من زناتة وسرح اليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان وعقد السلطان قيادة العسكر الى ستة رؤساء وهم اسماعيل بن أبي كلداس . وعيسى بن داود . ويحيى بن أبي بكر . ويحيى بن صالح وأبي هلال عياد صاحب بجاية . ومحمد بن عبو وأمرهم جميعاً راجع لامر يحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح واجتمع كثير من المسلمين والفقهاء والمرابطين لمباشرة الجهاد واستعدوا غاية الاستعداد فقال أحد أدباء تونس وهو احمد بن اسماعيل الزيات

يافرنسيس هذه أخت مصر ... فهيأ لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر ... وطواشيك منكر ونكير

(فقدر الله وفاة الملك لويس التاسع وهو محاصر لها كما سيأتي فحسن فأعلم)
ثم ان الصليبيين حاصروا مدينة تونس وذلك في شهر القعدة سنة ٦٦٨

﴿ محاربات الصليبيين ووفاة الملك لويس التاسع ﴾

بعد حصار مدينة تونس نشب القتال بين الفريقين وكانت الحرب سجالا وكان الصليبيون منتظرين قدوم الكونت دي انجو كارلوس أخي لويس وهو صاحب جزيرة سيسيليا وفي سنة ٦٦٩ فرغت ذخائر وقوت العساكر الصليبية فاعتراهم داء الدسنتاريا والحمى الخبيثة وفي زمن قصير هلك منهم نحو النصف وكان ذلك في فصل الصيف والحر شديد فاصطنعت العساكر الاسلامية آلات يرمون بها الرمل على معسكر الصليبيين عند هبوب الرياح القبلية فتنزل فوقهم كانها محمية في أتون نار ومما زاد في مصائب الصليبيين هجمات العرب والسودانيين عليهم حتى أخذهم الضجر والملل ومات منهم الكونت دي ناموروس ودي فاندوما . ودي مارشا . ودي موغراسي ودي بيانا ودي برياك ثم لحقهم ابن الملك لويس المدعو تريستان (الحزين) الذي ولد في مدينة دمياط كما مر (ولد في حصار مدينة وتوفى في حصار أخرى) ثم شارك الملك لويس التاسع جيشه في الامراض بعد وفاة ابنه المذكور ورقد في فراشه ثم احضر ابنه البكري فيلبس وورثه على تخت المملكة وأخذ يوصيه بمملكته واخوته وغير ذلك ثم مات

﴿ سفر كارلوس صاحب سيسيليا الى تونس وحصول الصلح وانتهاء الحروب الصليبية الثامنة ﴾

وبعد موت الملك لويس التاسع ملك فرانسا ترأس على الجيوش ابنه فيلبس ثم توارد قدوم مراكب صليبية في البحر ونزل الرجال منها الى البر وكانوا عساكر كارلوس صاحب سيسيليا وفي أثناء نزولهم الى البر لم يجدوا أحداً من الصليبيين قد حضر لمقابلتهم فساروا الى ان وصلوا الى معسكر الصليبيين وسار كارلوس الى ان وصل الى خيمة لويس التاسع فوجده ميتاً فبكى عليه وبعد ذلك عقدوا مجلس مشورتهم للنظر في أمرهم فقرروا استمرار الحصار والمحاربة وبعد مناوشات جرت بينهم تقرر الصلح في شهر ربيع الاول سنة ٦٦٩ على ما يأتي بان السلطان المستنصر بالله يخضع

لكارلوس ملك سيسيليا ويدفع له جزية سنوية ويدفع له مصاريف هذه الحروب البالغ مقدارها ٢٢٠ الف وزنة من الذهب وفي نظير ذلك ينسحب الصليبيون من البلاد التونسية وبعد تمام شروط الصلح التي أمضيت من ملوك فرانسا وسيسيليا ونافار سار الصليبيون ونزلوا بمراكبهم وساروا الى بلادهم وفي أثناء مسيرهم فاجأتهم عواصف شديدة أغرقت أكثر مراكبهم ثم ان كارلوس نزل في مملكته ومعه صندوق داخله قلب الملك لويس بصفة ذخيرة ووضعها في كنيسة دير مونتسريال قرب مدينة ساليرنو وأما فيلبس الثالث ملك فرانسا فداوم مسيره الى بلاده ومعه جثة والده وأخيه تريستان ولما وصل الى باريس وضعهم في كنيسة القديس ديونيسيوس في مدفن ملوك فرانسا وهكذا انتهت الحروب الصليبية الثامنة

﴿ بقية الحروب الصليبية ﴾

من حيث ان الحروب الصليبية الثمانية قد انتهت كما تقدم ولكن بعض بلاد سوريا لم تزل في حكم الصليبيين لذلك التزمنا بمتابعة التاريخ الى افتتاح المسلمين باقي البلاد من الصليبيين وانقراضهم من أسيا كما سيأتي

﴿ باقي فتوحات الظاهر بيبرس ﴾

وفي سنة ٦٦٩ توجه الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية الى الشام ونازل حصن الاكراد في تاسع شعبان وحاصره وضايقه ودام القتال فشدد حصاره الى ان فتحه بالامان في ٢٤ منه ثم رحل الى حصن عكار ونازله في ١٧ رمضان وجد في قتاله وملكه بالامان في آخر رمضان وعيد الظاهر عيد الفطر عليه . وفي شوال تسلم قلعة العليقة وبلادها من الاسماعيلية ثم سار الى دمشق ومنها الى حصن القرين ونازله في ثاني القعدة وزحف عليه وتسلمه بالامان ثم أمر بهدمه وعاد الى مصر وكان قد جهز اسطولا من عشر شواني لغزو قبرص فتكسرت في مرسى النيمسوس وأسر الفرنج من كان بتلك الشواني من المسلمين فاهتم السلطان بعمارة اسطول بدله

وفي سنة ٦٧٠ توجه الظاهر الى دمشق فاغارت التتر على عينتاب وعلى الروج وقيطون الى قرب فامية فاستدعى الظاهر عسكراً من مصر بقيادة بدر الدين البيسري فلما اتصل ذلك بالتتر عادوا من حيث أتوا ثم سار الظاهر بالعسكر الى حلب ومنها الى مصر فعاد التتر وحاصروا البيرة ونصبوا عليها المنجنيقات وضايقوها فتجند اليهم

بيبرس وسارت معه فرقه تحت قيادة الامير قلاوون الالفي فالتقى الجيشان عنـد بيرة واشتد الحرب بين المسلمين والتتر واراد عبور الفرات الى بر البيرة فقاتله التتر على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتر فرحلوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار بحالها فصـارت للمسلمين ثم عاد الظاهر الى الديار المصرية وفي هذه السنة أيضاً تسلمت نواب الملك الظاهر باقي حصون الاسماعيلية وهي الكهف والمينقه وقدموس

وفي سنة ٦٧٣ سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بجيوشه الى ارمينيا ففتحوها وغنموا منها غنائم كثيرة ثم عاد الى مصر ففرشوا له القاهرة بالبسط والسجاد الثمين احتفالا بعوده ظافراً

وفي سنة ٦٧٤ قـدم سوريا اباكا خان بن هولاكوخان وحاصر البيرة ثانيـة فلاقاه الامير قلاوون بفرقة من الجيوش المصرية وارجعه على اعقابه فسر بيبرس من بسالته واتخذ ابنته غازية خاتون زوجة لابنه السعيد بركة خان ليكون ابنه في المستقبل أمنا في حمى حميه ٠ وفي هذه السنة أيضاً ارسل الظاهر بيبرس الامـير اقسنقر ومعه عز الدين ايبك الافرم لافتتاح بلادالنوبة فافتتحا اصوان بعـد ان استوليا على جميع مصر العليا ٠ وفي هذه السنة أيضاً حارب بيبرس برقة وافتتحها

وفي رمضان سنة ٦٧٥ سار بيبرس بعساكره الجرارة الى الشام حتى وصل الى حلب ثم الى النهر الازرق ثم سار الى ابلستين فوصل اليها في القعدة والتقى بها جمعاً من التتر بقيادة تناون فتحارب الفريقان في أرض ابلستين يوم الجمعة عشرة القعدة فانهزم التتر واخذتهم سيوف المسلمين وقتل قائدهم تناون وغالب كبرائهم واسر منهـم جماعة كثيرة ثم سار الى بلاد الروم ثم عاد منها

﴿ وفاة الملك الظاهر بيبرس ﴾

في يوم الخميس ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ توفى الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات الصالحي النجمي بدمشق وقت الزوال عقب وصوله من بلاد الروم وسبب موته انه انكسف القمر كسوفاً كلياً وشاع بين الناس ان ذلك يدل على موت رجل جليل القدر فاراد الملك الظاهر ان يصرف التأويل الى غيره فاستدعى بشخص من اولاد الملوك الايوبية يقال له الملك القاهر ولد الملك الناصر داود بن المعظم عيسى وأحضر قمزاً (كاساً) مسموماً وأمر الساقي فسقا الملك القاهر وشرب بعده الملك الظاهر ناسيا فمات الملك القاهر عقيب ذلك واما الملك الظاهر فحصلت له حمى محرقة وتوفى في التاريخ المذكور وهكذا كانا قتيلي الخرافات قبحها الله ما اضعف

حجتها وما اشـد وطأتها وكتم نائبه ومملوكه بدر الدين تنليك المعروف بالخزندار موته وصبره وتركه في قلعة دمشق الى ان تمت تربته بدمشق قرب الجامع فدفن فيها وارتحل بدر الدين تنليك بالعساكر ومعهم المحفة مظهراً ان الملك الظاهر فيها وانه مريض حتى وصل الى ديار مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده بركة خان ولقبه الملك السعيد وجعله ولي عهده فوصل تنليك الخزندار بالخزائن والعسكر الى الملك السعيد بقامة الجبل وعند ذلك اظهر موت الملك الظاهر وجلس ابنـه الملك السعيد للعزاء • وكانت مدة حكمه ١٧ سنه وشهرين وعشرة أيام وكان ملكا جليلا مجولا كثير المصادرات لرعيته ودواوينه طويل القامة مليح الشكل سريع الحركة فارساً مقداماً • وترك من الذكور ثلاثة وهم السعيد محمد بركة خان وقد ملك بعـده وسلامش وهذا ملك بعده أيضاً والمسعود خضر • وترك من البنات سبعا • ومما فتح الله على يده من أيدي الصليبين قيسارية وارصوف وصفد وطـبرية ويافا والشقيف وانطاكية وبقراص والقصير وحصن الاكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلب وقد ناصفهم على المرقب وبانياس وطرسوس وادنة والمصيصة وغيرها من مدن بر الاناضول وصار الي يده مما كان في أيدي المسلمين دمشق وبعلبك وعجلون والبصرى وصرخـد • والصلت • وحمص وتدمر والرحبة وتل باشر • وصهيون • وبلاطس • وقلعة الكهف والقدموس • والعليقة والخوابي والرصافة • ومصياف • والقلعـة • والكرك • والشوبك وفتح بلاد النوبة وبرقة

﴿ اثار الملك الظاهر بيبرس ﴾

ومن أعماله المأثورة انه عمر الحرم النبوي وقبة الصخرة ببيت المقـدس وزاد في أوقاف الخليل وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية ومنار رشـيد وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وعمر الشواني وعمر قلعة دمشق وقلع الصبيبة وبعلبك والصلت وصرخد وعجلون وبصرى وشيزر وحمص وعمر المدرسـة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسينية وجعله الفرنساويون عند مجيئهم الى مصر قلعة وهو البناء القديم في سكة الظاهر وجعلته الحكومة مخازن للاقوات • وحفر خليج اسكندرية القديم وباشره بنفسـه وبنى هنالك قرية سماها الظاهرية وحفر بحر اشمون طناح وجدد الجامع الازهر بالقاهرة وأعاد اليه الخطبة وعمر بلد السعيدية بالشرقية بمصر وبنى القصر الابلق في دمشـق ومن اثاره في القاهرة

أيضاً قناطر السباع وهي عبارة عن سلسلة من قناطر ممتدة عرضاً من جوار فم الخليج الى قلعة الجبل ولا بد للمتوجه من القاهرة الى مصر القديمة من أن يقطعها هذا اذا لم يمر من عند فم الخليج فانه اذ ذاك يمر بجانب منشأها وهي تنتهي من طرفها الغربي بالسبع سواقي بجانب فم الخليج والسبع سواقي هو بنا قديم فيه سبعة دواليب لرفع المياه من النيل وتحويله الى قناة على ظهر هذه القناطر ليجري الماء فيه الى قلعة الجبل وجعل عليها سباعاً من الحجارة ولذلك قيل لها قناطر السباع والقناطر المذكورة لم يزل يوجد بعضها · وكان محباً لركوب الخيل الجياد ورمي النبال فانشاء ميداناً دعاه ميدان القبق ويقال له أيضاً الميدان الاسود وميدان العيد والميدان الاخضر وميدان السباق - وكان شاغلا بقعة من الارض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الجبل وبين قبة النصر التي هي تحت الجبل الاحمر وبنى فيه مصطبة سنة ٦٦٦ للاحتفال برمي النشاب والتمرين على الحركات العسكرية وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان فما بقي أمير ولا مملوك الا وهذا شغله ومابرح من بعده أولاده ومن بعدهم يمارسون هذا الميدان بجميع انواع الالعاب الحربية وكان يقوم بنفقات جميع هذه الاعمال بدون أن يسلب الاهالي درهماً واحداً فوق ما اعتادوا دفعه من الضرائب لان الغنائم التي كان يكسبها من اعدائه كانت تساعده كثيراً في النفقات

﴿ سلطنة الملك السعيد بركة خان ﴾

في شهر ربيع أول سنة ٦٧٦ بايعوا الملك السعيد بركة خان بالسلطنة بعد أبيه الظاهر بيبرس حسب وصيته وأقام بدر الدين تنليك الخزندار اتابكا وكان تنليك (باباي) في الاصل مملوكا ابتاعه بيبرس بثمن بخس الا انه ارتقى في خدمته حتى صار أمين خزائنه (خزندار) ثم استحق بعد طول الخدمة الصادقة الامينة أن يكون وصياً على ابنه في مهام السلطنة وكان للملك السعيد ثقة كبرى في تنليك حتى أنه القى اليه كل مهام الدولة فسعدت مصر في باديء الامر الا انها ما لبثت حتى تعكر كأس صفائها بوفاة ذلك الوصي الامين الحكيم ولم يكن الملك السعيد واثقاً باحد من امرائه ليعهد اليه مهام السلطنة لانه كان يظن انهم هم الذين سعوا في قتل وصيه ولكنه لم يتأكد ذلك فنفر منهم فوقع اختياره على اقسنقر فاتح النوبة فولاه الاتابكية وبعد يسير خنقه في احدى ابراج الاسكندرية فتباعد

الامراء عن هذا المنصب

﴿ سفر الملك السعيد والاغارة على ارمينية ﴾

في سنة ٦٧٧ سار الملك السعيد بركة خان الى الشام وصحبته العساكر فلما وصل الى دمشق جرد منها العساكر صحبة الامير سيف الدين قلاوون وجرد أيضاً صاحب حماه فساروا ودخلوا بلاد سيس (الارمن) وشنوا الغارة عليها وغنموا منها غنائم كثيرة ثم عادوا الى جهة دمشق واتفقوا على خلع الملك السعيد من السلطنة لسوء تدبيره وعبروا على دمشق ولم يدخلوها فارسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم ودخل عليهم بوالدته فلم يلتفتوا الى ذلك واتموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم الى مصر وطلع الى قلعة الجبل وسارت العساكر في اثره

﴿ خلع الملك السعيد بركة خان ﴾

وفي شهر ربيع أول سنة ٦٧٨ وصلت العساكر الخارجون عن طاعة الملك السعيد بركة خان وحصروه بقلعة الجبل فخامر عليه اكثر من كان معه من الامراء مثل لاجين الزيني وغيره وأخذوا يخرجون واحداً بعد واحد من القلعة وينضموا الى العسكر الذي يحاصرها فلما رأى الملك السعيد ذلك اجابهم الى الانخلاع من السلطنة وأن يعطى الكرك فاجابوه الى ذلك وانزلوه من القلعة وخلعوه في ربيع الاول وسفروه من وقته الى الكرك صحبة بيدعان الركني وجماعة معه فوصل اليها وتسلمها بما فيها من الاموال

﴿ سلطنة الملك العادل سلامش وخلعه ﴾

بعد خلع الملك السعيد كما تقدم اتفق اكابر الامراء مثل بدر الدين البيسري الشمسي وايتمش السعدي وبكتاش المحري امير السلاح وغيرهم على سلطنة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس ولقبوه الملك العادل وذلك في ربيع أول سنة ٦٧٨ وعمره اذ ذاك سبع سنين وشهور واقاموا الامير سيف الدين قلاوون الالفي وصياً عليه وخطب للعادل وضربت السكة باسمه . ولم يكن هم هذا الوصي الا خلع ذلك السلطان الصغير وفي شهر رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه الى قلعة الكرك منفياً واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعة فبايعه الناس ولقبوه بالملك المنصور .

﴿ سلطنة الملك المنصور قلاوون الالفي ﴾

ولما استوى قلاوون على كرسي السلطنة استوزر فخر الدين وكان كاتب سره الخصوصي وكان سنقر الاشقر بدمشق قد استقل بها وحلف له أمراؤها وعساكرها وتلقب بالملك الكامل وفي سنة ٦٧٩ جهز الملك المنصور قلاوون عساكر مصر مع علم الدين سنجر الحلبي وبدر الدين بكتاش وبدر الدين الايدمري وعز الدين الافرم فسارت العساكر المذكورة الى الشام وبرز سنقر الاشقر (الملك الكامل) بعساكر الشام الى ظاهر دمشق والتقى الفريقان في ١٩ صفر فولى سنقر وعساكره الشاميون منهزمين ونهبت العساكر المصرية أثقالهم واستولوا على دمشق وتولى عليها بامر الملك المنصور قلاوون مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار . ثم ان سنقر الاشقر كاتب اباكه خان ملك التتر أطمعه في تملك البلاد ثم سار سنقر واستولى على بعض البلاد السورية ثم تصالح مع الملك المنصور قلاوون وأعطاه بعض البلاد مثل الشغر وبكاس

﴿ محاربة التتر ﴾

وفي سنة ٦٨٠ خرج التتر الى سوريا بجيشين الواحد تحت قيادة اباكه خان بن هولاكو والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة أخيه منجوتيمور حتى وصلوا حمص فسار السلطان قلاوون بالجيوش الاسلامية من دمشق الى جهة حمص وأرسل الى سنقر الاشقر يستدعيه حسب اتفاق الصلح فسار سنقر من صهيون ثم وصل الى قلاوون الملك المنصور صاحب حماه ثم وصل سنقر ومعه ايتمش السعدي والحاج ازدمر وعلم الدين الدويداري ورتب السلطان قلاوون عسكره ميمنة وميسرة وكان رأس الميمنة الملك المنصور صاحب حماه ثم بدر الدين البيسري دونه ثم علاء الدين طيبرس الوزيري ثم ايبك الافرم ثم جماعة من العسكر المصري ثم عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين وكان رأس الميسرة سنقر الاشقر ثم بدر الدين ثم بدر الدين بكتاش أمير السلاح وكان بر الميمنة العرب وبر الميسرة التركمان وكان شاليش القلب حسام الدين طرنطاى ومن أضيف اليه والتقى الفريقان بظاهر حمص في الساعة الرابعة في يوم الخميس ١٤ رجب وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة من العساكر الاسلامية فهزموا من كان قبالتهم من التتر وركبوا قفاهم يقتلونهم وكان منجو تيمور قبالة القلب فانهزم أيضاً وأما ميسرة المسلمين

فانها انكشفت وتم ببعضها الهزيمة وساق التتر في اثرهم ثم علموا بنصرة المسلمين عليهم وهزيمة جيشهم فولوا منهزمين على أعقابهم فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ولما وصل خبر هذه الكسرة الى اباكه خان، وهو محاصر الرحبة رحل عنها وكتب بهذا الفتح الى جميع البلاد الاسلامية وسافرت العساكر الى بلادها وسافر السلطان قلاوون الى دمشق والاسرى بين يديه وأما منجوتيمور فانه مات بعد ايام وفر اباكه خان الى حمدان فسمه أخوه الثالث تيكودار أوغلان وتولى الحكم بعده وأظهر دين الاسلام ولقب بأحمد خان

﴿ فتح حصن المرقب من الصليبيين وغيره ﴾

في شهر ربيع اول سنة ٦٨٤ سار السلطان سيف الدين قلاوون بعساكره المصرية والشامية ونازل حصن المرقب (لجمعية القديس يوحنا المعمدان) وهو في غاية العلو والحصانة لم يطمع أحد من الملوك قبله في فتحه فلما زحف العسكر عليه أخذ الحجارون ينقبون فيه ونصبت عليه عدة منجنيقات ولما تمكنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهله الامان فاجابهم على ان يخرجوا بما يقدرون على حمله غير السلاح وتسلمه في يوم الجمعة ١٩ منه ونصبت الاعلام الاسلامية باعلاه وكان يوماً مشهوداً وأمر السلطان بحمل أهل حصن المرقب الى مأمنهم ثم قرر أمر الحصن ورحل عنه

وفي سنة ٦٨٥ أرسل السلطان قلاوون نائب سلطنته حسام الدين طرنطاي الى الكرك فحاصرها وتسلمها بالامان وعاد ومعه أصحاب الكرك جمال الدين خضر وبدر الدين سلامش أولاد الملك الظاهر بيبرس فاقاما بمصر مدة ثم اعتقلهما

وفي سنة ٦٨٦ أرسل السلطان قلاوون حسام الدين المذكور الى قلعة صهيون فحاصرها ونصب عليها المنجنيقات وضايقها فاجابه صاحبها سنقر الاشقر الى تسليمها بالامان في ربيع اول ثم سار طرنطاي الى اللاذقية وكان بها برج للصليبيين يحيط به البحر فحاصر البرج وتسلمه بالامان وهدمه ثم سار الى مصر وأرسل أيضاً في هذه السنة السلطان عسكراً بقيادة علم الدين سنجر المسروري المعروف بالخياط الى النوبة فساروا اليها وغزوها وغنموا وعادوا

وفي سنة ٦٨٧ توفي الملك الصالح علاء الدين علي ابن قلاوون وكان ولي عهده وسلطنته في حياته وكان مرضه بالدوسنطاريا فحزن عليه والده حزناً عظيما

﴿ ثورة المماليك وقتل الرعية ﴾

وتمرد المماليك ونبذوا الطاعة فغضب السلطان عليهم غضباً اعمى بصره حتى لم يعد يميز المجرم من البريء فساق الجميع بعصا واحدة وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام متوالية حتى غصت الاسواق بجثثهم رجالا ونساء وأولاداً . فجاء العلماء الى السلطان واخذوا يخففون من غيظه ويبينون له وجه عسفه فانتبه لما جاءه من الاستبداد الفاحش فندم ندماً لامزيد عليه وتكفيراً لذلك أمر ببناء البنايات والتكايا رحمة بالمساكين وذوي الاسقام ومن أجل ذلك أيضاً بنا ابنه الملك الناصر المستشفى الشهير المعروف بالبيمارستان . وكان المماليك الى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جمالهم فامر قلاوون أن يغير المماليك ملابسهم فنعهم من استعمال الوشي والزينة بالذهب وعن الضفائر الطويلة التي كانوا يجعلونها في اكياس من حرير وجعل حالتهم من اللباس وغيره كما تقتضيه حالة رجال الحرب

﴿ فتح طرابلس من الصليبيين ﴾

بعد وفاة ولده الصالح علاء الدين علي وحزنه عليه أمر بتجهيز حملة لافتتاح طرابلس من يد الصليبيين تسلية له عن هواجسه فسار بعساكره في محرم سنة ٦٨٨ الى ان وصل الى مدينة طرابلس فنازلها ونصب عليها عدة منجنيقات ولازمها بالحصار واشتد عليها بالقتال حتى فتحها يوم الثلاثاء ٤ ربيع آخر ودخلتها العسكر عنوة فهرب أهلها الى المينا فنجا بعضهم في المراكب وقتل أكثرهم وسبيت ذراريهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة وكان في البحر قريبا من طرابلس جزيرة يقطنها كثير من الصليبيين فاقتحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم الى الجزيرة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا جميع مابها من النساء والاولاد

﴿ وفاة الملك المنصور قلاوون وآثاره ﴾

بعدفتح طرابلس عاد الملك المنصورقلاوون الى الديار المصرية فجاءه وفد من قبل ملك اراغون الفونس عقد معه معاهدة في ١٣ ربيع أول سنة ٦٨٩ . ثم عزم على فتح مدينة عكا من الصليبيين . غير ان كل ذلك لم يكن ليشغله عن أحزانه وما زال كئيباً فأتاه مرض في العشر الاخير من شوال فتوفي يوم السبت ٦ القعدة سنة ٦٨٩ فاحتفل بجنازته احتفالا حضره جمع غفير من جهادية وملكية وشيعوه الى البيمارستان حيث واروه التراب ولا يزال مقامه هناك الى هذا العهد وكانت مدة حكمه

١١ سنة و ٣ أشهر و ٦ أيام

ومن آثاره الباقية الى هذا اليوم جامعه الشهير ومقامه وكلاهما داخلان في بناء البيمارستان الذي يشاهده المار في شارع النحاسين تجاه جامع الصالح نجم الدين أيوب بعد ان يتجاوز خان الخليلي ولا تزال هذه الابنية رغماً عن تكرار السنين قويمة العماد تتجلى فيها العظمة والقوة ومهارة الصناع الا البيمارستان فانه أصبح أقرب الى الاثر من العين. وفي مقام هذا السلطان مثل ما في غيره جماعات من النساء والاطفال هم في الغالب من ذوي الامراض جاءوا يطلبون الشفاء وهم يأتون في أيام السبت ولهم في ذلك أساليب مختلفة فبعضهم يضع الطفل المريض تحت المحراب ويجلس مصلياً وبعضهم يأتي بشيء من الليمون ويعصره على حجر هناك ثم يلحسه بلسانه طلباً للشفاء ومن أعماله ميدانه الذي عرف بالميدان السلطاني جعله في موضع بستان الخشاب حيث موردة البلاط وكان يتردد اليه كثيراً ولا يمر عليه من قلعة الجبل حتى يركب قناطر السباع فتضرر من علوها وقال لمن حوله اني عند ما أركب الى الميدان وأمر بهذه القناطر يتألم ظهري من علوها وأشاع بعضهم انه أراد بالحقيقة نزع آثار من كان قبله ليبقى الفخر له فامر بهدمها جميعها وبناها ثانية فبنيت ولكن السباع لم توضع عليها فعند ما رأى السلطان ذلك أمر باعادتها فاعيدت السباع الى أماكنها. ومما يحكى عنه انه كان يجعل في بناياته أماكن مخصوصة يضع فيها الحبوب طعاماً للطيور . وكان قلاوون سبباً لاخراج السلطنة من يد نسله كما كان الملك الصالح نجم الدين الايوبي باستكثاره من المماليك الشراكسة حتى جمع منهم نحواً من ١٢ الفاً جعل منهم بطانته وكان يلقب بعضهم بالالفي أي المبتاع بالف دينار وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك

﴿ سلطنة الملك الاشرف ﴾

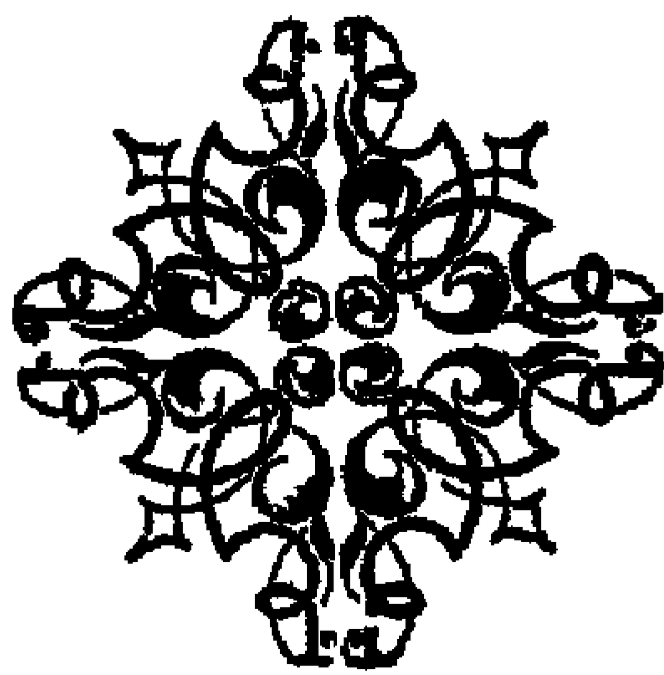
وتولى السلطنة بعد قلاوون ابنه البكر صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف وكان جلوسه في ٧ القعدة سنة ٦٨٩ ثم قبض على حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة وفوض نيابة السلطنة الى بدر الدين بيدرا والوزارة الى شمس الدين محمد بن السلقوس

﴿ في فتح عكا وانقراض الصليبيين ﴾

وفي سنة ٦٩٠ سار الملك الاشرف بالعساكر المصرية قاصداً عكا وارسل الى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور ومعهم المنجنيقات فتوجه الملك المظفر صاحب

حماه وعم الملك الافضل وعسكرهم الى حصن الاكراد وتسلموا منه المنجنيقات وكان هناك منجنيق عظيم يسمى المنصوري حمل مائة عجلة ثم ساروا الى ان وصلوا عكا فنزلت العساكر الاسلاميــة عليها (على عكا) في اوائل جماد الاولى واشتد عليها القتال ولم يغلق الصليبيون غالب ابوابها بل كانت مفتوحة وهم يقاتلون فيها فحاصر المسلمون المدينة ونصبوا عليها المنجنيقات وفي بعض الليالي خرج الصليبيون وكبسوا المسلمين فتكاثر عليهم المسلمون فولى الصليبيون منهزمين الى البـلد واشتدت مضايقة المسلمين لعكا حتى فتحوها عنوة في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخر بالسيف ولما فتحها المسلمون هرب جماعة من اهلها بالمراكب وغنم المسلمون من عكا شيئاً يفوق الحصر من كثرته ثم استنزل السلطان من تحصن بالابراج من الصليبيين وقتلهم ثم امر بهدم مدينة عكا ومن غرائب الاتفاق ان الصليبين استولوا على عكا من السلطان صلاح الدين الايوبي في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخر سـنة ٥٨٧ وقتلوا من بها فقدر الله عز وجل ان المسلمين يفتحونها في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخر سنة ٦٩٠ على يد السلطان الملك الاشرف صلاح الدين وقتل من فيها فكان التاريخان مثـل بعضهما كذلك لقب السلطانين . ولما فتحت عكا القى الله الرعب في قلوب جميع الصليبيين الذين بساحل الشام فاخـلوا صيداوبيروت وتسلمها الشجاعي في أواخر رجب وكذلك هرب اهل مدينة صور فتسلمها السلطان ثم تسلم عثليث في مستهل شعبان وفي ٥ منه تسلم طرسوس واتفق لهذا السلطان من السعادة مالم يتفق لغيره من فتح هـذه البلاد الصليبية بغير قتال وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية وانقرضت دولة الصليبيين من الشام والسـواحل بعد ان كانوا قد اشرفوا على أخذ الديار المصرية فلله الحمد والمنه

﴿ انتهى ﴾



الحمد لله اولاً وآخراً

بعون الله وحسن توفيقه قد تم طبع هذا الكتاب النفيس والسفر الجليل . الذي جمع من شتات الحروب الصليبية ماتفرق . ووعى ما عبثت به يد التبديل فكادان يتمزق . ولا غرو فهو اول كتاب وضع في العربية موضحاً اسماء من ورد ذكرهم في تلك الحروب بالضبط الشافي . والاعتناء الكافي . حتى جاء جليلا في الوضع جميلا بالطبع . لم ينسج له على منوال . ولم يسبق بمثال . تأليف حضرة الكاتب الاديب . والمنشئ الاريب . سيدافندي علي الحريري . حيث طرزه احسن تطريز . وجاء فيه بكل نادر عزيز . مرموقا بنظر صاحب السعادة والاقبال . والفخر والجلال . ذي المجد الباذخ . والشرف المؤثل الشامخ . من له الفضل الاعم . سعادتلو عبد السلام باشا المويلحي الانخم . شكر الله مسماه الجليل . وجزاه عن اهل الادب الجزاء الجميل . وقد بزغ بالطبع بدر تمامه . وفاح مسك ختامه . بالمطبعة العمومية . بمصر المحمية . في اوائل رجب سنة ثلاثمائة وسبعة عشر بعد الالف هجرية . على صاحبها ازكى السلام وابهى التحية .



اعتذار

من ذا الذي ترضي سجاياه كلها   كفى المرء نبلا ان تعد معائبه

وقعت سهواً بعض غلطات مطبعية في كتابنا هذا لاتخفى على الادباء فنرجو ممن يقع نظره على شيء من ذلك ان يسبل عليه ستر المعذرة فان العذر عند كرام الناس مقبول

وان تجد عيباً فسد الخللا   فجلّ من لاعيب فيه وعلا

﴿ فهرست ﴾

كتاب الاخبار السنية في الحروب الصليبية

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

﴿ تمت ﴾

اعلان

﴿ كتاب الاخبار السنية في الحروب الصليبية ﴾

بعون الله قد تم طبع هذا الكتاب وهو أول كتاب أنشئ في اللغة العربية بشأن الثمانية حروب صليبية من سنة ٤٩٠ ﻫ أي من دخول الصليبيين سوريا واستيلائهم على بلاد الشام لغاية سنة ٦٩٠ ﻫ أي لغاية انقراض الصليبيين من سوريا وتوضيح أسباب الحروب ونتائجها وتحريضات البابوات وتاريخ ملوك الاسلام وحروبهم مع الصليبيين مثل السلطان صلاح الدين الايوبي ومحاربته لملك الانكليز ريكاردوس الملقب بقلب الاسد والملك العادل وابنه الكامل والصالح نجم الدين أيوب وأسر لويس التاسع ملك فرانسا والسلطان الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وهو كبير الحجم يحتوي على ٣٠٠ صحيفة وثمنه كما يأتي بخلاف أجرة البريد وهي قرشين صاغ

١٥ صاغ معاب تعليقاً حسناً

٢٠ ١٧ « مجلد تجليد بيروتي جميلا

٢٩ « مجلد تجليد أفرنكي مذهب

فمن أراد الحصول عليه فليرسل قيمته لنا بمنزلنا نمرة ٧ بعطفة المطبعة بقنطرة الامير حسين بمصر أو بمنزل سعادتلو افندم عبد السلام باشا المويلحي أو بمخبز المعلم حسن شداد بشارع محمد علي · ويباع أيضاً بالمحلات الآتية

بالمطبعة العمومية الكائنة بشارع عبد العزيز بمصر

بمكتبة الترقي « « « « «

بدار البقالة المصرية بالعباسية

بدكان عبد السلام افندي الصبي البنان بالسكة الجديده

بدكان الأوسطى حسانين علي الشريف الترزي بالحمزاوي

كاتبه

سيد علي الحريري

4924
SIA